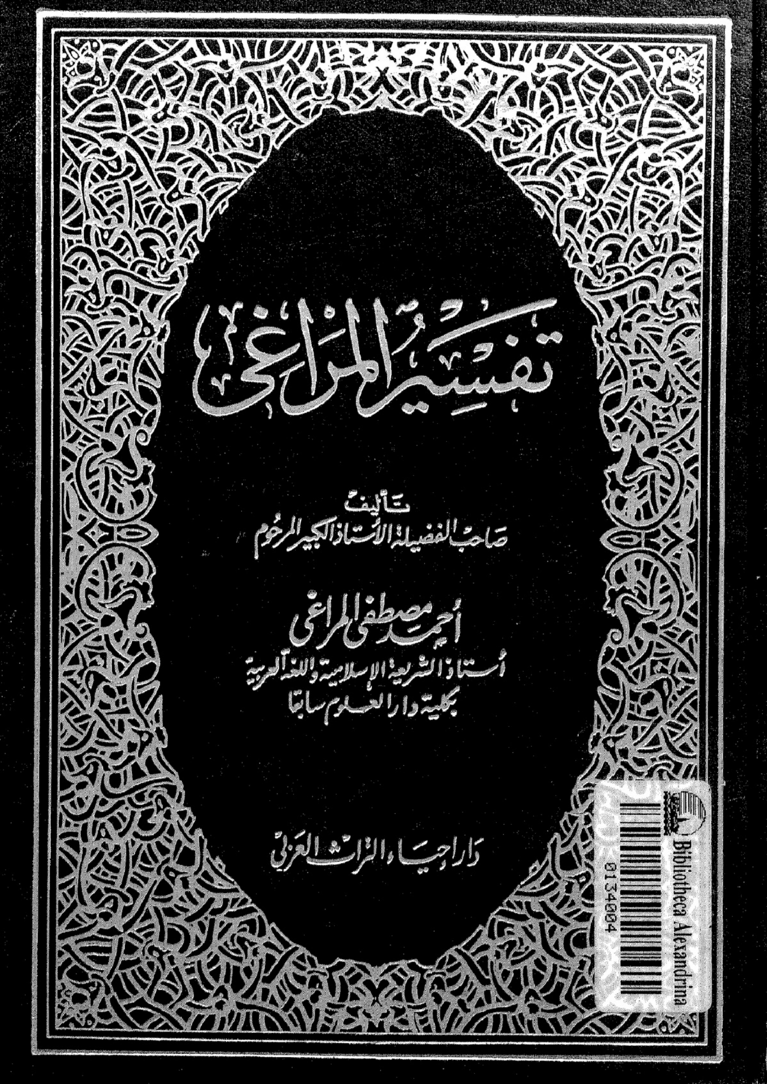

تفسير المراغي
تأليف
صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير المرحوم
أحمد مصطفى المراغي
أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا
دار إحياء التراث العربي
Bibliotheca Alexandrina
0134004

تفسير المراغى

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير المرحوم

أحمد مصطفى المراغى

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

الجزء الثالث عشر

دار إحياء التراث العربى
بيروت

الطبعة الثانية
١٩٨٥

الجزء الثالث عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣)

المعنى الجملى

هذه الآية الكريمة من تتمة إقرار امرأة العزيز كما اختاره أبو حيان فى البحر، ويؤيده عطفه على ما قبله، وقد جعلت أول الجزء الثالث عشر، لأن تقسيم القرآن إلى الأجزاء الثلاثين قد لوحظ فيه مقادير الكلم العددى دون المعانى.

الإيضاح

(وما أبرئ نفسى) أى وما أبرئ نفسى من دعوى عدم خيانتى إياه بالغيب بعد أن وجهت إليه اقتراف الذنب وقلت: «ماجزاء مَن أرادَ بأهلِكَ سُوءا إلاّ أنْ يُسجنَ أوْ عذابٌ أليمٌ»، وأودعته السجن وعرف الناس خاصتهم وعامتهم ذلك، وكأنها بذلك تريد التنصُّل مما كان.

(إن النفس لأمارة بالسوء) أى إن النفس البشرية لـكثيرة الأمر بعمل السوء ، لما فيها من دواعى الشهوات الجسمية والأهواء النفسية ، بما ركب فيها من القوى والآلات لتحصيل اللذات ، وما يوسوس الشيطان ويزيّنه لها من النزغات ، ومن ذلك أن حرّضتُ زوجى على سجن يوسف وقد كان ذلك مما يسوءه ، فالعفيف النزيه لا يرضى أن يُزَنَّ بالريبة كما يسوء زوجى ، إذ لا يرضى أن يكون عِرْضه مُضْغَة للأفواه ، وحديث الناس فى أنديتهم وأسمارهم .

(إلا ما رحم ربى) أى إلا نفسا رحمها ربى فصرف عنها السوء والفحشاء بعصمته كنفس يوسف عليه السلام .

ثم عللتْ ما سلف بقولها :

(إن ربى غفور رحيم) أى إن ربى عظيم المغفرة ، فيغفر ما يعترى النفوس بمقتضى طباعها ، إذ ركب فيها الشهوات الجسمية والأهواء النفسية .

تولية يوسف رئيسا لحكومة مصر

وما وقع لإخوته معه حينئذ

وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥)

المعنى الجملى

بعد انتهاء التحقيق فى أمر النسوة وظهور براءة يوسف من كل سوء ، طلب الملك إحضاره إليه من السجن بعد أن وفّى له بما اشترط لمجيئه ـ فلما جاءه وسمع كلامه فهم من فحوى حديثه ، ومن أمانته على مال العزيز وعرضه وحسن تصرفه ، ومن سيرته الحسنة

فى السجن ، ومن علمه وفهمه فى تأويله للرؤيا ، ومن حرصه على إظهار شرفه وكرامته فى مسألة النسوة ما دل على أنه أهل لأن يُرْفَع إلى أعلى المراتب ، ويُوَلَّى أسمى المناصب وذلك هو ما فعله الملك لحصافة رأيه وبصره بأقدار الرجال ، ولم يصرفه عن ذلك كونه غريبا أو فقيرا أو مملوكا ، كما تشير إلى ذلك الآيتان .

الإيضاح

(وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى) أى وقال الملك أحضروه من السجن إلىّ بعد أن وفَيْتُ له بما طلب : أجعله خالصا لى وموضع ثقتى ، فلا يشاركه أحد فى إدارة ملكى ولا تكون وساطة بينه وبينى . وقد جرت عادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفيسة خالصة لهم دون غيرهم ، قال ابن عباس : إن الرسول أتاه فقال ألق عنك ثياب السجن ، والبس ثيابا جُددا ، وقم إلى الملك ، فدعا له أهل السجن ودعا لهم وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة ، فلما أتاه رآه غلاما حَدَثا ، فقال أيعلم هذا رؤياى ولم يعلمها السحرة والكهنة؟ وأقعده قدامه ، وقال لاتخف وألبسه طوقا من ذهب وثيابا من حرير وأعطاه دابة مُسْرَجة مزيَّنة كدابة الملك وضُرِبَ الطبلُ بمصر ـ إن يوسف خليفة الملك .

(فلما كلمه قال : إنك اليوم لدينا مكين أمين) أى فأتوه به فلما كلمه وسمع ما أجاب به ، قال له إنك لدينا ذو مكانة سامية ، ومنزلة عالية ، وأمانة تامة ، فأنت غير منازَع فى تصرفك ، ولا متهَم فى أمانتك .

وفى هذا إيماء إلى أن الحوار بين المتخاطبين يُظْهِر معارف الإنسان وأخلاقه ، وآدابه وجميع شمائله ، فيقدره من يعرف أقدار الرجال ويزنهم بفضائلهم ومزاياهم .

والظاهر أن الملك كلمه مشافهة بدون تَرْجُمان ، لأن يوسف كان قد عرف اللغة المصرية من العزيز وامرأته بمحادثته إياهما ومع حاشية الوزير من حين قدم مصر ، ومن محادثته صاحبيه فى السجن .

وقد تكون اللغة التى كان يتكلم بها يوسف لغة جده إبراهيم وأولاده وحفدته وكانوا من العرب القحطانيين ثم تفرعت من هذه العربية الإسماعيلية فالمصرية والعبرانية

والسريانية ، وكان ملوك مصر وكبراء حكامها فى ذلك العهد من أولئك العرب وهم الذين يسمون بالرعاة (الهكسوس) .

ويقول المؤرخون إن ملك مصر فى ذلك العهد كان يسمى الوليد بن الريان .

(قال اجعلنى على خزائن الأرض) الخزائن واحدها خِزانة وهى ما تُخْزَن فيه غلات الأرض ونحوها ، أى قال ولِّنى خزائن أرضك كلها ، واجعلنى مشرِفا عليها ، لأنقذ البلاد من مجاعة مُقْبِلَة عليها تهلك الحرث والنسل .

ثم ذكر سبب طلبه فقال :

(إنى حفيظ عليم) أى إنى شديد الحفظ لما يُخْزَن فيها ، فلا يضيع منه شىء ، أو يوضع فى غير موضعه ، عليم بوجوه تصريفه وحسن الانتفاع به .

وقد طلب إدارة الأمور المالية ، لأن سياسة الملك وتنمية العمران وإقامة العدل فيه تتوقف عليها ، وقد كان مضطرا إلى تزكية نفسه فى ذلك حتى يثق به الملك ويركن إليه فى تولية هذه المهامّ .

وما أضاع كثيرا من الممالك الشرقية فى القرون الأخيرة إلا الجهل والتقصير فى النظام المالى وتدبير الثروة وحفظها فى الدولة والأمة .

روى أن الملك لما كلمه وقص عليه رؤياه وعبرها له ، قال ما ترى أيها الصدّيق ؟ قال تزرع فى سنى الخِصْب زرعا كثيرا وتبنى الخزائن وتجمع فيها الطعام بقصبه وسنبله فإنه أبقى له ، ويكون القصب علفا للدواب ، فإذا جاءت السنون العجاف بعتَ ذلك فيحصل لك مال عظيم ، فقال الملك ومَنْ لى بهذا ومن يجمعه ويبيعه لى ويكفينى العمل فيه ؟ قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم .

وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه إجابة الملك له بأنه أصبح لديه مكينا أمينا وطلب يوسف منه أن يجعله على خزائن الأرض يصرفها بحسب ما يرى من التدبير والنظام والدِّراية والإحكام .

ذكر هنا أنه أجابه إلى مطلبه وجعله وزيرا فى دولته يتصرف فى شئونها لحسن تدبيره وثاقب رأيه ، وذلك جارٍ على سنن الله فى خلقه ، فلن ينال الرياسات العليا ، والمناصب الرفيعة ، إلا من يؤتيه الله من المواهب ما يجعله قادرا على ضبط الأعمال وإقامة النظام وحسن السياسة والكياسة فى تصريف الأمور .

الإيضاح

(وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء) أى ومثل هذا التمكين الذى سلف ذكر أسبابه ومقدماته ، فقد ذكرنا أن إخوة يوسف لو لم يحسدوه ما ألقوه فى غيابة الجب ، ولو لم يلقوه لما وصل إلى عزيز مصر ، ولو لم يعتقد العزيز بفراسته وأمانته وصدقه لما أمَّنه على بيته وماله وأهله، ولو لم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم لما ظهرت نزاهته وعُرِف أمرها ، ولو لم تَخُبَّ فى كيدها وكيد صواحباتها ما أُلْقِي فى السجن لإخفاء هذا الأمر ، ولو لم يُسْجَن لما عرفه ساقى الملك وعرف علمه وفضله وصدقه فى تعبير الرؤيا ، ولو لم يَعرف ذلك منه الساقى ما عرفه ملك مصر ولم يجعله على خزائن الأرض ، فما من حلقة من هذه السلسلة إلا كانت متممة لما بعدها ، وبإذن الله كانت سببا للوصول إلى ما يليها ، فكلها فى بدايتها كانت شرا وخُسْرًا ، وفى عاقبتها فوزا ونصراً مبينا ، ومهدت للتمكين لدى ملك مصر .

فكما مكَّن له فى ذلك مكن له فى أرض مصر ، وقد جيء به مملوكا فأصبح مالكا ذا نفوذ وأمر ونهى لاينازعه منازع فيما يراه ويختاره ، وصار الملك يَصْدُر عن رأيه ولا يعترض عليه فيما يرى بما أعده الله تعالى له من تحلية بالصبر واحتمال الشدائد ، والأمانة والعفة وحسن التصرف والتدبير للأمور .

(نصيب برحمتنا من نشاء) أى نخص برحمتنا من إعطاء الملك والرياسة والغنى والصحة ونحوها من نشاء من عبادنا، بمقتضى ما وضعنا من السنن فى الأسباب الكسبية مع موافقتها للأحداث الكونية، ومراعاة النظم الاجتماعية، والفضائل الخلقية.

(ولا نضيع أجر المحسنين) أى ولا نضيع أجر من أحسنوا فى أعمالهم بشكران هذه النعم، بل نأجرهم عليها سعادة وهناءة، وقد بذلنا تلك النعم لمن يطلبها متى أتى الأمور من أبوابها، وسار على مقتضى السنن التى وضعناها.

أما من يسيئون التصرف فيها فتصيبهم المنغصات، وتتوالى عليهم المكدِّرات؛ فالمسرفون لايلبثون أن ينالهم الفقر والعُدْم، والظالمون يثيرون أضغان المظلومين، وذوو الخيلاء والبطر يكونون محتقَرين، وقلما يصيب المحسنين الشاكرين من ذلك شىء وإن نالهم منه شىء يكن هينًا عليهم وهم عليه صُبُرٌ.

وفى الآية إيماء إلى أنه ما أضاع صبر يوسف على أذى إخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز بل كان جزاؤه ما مَكَّنَ له فى الأرض ولدى ملك مصر:

(ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) أى إن أجر الآخرة وهو نعيمها يكون للمؤمنين المتقين، وهو خير لهم من أجر الدنيا لأهلها وإن بلغوا سلطان الملك، فإنّ ما أعده لأولئك ليتضاءل أمامه كل ما فيها من مال وجاه وزينة، ولا شبهة فى أن من يجمعون بين السعادتين يكون فضل الله عليهم أعظم، إذ هم أعطَوْا حقها من الشكر وقاموا بما يجب عليهم نحو خالقهم من طاعته وترك معصيته.

روى الشيخان عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: «قال فقراء المهاجرين للنبى صلى الله عليه وسلم يارسول الله ذهب أهل الدثور (واحدها دثر بالفتح: المال الكثير) بالدرجات العلى والنعيم المقيم، قال ما ذاك؟ قالوا يُصَلُّون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون كما نتصدق ويُعْتِقون ولا نُعْتِق، قال صلى الله عليه وسلم: أفلا أعلمكم شيئا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم، إلا من

صنع مثلكم ؟ قالوا بلى يا رسول الله قال : تُسبِّحون وتكبِّرون وتحْمَدون الله دُبُرَ كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة » قال أبو صالح : فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (٥٨) وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلاَ تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)

تفسير المفردات

المعرفة والعرفان : معرفة الشيء بتفكر فى أثره ، وضده الإنكار ، وجهزهم : أى أوقر ركائبهم بما جاءوا لأجله ، وجهاز السفر : أهبته وما يحتاج إليه فى قطع المسافة ، ومثله جهاز الميت والعروس (بالكسر والفتح وبهما قرئ) أوفى الشيء : جعله وافيا تاما ، المنزلين : أى المضيفين للضيوف ، نراود : أى نخادع ونستميل برفق ، لفاعلون : أى لقادرون على ذلك ، لفتيانه : أى غلمانه الكيالين ، بضاعتهم : أى التى اشتروا بها الطعام وكانت نعالا وأدما ، والبضاعة : المال الذى يستعمل للتجارة ، والرحال : واحدها رحل : وهو مايوضع على ظهر الدابة وفوقه متاع الراكب وغيره ، وانقلبوا : أى رجعوا .

المعنى الجملى

جاء فى سفر التكوين من التوراة أن يوسف عليه السلام حين ولى الوزارة طفق

يُعِد العُدة ويأخذ الأهْبَة لتنفيذ التدابير التي يقي بها البلاد من خطر المجاعة التي جاءت في تأويل رؤياه للملك ، وكان من ذلك أن بنى الأهراء العظيمة وخزن فيها الحبوب التي استكثر منها مدة سني الخصب السبع الأولى ، فلما جاءت السبع الشداد وعم القحط مصر وغيرها من الأقطار القريبة منها ولا سيما أقربها إليها وهي فلسطين من بلاد الشام ، واشتهر لدى أهلها ما فعله يوسف في مصر من حسن التدبير حتى كثرت فيها الغلال وأصبح يبيع ما زاد على حاجة أهلها للأقطار المجاورة لها أمر يعقوب عليه السلام أولاده أن يرحلوا إلى مصر ويأخذوا معهم مايوجد في بلادهم من بضاعة ونقدِ فضةٍ ويشتروا به قمحا لأن المجاعة أوشكت أن تقضي عليهم فنفَّذوا ما أراد وكان بينهم وبين يوسف ما قصه الله علينا في كتابه الكريم .

الايضاح

(جاء إخوة يوسف) ممتارين حين أصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب مصر ، وكان قد حل بآل يعقوب ماحل بأهلها فدعا أبناءه ماعدا بنيامين فقال لهم يا بَنِيّ قد بلغني أن بمصر ملكا صالحا يبيع الطعام فتجهزوا إليه واقصدوه واشتَرُوا منه ما تحتاجون إليه فخرجوا حتى قدموا مصر .

(فدخلوا عليه) وهو في مجلس ولايته ، لأن أمر الميرة وشراء الغلال كان بيده ورهن أمره .

(فعرفهم) حين دخلوا عليه بلا تردد ، إذ كان عددهم وشكلهم وزِيُّهم لايزال عالقا بخياله لنشوئه بينهم ولا سيما ما قاساه منهم في آخر عهده بهم ، وربما كان عمال يوسف وعبيده قد سألوهم عن أمرهم قبل أن يُدْخِلوهم عليه وأخبروه بأوصافهم والبيئة التي رحلوا منها .

(وهم له منكرون) لنسيانهم له بطول العهد ، وتغير شكله بدخوله في سن الكهولة ولما كان عليه من عظمة الملك وزِيِّه وشارته ، وما كان من حاجتهم إلى بِرِّه وعطفه .

فكل أولئك مما يحول دون التثبت من معارف وجهه ، ولاسيما أنهم كانوا يظنون أنه قد هلك أو طوّحت به طوائح الأيام ، ولو كانوا قد فطنوا لبعض ملامحه وتذكروه بها لربما عدوه مما يتشابه فيه بعض الناس ببعض العادات ، وبخاصة أنه لم يكن يدور بخلدهم أن أخاهم قد وصل إلى ذلك المركز السامى .

(ولما جهزهم بجهازهم) أى ولما أوقر ركائبهم بما جاءوا لأجله من الميرة والطعام وجهزهم بما سوى ذلك من الزاد وبما يحتاج إليه المسافرون عادة على قدر طاقتهم وبيئتهم.

(قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم) هو شقيقه بنيامين ، وسبب ذلك أن يوسف ما كان يعطى لأحد إلا حمل بعير ، وقد كان إخوته عشرة فأعطاهم عشرة أحمال فقالوا إن لنا أبا شيخاً كبيراً وأخا آخر بقى معه ، وإن أباهم لتقدم السن به وشدة حزنه لايستطيع الحضور ، وإن أخاهم بقى فى خدمة أبيه ، ولابد لهما من شىء من الطعام فجهز لهما بعيرين آخرين ، وقال لهم جيئونى بأخيكم لأراه .

وفى سفر التكوين أنه كان استنبأهم عن أنفسهم متنكرا لهم ، إذ عرفهم ولم يعرفوه واتهمهم بأنهم جواسيس جاءوا ليروا عورة البلاد ، فأنكروا ذلك وأخبروه خبرهم ، فقالوا نحن عبيدك اثنا عشر أخا ونحن بنو رجل واحد فى أرض كنعان ، وهذا الصغير عند أبينا اليوم ، والواحد مفقود ، فقال لهم يوسف ، ذلك ما كلمتكم به قائلا ، جواسيس أنتم ، بهذا تمتحنون ، وحياة فرعون لاتخرجون من هنا إلا بمجىء أخيكم الصغير إلى هنا . فدعوا رهينا عندى وأتونى بأخيكم من أبيكم ، فاقترعوا فأصابت القرعة شمعون فخلفوه عنده . ثم أمر يوسف أن تملأ أوعيتهم قمحاً وترد فضة كل واحد إلى عدله وأن يعطوا زادا للطريق ، ففعل لهم هكذا اه .

(ألا ترون أنى أوفى الكيل) أى أتمه ولا أبخسه وأزيدكم حمل بعير لأجل أخيكم.

(وأنا خير المنزلين) أى وأنا على هذا خير المضيفين لضيوفه ، فقد أحسن ضيافتهم وجهزهم بالزاد الكافى لهم مدة سفرهم ومن هذا يعلم أن رواية اتهامهم بالتجسس ضعيفة على كونها لاتليق بمن دون الصديق النبى وهو يعلم بطلانها ، إلا أن تكون ذريعة لغرض صحيح كاتهامهم بالسرقة .

(فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى) أى فإذا عدتم تمتارون لأهلكم ولم يكن معكم مُنِعْتُمْ من الكيل فى بلادى فضلا عن إيفائه وإكماله الذى كان لكم بأمرى .

(ولا تقربون) أى ولا تقربونى بدخول بلادى فضلا عن الإحسان فى الإنزال والضيافة .

وفى ذلك إيماء إلى أنهم كانوا على نية الامتيار مرة بعد أخرى ، وأن ذلك كان معلوما له عليه السلام ، والظاهر أن مافعله معهم كان بوحى ، وإلا فالبرّ كان يقتضى أن يبادر إلى أبيه و يستدعيه، ولعل الله أراد تكميل أجر يعقوب فى محنته ، وهو الفعال لما يريد فى خلقه .

(قالوا سنراود عنه أباه) أى سنجتهد ونحتال على أن ننزعه من يده ونحوّله عن إرادته فى إبقائه عنده إلى إرادتنا وإرادتك ، ونقنعه بإرساله معنا كما تحب .

(وإنا لفاعلون) ذلك لامحالة ولا نتوانى فيه .

(وقال لفتيانه) أى غلمانه الكيالين .

(اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم) أى اجعلوا بضاعتهم التى اشتروا بها الطعام، وكانت نعالا وجلودا ، فى أمتعتهم من حيث لايشعرون :

(لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم) أى لكى يعرفوا لنا حق إكرامهم بإعادتها إليهم وجعل ماأعطيناهم من الغلة مجانا بلا ثمن ، إذا هم رجعوا إلى أهلهم وفتحوا متاعهم فوجدوها فيه .

ثم علل معرفتهم للبضاعة المردودة إليهم بقوله :

(لعلهم يرجعون) إلينا طمعا فى برنا ، فإن العَوَز إلى القوت من أقوى الدواعى إلى الرجوع :

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ

إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ ؟ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٣٤)

الايضاح

(فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا ياأبانا منع منا الكيل) أى قالوا حين رجوعهم إلى أبيهم : إن عزيز مصر أصدر أمره بمنع الكيل لنا فى المستقبل إن لم نحضر معنا أخانا بنيامين فقال : (إن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى) .

(فأرسل معنا أخانا نكتل) من الطعام مانحتاج إليه بقدر عددنا ونكون قد وفينا له بما شرط علينا ، والعرب تقول كلت له الطعام إذا أعطيته ، واكتلت منه وعليه إذا أخذت منه أو توليت الكيل بنفسك .

(وإنا له لحافظون) فى ذهابه وإيابه ، فلا يناله مكروه تخافه ، وكأنهم كانوا يعتقدون أن أباهم لابد أن يرفض إجابتهم خوفا عليه من أن يحدث له مثل ماحدث ليوسف بدافع الحسد من قبل ، فكان جوابه لهم ماحكى الله سبحانه عنه .

(قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل) أى هل أنتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل ، تغيّبونه عنى وتحولون بينى وبينه ، وقد قلتم مثل هذا الكلام فى يوسف إذ ضمنتم حفظه وقلتم (وإنا له لحافظون) ثم خنتم فى عهدكم وكذبتم فأضعتم يوسف ، فأنتم لايوثق لكم بوعد ، ولايُطْمَأَنُّ منكم إلى عهد ، فما أشبه الليلة بالبارحة .

(فالله خير حافظا) أى فأنا أتوكل على الله فى حفظ بنيامين لاعلى حفظكم .

(وهو أرحم الراحمين) فأرجو أن يرحمنى بحفظه ، ولايبتلينى بفقده ، كما ابتلانى من قبل بفقد أخيه يوسف ، فرحمته واسعة ، وفضله عظيم .

وهذا كما ترى ، فيه ميل منه إلى الإذن والإرسال ، لما رأى من شدة الحاجة إلى ذلك ، ولأنه لم ير فيما بينهم وبين بنيامين من الحقد والحسد مثل ماشاهد بينهم وبين يوسف ، وفيه من التوكل على الله مالا خفاء فيه .

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي ؟ هٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ (٦٥) قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ، فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦)

تفسير المفردات

المتاع : ماينتفع به والمراد هنا وعاء الطعام ، والبضاعة : ثمن ما كانوا أعطوه من الطعام ، ونمير أهلنا : أى نجلب لهم الميرة (بالكسر) وهى الطعام يجلبه الإنسان من بلد إلى بلد ، كيل بعير : أى حمل جمل ، فكيل بمعنى مكيل ، ويسير : أى قليل لايكثر على سخائه كما جاء فى قوله: « وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلاَّ يَسِيراً » أوسهل لاعسر فيه كما فى قوله : « وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيراً » والموثق : العهد الموثّق ، إلا أن يحاط بكم: أى إلا أن تُغلَبوا على أمركم ، أو إلا أن تهلكوا ، فإن من يحيط به العدو يهلك غالبا ، وكيل: أى مطلع رقيب ، فإن الموكّل بالأمر يراقبه ويحفظه .

الايضاح

(ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم) أى ولما فتحوا أوعية طعامهم وجدوا فيها ما كان أعطَوْه من بضاعة ونقد ثمنا لما اشترَوْه من الطعام ، إذ أن يوسف أمر فتيانه أن يضعوها فى رحالهم وهم لايعلمون ذلك .

(قالوا ياأبانا مانبغى ؟) أى ماذا نطلب وراء ماوصفنا لك من إحسان الملك إلينا وكرمه الذى يوجب علينا امتثال أمره ومراجعته فى الحوائج ، وقد كانوا حدّثوا أباهم

بذلك على ماروى أنهم قالوا له إنا قدمنا على خير رجل وقد أنزلَنا خير منزل وأكرم وفادتنا ولو كان رجلا من آل يعقوب ماأكرمنا كرامته .

ثم أكدوا صدق كلامهم بقولهم :

(هذه بضاعتنا ردت إلينا) أى إن مانقول فى وصفه ، ومزيد إحسانه ولطفه ، لنا من شواهد الحال ماهو دليل عليه ، فهذه بضاعتنا ردت إلينا تفضلا منه بعد أن أثقل كواهلنا بعظيم مننه وجميل عطفه .

وهم بهذا يؤمنون إلى أن ذلك كاف فى وجوب امتثال أمره والالتجاء إليه طلبا للمزيد من فضله ، فكل ماجئنا به على غلائه وعظم قيمته هو هبة منه وتفضل علينا .

(ونمير أهلنا) أى فنحن ننتفع ببضاعتنا ونمير أهلنا بما نجلبه لهم من الميرة من مصر بلا ثمن .

(ونحفظ أخانا) بعنايتنا جميعا به ، على أننا لانخشى شيئا من المخاوف التى تغلبنا عليه .

(ونزداد كيل بعير) أى ونزيد على ما نأخذ لأنفسنا حمل جمل يكال لأخينا ، لأن يوسف كان يكيل لكل رجل حملَ بعير اقتصادا فى الطعام ، فإذا حضر بنيامين زاد حملا له .

(ذلك كيل يسير) أى إن حمل البعير كيل سهل لاعسر فيه على ذلك المحسن الجواد ، أو هو قليل لايكثر على سخائه وجوده ولا يشق عليه .

(قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله) أى لن أرسله معكم حتى تعطونى عهدا موثَّقاً بتأكيده بإشهاد الله عليه بالقسم به .

(لتأتننى به إلا أن يحاط بكم) أى حتى تحلفوا بالله لترجعُنّ به على كل حال تعرض لكم ، إلا أن تهلكوا فيكون ذلك عندى عذرا على نحو ما جاء فى قوله : « وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ » وقوله : « وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ » وقد يكون المعنى — إلا أن تُغْلَبُوا على أمركم وتقهروا فلا تقدرون على الرجوع .

(فلما آتوه موثقهم قال الله على مانقول وكيل) أى فلما أعطَوْه العهد الموثق الذى اشترطه عليهم ، قال : الله شهيد على ما قاله واشترطه ، وعلى ما أجابوه به : أى إنه سبحانه رقيب عليه وأمره موكول إليه ، فهو الذى يوفق للوفاء بالوعد والصدق فيما أعطوه من عهد .

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ ، إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا ، وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٦٨)

الإيضاح

(وقال يابنى لاتدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) أى وقال لهم يابنى لاتدخلوا على هذا الوزير الكريم من باب واحد من أبواب الوصول إليه ، بل ادخلوا عليه متفرقين من أبواب متعددة ، لتروا بأعينكم ما يكون من تأثير كل طائفة منكم فى نفسه وما يظهر على أسارير وجهه وحركات عينيه حين رؤية شقيقه يدخل عليه مع طائفته ، إذ لايُعْلم هذا إذا دخلوا عليه كلهم جماعة واحدة .

وقد يكون المراد لاتدخلوا عليه مجتمعين فيحسدكم الحاسدون أو يكيد لكم الكائدون ، فإذا حل بكم مكروه خشيت أن يصيبكم جميعا .

(وما أغنى عنكم من الله من شىء) أى وما أدفع عنكم بتدبيرى من قضاء الله شيئا ، إذ لايغنى حَذَر من قدر ، وهو لايريد إلغاء الحذر بتاتا ، فإنه تعالى أمر به وقال « خُذُوا حِذْرَكُمْ » بل يريد أن هذا التدبير إنما هو تشبث بالأسباب العادية التى

لاتؤثر إلا بإذن الله تعالى ، وأن ذلك ليس بدافع للقدَر بل هو استعانة بالله تعالى وهرب منه إليه .

(إن الحكم إلا لله) أى ما الحكم فى تدبير العالم ونظم الأسباب والمسببات إلا لله وحده .

(عليه توكلت) أى عليه دون غيره ، ودون حولى وقوتى اعتمدت فى كل ما آتى وأذر .

وفى هذا إيماء إلى أنّ الأخذ فى الأسباب ومراعاة اتباعها لاينافى التوكل، وقد جاء فى الخبر « اعقلها وتوكل » .

(وعليه فليتوكل المتوكلون) لاعلى أمثالهم من المخلوقين ولا على أنفسهم .

فعلى كل مؤمن أن يتخذ لكل أمر يُقْدِم على عمله العدّة ، ويهيئ من الأسباب ما يوصل إليه على قدر طاقته ، ثم بعد ذلك يكل أمر النجاح فيه إلى الله ويطلب منه التوفيق والمعونة فى إنجازه ، فقد يكون من الأسباب مايخفى عليه أو مالاتصل إليه يده .

(ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم) وهى الأبواب المتفرقة .

(ما كان يغنى عنهم من الله من شىء) أى ما كان دخولهم على هذا النهج يدفع عنهم شيئا من المكروه الذى يحول دون رجوعهم ببنيامين ، ونسبتهم إلى السرقة ، وتضاعف المصيبة على يعقوب .

(إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها) أى إن يعقوب كان عليما بأن الحذر لايغنى من القدر ، ولكن كانت هناك حاجة تدور بخلده ، ما أراد أن يكاشف بها أحدا منهم وهى وراء الأسباب العادية فى الاحتياط بسلامة بنيامين والعودة به ، قضاها بوصيته لأولاده من حيث لايفطنون لها ، وهى خوفه عليهم من العين ومن أن ينالهم مكروه من قِبَل ذلك .

(وإنه لذو علم لما علمناه) أى وإنه لذو علم خاص به وبأمثاله من الأنبياء ، لما أعطيناه من علم الوحى وتأويل الرؤيا الصادقة ، واعتقاده أن الإنسان يجب عليه

فى كل أمر يحاوله أن يتخذ له من الأسباب ما يصل به إلى غرضه و يبلغ به إلى غايته ، ثم يتوكل بعد ذلك على الله فى تسخير مالم يصل إليه علمه مما لاتتم المقاصد بدونه .

(ولكن أكثر الناس لايعلمون) أن الواجب الجمع بين أخذ العُدّة والسعى فى تحقيق الأسباب الصحيحة الموصلة إلى المراد ، وبين الاتكال على الله وهو مافعله يعقوب عليه السلام ، ولا يكفى تحقق الأسباب وحدها للحصول عليه .

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّى أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ؟ (٧١) قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ؟ (٧٤) قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِى رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ (٧٥) فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ، كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ، نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) .

تفسير المفردات

آوى إليه : أى ضم إليه ، والابتئاس : اجتلاب البؤس والشقاء ، والسقاية (بالكسر) وعاء يسقى به ، و به كان يكال للناس الطعام و يقدر بكيلة مصرية $\frac{1}{12}$

من الإردب المصرى ، وهو الذى عبر عنه بصواع الملك ، وأذن مؤذن : أى نادى مناد، من التأذين وهو تكرار الأذان والإعلام بالشيء الذى تدركه الأذن ، والعير : الإبل التى عليها الأحمال والمراد أصحابها ، زعيم : كفيل أجعله جزاء لمن يجيء به ، الكيد : التدبير الذى يخفى ظاهره على المتعاملين به حتى يؤدى إلى باطنه المراد منه ، ودين الملك: شرعه الذى يدين الله تعالى به .

الايضاح

(ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه) أى ولما دخلوا عليه فى مجلسه الخاصّ بعد دخولهم باحة القصر من حيث أمرهم أبوهم ، ضم إليه أخاه الشقيق بنيامين ، وقد حصل ما كان يتوقع يعقوب أو فوق ما كان يتوقع من الحدَب عليه والعناية التى خصه بها .

(قال إنى أنا أخوك) يوسف الذى فقدتموه صغيرا .

(فلا تبتئس بما كانوا يعملون) أى فلا يلحقنك بعد الآن بؤس أى مكروه ولا شدة بسبب ما كانوا يعملون من الجفاء وسوء المعاملة بحسدهم لى ولك .

روى أنهم قالوا له : هذا أخونا قد جئناك به ، فقال لهم أحسنتم وأصبتم ، وستجدون أجر ذلك عندى ، فأنزلهم وأكرمهم ، ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقى بنيامين وحده فبكى وقال لو كان أخى يوسف حيا لأجلسنى معه ، فقال يوسف بقى أخوكم وحيدا ، فأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله ، وقال أنتم عشرة فلينزل كل اثنين منكم بيتا (حجرة) وهذا لاثانى له فيكون معى ، فبات يوسف يضمه إليه ويَشمُّ رائحته حتى أصبح وسأله عن ولده ، فقال لى عشرة بنين اشتققت أسماءهم من اسم أخ لى هلك فقال له : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟ قال من يجد أخا مثلك ؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل ، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وقال له : إنى أنا أخوك الخ .

(فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه) أى فلما قضى لهم حاجتهم ووفاهم كيلهم جعل الإناء الذى يكيل به الطعام فى رحل أخيه .

وفى قوله : جعل السقاية ، إيماء إلى أنه وضعها بيده ولم يكِلْ ذلك إلى أحد من فتيانه كتجهيزهم الأول والثانى لئلا يطلعوا على مكيدته .

(ثم أذن مؤذن) أى وقد افتقد فتيانه السقاية ، لأنها الصواع الذي يكيلون به للممتارين فلم يجدوها ، فأذن مؤذنهم بذلك أى كرر النداء به كدأب الذين ينْشُدون المفقود فى كل زمان ومكان قائلا :

(أيتها العير إنكم لسارقون) أى ياأصحاب العير قد ثبت عندنا أنكم سارقون ، فلا ترحلوا حتى ننظر فى أمركم .

(قالوا : وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون ؟) أى قال إخوة يوسف المؤذن ومن معه : أى شىء تفقدون ، وما الذى ضل عنكم فلم تجدوه ؟ .

(قالوا نفقد صواع الملك) أي نفقد الصواع الذى عليه شارة الملك .

(ولمن جاء به حمل بعير) أى ولمن أتى به حمل جمل من القمح ، وفى هذا دليل على أن عيرهم كانت الإبل لا الحمير .

(وأنا به زعيم) أى قال المؤذن وأنا كفيل بحمل البعير ، أجعله حُلوانا لمن يجىء به ، سواء أكان مفقودا أم جاء به غير سارقه .

(قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين) أى قالوا لقد علمتم بما خبَرتموه من أمرنا وسيرتنا من حين مجيئنا فى امتيارنا الأول وحين عودتنا إذ رددنا بضاعتنا التى ردت إلينا مع غيرها ، أننا ماجئنا لنفسد فى أرض مصر بسرقة ولاغيرها مما فيه تعدّ على حقوق الناس .

(قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين) أى قال فتيان يوسف لهم فما جزاء سارقه إن كنتم كاذبين فى جحودكم للسرق وادعائكم البراءة والنزاهة ؟ .

(قالوا جزاؤه من وجد فى رحله) أى جزاؤه أخذ من وجد فى رحله وظهر أنه هو السارق له وجعله عبدا لصاحبه ، وقوله :

(فهو جزاؤه) تقرير للحكم السابق وتأكيد له بإعادته ، كما تقول حق الضيف أن يكرم ، فهو حقه ، والقصد من الأول إفادة الحكم ، ومن الثانى إفادة أن ذلك هو الحق الواجب فى مثل هذا ، وقد كان الحكم فى شرع يعقوب أن يسترقّ السارق سنة .

(كذلك نجزى الظالمين) أى مثل هذا الجزاء الأوفى نجزى الظالمين للناس بسرقة أمتعتهم وأموالهم فى شريعتنا ، فنحن أشد الناس عقابا للسراق .

وهذا تأكيد منهم بعد تأكيد لثقتهم ببراءة أنفسهم .

(فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه) أى فبدأ يوسف بتفتيش أوعيتهم التى تشتمل عليها رحالهم ابتعادا عن الشبهة وظن التهمة بطريق الحيلة .

(ثم استخرجها من وعاء أخيه) أى ثم إنه بعد أن فرغ من تفتيش أوعيتهم فتش وعاء أخيه فأخرج السقاية منه .

(كذلك كدنا ليوسف) أى مثل هذا الكيد والتدبير الخفىّ كدنا ليوسف ، وألهمناه إياه ، وأوحينا إليه أن يفعله .

ذلك أن الحكمة الإلهية اقتضت تربية إخوة يوسف وعقابهم بما فرطوا فى يوسف واستحقاقهم إتمام النعمة عليهم يتوقف على أخذه بطريق لاجبر فيه ولا تقتضيه شريعة الملك ، وبه يذوقون ألم فراق بنيامين ومرارته ، فيما لا لوم فيه على أحد غير أنفسهم ، ولن يكون هذا الحكم منهم إلا بوقوع شبهة السرقة على بنيامين من حيث لايؤذيه ذلك ولا يؤلمه ، وقد أعلمه أخوه يوسف به وبغايته . وفى هذا إيماء إلى جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بما ظاهره الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف شرعا ثابتاً .

ثم علل ما صنعه الله من الكيد ليوسف بقوله :

(ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك) أى وما كان له ولا مما تبيحه أمانته لملك مصر أن يخالف شرعه الذى فوض له الحكم به وهو لايبيح استرقاق السارق ، فما كان

بالميسور له أخذ أخيه من إخوته ومنعه من الرحيل معهم إلا بحكمهم على أنفسهم بشريعة يعقوب التي تبيح ذلك .

ولما كانت هذه الوسيلة إلى تلك الغاية الشريفة منكرة بحسب الظاهر ، لأنها تهمة باطلة ، وكان من شأن يوسف أن يتباعد عنها و يتحاماها إلا بوحى من الله — بين أنه فعل ذلك بإذن الله ومشيئته فقال :

(إلا أن يشاء الله) أى إنه فعل ذلك بإذن الله ووحيه ، لا أنه هو الذى اخترع هذه المكيدة .

(نرفع درجات من نشاء) أى نرفع من نشاء درجات كثيرة فى العلم والإيمان ونريه وجوه الصواب فى بلوغ المراد ، كما رفعنا درجات يوسف على إخوته فى كل شىء . وفى هذا إيماء إلى أن العلم أشرف المقامات ، وأعلى الدرجات .

(وفوق كل ذى علم عليم) أى وفوق كل عالم من هو أوسع إحاطة منه وأرفع درجة ، إلى أن يصل الأمر إلى من أحاط بكل شىء علما وهو فوق كل ذى علم .

وخلاصة ذلك — إن إخوة يوسف كانوا علماء إلا أن يوسف كان أعلم منهم .

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ، فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ، قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (٧٩)

الإيضاح

(قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) أى قال إخوة يوسف ، إن

يسرق بنيامين فقد سرق أخوه يوسف من قبل ، فالسرقة جاءت وراثة من أمهما إذ هما لاينفردان منا إلا بها . وفى قولهم هذا إيماء إلى أن الحسد لايزال كامنا فى قلوبهم، لاختلاف الأمهات ، ولمزيد محبة الأب لهما .

وأصح ماقيل فى سرقة يوسف مارواه ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا قال : سرق يوسف عليه السلام صنما لجده أبى أمه من ذهب وفضة فكسره وألقاه فى الطريق فعيره بذلك إخوته .

وأخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : كان أول مادخل على يوسف عليه السلام من البلاء فيما بلغنى أن عمته وكانت أكبر ولد إسحاق عليه السلام وكانت إليها منطقة إسحاق إذ كانوا يتوارثونها بالكبر ، وكان يعقوب حين ولد له يوسف عليه السلام قد حضنته عمته فكان معها ، فلم يحب أحد شيئا من الأشياء كحبها إياه حتى إذا ترعرع ووقعت نفس يعقوب عليه السلام عليه فأتاها فقال ياأخية سلمى إلىّ يوسف ، فوالله ماأقدر على أن يغيب عنى ساعة قالت : فوالله ماأنا بتاركته فدعه عندى أياما أنظر إليه ، لعل ذلك يسلينى عنه ، فلما خرج يعقوب من عندها عمدت إلى منطقة إسحاق عليه السلام فحزمتها على يوسف عليه السلام من تحت ثيابه، ثم قالت فقدتُ منْطقة إسحاق فانظروا من أخذها ومن أصابها ؟ فالتمست ثم قالت : اكشفوا أهل البيت فكشفوهم فوجدوها مع يوسف عليه السلام ، فقالت والله إنه لَسِلْمٌ لى أصنع فيه ماشئت ، فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر فقال لها : أنتِ وذاكِ إن كان فعل فهو سلم لك ماأستطيع غير ذلك ، فأمسكته فما قدر عليه حتى ماتت .

وهذا هو الذى عناه إخوته بقولهم (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) وهذه الروايات لايوثق بها كما لايدل شىء منها على سرقة حقيقية .

(فأسرها يوسف فى نفسه) أى فأضمر مقالتهم فى نفسه ولم يجبهم عنها .

(ولم يبدها لهم) أى ولم يؤاخذهم بها لاقولا ولا فعلا صفحا عنهم وحلما .

ثم فسر ماأسره بقوله :

(قال أنتم شر مكانا) أى قال فى نفسه أنتم شر فى مكانتكم ومنزلتكم ممن تعرضون به أو تفترون عليه ، إذ أنكم سرقتم من أبيكم أحب أولاده إليه وعرضتموه للهلاك ، والرق ، وقلتم لأبيكم قد أكله الذئب الخ .

(والله أعلم بما تصفون) أى والله أعلم منكم بما تصفونه به ، لأنه سبحانه هو العليم بحقائق الأشياء ، فيعلم كيف كانت سرقة الذى أحلتم سرقته عليه .

ثم أرادوا أن يستعطفوه ليُطْلِقَ لهم أخاه بنيامين فيرجعوا به إلى أبيهم ، لأنه قد أخذ عليهم الميثاق بأن يردوه إليه .

(قالوا يأيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا) طاعنا فى السن لايكاد يستطيع فراقه وهو عُلالته التى يتعلل بها عن شقيقه الهالك،أو هو كبير القدرجدير بالرعاية كما علمت مما سلف من قصصه ومن تعلقه به .

(فخذ أحدنا مكانه) أى بدله فلسنا عنده بمنزلته فى المحبة والشفقة عنده .

ثم عللوا رجاءهم فى إجابته بقولهم :

(إنا نراك من المحسنين) إلينا فى ميرتنا وضيافتنا وتجهيزنا ، فأتم إحسانك ، فما الإنعام إلا بالإتمام ، أو المعنى إن من عادتك الإحسان مطلقا ، فاجر على عادتك ولا تغيرها ، فنحن أحق الناس بذلك .

فأجابهم عن مقالتهم :

(قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) أى حاش لله أن نأخذ إلا من وجدنا الصواع عنده ، لأنا قد أخذناه بفتواكم (من وجد فى رحله فهو جزاؤه) فلا يسوغ لنا أن نخلّ بموجبها .

ولم يقل إلا من سرق متاعنا اتقاء للكذب ، لأنه يعلم أنه ليس بسارق .

(إنا إذا لظالمون) أى إنا إذا أخذنا غيره لظالمون من وجهين : مخالفة شرعكم ونص فتواكم ، ومخالفة شريعة الملك .

فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ، فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠) ارْجِعُوا إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) .

تفسير المفردات

استيأسوا : أى يئسوا يأسا كاملا ، خلصوا : انفردوا عن الناس ، نجيا : أى متناجين متشاورين فيما يقولون لأبيهم ، كبيرهم : أى فى الرأى والعقل وهو يهوذا ، وموثقا : أى عهدا يوثق به وهو حلفكم بالله ، فرطتم : قصرتم فى شأنه ولم تحفظوا عهد أبيكم فيه ، أبرح : أفارق ، أمرا : أى كيدا آخر ، تولى : أعرض ، والأسف : أشد الحزن والحسرة على ما فات ، كظيم : أى مملوء غيظا على أولاده ممسك له فى قلبه ، القرية : اسم للموضع الذى يجتمع فيه الناس وللناس جميعا ، ويستعمل فى كل واحد منهما قاله الراغب .

الايضاح

(فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا) أى فلما استحكم اليأس فى أنفسهم من قبول العزيز لشفاعتهم واستعطافهم بعد أن أقام الحجة عليهم بشرعهم وفتواهم وأنه إن فعل

غيره يكون ظالما بمقتضى شريعتهم وشريعة ملك مصر - اعتزلوا الناس ولم يخالطوا أحدا ، وانفردوا للمناجاة والتشاور فى أمرهم .

وخلاصة ذلك — أن أولئك الإخوة العشرة بعد أن انتهى كبيرهم من استعطاف العزيز وعدم جدوى مافعل ، غادر كل منهم رحله وانضم بعضهم إلى بعض وأدنى رأسه من رأسه وأرهفوا آذانهم للنجوى .

(قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله) أى قال كبيرهم عقلا ورأيا وهو يهوذا ، ألم تعلموا أيها القوم أن أباكم يعقوب قد أخذ عليكم عهد الله وميثاقه لتردُّنّه إليه إلا أن يحاط بكم ، وقد رأيتم كيف تعذر ذلك عليكم .

(ومن قبل ما فرطتم فى يوسف) أى ومن قبل هذا قد قصرتم فى حفظ يوسف بعد وعدكم المؤكد بحفظه ، وكيف أن أباكم قد قاسى من أجله من الحزن ما قاسى .

(فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى) أى فلن أفارق أرض مصر حتى يأذن لى أبى بتركها والرجوع إليه و بنيامين فيها ، أو يحكم الله لى بامر من عنده مما هو غيب فى علمه ، كأن يترك العزيز لى أخى بإلهام منه تعالى أو بسبب آخر .

(وهو خير الحاكمين) لأنه لايحكم إلا بما هو الحق والعدل ، وهو المسخر للأسباب والمقدر للأقدار .

ثم أمرهم أن يقولوا لأبيهم ما يزيلون به التُّهَمَة عن أنفسهم فقال :

(ارجعوا إلى أبيكم فقولوا ياأبانا إن ابنك سرق) صواع الملك فاسترقه وزيره العزيز القائم بالأمر فى مصر عملا بشريعتنا، إذ نحن أنبأناه بها بعد أن استنبأنا إياها .

(وما شهدنا إلا بما علمنا) أى وما شهدنا عليه بالسرقة بسماع أو إشاعة أو تهمة بل ما شهدنا إلا بما علمنا ، إذ رأينا الصواع قد استخرج من متاعه .

(وما كنا للغيب حافظين) فنعلم أنه سيسرق حين أعطيناك المواثيق ، ولو كنا نعلم ذلك لما آتيناك العهد الموثق علينا .

(واسأل القرية التى كنا فيها) أى واسأل أهل القرية التى كنا نمتار فيها وهى مصر ، فقد اشتهر فيهم أمر هذه السرقة حتى لو سئلوا لشهدوا .

(والعير التى أقبلنا فيها) أى واسأل أصحاب العير الذين كانوا يمتارون معنا .

ثم أكدوا صدق مقالهم بقولهم :

(و إنا لصادقون) فيما أخبرناك به ، سواء أسألت غيرنا أم لم تسأل ، إذ أن من عادتنا الصدق فلا نخبرك إلا به ولا نظنك فى مرية من هذا :

و بعد أن انتهى تعالى من سرد مقال كبيرهم عاد إلى ذكر مقال أبيهم فقال :

(قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا) أى فرجع الإخوة إلى أبيهم وقالوا له مالقنهم كبيرهم فلم يصدقهم فيما قالوا ، بل قال لهم بل زينت لكم أنفسكم كيدا آخر فنفذتموه ، ومما يقوّى ذلك عندى أنكم لقنتم هذا الرجل حكم شريعتنا وأفتيتموه به ، وليس ذلك من شريعته .

(فصبر جميل) أى فحالى على مانالنى من فقده صبر جميل لاجزع فيه ولا شكاية لأحد ، بل أشكو إلى الله وحده وأعلق رجائى به .

(عسى الله أن يأتينى بهم جميعا) أى أطلب من الله أن يرجع إلىّ يوسف و بنيامين والأخ الثالث الباقى بمصر ، وقد كان لديه إلهام بأن يوسف لم يمت و إن غاب عنه خبره .

(إنه هو العليم الحكيم) أى إنه العليم بوحدتى وفقدهم والحزن عليهم ، وله فينا حكمة بالغة ، وهو الحكيم فى أفعاله فيبتلى و يرفع البلاء على مقتضى سننه وحكمته فى تدبير خلقه ، وقد جرت سنته أن الشدة إذا تناهت جعل وراءها فرجا ، والمصيبة إذا عظمت جعل بعدها المخلص منها ؛ كما قال « فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » .

(وتولى عنهم) أى أعرض عنهم كراهة لما جاءوا به .

(وقال يا أسفا على يوسف) أى ياحزنى وياحسرتى عليه أقبلى فهذا وقتك والحال

مقتضية لك ، فقد كنت أنتظر أن يأتونى من مصر ببشرى لقاء يوسف ، فخاب أملى وحل محله ذهاب ابنى المسلِّى عنه ، ولم يشرك معه بنيامين بالأسف عليه ، لأن مكان حب يوسف والرجاء فيه قد ملأ سويداء القلب وزواياه ، ومحل غيره دون ذلك .

(وابيضت عيناه من الحزن) أى أصابتهما غشاوة بيضاء غطت على البصر مع بقاء العصب الذى يدرك المبصرات سليما معافى ، قال الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا: البياض المصحوب بضياع البصر غالبا معناه (الجلوكوما) والمعروف عند الاختصاصيين فى أمراض العيون أن أهم سبب لها هو التغيرات فى الأوعية الشعرية نتيجة لأسباب كثيرة، من أهمها الانفعالات العصبية (كما يحدث فى زيادة ضغط الدم) لاسيما الحزن (الدكتور ملر) اهـ .

(فهو كظيم) أى مملوء غيظا على أولاده ، يردد حزنه فى جوفه ولا يتكلم بسوء ؛ والحزن عرض طبيعى للنفس ولايذم شرعا إلا إذا بلغ بصاحبه أن يقول أو يفعل ما لا يرضى الله تعالى ، ومن ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم عند موت ولده إبراهيم وقد جعلت عيناه تذْرِفان فقال له عبد الرحمن بن عوف وأنت يارسول الله : « ياابن عوف إنها رحمة » ثم أتبعها بأخرى فقال : « إن العين ، تدمع وإن القلب ليخشع ، ولانقول إلا ما يُرْضِى ربنا ، وإنا بفراقك ياإبراهيم محزونون » رواه الشيخان وغيرهما.

وفى التفسير بالمأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن داود عليه السلام قال : يارب إن بنى إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فاجعلنى لهم رابعا ، فأوحى الله إليه أن : ياداود إن إبراهيم أُلْقِيَ فى النار بسببى فصبر ، وتلك بلية لم تنلك ، وإن إسحاق بذل مهجة دمه بسببى فصبر ، وتلك بَلِية لم تنلك ، وإن يعقوب أُخِذَ منه حبيبه فابيضَّت عيناه من الحزن ، وتلك بلية لم تنلك » قال الحافظ ابن كثير : وهذا حديث مرسل وفيه نكارة ، فإن الصحيح أن إسماعيل هو الذبيح اهـ .

قَالُوا تَاللّٰهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّٰهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّٰهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللّٰهِ ، إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللّٰهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧)

تفسير المفردات

تفتأ : أى لاتفتأ بمعنى لاتزال . والحرض : المرض المُشْفِى على الهلاك ، من الهالكين : أى الميتين ، البث فى الأصل : إثارة الشيء وتفريقه كبث الريح التراب ، ثم استعمل فى إظهار ماانطوت عليه النفس من الغم أو السر ، وتحسسوا : أى تعرفوا أخبار يوسف بحواسكم من سمع و بصر ، والرّوْح : التنفس ، يقال أراح الإنسان إذا تنفس ، ثم استعمل للفرج والتنفيس من الكرب .

الايضاح

(قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين) أى قال ولد يعقوب الذين جاءوا من مصر حين قال ياأسفا على يوسف : تالله لاتزال تذكر يوسف وتلْهَج به حتى تصير بذلك إلى مرض لاتنتفع بنفسك معه أو تموت من الغم .

وخلاصة ذلك ــ إنك الآن فى بلاء شديد ، ونخاف أن يحصل لك ماهو أكثر وأقوى منه ، وهم يريدون بذلك منعه من البكاء والأسف .

فأجابهم والتمس لنفسه معذرة على الحزن :

(قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله) أى لاتلومونى وأنا لم أَشْكُ إليكم ولا إلى

أحد من الخلق حزنى الذى أمَضَّنى كتمانه، فأفشيته بهذه الـكلمة (ياأسفا على يوسف) بل شكوت ذلك إلى الله وحده .

(وأعلم من الله ما لا تعلمون) أى وأنا أعلم فى ابتلائى بفراقه مع حسن عاقبته مالاتعلمون ، فأعلم أنه حى يرزق ، وأن الله يجتبيه ويتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب ، وأنتم تظنون أن يوسف قد هلك ، وأن بنيامين قد سَرَق فاستُرِقَّ ، وتحسبون أنى بحزنى ساخط على قضاء الله فى شىء أمضاه ولا مرد له ، وأنا أعلم أن لهذا أجلا هو بالغه ، وإنى لأرى البلاء ينزل عليكم من كل جانب بذنوبكم وبتفريطكم فى يوسف من قبل ، وبأخيه الذى كان يسليني عنه من بعده .

وعن ابن عباس فى تفسير الآية : أنا أعلم أن رؤيا يوسف حق وأننى سأسجد له .

(يابنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) أى اذهبوا إلى مصر وتعرفوا أخبارهما بحواسكم من سمع وبصر حتى تكونوا على يقين من أمرهما .

(ولا تيأسوا من روح الله) أى لاتقنطوا من فرجه سبحانه وتنفيسه عن النفس هذا الـكرب ، بماترتاح إليه الروح ، ويطمئن به القلب .

(إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الـكافرون) بقدرته وسعة رحمته ويجهلون مالله فى عباده من حكم بالغة ولطف خفى ، فإذا لم يصلوا إلى مايبتغون من كشف ضر أو جلب خير بَخَعوا أنفسهم (انتحروا) هماً وحزنا .

أما المؤمن حقا فلا تُقْنِطه المصايب ولا الشدائد من رحمة ربه وتفريجه لـكربه ، ومن ثم قال ابن عباس : إن المؤمن من الله تعالى على خير يرجوه فى البلاء ويَحْمَدُه فى الرخاء .

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَـٰأَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْـكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨)

قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩) قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ؟ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّٰهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللّٰهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللّٰهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّٰهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّٰهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣).

تفسير المفردات

الضر : أى ضر المجاعة من الهزال والضعف ، والمزجاة : الرديئة التى يدفعها التجار من أزجى الشيء وزجاه : إذا دفعه برفق كما قال : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللّٰهَ يُزْجِي سَحَابًا » وآثرك : أى اختارك وفضلك ، والخاطئ : هو الذى يأتى بالخطيئة عمدا ، والمخطئ : من إذا أراد الصواب صار إلى غيره ، والخِطْء : الذنب ، وخطّأته : قلت له أخطأت ، ولا تثريب : أى لا لوم ولا تأنيب وثرّب فلان على فلان إذا عدد عليه ذنوبه ، ويأت بصيرا أى يصر بصيرا فى الحال ، أو يأت إلىّ وهو بصير .

الايضاح

(فلما دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر) أى بعد أن قبلوا وصية أبيهم حين قال لهم اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، وعادوا إلى مصر ـ دخلوا على يوسف عليه السلام فقالوا له يأيها العزيز أصابنا الهزال والضعف لما نحن فيه من المجاعة وكثرة العيال وقلة الطعام وقد شكوا إليه رقة الحال وقلة المال وشدة الحاجة وغير ذلك مما يرقق القلب مع أن مقصدهم التحسس من يوسف وأخيه ـ ليروا تأثير الشكوى فيه ،

فإن رق قلبه لهم ذكروا ما يريدون وإلا سكتوا ، وقد كان أبوهم يرجِّح أنه هو يوسف فأرادوا أن يرَوْا تأثير هذا الاستعطاف فيه .

(وجئنا ببضاعة مزجاة) أى ببضاعة رديئة يحتقرها التجار ويدفعونها احتقارا لها .

(فأوف لنا الكيل) أى فأتمه كما تعودنا من جميل رعايتك وإحسانك .

(وتصدق علينا) بما تزيده على حقنا ببضاعتنا بعد أن تُغْمِض عن رداءتها .

(إن الله يجزى المتصدقين) فيخلف ما ينفقون ويضاعف الأجر لهم .

وقد بالغوا فى الضراعة والتذلل ، لما كانوا يرون من تأثير ذلك فى ملامح وجهه ، وجرْس صوته ، ومغالبة دمعه .

ثم بعد أن ذكر طريق تحسسهم ذكر ردّ يوسف عليهم .

(قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه) أى قال ما أعظم ما فعلتم بيوسف من قبل وبأخيه بنيامين من بعد على قرب العهد ، وما أقبح ما أقدمتم عليه ، كما يقال للمذنب هل تدرى من عصيت ، وهل تعرف من خالفت .

(إذ أنتم جاهلون) قبح ما فعلتموه فى حكم شرعكم ، وحقوق بر الوالدين وما يجب من رعاية القرابة والرحم .

وخلاصة ذلك — إنكم كنتم فى حال يغلب عليكم فيها الجهل بهذه الحقوق ، وبعاقبة البغى والعقوق .

وقد يكون المراد من الجهل الطيش والنزَق واتباع الهوى وطاعة الحسد والأَثَرَة .

وقد قال لهم هذه المقالة تمهيدا لتعريفهم بنفسه ، إذ آن أن يصارحهم به بعد أن بلغ الكتاب أجله ، وبلغت به وبهم الأقدار غايتها ، ولم يبق بعد هذا إلا التصريح ، وتأويل رؤياه التى كانت السبب فى كل ما حدث من تلك الأفاعيل .

وقد ذكَّر يوسف إخوته بذنوبهم تذكيرا مجملا قبل أن يتعرف إليهم بذكر

العذر وهو الجهل بقبح الذنب فى ذاته و بسوء عاقبته لتمكن نزغ الشيطان من أنفسهم الأمارة بالسوء ، وقد ذكرهم بطريق سؤال العارف المتجاهل على طريق التقرير لا التقريع والتوبيخ كما يدل عليه نفى التثريب والدعاء بالمغفرة .

قال صاحب الكشاف فى تفسير الآية : أتاهم من جهة الدين وكان حليما موفقا ، فكلمهم مستفهما عن معرفة وجه القبح الذى يجب أن يراعيه التائب فقال هل علمتم قبح « ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون » لا تعلمون قبحه ، فلذلك أقدمتم عليه يعنى هل علمتم قبحه فتبتم إلى الله منه؟ لأن علم القبح يدعو إلى الاستقباح ، والاستقباح يجر إلى التوبة ، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصحا لهم فى الدين لا معاتبة وتثريبا ، إيثارا لحق الله على حق نفسه فى ذلك المقال الذى يتنفس فيه المكروب ، وينفُث المصدور ، ويتشفى المَغيظ المُحنق ، ويدرك ثأره الموتور؛ فلله أخلاق الأنبياء ماأوطأها وأسجحها ، ولله حصا عقولهم ماأوزنها وأرجحها اه .

وكان سؤاله إياهم عما فعلوا بيوسف وأخيه وهو سؤال العارف بأمرهم فيه من البداءة إلى النهاية ـ مصدقا لما أوحاه الله إليه حين ألقوه فى غيابة الجب من قوله : « وَأَوْحَيْنَا إِلَيهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ » إذ يبعد أن يعرف هذا سواه ، فأرادوا أن يتثبتوا من ذلك ويستيقنوا به ، فوجهوا إليه سؤالا هو سؤال المتعجب المستغرب لما يسمع .

(قالوا أئنك لأنت يوسف ؟) أى قالوا من المؤكد قطعا أنك أنت يوسف ـ وقد عجبوا من أنهم يترددون عليه مدى سنتين أو أكثر وهم لا يعرفونه وهو يعرفهم ويكتم نفسه .

(قال أنا يوسف) الذى ظلمتمونى غاية الظلم ، وقد نصرنى الله فأكرمنى وأوصلنى إلى أسمى المراتب ، أنا ذلك العاجز الذى أردتم قتله بإلقائه فى غيابة الجب ، ثم صرت إلى ما ترون .

(وهذا أخى) الذى فرّقتم بينى و بينه وظلمتموه ، ثم أنعم الله عليه بما تبصرون .

(قد منّ الله علينا) فجمع بيننا بعد الفرقة ، وأعزنا بعد الذلة ، وآنسنا بعد الوحشة ، وخلّصنا مما ابتُلينا به .

وفيه إيماء إلى أنه لاوجه لطلبكم بنيامين ، لأنه أخى لا أخوكم .

تنبيـــــه

فإن قيل لم لم يعرِّف يوسف إخوته بنفسه فى أول مرة ليبشروا أباهم به و بما هو عليه من حسن حال و بسطة جاه فيكون فى ذلك البرور كل السرور له ؟ فالجواب عن ذلك ما أجاب به ابن القيِّم فى كتابه [الإغاثة الـكبرى] قال رحمه الله : لو عرّفهم بنفسه فى أول مرة لم يقع الاجتماع بهم و بأبيه ذلك الموقع العظيم ولم يحلّ ذلك المحلّ وهذه عادة الله فى الغايات العظيمة الحميدة ، إذا أراد أن يوصّل عبده إليها هيأ له أسبابا من المحن والبلايا والمشاقّ ، فيكون وصوله إلى تلك الغايات بعدها كوصول أهل الجنة إليها بعد الموت وأهوال البرزخ والبعث والنشور والموقف والحساب والصراط ومقاساة تلك الأهوال والشدائد ، وكما أدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ذلك المدخل العظيم بعد أن أخرجه الـكفار ذلك المخرج ، ونصره ذلك النصر العزيز بعد أن قاسى مع أعداء الله ما قاساه . وكذلك ما فعل برسله كنوح و إبراهيم وموسى وهود وصالح وشعيب عليهم السلام .

فهو سبحانه يوصِّل إلى الغايات الحميدة بالأسباب التى تكرهها النفوس وتشق عليها كما قال « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَـكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَـكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَـكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَـكُمْ ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ » ور بما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سببا ما مثله سبب .

و بالجملة فالغايات الحميدة فى خبايا الأسباب المـكروهة الشاقة ، كما أن الغايات المـكروهة فى خبايا الأسباب المشتهاة المستلذة ، وهذا من حين خلَق الله سبحانه الجنة وحفها بالمـكاره والنار وحفها بالشهوات اهـ .

(إنه من يتق ويصبر فإن الله لايضيع أجر المحسنين) أى إن الحق الذى نطقت به الشرائع وأرشدت إليه التجارب هو : من يتق الله فيما به أمر وعنه نهى ، ويصبر على ماأصابه من المحن وفتن الشهوات والأهواء ، فلا يستعجل الأقدار بشىء قبل أوانه ، فإن الله لايضيع أجره فى الدنيا ثم يؤتيه أجره فى الآخرة .

وفى الآية شهادة له من ربه بأنه من المحسنين المتقين الله ، وبأن من كان مطيعا لنفسه الأمارة بالسوء ومتبعا لنزغات الشيطان فإن عاقبته الخزى فى الدنيا والنكال فى الآخرة ، إلا من تاب وعمل صالحا ثم اهتدى .

(قالوا تالله لقد آثرك الله علينا) أى قال إخوة يوسف له : لقد فضلك الله علينا وآثرك بالعلم والحلم والفضل .

(وإن كنا لخاطئين) أى وما كنا فى صنيعنا بك وتفريقنا بينك وبين أخيك إلا متعمدين للخطيئة ، ولاعذر لنا فيها عند الله ولاعند الناس .

وبعد أن قدّموا له المعذرة أجابهم بالصفح عما فعلوا .

(قال لاتثريب عليكم اليوم) أى لالوم ولا تعنيف عليكم فى هذا اليوم الذى هو مظِنّته ، ولكن لكم عندى الصفح والعفو . وهو إذا لم يثرِّب أول لقائه واشتعال ناره ، فبعده أولى .

وقال السيد المرتضى : إن كلمة (اليوم) موضوعة موضع الزمان كله كقوله :

اليوم يرحمنا من كان يغبِطنا واليوم نتْبَعُ من كانوا لنا تبعا

كأنه أريد بعد اليوم اهـ .

(يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين) أى يعفو الله لكم عن ذنبكم وظلمكم ويستره عليكم ، وهو أرحم الراحمين لمن أقلع عن ذنبه وأناب إلى طاعته بالتوبة من معصيته .

وقد تمثل النبى صلى الله عليه وسلم بالآية يوم فتح مكة حين طاف بالبيت وصلى ركعتين ، ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتى الباب وقال : « ماذا تظنون أنى فاعل بكم ؟

قالوا نظن خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم ، فقال : وأنا أقول كما قال أخى يوسف (لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ) ، فخرجوا كأنما نُشِروا من القبور » . أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس والبيهقى عن أبى هريرة .

روى أن يوسف عليه السلام لما عرف نفسه إخوته سألهم عن أبيهم فقالوا ذهب بصره فعند ذلك أعطاهم قميصه وقال :

(اذهبوا بقميصى هذا) الذى على بدنى أو بيدى .

(فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا) أى ألقوه على وجهه حين وصولكم إليه دون تأخير يصِرْ بصيرا ، وقد علم هذا إما بوحى من الله ، وإما لأنه علم أن أباه ماأصابه ماأصابه إلا من كثرة البكاء وضيق النفس فإذا ألقى عليه قميصه شرح صدره وسر أعظم السرور ، وقوى بصره وزالت منه هذه الغشاوة التى رانت عليه ، والقوانين الطبية تؤيد هذا كما سيأتى بعد .

(وائتونى بأهلكم أجمعين) من الرجال والنساء والذرارى وغيرهم ، وقد روى أن أهله كانوا سبعين رجلا وامرأة وولدا .

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) .

تفسير المفردات

يقال فصل عن البلد : إذا انفصل وجاوز حيطانه ، وتفندون : أى تنسبونى إلى

الفَنَد ؛ وهو فساد الرأى وضعف العقل والخَرَف من الـكِبر ، فى ضلالك : أى فى خطئك أو فى إفراطك فى حبه والإصرار على اللهج به ، وارتد : أى رجع .

الإيضاح

(ولما فصلت العير قال أبوهم إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) أى ولما انفصلت عير بنى يعقوب عن حدود مصر قافلة إلى أرض الشام ، قال أبوهم لمن حضره من حَفَدَته ومن غيرهم : إنى لأشُمُّ رائحة يوسف كما عرفتها فى صغره ، لولا أن تنسبونى إلى ضعف الرأى وفساد العقل وخرف الـكبر ، لصدقتمونى فى أنى أجد رائحته حقيقة ، وأنه حى قد قرب موعد لقائه والتمتع برؤيته .

وروى عن ابن عباس أنه لما خرجت العير هاجت ريح فجاءت يعقوب بريح قميص يوسف ، قال «إنى لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون» فوجد ريحه من ثمانية أيام ، وفى رواية من ثمانين فرسخاً ، والمراد من مسافات بعيدة جدا .

(قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم) أى قال حاضرو مجلسه : تالله إنك لفى خطئك الذى طال أمده باعتقادك أن يوسف حى يرجى لقاؤه وقد قرب .

ولا غرو فللخَلِىِّ أن يقول فى الشجِىِّ ما شاء ، فأذنه عن العذل صماء :

سلْوَتى عنكم احتمالٌ بعيـد وافتضاحى بكم ضلال قديم

كل من يدّعى المحبـة فيكم ثم يخشى الملامَ فهو مُليم

قال قتادة فى تفسيرها : «تالله إنك لفى ضلالك القديم» أى من حب يوسف لا تنساه ولا تسلوه اه ، قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغى لهم أن يقولوها له .

(فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا) أى فلما جاء البشير وهو ابنه يهوذا الذى يحمل القميص من يوسف ـ وهو الذى حمل إليه قميصه الملطَّخ بالدم الـكذب ليمحو السيئة بالحسنة ـ ألقاه على وجه يعقوب فعاد من فوره بصيرا كما كان ، بل قد قيل إنه عادت إليه سائر قواه ، وليس ذلك بعجيب ولا منكر ، فـكثيرا ما شفى

السرور من الأمراض وجدد قوى الأبدان والأرواح ، والتجارب وقوانين الطب شاهد صدق على صحة ذلك . قال الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا : لاتتحسن أعراض مرض (الجولكوما) أو شدة توتر العين أو تقف شدته إلا بالعلاج ، ومنه العمليات الجراحية ولكن شفاء سيدنا يعقوب بوضع القميص على وجهه هو معجزة من المعجزات الخارجة عن قدرة الإنسان ، وليس المهم هو القميص أو وضعه على وجهه ، فقد كان ذلك لتسهيل وقع المعجزة على الحاضرين فحسب ، ولكن المهم هو طريقة الشفاء وهى إرادة الله المنحصرة فى (كن فيكون) وهى خارجة عن كل السنن الطبيعية التى أمر الإنسان أن يتعلمها ، فعظمة المعجزة ليست فى النتيجة فحسب ولكن فى طريق الشفاء ــ وما أعظم إعجاز القرآن الذى وصف حالة مرضية خاصة و بين سببها ، ولم يكن يعلم العالم شيئاً عن هذا المرض فى ذلك الوقت ولا بعده بزمن طويل اهـ .

وقد أجاب يعقوب من لاموه بما كان عليه من علم قطعى من ربه بصدق ما يقول : (قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لاتعلمون ؟) أى قال لهم ألم أقل لكم حين أرسلتكم إلى مصر وأمرتكم بالتحسس ونهيتكم عن اليأس من رَوْح الله : إنى أعلم بوحى الله لا من خطرات الأوهام ما لاتعلمون من حياة يوسف عليه السلام ــ وقد ذكرهم الآن إذ عاد بصيرا بما كان قد قاله لهم حين ابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم .

نبذة فى تعليل شم يعقوب رائحة يوسف

أثبت العلم حديثاً أن الريح تحمل الغبار وما فيه من قارة إلى أخرى ، فتحمله من إفريقية مثلا إلى أوروبا وهى مسافة أبعد مما بين مصر وأرض كنعان من بلاد الشام وهى بلا شك تحمل رائحة ماله منها رائحة ، ولكن الغريب شم البشر لها من المسافات البعيدة، والإنسان إذا قيس بغيره من الوحوش والحشرات كان أضعف منها شما ، فالكلب ذو حاسة قوية فى الشم حتى ليُدَرِّبُهُ الآن رجال الشرطة ويستخدمونه فى حوادث الإجرام من قتل وسرقة لإثبات التهمة على المجرمين ، فيأتون بالكلب المعلّم فيشَمّ المجرم ويخرجه من بين أشخاص كثيرين ، ويرى ذلك رجال القانون دليلا قويا على إثبات الجريمة على من يرشد إليه ، بل دليلا قاطعا فى بعض الدول .

والروائح منها القوى والضعيف ، ومن أضعفها رائحة جسم الإنسان وعرقه ومايصيب ثوبه منها ، ولكن مانحن فيه من خوارق العادات ومن خواصّ عالم الغيب لا من السنن العادية والحوادث التى تتكرر من البشر .

وقد دلت الآية على أن يعقوب عليه السلام أخبر أنه وجد رائحة يوسف لما فصلت العير من أرض مصر، فعلينا أن نؤمن به لأنه معصوم من الكذب، وقد تبين صدقه بعد وليس بالواجب علينا أن نعرف كنهه أو نصل إلى معرفة سببه ، ولكن إذا نحن قلنا إنه لشدة تفكره فى أمر ولده وتذكره لرائحته حين كان يضمُّه ويشمُّه ـ شعر بتلك الرائحة قد عادت له سيرتها الأولى ـ لم يكن ذلك مجانبا للصواب ولا معارضا للعقل ولا ناقضا لما يثبته العلم ، أو قلنا بأنا نتقبل هذا بدون تعليل ولا تصوير لكيفية ذلك ـ لم نبعد، عن العقل ولا عن العلم ، إذ لاخلاف بين العلماء فى أن مايجهله الباحثون أضعاف ما يعرفونه

وعلى الجملة فعلينا التسليم بما أخبر به دون حاجة للبحث فى كنهه أو صفته ما دام ذلك داخلا فى حيز الإمكان .

(قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين) أى قال أولاده وكانوا قد وصلوا إثر البشير : يا أبانا اسأل الله أن يغفر لنا ذنوبنا التى اجترحناها من عقوقك و إيذاء أخوينا ، إنا كنا متعمدين لهذه الخطيئة ، عاصين لله ، ظانين أن نكون بعدها قوما صالحين .

الآن اعترفوا بذنوبهم كما اعترفوا ليوسف من قبل ، لكن يوسف بادر إلى الاستغفار لهم وهم لم يطلبوه منه ، وعليك أن تسمع جواب أبيهم الآتى :

(قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم) وعدهم بالاستغفار لهم فى مستأنف الزمان ، وعلل هذا بأن ربه واسع المغفرة والرحمة ، لاينقطع رجاء المؤمن فيها و إن ظلم وأساء .

والفارق بين جواب يعقوب وجواب يوسف من وجوه كثيرة اقتضتها الحكمة :

(١) إن حال أبيهم معهم حال المربّى المرشد للمذنب ، لاحال المنتقم الذى يُخْشى أذاه وليس من حسن التربية ولا من طرق التهذيب أن يريهم أن ذنبهم هيّن لديه حتى يعجِّل بإجابة مطلبهم بالاستغفار لهم .

(٢) إن ذنبهم لم يكن موجها إليه مباشرة ، بل موجه إلى يوسف وأخيه ، ثم إليه بالتبع واللزوم ، إلى أنه ليس من العدل أن يستغفر لهم إلا بعد أن يعلم حالهم مع يوسف وأخيه ، ولم يكن يعقوب قد علم بعفو يوسف عنهم واستغفاره لهم .

(٣) إن هذا ذنب كبير و إثم عظيم طال عليه الأمد ، وحدثت منه أضرار نفسية وخلقية وأعمال كان لها خطرها ، فلا يمّحى إلا بتوبة نصوح تجتث الجذور التى عَلِقت بالأنفس ، والأرجاس التى باضت و أفرخت فيها .

فلا يحسن بعدئذ من المربى الحكيم أن يسارع إلى الاستغفار لمقترفها عقب طلبه حتى كأنها من هينات الأمور التى تُغْفَر ببادرة من الندم ، ومن ثم تلبّث فى الاستغفار لهم إلى أجل ، ليعلمهم عظيم جرمهم ، ويعلمهم بأنه سوف يتوجه إلى ربه و يطلب لهم الغفران منه بفضله ورحمته .

(٤) إن حال يوسف معهم كان حال القادر بل المالك القاهر مع مسىء ضعيف لديه ، عظُم جُرْمه عليه ، فلم يشأ أن يكون الغفران بشفاعته ودعائه ، فآمنهم من خوف الانتقام تعجيلا للسرور بالنعمة الجديدة التى جعل الله أمرها بين يديه ، وليروا ويرى الناس فضل العفو عند القدرة ، وليكون لهم فى ذلك أحسن الأسوة ، وفى هذا من ضروب التربية أكبر العظة ، ولو أخر المغفرة لكانوا فى وَجَل مما سيحلّ بهم ، ولخافوا شر الانتقام ، فكانوا فى قلق دائم وتبلبل بالٍ واضطراب نفسٍ ، فكان توجسهم له عذابا فوق العذاب الذى هم فيه ، ولكن شاءت رحمته بهم أن يجعل السرور عاما والحياة الجديدة حافلة بالاطمئنان وقرة العين ، وهكذا شاءت الأقدار وشاء الله أن يكون ذلك وهو العليم الحكيم .

تأويل رؤيا يوسف من قبل

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقالَ يا أَبَتِ هٰذا تَأْوِيلُ رُؤْيايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبِّي حَقًّا ، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِما يَشاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) .

تفسير المفردات

آوى إليه أبويه : أى ضمهما إليه واعتنقهما ، ورفع أبويه : أى أصعدهما ، والعرش : كرسى تدبير الملك لا كل سرير يجلس عليه الملك ، وخروا له سجدا : أى أهوى أبواه

وإخوته إلى الأرض وخروا له سجدا ، تأويل رؤياى : أى مآلها وعاقبتها ، وأصل النزغ : نخس الرائض الفرس بالمهماز لإزعاجه للجرى ، ثم قيل نزغه الشيطان كأنه نخسه ليحثّه على المعاصى ، ونزغ بين الناس : أفسد بينهم بالحث على الشر .

المعنى الجملى

بعد أن أخبر فيما سلف أن يوسف قال لإخوته ائتونى بأهلكم أجمعين ـ أخبر هنا أنهم رحلوا من بلاد كنعان قاصدين بلاد مصر ، فلما أخبر يوسف بقرب مجيئهم خرج للقائهم ، وأمر الملك أمراءه وأكابر دولته بالخروج معه للقاء نبى الله يعقوب عليه السلام .

الإيضاح

(فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه) فى العبارة حذف وإيجاز يفهم من سياق الكلام والمعنى ـ تفصيله بعد أن ذهب إخوة يوسف إلى أبيهم وأخبروه بمكانة يوسف فى مصر وأنه الحاكم المفوّض المستقل فى أمرها ـ أبلغوه أنه يدعوهم كلّهم للإقامة معه فيها والتمتع بحضارتها فرحلوا حتى بلغوها ـ ولما دخلوا على يوسف وكان قد استقبلهم فى الطريق فى جمع حافل احتفاء بهم ضم إليه أبويه واعتنقهما .

وظاهر الآية يدل على أن أمه كانت لاتزال حية ورجحه ابن جرير ، وقال جمع من المفسرين إن المراد بأبويه أبوه وخالته ، لأن أمه قد ماتت قبل ذلك فتزوج أبوه خالته .

(وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) أى وقال لهم ادخلوا بلاد مصر إن شاء الله آمنين على أنفسكم وأنعامكم من الجوع والهلاك ، فإن سنى القحط كانت لاتزال باقية ، وذكر المشيئة فى كلامه للتبرؤ من مشيئته وحوله وقوته إلى مشيئة الله الذى سخر ذلك لهم وسخر ملك مصر وأهلها له ثم لهم ، وهذا من شأن المؤمنين ولاسيما الأنبياء والصديقون .

وفى سفر التكوين من التوراة أن يوسف عليه السلام عرّف نفسه إلى إخوته عقب مجيئهم ببنيامين شقيقه وأرسلهم لاستحضار أبويه وأهلهم ، فجاءوا فأقطعهم أرض جاسان (إقليم الشرقية الآن) وأرسل إليهم العربات لتحملهم ، وأحمال الغذاء والثياب على الحمير ، فلما وصلوا إليها شد يوسف على مركبته وصعد ليلاقى إسرائيل أباه فى جاسان ، فلما ظهر له ألقى بنفسه على عنقه وبكى طويلا ، ثم استأذنهم ليذهب إلى فرعون ويخبره بمجيئهم ومكانهم ليقرّهم عليه ، لأنهم رعاة وأرض جاسان خصبة ففعل ، ثم أخذ وفدا منهم لمقابلة فرعون وأدخل أباه عليه فبارك فرعون .

ومن هذا يتبين أن هذا اللقاء كان هو الأول لهم ، وبعد لقاء فرعون قال لهم ادخلوا مصر ثم عاد بهم إلى قصره الخاص .

(ورفع أبويه على العرش) أى أصعد أبويه إلى السرير الذى كان يجلس عليه لتدبير أمر الملك تكرمة لهما فوق مافعله بالإخوة .

(وخروا له سجدا) أى أهوى أبواه وإخوته وخروا له سجودا ، وكان ذلك تحية الملوك والعظماء فى عهدهم ، ومن ثم سجد يعقوب لأخيه عيسو حين تلاقيا بعد تفرق .

والسجود ليس عبادة بذاته ، وإنما يكون كذلك بالنيـة والتزام الصفة الشرعية فيه .

(وقال ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل) أى هذا السجود منكما ومن إخوتى الأحد عشر هو المآل والعاقبة التى آلت إليها رؤياى التى رأيتها من قبل فى صغرى « إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ » .

(قد جعلها ربى حقا) أى قد جعلها ربى حقيقة واقعة واستبان أنها لم تكن أضغاث أحلام ، فالكواكب الأحد عشر مثال إخوتى الأحد عشر ، وأنت وأمى مثال الشمس والقمر ، ولا بدع فى ذلك فهذه الأسرة هى التى حفظ الله بها ذرية إسحاق بن إبراهيم لتنشر دين التوحيد بين العالمين فكانت خير أسر البشر جميعا .

(وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو) أى وقد أحسن بى ربى إذ أخرجنى من السجن وسما بى إلى عرش الملك ، وجاء بكم من البادية حيث كنتم تعيشون فى شظف العيش وخشونته ، ونقلكم إلى الحضر حيث تعيشون فى نعم الاجتماع ونشر الدين الحق ، وتتعاونون على ترقى العلوم والصناعات . ولم يذكر له إخراجه من الجب لوجوه :

(١) إنه ذكر آخر المحن المتصلة بنهاية النعم .

(٢) إنه لو ذكر حادث الجب لكان فى ذلك تثريب لإخوته وقد قال (لاتثريب عليكم اليوم) .

(٣) إنه بعد خروجه منه صار عبدا لاملكا .

(٤) إنه بعد خروجه منه وقع فى مضارّة تهمة المرأة التى بسببها دخل السجن .

وعلى الجملة فالنعم الكاملة إنما حصلت بعد خروجه من السجن .

(من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى) أى من بعد أن أفسد الشيطان مابينى وبين إخوتى من عاطفة الأخوّة ، وقطع مابيننا من وشيجة الرحم ، وهيج الحسد والشر .

(إن ربى لطيف لما يشاء) أى إن ربى عالم بدقائق الأمور رفيق بعباده ، فينفذ مايشاء فى خلقه بحكمته البالغة ، فمن ذا الذى كان يدور بخلده أن الإلقاء فى الجب يعقبه الرق ، ويتلو الرق فتنة العشق ، ومن أجله يُزجّ فى غيابات السجن ، ومن ذا إلى السيادة والملك .

(إنه هو العليم الحكيم) أى إنه هو العليم بمصالح عباده ، فلا تخفى عليه مبادئ الأمور وغاياتها ، الحكيم الذى يفعل الأمور على وجه الحكمة والمصلحة ، فيجازى الذين أحسنوا بالحسنى ، ويجعل العاقبة للمتقين .

وبعد أن حمد يوسف ربه على لطفه فى مشيئته وعلمه وحكمته ـ تلا ذلك بالدعاء فقال :

طلب يوسف من ربه حسن الخاتمة

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١) .

الايضاح

(رب قد آتيتنى من الملك) أى قال يوسف بعد ما جمع الله له أبويه وإخوته ، وبسط له من الدنيا ما بسط من الكرامة ، ومكن له فى الأرض : رب قد آتيتنى ملك مصر وجعلتنى متصرفا فيها بالفعل وإن كان لغيرى بالاسم ، ولم يكن لى فيها حاسد ولا باغ إذ أجريت الأمور على سنن العدل ووَفْق الحكمة والسداد .

(وعلمتنى من تأويل الأحاديث) أى وعلمتنى ما أعبر به عن مآل الحوادث ومصداق الرؤيا الصحيحة فتقع كما قلت وأخبرت .

(فاطر السموات والأرض) أى مبدعهما وخالقهما .

(أنت وليي فى الدنيا والآخرة) أى أنت متولى أمورى ومتكفّل بها ، أو أنت موال لى وناصرى على من عادانى وأرادنى بسوء ، وإن نعمك لتغمرنى فى الدنيا ، وسأتمتع بها بفضلك ورحمتك فى الآخرة ، ولا حول لى فى شىء منهما ولا قوة .

(توفى مسلما) أى اقبضنى إليك مسلما ، وأتم لى وصية آبائى وأجدادى . «وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ : يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّٰهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» .

(وألحقنى بالصالحين) أى وألحقنى بصالح آبائى إبراهيم وإسحاق ومن قبلهم من أنبيائك ورسلك ، واحشرنى فى زمرتهم ، وهذا الدعاء بمعنى ما جاء فى سورة الفاتحة

«اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ» أى من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

فى ذكر هذا القصص إثبات لنبوة محمد عليه السلام

ذٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤) .

الايضاح

(ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) أى إن نبأ يوسف ووالده يعقوب وإخوته وكيف مكن ليوسف فى الأرض وجعل له العاقبة والنصر ، وآتاه الملك والحكمة ، فساس ملكا عظيما وأحسن إدارته وتنظيمه وكان خير قدوة للناس فى جميع ما دخل فيه من أطوار الحياة ، بعد أن أرادوا به السوء والهلاك حين عزموا أن يجعلوه فى غيابة الجب كل ذلك من أخبار الغيب الذى لم تشاهده ولم تره ، ولكنا نوحيه إليك لنثبّت به فؤادك ، فتصْبر على ما نالك من الأذى من قومك ، ولتعلم أن من قبلك من الرسل لما صبروا على ما نالهم فى سبيل الله ، وأعرضوا عن الجاهلين فازوا بالظفر و ايِّدوا بالنصر وغلبوا أعداءهم .

ثم أقام الدليل على كونه من الغيب بقوله :

(وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) أى وما كنت حاضرا عندهم ولا مشاهدا حين صحت عزائمهم على أن يُلقُوا يوسف فى غيابة الجب ، يبغون بذلك هلاكه والخلاص منه ، وهذا كقوله تعالى بعد سياق موسى : « وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ

الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا » الآية ، وقوله فى هذه القصة « وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا » الآية .

وخلاصة هذا ــ إن الله أطلع رسوله على أنباء ماسبق ، ليكون فيها عبرة للناس فى دينهم ودنياهم ، ومع هذا ماآمن أكثرهم ، ومن ثم قال :

(وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) أى وما أكثر مشركى قومك ولو حرصت على أن يؤمنوا بك ويتّبعوا ماجئتهم به من عند ربك بمصدقيك ولامتّبعيك .

قال الرازى : إن كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا ذكر هذه القصة من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل التعنت ، فلما ذكرها أصروا على كفرهم فنزلت هذه الآية، وكأنه إشارة إلى ماذكر الله تعالى فى قوله « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » .

(وماتسألهم عليه من أجر) أى وماتسأل هؤلاء الذين ينكرون نبوتك على ماتدعوهم إليه من إخلاص العبادة لربك وطاعته وترك عبادة الأصنام والأوثان من أجر وجزاء منهم ، بل ثوابك وأجر عملك على الله .

والخلاصة ــ إنك لاتسألهم على ذلك مالا ولامنفعة فيقولوا إنما تريد بدعائك إيانا إلى اتباعك أن ننزل لك عن أموالنا إذا سألتنا عن ذلك ، فحالك حال من سبقك من الرسل ، فهم لم يسألوا أقوامهم أجرا على التبليغ والهدى ، والقرآن ملىء بنحو هذا كما فى سورتى هود والشعراء وغيرهما .

وإذا كنت لاتسألهم على ذلك أجرا فقد كان حقا عليهم أن يعلموا أنك إنما تدعوهم إليه اتباعا لأمر ربك ونصيحة منك لهم .

(إن هو إلا ذكر للعالمين) أى هذا الذى أرسلك به ربك تذكير وموعظة لإرشاد العالمين كافة لالهم خاصة ، وبه يهتدون وينجون فى الدنيا والآخرة .

وفى الآية إيماء إلى عموم رسالته صلى الله عليه وسلم .

غفلتهم عن التأمل فى الآيات

وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦) أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ (١٠٧) .

تفسير المفردات

وكأين : بمعنى كثير ، والآية هنا : الدليل الذى يرشد إلى وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته ، يمرون عليها : يشاهدونها ، معرضون : أى لايعتبرون بها ، والغاشية : العقوبة تغشاهم وتعمّهم ، بغتة : فجأة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن أكثر الناس لايؤمنون مهما حرصتَ على إيمانهم ولايتأملون فى الدلائل الدالة على نبوتك ــ ذكر هنا أن هذا ليس ببدع منهم ، فأكثرهم فى غفلة عن التفكر فى آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه فى السموات من كواكب ثوابت وسيارات ، وأفلاك دائرات ، وفى الأرض من حدائق وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وقفار شاسعات ، وحيوان ونبات :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحد

الإيضاح

(وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) أى وكم فى السموات والأرض من آيات دالة على توحيد الله وكمال علمه وقدرته من شمس وقمر ونجوم وجبال وبحار ونباتات وأشجار ، يمر عليها أكثر الناس وهم غافلون عما فيها

من عبرة ودلالة على توحيد ربها ، وأن الألوهية لاتكون إلا للواحد القهار الذى خلقها وخلق كل شىء فأحسن تدبيره .

وعلى الجملة فما فى السموات والأرض من عجائب وأسرار و إتقان و إبداع — لَيَدُلُّ أتم الدلالة على العلم المحيط والحكمة البالغة والقدرة التامة .

والذين يشتغلون بعلم مافى السموات والأرض وهم غافلون عن خالقهما ، ذاهلون عن ذكره — يمتّعون عقولهم بلذة العلم ، ولكن أرواحهم تبقى محرومة من لذة الذكر ومعرفة الله عزّ وجل ، إذ الفكر وحده إن كان مفيدا لاتكون فائدته نافعة فى الآخرة إلا بالذكر ، والذكر و إن أفاد فى الدنيا والآخرة لاتكمل فائدته إلا بالفكر ، فطوبى لمن جمع بين الأمرين فكان من الذين أوتوا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ونجوا من عذاب النار فى الآخرة .

(وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) أى ومايقرّ هؤلاء بأن الله هو الخالق كما قال « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ » إلا وهم مشركون به فى عبادتهم سواه من الأوثان والأصنام ومن زعمهم أن له ولدا ، تعالى عما يقولون .

قال ابن عباس هم أهل مكة آمنوا وأشركوا وكانوا يقولون فى تلبيتهم : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك ، وهذا هو الشرك الأعظم ، إذ يُعْبَد مع الله غيره ، وفى صحيح مسلم أنهم كانوا إذا قالوا لبيك لاشريك لك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قَدْ ، قَدْ) أى حَسْبُ حَسْبُ لاتزيدوا على هذا ، وفى الصحيحين عن ابن مسعود « قلت يارسول الله : أىُّ الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندّا وهو خلقك » .

ومن درس تاريخ الأمم الماضية والحاضرة عرف كيف طرأ الشرك على الأمم ، وسرى فى عبادتهم سريان السُّم فى الدّسَم .

قال ابن القيم فى إغاثة اللهفان : وما زال الشيطان يوحى إلى عبّاد القبور منهم .

أن الدعاء عندها مستجاب ، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء لها والإقسام على الله بها مع أن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه أو يُسْأَل بأحد من خلقه ـ فإذا تقرر ذلك عندهم ، نقلهم منه إلى دعائه وعبادته وسؤاله الشفاعة من دون الله ، واتخاذ قبره وَثَنا تعلق عليه القناديل والستور ، و يطاف به و يُسْتَلم و يُقَبّل ويُحَجّ إليه و يذبح عنده ، فإذا تقرر هذا عندهم نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته واتخاذه عيدا ومنسكا ، ورأوا أن ذلك أنفع لهم فى دنياهم وأخراهم ، وكل هذا مما علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم من تجديد التوحيد وألا يعبد إلا الله اهـ .

أما التوسل إلى الله بصالحى عباده كقولهم اللهم بجاه فلان عندك أو بحق فلان أو بحرمته أسألك أن تفعل كذا فلم ينقل عن أحد من سلف الأمة أنهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء ، وما أخرجه الطبرانى من حديث فاطمة بنت أسد من قوله (بحق نبيك والأنبياء من قبلى) فقد طعن فيه رجال الحديث، على أنه ليس فيه إلا الدعاء بحق النبيين فحسب ، وهو مافضّلهم الله به على غيرهم من النبوة والرسالة وما وعدهم به من التمكين والنصر ، على أن حقوق الرسل و صلاح الصالحين ليست من أعمال السائل التى يستحق عليها الجزاء ولارابطة تربطها بإجابة سؤاله .

(أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لايشعرون؟) أى أفأمن هؤلاء الذين يؤمنون بالله ربهم و يشركون به فى عبادته غيره ، أن تأتيهم عقوبة تغشاهم وتغمُرهم ، أوتأتيهم الساعة فجأة حيث لايتوقعون ، وهم مقيمون على شركهم ، وكفرهم بربهم ، فيخلدهم فى نار جهنم .

والآية كقوله «أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ ؟ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ، أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ ؟ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ ؟ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ » .

وقوله « أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ؟ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ؟ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ ؟ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » .

وجاء فى الصحيحين عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ولتقومنّ الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لِقْحَتِهِ (الناقة ذات الدَّر) فلا يطعَمُه ، ولتقومنّ الساعة وقد رفع أحدكم أُكلته (لقمته) إلى فيه فلا يطعَمها » والمراد من كل هذا أنها تبغت الناس وهم منهمكون فى أمور معايشهم فلا يشعرون إلا وقد أتتهم .

والحكمة فى إبهام وقتها أن الفائدة لا تتم إلا بذلك ، ليخشى أهل كل زمان إتيانها فى هذا الوقت ، فيحملهم الخوف على مراقبة الله تعالى فى أعمالهم فيلتزموا الحق ويتحرَّوْا الخير ويتقوا الشرور والمعاصى .

طريق النبى صلى الله عليه وسلم الدعوة إلى التوحيد

قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي، وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ، أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ (١٠٩) .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن أكثر الناس لا يفكرون فيما فى السموات والأرض من آيات ، ولا يعتبرون بما فيها من علامات ، تدل على أن الله هو الواحد الأحد ، الفرد

الصمد أمر رسوله أن يخبر الناس أن طريقه هى الدعوة إلى توحيد الله و إخلاص العبادة له وحده يدعو بها هو ومن اتبعه على بصيرة و برهان .

الايضاح

(قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) أى قل أيها الرسول : هذه الدعوة التى أدعو إليها ، والطريقة التى أنا عليها ، من توحيد الله و إخلاص العبادة له دون الأوثان والأصنام هى سنتى ومنهاجى ، وأنا على يقين مما أدعو إليه ولدىّ الحجة والبرهان على ما أقول ، وكذلك يدعو إليها أيضا من اتبعنى وآمن بى وصدقنى .

والآية كقوله : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » .

(وسبحان الله) أى وأنزه الله وأعظمه من أن يكون له شريك فى ملكه ، أو أن يكون هناك معبود سواه ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا : « تُسَبِّحُ لَهُ السَّمٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا » .

(وما أنا من المشركين) أى وأنا برىء من أهل الشرك به، لستُ منهم ولا هم منى

وفى قوله : (على بصيرة) إيماء إلى أن هذا الدين الحنيف لا يطلب التسليم بنظرياته ومعتقداته بحكايتها فحسب ، ولكنه دين حجة و برهان ، فقد ذكر مذاهب المخالفين وكرّ عليها بالحجة ، وخاطب العقل ، واستنهض الفكر ، وعرض نظام الأكوان ، وما فيها من الإحكام والإتقان ، على أنظار العقول وطالبها بالإمعان فيها ، لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه .

نقل البغوى عن ابن عباس فى تفسير قوله : « وَمَنِ اتَّبَعَنِى » يعنى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا على أحسن طريقة، وأقصد هداية، معدن العلم، وكنز الإيمان وجند الرحمن ، وعن ابن مسعود : أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، كانوا أفضل

هذه الأمة ، وأبرّها قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا، اختارهم الله لصحبة نبيه ، ولإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم على إثرهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ، فإنهم كانوا على الصراط المستقيم .

وقد كان من شبه منكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أن الله لوأراد إرسال رسول لبعث ملَكا كما حكى عنهم سبحانه : « لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً » فرد سبحانه عليهم بقوله :

(وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى) فكيف عجبوا منك ولم يعجبوا ممن قبلك من الرسل .

ونظير هذا قوله : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » وقوله : « وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ » وقوله : « قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ » الآية .

وهذه الشبهة ذكرت فى كثير من السور كالأعراف وإبراهيم والنحل والكهف والأنبياء والشعراء .

وقال الحافظ ابن كثير : يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء ، وهذا قول الجمهور كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة ، فالله لم يوح إلى امرأة من بنات بنى آدم وحى تشريع اه .

وفى قوله : (من أهل القرى) أى من أهل الأمصار دون البوادى إيماء إلى أن سائر البلدان تتبعهم إذا آمنوا ، ولأن أهل البادية أهل جفاء ، يرشد إلى ذلك قوله عليه السلام « من بدا جفا ، ومن اتبع الصيد غَفَل » .

ثم أتبع ذلك بتأنيبهم وتهديدهم على تكذيبهم بالرسول صلى الله عليه وسلم فقال :

(أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟) أى أفلم يسر هؤلاء المشركون من كفار قريش ممن يكذبونك ويجحدون نبوتك وينكرون ماجئتهم به من توحيد الله وإخلاص العبادة له ، فينظروا فيما وطئوا من البلاد من أوقعنا بهم

من الأمم قبلهم كقوم لوط وصالح وسائر من عذبهم الله من الأمم ، وما أحللنا بهم من بأسنا بتكذيبهم رسلنا ، وجحودهم بآياتنا ، ويعتبروا بما حل بهم .

ثم رغّب فى العمل للآخرة فقال :

(ولدار الآخرة خير للذين اتقوا) أى إن الدار الآخرة للذين آمنوا بالله ورسله واتقوا الشرك به وارتكاب الآثام والمعاصى — خير من هذه الدار المشركين المنكرين للبعث المكذبين بالرسل والذين لاحظ لهم من هذه الحياة إلا التمتع بلذاتها .

فإن نعيمها البدنى أكمل من نعيم الدنيا ، لدوامه وثباته وخلوه عن المنغّصات والآلام ، فما بالك بنعيمها الروحى من لقاء الله ورضوانه وكمال معرفته .

(أفلا تعقلون ؟) هذا الفرق أيها المكذبون بالآخرة ، أما إنكم لو عقلتم ذلك لآمنتم .

ثم ذكر سبحانه تثبيتا لفؤاده عليه السلام أن العاقبة لرسله ، وأن نصره تعالى ينزل عليهم حين ضيق الحال وانتظار الفرج كما قال : « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » وقال : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا » وأن نصره يأتيهم إذا تمادى المبطلون فى تكذيبهم فقال :

الفرج بعد الشدة

حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)

تفسير المفردات

الظن هنا : إما بمعنى اليقين و إما بمعنى الحسبان والتقدير ، والبأس : العقاب ، والألباب : العقول واحدها لب، وسمى بذلك لـكونه خالص ما فى الإنسان من قواه ، والعبرة : الحال التى يتوصل بها من قياس ماليس بمشاهد بما هو بمشاهد .

الإيضاح

(حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا) أى وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى فدعَوْا من أرْسِلوا إليهم إلى توحيد الله و إخلاص العبادة له فـكذبوا بما جاءوهم به ، وردوا ما أتَوْا به من عند ربهم ، حتى إذا يئس الرسل من إيمانهم ، لانهماكهم فى الـكفر وتماديهم فى الطغيان من غير وازع ، وظنَّت الأمم أن الرسل الذين أرسلوا إليهم قد كذبوهم فيما كانوا أخبروهم عن الله من وعده لهم النصر عليهم ـ جاءهم نصرنا .

وهذه سنة الله فى الأمم ، يرسل إليهم الرسل بالبينات ، ويؤيدهم بالمعجزات ، حتى إذا أعرضوا عن الهداية ، وعاندوا رسل ربهم ، وامتدّت مدة كيدهم وعدوانهم ، واشتد البلاء على الرسل واستشعروا بالقنوط من تمادى التكذيب وتراخى النصر ـ جاءهم نصر الله فجأة ، وأخذ المـكذبين العذاب بغتة ، كالطوفان الذى أغرق قوم نوح ، والريح التى أهلـكت عادا قوم هود ، والصيحة التى أخذت ثمود ، والخسف الذى نزل بقُرى قوم لوط وهم فيها كما قال : « أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِـكَاتِ ، أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » .

وفى هذا تذكير لـكفار قريش بأن سنته تعالى فى عباده واحدة لاظلم فيها ولا محاباة وأنهم إن لم ينيبوا إلى ربهم حل بهم من العذاب ماحل بأمثالهم من أقوام الرسل كما قال فى سورة القمر : « أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِـكُمْ أَمْ لَـكُمْ بَرَاءَةٌ فِى الزُّبُرِ ؟ » وقد نصر الله نبيه صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر وما بعدها من الغزوات ، وأهلك الجاحدين المعاندين من قومه .

روى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت لابن أختها عروة بن الزبير وهو يسألها عن قول الله تعالى : (حتى إذا استيأس الرسل) الآية ، هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم ، فطال عليهم البلاء واستأخر عليهم النصر ، حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم ــ جاءهم نصر الله عند ذلك .

وعن عائشة « أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ وظنوا أنهم قد كذبوا » (مخففة) أخرجه ابن مردويه من طريق عكرمة ، ونحوه عن ابن عباس قال : « يئس الرسل أن يستجيبوا لهم وظن قومهم أن الرسل كذبوهم بما جاءوهم به جاءهم نصرنا » ونحوه «عن ابن مسعود قال «حفظت عن رسول الله فى سورة يوسف أنهم قد كذبوا مخففة» اهـ .

(فنجّى من نشاء) أى فنجى الرسلُ ومن آمن بهم من أقوامهم ، لأنهم بحسب ما وضع الله من تأثير الأعمال فى طهارة النفوس وزكائها ــ هم الذين يستحقون النجاة دون غيرهم كما قال : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » .

(ولا يردّ بأسنا عن القوم المجرمين) أى ولا يمنع عقابنا وبطشنا عن القوم الذين أجرموا فكفروا بالله وكذبوا رسله ، وما أتَوْهم به من عند ربهم .

وقد جرت سنة الله أن يبلّغ الرسلُ أقوامهم ويقيموا عليهم الحجة وينذروهم سوء عاقبة الكفر والتكذيب ، فيؤمن المهتدون ، ويصرّ المعاندون ، فينجى الله الرسل ومن آمن من أقوامهم ويهلك المكذبين .

ولا يخفى ما فى الآية من التهديد والوعيد لكفار قريش ومن على شاكلتهم من المعاصرين للنبى صلى الله عليه وسلم .

(لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) قص الخبر : حدّث به على أصح الوجوه وأصدقها ، من قولهم قص الأثر واقتصه إذا تتبّعه وأحاط به خُبْرا ، أى لقد كان فى قصص يوسف عليه السلام مع أبيه وإخوته عبرة لذوى العقول الراجحة والأفكار الثاقبة ، لأنهم هم الذين يعتبرون بعواقب الأمور التى تدلّ عليها أوائلها ومقدماتها ، أما الأغرار الغافلون فلا يستعملون عقولهم فى النظر والاستدلالات ، ومن ثم لا يفيدهم النصح .

وجهة الاعتبار بهذه القصة أن الذى قَدَر على إنجاء يوسف بعد إلقائه فى غيابة الجب ، وإعلاء أمره بعد وضعه فى السجن ، وتمليكه مصر بعد أن بيع بالثمن البخس ، والتمكين له فى الأرض من بعد الإسار والحبس الطويل ، وإعزازه على من قصده بالسوء من إخوته ، وجمع شمله بأبويه وبهم بعد المدة الطويلة المدى ، والمجىء بهم من الشقة البعيدة النائية - إن الذى قدر على ذلك كله لقادر على إعزاز محمد صلى الله عليه وسلم وإعلاء كلمته ، وإظهار دينه ، فيخرجه من بين أظهركم ، ثم يظهره عليكم ، ويمكن له فى البلاد ، ويؤيده بالجند والرجال ، والأتباع والأعوان ، وإن مرّت به الشدائد ، وأتت دونه الأيام والحوادث .

(ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه) أى ما كان هذا القصص حديثا يُختلق ويفترى ، لأنه نوع أعجز حملة الأحاديث ورواة الأخبار - ممن لم يطالع الكتب ولم يخالط العلماء ، فهو دليل ظاهر ، وبرهان قاهر ، على أنه جاء بطريق الوحى والتنزيل . ومن ثم قال ولكن تصديق الذى بين يديه أى من الكتب السماوية التى أنزلها الله قبله على أنبيائه كالتوراة والإنجيل والزبور ، أى تصديق ما عندهم من الحق فيها ، لا كل الذى عندهم ، فهو ليس بمصدّق لما عندهم من خرافات فاسدة ، وأوهام باطلة ، لأنه جاء لمحوها وإزالتها ، لا لإثباتها وتصديقها .

(وتفصيل كل شىء) من أمر الله ونهيه ، ووعده ووعيده ، وبيان ما يجب له تعالى من صفات الكمال وتنزهه عن صفات النقص ، وفيه قصص الأنبياء مع أقوامهم ، لما فيها من عبر وعظات وسائر ما بالعباد إليه حاجة .

وعلى الجملة ففى القرآن تفصيل كل شىء يُحتاج إليه فى أمر الدين ، وقد أسهب فى موضع الإسهاب ، وأوجز حيث يكفى الإيجاز ، ففصّل الحق فى العقائد بالحجج والدلائل ، وفى الفضائل والآداب وأصول الشريعة وأمهات الأحكام ، بما به تصلح أمور البشر ، وشئون الاجتماع

(وهدى) أى وهو هدى لمن تدبّره ، وأمعن فى النظر فيه ، وتلاه حق تلاوته ، فهو مرشد إلى الحق وهاد إلى سبيل الرشاد وعمل الخير والصلاح ، فى الدين والدنيا .

(ورحمة لقوم يؤمنون) أى وهو رحمة عامة للمؤمنين الذين تنفّذ فيهم شرائعه فى دينهم ودنياهم .

والخاضعون لها من غير المؤمنين يكونون فى ظلها آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ، أحرارا فى عقائدهم وعباداتهم ، مساوين للمؤمنين فى حقوقهم ومعاملاتهم، يعيشون فى بيئة خالية من الفواحش والمنكرات التى تفسد الأخلاق وتعبث بالفضائل .

نسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم فى الدنيا والآخرة ، وأن يحشرنا فى زمرة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . يوم تسودّ وجوه وتبيضّ وجوه وأن يجعل خواتيمنا خير الخواتيم فى الدنيا والآخرة كما جعل خاتمة يوسف مع أبويه وإخوته كذلك .

إجمال ما جاء فى سورة يوسف

(١) قصص يوسف رؤياه على أبيه يعقوب .
(٢) نهى يعقوب لولده عن قَصِّهِ قَصَصَهُ على إخوته.
(٣) تدبيرهم المكيدة ليوسف وإلقائه فى غيابة الجب .
(٤) ادعاؤهم أن الذئب قد أكله .
(٥) عثور قافلة ذاهبة إلى مصر عليه والتقاطها له.
(٦) بيعها إياه فى مصر بثمن بخس لعزيز مصر .
(٧) وصية العزيز لامرأته بإكرام مثواه .
(٨) مراودة المرأة له عن نفسها وإعداد الوسائل لذلك .
(٩) تمنّعه من ذلك إكراما لسيده الذى أكرم مثواه .
(١٠) قدُّها لقميصه وادعاؤها عليه أنه هو الذى أراد بها الفاحشة .
(١١) شهادة شاهد من أهلها بما يجلى الحقيقة .
(١٢) افتضاح أمرها فى المدينة لدى النسوة .
(١٣) تدبيرها المكيدة لأولئك النسوة وإحكام أمرها .
(١٤) إدخاله السجن اتباعا لمشيئتها .

(١٥) تعبيره رؤيا فتيين دخلا معه السجن

(١٦) رؤيا الملك وطلبه تعبيرها

(١٧) إرشاد أحد الفتيين للملك عن يوسف وأنه نعم المعبِّر لها

(١٨) طلب الملك إحضاره من السجن واستخلاصه لنفسه

(١٩) توليته رئيسا للحكومة ومهيمنا على ماليتها

(٢٠) مجىء إخوة يوسف إليه وطلبه منهم أن يحضروا أخاهم لأبيهم

(٢١) إرجاع البضاعة التى جاءوا بها

(٢٢) إحضارهم أخاه إليه بعد إعطائهم الموثق لأبيهم

(٢٣) طلب أبيهم أن يدخلوا المدينة من أبواب متعددة

(٢٤) إخبار يوسف لأخيه عن ذات نفسه

(٢٥) أذان المؤذن أن العير قد سرقوا

(٢٦) قول الإخوة إن أخاه قد سرق من قبل بعد حجزه عنده

(٢٧) طلب الإخوة من يوسف أن يأخذ أحدهم مكانه

(٢٨) وجود غشاوة على عينى يعقوب من الحزن

(٢٩) تعريف يوسف بنفسه لإخوته

(٣٠) حين جاء البشير بقميص يوسف ارتد يعقوب بصيرا

(٣١) طلب الإخوة من أبيهم أن يستغفر لهم .

(٣٢) رفع يوسف أبويه على العرش

(٣٣) قول يوسف لأبيه هذا تأويل رؤياى من قبل

(٣٤) دعاؤه بحسن الخاتمة

(٣٥) فى هذا القصص إثبات لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم

(٣٦) تحذير المشركين من نزول العذاب بهم كما حدث لمن قبلهم

(٣٧) لم يرسل الله إلا رجالا وما أرسل ملائكة

(٣٨) نصر الرسل بعد الاستيئاس

(٣٩) فى قصص الرسل عبرة لأولى الألباب

سورة الرعد

هى مدنية وآيها ثلاث وأربعون ، نزلت بعد سورة محمد ، ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنه سبحانه أجمل فى السورة السابقة الآيات السماوية والأرضية فى قوله : « وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمٰوَاتِ الْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » ثم فصلها هنا أتم تفصيل فى مواضع منها :

(٢) إنه أشار فى سورة يوسف إلى أدلة التوحيد بقوله « أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ؟ » ثم فصل الأدلة هنا بإسهاب لم يُذكَر فى سالفتها .

(٣) إنه ذكر فى كلتا السورتين أخبار الماضين مع رسلهم ، وأنهم لاقَوْا منهم ما لاقوا ، وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، وكتب الخزى على الكافرين ، والنصر لرسله والمؤمنين ، وفى ذلك تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم وتثبيت لقلبه .

(٤) جاء فى آخر السورة السابقة وصف القرآن بقوله : « مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَٰكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » وفى أول هذه وهو قوله: « تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ » .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

صفات القرآن

الٓمٓر . تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١) .

الايضاح

(الٓمٓر) قلنا فيما سلف إن هذه الحروف فى أوائل السور حروف تنبيه كألا ونحوها وتقرأ بأسمائها ساكنة فيقال «ألفْ، لامْ ، ميمْ ، رَا » ؛ كما قلنا إن كل سورة بدئت بهذه الحروف ففيها انتصار للقرآن ، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لاشك فيه .

(تلك آيات الكتاب) أى آيات هذه السورة آيات القرآن البالغ حد الكمال المستغنى عن الوصف بين الكتب السماوية ، الجدير بأن يختص باسم «الكتاب» .

(والذى أنزل إليك من ربك الحق) أى وكل القرآن الذى أنزله إليك ربك حق لاشك فيه ، وهذا كالإجمال بعد التفصيل لما تقدم من وصف السورة بالكمال فكأنه سبحانه بعد أن أثبت لهذه السورة الرفعة والكمال عمم هذا الحكم فأثبته للقرآن جميعه ، فلا تختص به سورة دون أخرى .

وهذا الأسلوب جار على سنن العرب فى تخاطبهم فقد قالت فاطمة الأنمارية وقد سُئلت عن بنيها ، أىٌّ بنيك أفضل ؟ (ربيعة ، بل عمارة ، بل قيس ، بل أنس ، ثَكِلتُهم إن كنت أعلم أيُّهم أفضل ، هم كالحلْقة المفرَغة لايُدْرَى أين طرفاها) فبعد أن أثبتت الفضل لكل منهم على سبيل التعيين ، أجملت القول وأثبتت لهم الفضل جميعا .

(ولكن أكثر الناس لايؤمنون) أى ولكن أكثر الناس لايصدقون بما أنزل عليك من ربك ، ولا يقرون بهذا القرآن وما فيه من بديع الأمثال والحكم والأحكام التى تناسب مختلف العصور والأزمان . والتى لو سار الناس على سَنَنها لسعدوا فى الدنيا والآخرة ؛ وقد سلك المسلمون سبيلها فى عصورهم الأولى فكانوا خير أمة أخرجت للناس ، وامتلكوا أكثر المعمور فى ذلك الحين وثَلُّوا عروش كسرى والروم ودانت لهم الرقاب ، وساسوا الملك سياسة شهد لهم أعداؤهم بأنها كانت سياسة عدل ورفق ، وأخذ على يد الظالم لإنصاف المظلوم ، فلله دينٌ رفع من قدر أهله حتى أوصلهم

إلى السماكين ، ولكن خلف من بعدهم خَلْف أضاعوا معالمه، وألقوْها وراءهم ظهريا فحاق بهم ما كانوا يكسبون ، وصاروا أذلة بعد أن كانوا أعزة ، ومستعبدين بعد أن كانوا سادة ، تابعين بعد أن كانوا متبوعين « إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ » والآية بمعنى قوله : « وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ » .

دلائل الوحدانية والقدرة

اللهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ، يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ومِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيها زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهارَ ، إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الْأُكُلِ، إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) .

تفسير المفردات

العمد : السوارى واحدها عمود كأدم وأديم ، والتسخير: التذليل والطاعة، والتدبير: التصريف للأمور على وجه الحكمة ، والتفصيل : التبيين ، والآيات : هى الأدلة التى تقدم ذكرها من الشمس والقمر ، واليقين : العلم الثابت الذى لاشك فيه ، والمد : البسط ، والرواسى : الثوابت المستقرة التى لاتتحرك ولا تنتقل واحدها راسية ، والأنهار

واحدها نهر : وهو المجرى الواسع من الماء ، زوجين اثنين : أى ذكر وأنثى ، والعرب تسمى الاثنين زوجين والواحد من الذكور زوجا لأنثاه ، والأنثى زوجا وزوجة لذكرها، يغشى يغطى ، قطع : أى بقاع ، متجاورات : أى متقاربات ، جنات أى بساتين ، صنوان : هى النخلات يجمعها أصل واحد وتتشعب فروعها واحدها صنو، وفى الحديث « عم الرجل صنو أبيه » والأكل (بضمتين و بتسكين الثانى) : مايؤكل والمراد به التمر والحب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآية السالفة أن أكثر الناس لايؤمنون ، أعقبه بذكر البراهين على التوحيد والمعاد فاستدل بأحوال السموات وأحوال الشمس والقمر وأحوال الأرض جبالها وأنهارها وأزهارها ونخيلها وأعنابها واختلاف ثمراتها وتنوّع غلاتها على وجود الإله القادر القاهر الذى بيده الخلق والأمر ، و بيده الضر والنفع ، و بيده الإحياء والإماتة ، وهو على كل شىء قدير .

الإيضاح

ذكر سبحانه أدلة على وجوده ووحدانيته وقدرته ، بعضها سماوى و بعضها أرضى ، وذكر من الأولى جملة أمور :

(١) (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها) أى إنه تعالى خلق السموات مرفوعات عن الأرض بغير عمد ، بل بأمره وتسخيره ، على أبعاد لايدرك مداها ، وأنتم ترونها كذلك بلا عمد من تحتها تسندها ، ولاعلاقة من فوقها تمسكها ، وقد تقدم هذا بإيضاح فى سورة البقرة .

(٢) (ثم استوى على العرش) أى ثم استوى على عرشه الذى جعله مركز هذا التدبير العظيم استواء يليق بعظمته وجلاله ، يدبر أمر ملكه بما اقتضاه علمه من

النظام ، و إرادته وحكمته من إحكام و إتقان ، وقد سبق تفصيل هذا فى سورتى الأعراف و يونس .

(٣) (وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى) أى وذلل الشمس والقمر وجعلهما طائعين لما أريد منهما لمنافع خلقه ، فكل منهما يسير فى منازله لوقت معين ؛ فالشمس تقطع فلكها فى سنة ، والقمر فى شهر لا يختلف جرى كل منهما عن النظام الذى قدر له ، و إليه الإشارة بقوله « والشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لهَا » وقوله « وَالقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ » و إيضاح هذا ذكر فى سورتى يونس وهود ، و بعد أن ذكر هذه الدلائل قال :

(يدبر الأمر) أى إنه تعالى يتصرف فى ملكه على أتم الحالات وأكمل الوجوه؛ فهو يميت ويحيى ، و يوجد ويعدم ، و يغنى ويفقر ، و ينزل الوحى على من يشاء من عباده ، وفى ذلك برهان ساطع على القدرة والرحمة ، فإن اختصاص كل شىء بوضع خاص وصفة معينة لا يكون إلا من مدبر اقتضت حكمته أن يكون كذلك ، فتدبيره لعالم الأجسام كتدبيره لعالم الأرواح ، وتدبيره للكبير كتدبيره للصغير ، لا يشغله شأن عن شأن ، ولا يمنعه تدبير شىء عن تدبير آخر كما هو شأن المخلوقات فى هذه الدنيا ، وكذلك هو دليل أيضا على أنه تعالى متعال فى ذاته وصفاته وعلمه وقدرته لا يشبه شيئا من مخلوقاته .

(يفصل الآيات) أى يلبس الموجودات ثوب الوجود بنظام محكم دقيق ، و يوجد بينها ارتباطات تجعلها كأنها سلسلة متصلة الحلقات لا انفصام لبعضها عن بعض ؛ فالمجموعة الشمسية من الشمس والقمر والكواكب مرتبطة فى حركاتها بنظام خاص بوساطة الجاذبية لا تحيد عن سننه ولا تجد معدلا عن السير فيه بحسب النهج الذى قدر لها ، ولا تزال كذلك حتى ينتهى العالم ، فيحدث حينئذ تغيير لأوضاعها ، واختلال لحركاتها : « إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ . وَإِذَا الكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ » .

وهكذا الموجودات الأرضية لها أسباب تعقبها مسببات بإذن الواحد الأحد ، فالزارع يحرث أرضه ويلقى فيها الحب ثم يسقيها ويضع فيها السَّمَادَ ويوالى سقيها حتى تؤتى أكلها ، فإذا فقدت حلقة من تلك السلسلة باء صاحب الزرع بالخسران فلم يحصل على شىء أو حصل على القليل التافه الذى لا يعْدِل التعب والنَّصَب الذى فعله .

ثم أبان سبحانه أن هذا التدبير للأمور والتفصيل للآيات الدالين على القدرة الكاملة والحكمة الشاملة ، جاءا لحكمة اقتضتهما وهى الإيقان بالبعث لفصل القضاء ومجازاة كل عامل بما عمل : « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » فإما نعيم مقيم وإما عذاب أليم ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(لعلكم بلقاء ربكم توقنون) أى رجاء أن تتحققوا أن من قدر على رفع السموات بغير عمد ودبر الأمر بإحكام ونظام ــ قادر على البعث والنشور وإحياء الموتى من القبور لفصل القضاء ثم ثواب كل عامل على ماعمل ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر ؛ فإما سعادة لاشقاء بعدها ، وإما نكال وعذاب تتبدل من هوله الجلود « كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا » .

وخلاصة هذه العبرة ــ إنه تعالى كما قدر على إبقاء الأجرام الفلكية العظيمة من الشمس والقمر وسائر الكواكب فى الجو بلا عمد ودبّر الأمور بغاية الإحكام والدقة ولم يشغله شأن عن شأن ــ ليس بالبعيد عليه أن يرد الأرواح إلى الأجساد ويُعيد العالم إلى حياة أخرى حياة استقرار وبقاء لافناء بعدها ، وإذا أيقنتم بذلك ولّيتم مُعْرِضين عن عبادة الأصنام والأوثان ، وأخلصتم العبادة للواحد الديان ، وائتمرتم بوعده ووعيده ، وصدقتم برسله ، وبادرتم إلى اتباع أوامره وتركتم مانهى عنه ، ففزتم بسعادة الدارين .

وبعد أن ذكر سبحانه الدلائل السماوية على وحدانيته وكمال قدرته أردفها بالأدلة الأرضية فقال :

(١) (وهو الذى مد الأرض) أى جعلها متسعة ممتدة فى الطول والعرض ، لتثبت عليها الأقدام ، ويتقلب عليها الحيوان ، وينتفع الناس بخيراتها زرعها وضرعها ، وبما فى باطنها من معادن جامدة وسائلة ، ويسيرون فى أكنافها يبتغون رزق ربهم منها .

ولاشك أن الأرض لعظم سطحها هى فى رأى العين كذلك ، وهذا لايمنع كرويتها التى قد قامت عليها الأدلة لدى علماء الفلك ولم يبق لديهم فيها ريب .

(٢) (وجعل فيها رواسى) أى وأرساها بجبال راسيات شامخات لاتنتقل ولاتتحرك حتى لاتميد وتضطرب .

(٣) (وأنهارا) أى وجعل فيها أنهارا جارية لمنافع الإنسان والحيوان ، فيسقى الإنسان ماجعل الله فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال ويجعلها لنفسه طعاما وفاكهة ، ويكون منها مادة حياته فى طعامه وشرابه وغذائه .

(٤) (ومن كل الثمرات ، جعل فيها زوجين اثنين) أى وجعل فيها من كل أصناف الثمرات زوجين اثنين ذكرا وأنثى حين تكوّنها ، فقد أثبت العلم حديثا أن الشجر والزرع لايولدان الثمر والحب إلامن اثنين ذكر وأنثى ، وعضو التذكير قد يكون مع عضو التأنيث فى شجرة واحدة كأغلب الأشجار ، وقد يكون عضو التذكير فى شجرة وعضو التأنيث فى شجرة أخرى كالنخل ، وما كان العضوان فيه فى شجرة واحدة إما أن يكونا معا في زهرة واحدة كالقطن ، وإما أن يكون كل منهما فى زهرة كالقرع مثلا .

(٥) (يغشى الليل النهار) أى يُلبس النهار ظلمة الليل ، فيصير الجو مظلما بعد أن كان مضيئا ، فكأنه وضع عليه لباسا من الظلمة ، وكذلك يلبس الليل ضياء النهار فيصير الجو مضيئا ، وكل هذا لتتم المنافع للناس بالسكون والاستقرار أو بالبحث على المعايش والأرزاق كما قال : « أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا » وقال : « وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ » .

و بعد أن ذكر هذه الأدلة التى تشاهَد رأى العين فى كل صباح ومساء وفى كل حين ووقت ، ذكر أن هذه الأدلة لا يلتفت إليها ولا يعتبر بها إلا من له فكر يتدبر به وعقل يهتدى به إلى وجه الصواب و ينتقل من النظر فى الأسباب إلى مسبباتها فقال :

(إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) أى إن فيما ذكر من عجائب خلق الله وعظيم قدرته التى خلق بها هذه الأشياء العظيمة - لدلائل وحججا لمن يتفكر فيها ويعتبر فيعلم أن الخالق لذلك هو القاهر فوق العباد ، وهو ذو الإرادة المطلقة والقدرة الشاملة ، فلا يعجزه إحياء من هلك من خلقه ، ولا إعادة من فنى منهم ، ولا ابتداع ماشاء ابتداعه ، ومن ثم لاتجوز العبادة إلا له ، ولا التذلل والخضوع إلا لسلطانه ، ولا ينبغى أن تكون لصنم أو وثن أو حجر أو شجر أو ملك أو نبى أو غير أولئك ممن سُلِب النفع والضر ، بل لا يستطيع صرف الأذى عن نفسه : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ . وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ » .

وقد روى « تفكروا فى آلاء الله ولا تتفكروا فى الله » .

(٦) (وفى الأرض قطع متجاورات) أى وفى الأرض بقاع متجاورات متدانيات، يقرب بعضها من بعض ، وتختلف بالتفاضل مع تجاورها ، فمن سَبِخة لاتنبت شيئا إلى أرض جيدة التربة تجاورها وتنبت أفضل الثمرات ومختلف النبات ، ومن صالحة للزرع دون الشجر ، إلى أخرى مجاورة لها تصلح للشجر دون الزرع ، إلى متدانية لهما تصلح لجميع ذلك ، ومنها الرِّخوة التى لاتكاد تتماسك وهى تجاور الصُّلْبة التى لاتفتتها المعاول وأدوات التدمير من المفرقعات (الديناميت والقنابل) وكلها من صنع الله وعظيم تدبيره فى خلقه .

(وجنات من أعناب) أى وفيها بساتين من أشجار الكرم .

(وزرع) أى وفيها زرع من كل نوع وصنف من الحبوب المختلفة التى تكون غذاء للإنسان والحيوان .

(ونخيل صنوان وغير صنوان) أى وفيها نخيل صنوان يجمعها أصل واحد وتتشعب فروعها ، وغير صنوان أى متفرقات مختلفة الأصول .

(يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل) أى يسقى كل ماذكر من القطع والجنات والزرع والنخيل بماء واحد لا اختلاف فى طبعه ، ومع وجود أسباب التشابه نفضّل بمحض القدرة بعضا منها على بعض فى الثمرات شكلا وقدرا ، ورائحة وطعما ، وحلاوة وحموضة .

ثم بين أن مثل هذا لايفكر فيه إلامن أوتى العقل الذى يفكر فى المقدمات والنتائج ، والأسباب والمسببات فقال :

(إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) أى إن فيما فُصِّل من الأحوال السالفة لآيات باهرة لقوم يعملون على قضية العقل ، فمن ير خروج الثمار المختلفة الأشكال والألوان والطعوم والروائح فى تلك البقاع المتلاصقة ، مع أنها تسقى بماء واحد وتتشابه وسائل نموها ــ يجزم حتما بأن لذلك صانعا حكيما قادرا مدبرا لايعجزه شىء ، وكذلك يعتقد بأن من قدر على إنشاء ذلك ، فهو قادر على إعادة مابدأه أول مرة ، بل هو أهون منه لدى النظر والاعتبار .

إنكار المشركين للبعث والنبوة

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ! أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِى أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ،

وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) .

تفسير المفردات

العجب : تغير النفس حين رؤية مايُسْتبْعَد فى مجرى العادة ، والأغلال : واحدها غُلّ ، وهو طوق من الحديد طرفاه فى اليدين ويحيط بالعنق ، والمثلات (بفتح فضم) واحدها مثلة (بفتح فضم) كسمرة وهى العقوبة التى تترك فى المعاقب أثرا قبيحا كصلْم أذن أو جَدْع أنف أو سَمل عين ، والغفر : الستر بالإمهال وتأخير العقاب إلى الآخرة ، والمراد بالآية هنا الآيات الحسية كقلب عصا موسى حية وناقة صالح ، والإنذار : التخويف ، والهادى : القائد الذى يقود الناس إلى الخير كالأنبياء والحكماء والمجتهدين .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر إنكارهم لوحدانيته تعالى مع وضوح الأدلة على ذلك ، من خلق السموات بلا عمد وتسخير الشمس والقمر يجريان إلى أجل مسمى ومن مد الأرض وإلقاء الجبال الرواسى فيها إلى آخر ماذكر من الآيات الدالة على عظيم قدرته وبديع صنعه لمن يتأمل ويتفكر فى ذلك الملكوت العظيم ـ ذكر هنا إنكارهم للبعث والنشور على وضوح طريقه وسطوع دليله قياسا على مايرون ويشاهدون ، فإن من قدر على خلق السموات والأرض وسائر العوالم على هذا النحو الذى يحار الإنسان فى الوصول إلى معرفة كنهه لايعجز عن إعادته فى خلق جديد كما قال تعالى : أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ؟ » .

الايضاح

(وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد ؟) أى وإن تعجب من عبادتهم مالا يضر ولا ينفع من الأصنام والأوثان بعد أن قامت الأدلة على التوحيد ، فأعجب منه تكذيبهم بالبعث واستبعادهم إياه بقولهم :

(أئذا كنا ترابا أئنا لفى خلق جديد ؟) أى أئذا فنينا وبلينا نعاد بعد العدم ، مع أنهم لا ينكرون قدرته تعالى على إيجادهم بداءة ذى بدء وتصويرهم فى الأرحام وتدبير شئونهم حالا بعد حال .

وقد تكرر هذا الاستفهام فى أحد عشر موضعا فى تسع سور من القرآن : فى الرعد ، والإسراء ، والمؤمنون ، والنحل ، والعنكبوت ، والسجدة ، والصافات ، والواقعة ، والنازعات ! وكلها تتضمن كمال الإنكار وعظيم الاستبعاد .

ثم وصف أولئك المنكرين للبعث فقال :

(أولئك الذين كفروا بربهم) أى أولئك الذين جحدوا قدرة ربهم وكذبوا رسوله على ماعاينوا من آياته الكبرى التى ترشدهم إلى الإيمان وتهديهم سبيل الرشاد لوكانوا يبصرون — هم الذين تمادَوْا فى عنادهم وكفرهم ، فإن إنكار قدرته تعالى إنكار له لأن الإله لايكون عاجزا .

(وأولئك الأغلال فى أعناقهم) أى وأولئك مقيدون بسلاسل وأغلال من الضلال تصدهم عن النظر فى الحق واتباع طريق الهدى والبعد عن الهوى كما قال :

كيف الرشاد وقد خُلِّفتُ فى نفر   لهم عن الرشد أغلال وأقياد

وقد يكون المعنى — إنهم يوم القيامة عند العرض للحساب توضع الأغلال فى أعناقهم كما يقاد الأسير الذليل بالغل ، ويؤيده قوله تعالى : « إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ » .

(وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) أى وأولئك هم الماكثون فى النار دار

الذل والهوان لا يتحولون عنها ولا يبرحونها كِفاء ماسولت لهم أنفسهم من سيء الأعمال وما اجترحوا من الموبقات والشرور والآثام : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » .

وبعد أن ذكر تكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم فى إنكار عذاب يوم القيامة ذكر جحودهم لعذاب الدنيا الذى أوعدهم به ، وكانوا كلما هددهم بالعذاب قالوا له جئنا به وطلبوا منه إنزاله ، وهذا ماأشار إليه بقوله :

(ويستعجلونك بالسيئة) أى ويستعجلونك بالعقوبة التى هددوا بها إذا هم أصروا على الكفر استهزاء وتكذيبا كما حكى الله عنهم فى قوله « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ » وفى قوله « وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ » وفى قوله « سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ » .

(قبل الحسنة) أى قبل الثواب والسلامة من العقوبة ، وكان صلى الله عليه وسلم يعدهم على الإيمان بالثواب فى الآخرة وحصول النصر والظفر فى الدنيا .

(وقد خلت من قبلهم المثلات) أى ويستعجلونك بذلك مستهزئين بإنذارك منكرين وقوع ماتنذرهم به ، والحال أنه قد مضت العقوبات الفاضحة النازلة على أمثالهم من المكذبين المستهزئين ، فمن أمة مسخت قردة ، وأخرى أهلكت بالرجفة ، وثالثة أهلكت بالخسف إلى نحو أولئك .

(وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) أى وإن ربك لذو عفو وصفح عن ذنوب من تاب من عباده فتارك فضيحته بها فى يوم القيامة ، ولولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة حين اكتسابها كما قال « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ » .

(وإن ربك لشديد العقاب) لمن يجترح السيئات وهو متماد فى غوايته سادر

فى آثامه ، وقد يعجل له قسطا منه فى الدنيا ويكون جزاء له على ماسولت له نفسه كما يشاهد لدى المدمنين على الخمور من اعتلال وضعف ومرض مزمن وفقر مدقع وذل وهوان بين الناس ، وفى المقامرين من خراب عاجل و إفلاس فى المال والذل بعد العز ، وربما اقتضت حكمته أن يؤجل له ذلك إلى يوم مشهود يوم يقوم الناس لرب العالمين فيستوفى قطه هناك نارا تكوى بها الجباه والجنوب ، وتبدل الجلود غير الجلود ، وقد قرن المغفرة بالعقاب فى مواضع كثيرة من الكتاب الكريم ليعتدل الرجاء والخوف كقوله « إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » وقوله « نَبِّىء عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » إلى أمثال ذلك من الآيات التى تجمع الخوف والرجاء .

روى ابن أبى حاتم عن سعيد بن المُسيِّب قال : لما نزلت هذه الآية (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ) الخ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لولا عفو الله وتجاوزه ماهنأ أحدا العيشُ ، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل واحد » .

وبعد أن ذكر طعنهم فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لقوله بالحشر والمعاد ، ثم طعنهم فيه لأنه أنذرهم بحلول عذاب الاستئصال ذكر أنهم طعنوا فيه ، لأنه لم يأت لهم بمعجزة مبيّنة كما فعل الرسل من قبله فقال :

(ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه) أى ويقول الذين كفروا تعنتا وجحودا : هلا يأتينا بآية من ربه كعصا موسى وناقة صالح ، فيجعل لنا الصفا ذهبا ويزيح عنا الجبال ويجعل مكانها مروجا وأنهارا ، وقد طلبوا ذلك ظنا منهم أن القرآن كتاب كسائر الكتب لايدخل فى باب المعجزات التى أتى بها الرسل السالفون .

وقد رد الله عليهم الشبهة بقوله فى آية أخرى « وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ » أى إن سنتنا أن الآيات إن لم يؤمن بها من طلبوها أهلكناهم بذنوبهم ، ولم نشأ أن يحل بكم عذاب الاستئصال .

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم راغبا فى إجابة مقترحاتهم حبا فى إيمانهم بيّن له وظيفته التى أُرسل لأجلها فقال :

(إنما أنت منذر) أى إن مهمتك التى بعثت لها هى الإنذار من سوء مغبّة مانهى الله عنه كدأب من قبلك من الرسل ، وليس عليك الإتيان بالآيات التى يقترحونها ابتغاء هدايتهم ، فأمر ذلك إلى خالقهم وهاديهم « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » ، « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » .

(ولكل قوم هاد) أى ولكل أمة قائد يدعوهم إلى سبل الخير ، فطره الله على سلوك طريقه بما أودع فيه من الاستعداد له بسائر وسائله ، وقد شاء أن يبعث هؤلاء الهداة فى كل زمان كى لايترك الناس سدى . وأولئك هم الأنبياء الذين يرسلهم لهداية عباده ، فإن لم يكونوا فالحكماء والمجتهدون الذين يسيرون على سننهم ويقتدون بما خلفوا من الشرائع وفضائل الأخلاق وحميد الشمائل ، ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

الله عليم بكل شىء

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١) .

تفسير المفردات

الغيض : النقصان ؛ يقال غاض الماء وغِضْته كما قال « وَغِيضَ المَاء » بمقدار ، أى بأجل لايتجاوزه ولاينقص عنه ، والغائب : ماغاب عن الحس ، والشاهد : الحاضر المشاهد ، الكبير : العظيم الشأن ، والمتعالى : المستعلى على كل شىء ، وأسر الشىء : أخفاه فى نفسه ، والمستخفى : المبالغ فى الاختفاء ، والسارب : الظاهر ، من قولهم سرب : إذا ذهب فى سر به (طريقه) معقبات ، أى ملائكة تعتقب فى حفظه وكلاءته واحدها معقبة ، من عَقَّبه : أى جاء عقبه ، من بين يديه ، أى قدّامه ، ومن خلفه ، أى من ورائه ، من أمر الله ، أى بأمره وإعانته ، وال ، أى ناصر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه إنكار المشركين للبعث واستبعادهم له كما حكى عنهم بقوله « أئِذَا كُنَّا تُرَابًا أئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ » ، إذ رأوا أن أجزاء الحيوان حين تفتتها وتفرقها يختلط بعضها ببعض ، وقد تتناثر فى بقاع شتى ونواح عدة ، وربما أكل بعض الجسم سبع وبعضه الآخر حِدَأة أو نَسْر ، وحينا يأكل السمك قطعة منه وأخرى يجرى بها الماء وتدفن فى بلد آخر ، أزال هذا الاستبعاد بأن الذى لايعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولافى السماء ، والذى يعلم الأجِنَّة فى بطون أمهاتها ، ويعلم ماهو مشاهد لنا أو غائب عنا يعلم تلك الأجزاء المتناثرة ومواضعها مهما نأى بعضها عن بعض ويضم متفرقاتها ويعيدها سيرتها الأولى :

الايضاح

(الله يعلم ماتحمل كل أنثى) من ذكر أو أنثى ، واحد أو متعدد ، طويل العمر أوقصيره كما قال « هُوَ أعْلَمُ بِكُمْ إذْ أنْشَأَكُمْ مِنَ الأرْضِ وَإذْ أنْتُمْ أجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُم » ، وقال « وَيَعْلَمُ مَافِي الأرْحَام » .

(وما تغيض الأرحام وما تزداد) أى وماتنقصه الأرحام وماتزداده من عدد فى الولد ، فقد يكون واحدا وقد يكون اثنين أو ثلاثة أوأربعة أو خمسة ، ومن جسده فقد يكون تامّا وقد يكون ناقص الخلق وهو المخْدَجُ ، ومن مدة الحمل فقد تكون أقل من تسعة أشهر وقد تكون تسعة إلى عشرة أشهر تقريبا ، فقد دل الإحصاء والبحث الذى عمل فى مستشفيات لندن على أن الجنين لايستقر فى البطن وهو حى أكثر من ٣٠٥ أيام ، وفى مستشفيات برلين على أنه لايستقر أكثر من ٣٠٨ ومن ثم جرت المحاكم الشرعية الآن على أن عدة المطلقة لاتكون أكثر من سنة بيضاء أى سنة قمرية أى ٣٥٤ يوما ، وهو رأى فى مذهب مالك .

(وكل شىء عنده بمقدار) أى ولكل شىء ميقات معيَّن لايعدوه زيادة ولانقصا « فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَيَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَيَسْتَقْدِمُونَ » .

وفى معنى الآية قوله تعالى « إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » وفى الحديث « إن إحدى بنات النبى صلى الله عليه وسلم بعثت إليه رسولا : إن ابنا لها فى الموت ، وأنها تحب أن تحضُرُه ، فبعث إليها يقول: « إن لله ماأخذ ، وله ما أعطى ، وكل شىء عنده بأجل مسمى ، فمُرْها فلتصبر ولتحتسب » .

(عالم الغيب والشهادة) أى عالم ماهو غائب عنكم لاتدركه أبصاركم من عوالم لانهاية لها ، فقد أثبت العلم حديثا أن هناك عوالم لاتراها العين المجردة بل ترى بالمنظار المعظم (التليسكوب) ومنها الجراثيم (المكروبات) التى تولد كثيرا من الأمراض التى قد يعسر شفاؤها أو يتعذر فى كثير من الأحوال كجراثيم السرطان والسل والزهرى ، أو تشفى بعد حين كجراثيم الجُدَرِىّ و (الدفتيريا) والحصبة ونحوها وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ » ، وماتشاهدونه وترونه بأعينكم « وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ » .

(الكبير المتعال) أى هو العظيم الشأن الذى يجلّ عما وصفه به الخلق من صفات

المخلوقين ، المستعلى على كل شىء بقدرته وجبروته وهو وحده الذى له التصرف فى ملكوته .

وفى هذا إيماء إلى أنه تعالى قادر على البعث الذى أنكروه ، والآيات التى اقترحوها ، والعذاب الذى استعجلوه ، وإنما يؤخر ذلك لمصلحة لا يدركها البشر فيخفى عليه سرها .

وفى معنى الآية قوله « سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ » .

ثم بين أن علمه تعالى شامل لجميع الأشياء فقال :

(سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به) أى من أسر قوله وأخفاه ولم يتلفَّظ به ، أو جهر به وأظهره فهو سواء عند الله يسمعه ولا يخفى عليه شىء منه كما قال « وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى » وقال « وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ » قالت عائشة : سبحان الذى وسع سمعه الأصوات ، والله لقد جاءت المجادِلة تشتكى زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا فى جنب البيت وإنه ليخفى علىّ بعض كلامها فأنزل الله « قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ ، وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ، إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ » .

(ومن هو مستخفٍ بالليل) أى مختف فى عُقْر داره فى ظلام الليل .

(وسارب بالنهار) أى ظاهر ماشٍ فى بياض النهار ، فكلاهما عند الله سواء ، وروى عن ابن عباس فى تفسير ذلك : هو صاحب ريبة مستخف بالليل ، وإذا خرج بالنهار أرى الناس أنه برىء من الإثم .

(له معقبات من بين يديه ومن خلفه) أى للإنسان ملائكة يتعاقبون عليه : حرس بالليل وحرس بالنهار يحفظونه من المضارّ ويراقبون أحواله ، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ أعماله من خير أو شر ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال ، صاحب اليمين يكتب الحسنات وصاحب الشمال يكتب

السيئات ، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه ، واحد من ورائه وآخر من قدامه ، فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل بدلا ، حافظان وكاتبان كما جاء فى الحديث الصحيح « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون » .

وإذا علم الإنسان أن هناك ملائكة تحصى عليه أعماله كان حذرا من وقوعه فى المعاصى خيفة أن يطلع عليه الكرام الكاتبون ويزجره الحياء عن الإقدام على فعل الموبقات كما يحذر من الوقوع فيها إذا حضر من يستحى منه من البشر ، وهو أيضا إذا علم أن كل عمل له فى كتاب مدّخر يكون ذلك رادعا له داعيا إلى تركه .

وليس أمر الحفظة بالبعيد عن العقل بعد أن أثبته الدين وبعد أن كشف العلم أن كثيرا من الأعمال العامة يمكن إحصاؤها بآلات دقيقة لاتدع منها شيئا إلا تحصيه ، فقد أصبحت المياه والكهرباء فى المدن تعدّ بالآلات (العدادات) فالمياه التى يشربونها، والكهرباء التى يضيئون بها منازلهم تحصَى وتعدّ كما يُعدّ الدرهم والدينار ، وكذلك هناك آلات تُحْصِى المسافات التى تقطعها السيارات فى سيرها ، وأخرى تحصى تيارات الأنهار ومساقط المياه إلى غير ذلك من دقيق الآلات التى لاتترك صغيرة ولا كبيرة من الأعمال إلا تكتبها وتحصيها .

وكلما تقدمت العلوم وكشفت ما كان غائبا عنا كان فى ذلك تصديق أيّما تصديق لنظريات الدين ، ووسيلة حافزة إلى الاعتراف بما جاء فيه مما يخفى على بعض الماديين الذين لايقرّون إلا بما يرَوْنه رأى العين ، ولايذعنون إلا بما يقع تحت حسهم ، وبهذا يصدق قول القائل (الدين والعقل فى الإسلام صنوان لايفترقان ، وصديقان لايختلفان) .

(يحفظونه من أمر الله) أى هم يحفظونه بأمر الله وإذنه وجميل رعايته وكلاءته ، فكما جعل سبحانه للمحسوسات أسبابا محسوسة ربط بها مسبباتها بحسب مااقتضته

حكمته ، فجعل الجفن سببا لحفظ العين مما يدخل فيها ، فيؤذيها ، كذلك جعل لغير المحسوسات أسبابا ، فجعل الملائكة أسبابا للحفظ ، وأفعاله تعالى لاتخلو من الحكم والمصالح .

وكذلك جعل لحفظ أعمالنا كراما كاتبين وإن كنا لاندرى ماقلمهم ومامدادهم ؟ وكيف كتابتهم ؟ وأين محلهم ؟ وما حكمة ذلك ؟ مع أن علمه تعالى بأعمال الإنسان كاف فى الثواب والعقاب عليها ، وقد يكون من حكمة ذلك أنه إذا علم الإنسان أن أعماله محفوظة لدى الحفَظة الكرام كان أجدر بالإذعان لما يلقاه من ثواب وعقاب يوم العرض والحساب .

ولمفسرى السلف أقوال فى الآية . قال ابن عباس : هم الملائكة تُعَقِّب بالليل ، تكتب على ابن آدم ، ويحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، وذلك الحفظ من أمر الله وبإذن الله ، لأنه لاقدرة للملائكة ولالأحد من الخلق أن يحفظ أحدا من أمر الله وبما قضاه عليه إلا بأمره وإذنه ، فإذا جاء قدر الله خلّوا عنه . وقال علىّ : ليس من عبد إلا ومعه ملائكة يحفظونه من أن يقع عليه حائط أو يتردى فى بئر أو يأكله سبع أو يُغْرَق أو يُحْرَق ، فإذا جاء القدَرُ خلوّا بينه وبين القدر اه .

(إن الله لايغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم) أى إن الله لايغير مابقوم من نعمة وعافية فيزيلها عنهم ويذهبها ، حتى يغيروا مابأنفسهم من ذلك بظلم بعضهم بعضا واعتداء بعضهم على بعض ، وارتكابهم للشرور والموبقات التى تقوّض نظم المجتمع ، وتفتك بالأمم كما تفتك الجراثيم بالأفراد .

روى أن أبا بكر قال : قال صلى الله عليه وسلم « إن الناس إذا رأَوُا الظالم فلم يأخذوا على يديه يوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب » ويرشد إلى صحة هذا قوله تعالى : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَاتُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » وقد بسطنا هذا فيما سلف فى مواضع متعددة ، وأشار إليه المحقق المؤرخ ابن خلدون فى مقدمة التاريخ وعقد له بابا جعل عنوانه [فصل فى أن الظلم مُؤْذِن بخراب العمران] واسترسل فيه على

المنهج المعروف عنه ، وضرب له الأمثلة بما حدث فى كثير من الأمم قبل الإسلام وبعده ، وبين أن الظلم قد ثَلّ عروشها ، وأذل أهلها ، وجعلها طُعْمة للآكلين ، ومثلا للآخرين .

وفى حال الأمم الإسلامية اليوم وقد اجتُثّتْ من أطرافها وتحكم فيها أهل الغرب وأذلوها بعد أن استعمروها ، عبرة لمن تدبر وألقى السمع وهو شهيد ، والقرآن شاهد على صدق هذه النظرية ، كما قال : « إِنَّ الأرْضَ لِلّٰهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » وقوله « إِنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » أى الصالحون لاستعمارها والانتفاع بخيراتها ، ماظهر منها ومابطن .

(وإذا أراد الله بقوم سوءا فلامردّ له) أى وإذا أراد الله بقوم سوءا من مرض وفقر ونحوهما من أنواع البلاء بما كسبت أيديهم حين أخذوا فى الأسباب التى تصل بهم إلى هذه الغاية ، فلا يستطيع أحد أن يدفع ذلك عنهم ولا يردّ ماقدّره لهم .

وفى هذا إيماء إلى أنه لاينبغى الاستعجال بطلب السيئة قبل الحسنة ، وطلب العقاب قبل الثواب ، فإنه متى أراد الله ذلك وأوقعه بهم فلا دافع له .

والخلاصة — إنه ليس من الحكمة فى شىء أن يستعجلوا ذلك .

(ومالهم من دونه من وال) أى ومالهم من دون الله سبحانه من يلى أمورهم ، فيجلب لهم النفع ويدفع عنهم الضر ، فالآلهة التى اتخذوها لاتستطيع أن تفعل شيئا من ذلك ، ولاتقدر على دفع الأذى عن نفسها فضلا عن دفعه عن غيرها .

ولله در الأعرابى الذى رأى صنما يبول عليه الثعلب فثارت به حميّته فأمسكه وكسّره إربا إربا وقال :

أربٌّ يبول الثُّعْلُبان برأسه لقد ذلّ من بالت عليه الثعالب

وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : « إِنَّ الّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّٰهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لاَيَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ » .

نعم الله على عباده

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ، وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ، وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ(١٣) لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (١٥) .

تفسير المفردات

البرق : ما يرى من النور لامعا خلال السحاب ، والرعد : هو الصوت المسموع خلال السحاب . وسببهما على ما بُيِّن فى العلوم الطبيعية ــ أن البرق يحدث من تقارب سحابتين مختلفى الكهْرُبائية ، حتى يصير ميل إحداها للاقتراب من الأخرى أشد من قوة الهواء على فصلهما فتهجم كل منهما على الأخرى بنور زاهر وصوت قوىّ شديد ، فذلك النور هو البرق . والصوت هو الرعد الذى نشأ من تصادم دقائق الهواء الذى تطرده كهربائية البرق أمامها ، والصواعق : واحدها صاعقة . وسببها أن السحب قد تمتلىء بكهربائية ، والأرض بكهربائية أخرى والهواء يفصل بينهما ، فإذا قاربت السحب وجه الأرض تنقص الشرارة الكهربائية منها فتنزل صاعقة تهلك الحرث والنسل ، والمجادلة : من الجدل وهو شدة الخصومة ، وأصله من جدلتُ الحبل إذا أحكمت فتله ، كأن المجادلين يفتل كل منهما الآخر عن رأيه ، والمحال : أى أفتله المماحلة والمكايدة لأعدائه ، يقال محل فلان بفلان إذا كايده وعرّضه للهلاك ، وتمحل إذا تكلف فى استعمال الحيلة ، فى ضلال أى ضياع وخسار ، والظلال : واحدها ظل وهو

الخيال الذى يظهر للجِرْم ، والغدو : واحدها غداة كقنىّ وقناة وهى أول النهار ، والآصال ، واحدها أصيل : ما بين العصر والمغرب .

المعنى الجملى

بعد أن خوّف سبحانه عباده بأنه إذا أراد السوء بقوم فلا يدفعه أحد ـ أتبعه بذكر آيات تشبه النعم والإحسان حينا وتشبه العذاب والنقم حينا آخر .

روى « أن عامر بن الطُّفَيْل وأرْبَدَ بن ربيعة أخالبيد وفدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر فأبى عليهما ذلك ، فقال له عامر لعنه الله : أما والله لأملأنّها عليك خيلا جُرْدا ورجالا مُرْدا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يأبى الله عليك ذلك وابنا قَيْلَة (الأنصار من الأوس والخزرج) ثم إنهما همّا بالفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل أحدهما يخاطبه والآخر يستلّ سيفه ليقتله من ورائه ، فحماه الله تعالى منهما وعصمه ، فخرجا من المدينة وانطلقا فى أحياء العرب يجمعان لحربه ، فأرسل الله على أربد سحابة فيها صاعقة فأحرقته ، وأرسل الطاعون على عامر فخرجت فيه غُدَّة كغدّة البكر ، فآوى إلى بيت سلوليّة وجعل يقول : (غُدَّة كغُدَّةِ البكر وموت فى بيت سلولية ، حتى مات) وأنزل الله فى مثل ذلك « ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون فى الله » .

الإيضاح

(هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا) أى إنه سبحانه يسخّر البرق فيخاف منه بعض عباده كالمسافر ومن فى جَرِينه التمر والزبيب للتجفيف ، ويطمع فيه من له فيه النفع كمن يرجو المطر لسقى زرعه ، وهكذا حال كل شىء فى الدنيا هو خير بالنظر إلى من يحتاج إليه فى أوانه ، وشر بالنظر إلى من يضره بحسب مكانه أو زمانه .

(وينشىء السحاب الثقال) أى ويوجد السحب مُنْشَأة جديدة ممتلئة ماء فتكون ثقيلة قريبة من الأرض .

(ويسبح الرعد بحمده) أى إن فى صوت الرعد لدلالة على خضوعه وتنزيهه

عن الشريك والعجز ، كما يدل صوت المسبِّح وتحميده على انقياده لقدرة ذلك الحكيم الخبير .

ونحو الآية قوله سبحانه : « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَتَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ » .

أخرج أحمد والبخارى والترمذى والنسائى وغيرهم عن ابن عمر « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرعد والصواعق يقول : اللهم لاتقتلنا بغضبك ، ولا تُهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك » .

وأخرج ابن مردويه عن أبى هريرة : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا هبّت الريح أو سمع صوت الرعد تغيّر لونه حتى يُعرف ذلك فى وجهه ، ثم يقول للرعد : سبحان من سبَّحْتَ له ، وللريح : اللهم اجعلها رحمة ولاتجعلها عذابا » .

(والملائكة من خيفته) أى ويسبح الملائكه الكرام من هيبته وجلاله ، وينزهونه عن اتخاذ الصاحبة والولد .

(ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) إصابته بها فيهلكه .

(وهم يجادلون فى الله) أى يجادلون فى شأنه تعالى ، وفيما وصفه به الرسول الكريم ، من كمال العلم والقدرة والتفرد بالألوهية وإعادة الناس للجزاء على أعمالهم يوم العرض والحساب .

وفى هذا تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم فإنه لما نعى على كفار قريش عنادهم فى اقتراحهم الأيات الحسية كآيات موسى وعيسى عليهما السلام ، وإنكارهم كون الذى جاء به عليه السلام آية ـ سلّاه بما ذكر كأنه قال له : إن هؤلاء لم يَقْصُروا جحدهم وإنكارهم على النبوّة بل تخطَّوْه إلى الألوهية ، ألا تراهم مع ظهور الآيات البينات على التوحيد يجادلون فى الله باتخاذ الشركاء وإثبات الأولاد له ، ومع إحاطة علمه وشمول قدرته ينكرون البعث والجزاء والعرض للحساب ، ومع شديد بطشه وعظيم سلطانه يُقْدِمون على المكايدة والعناد فهوِّنْ عليك ، ولاتذهب نفسك عليهم حسرات .

(وهو شديد المحال) أى وهو سبحانه لايغالَب ، فهو شديد البطش والكيد لأعدائه ، يأتيهم من حيث لايحتسبون ولايترقبون ، وهو القادر على أن ينزل عليهم عذابا من عنده لا يستطيعون حيلة لدفعه ولاقوة على ردّه ، لكنه يمهلهم لأجل معلوم بحسب مااقتضيه الحكمة كما صح فى الحديث : « إن ربك لايهمل ولكن يمهل » .

ومثل الآية قوله : « وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » وقوله : « وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ » .

قال : ابن جرير فى تفسير ذلك : والله شديد فى عقوبة من طغى عليه وعتا وتمادى فى كفره .

(له دعوة الحق) أى له تعالى الدعاء والتضرع الواقع حيث ينبغى أن يكون ، والمجاب حين وقوعه ، أى إن إجابة ذلك له تعالى دون غيره .

وفى هذا وما قبله وعيد للكفار على مجادلتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بحلول محاله بهم ، وتهديدهم بإجابة دعائه عليه السلام إن دعا عليهم . وقيل دعوة الحق كلمة التوحيد : أى لله من خلقه أن يوحّدوه ويُخْلِصوا له ، وإنه شرعها وأمر بها.

(والذين يدعون من دونه لايستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وماهو ببالغه) أى والأصنام الذين يدعوهم المشركون و يتضرعون إليهم ويتجاوزون الله لايجيبونهم بشىء مما يريدونه من نفع أو ضر إلا كما يجيب الماء لمن بسط كفيه إليه يطلب منه أن يبْلُغ فاه ، والماء جماد لاشعور له ببسط الكفين ولاقبضهما ، فكيف يجيب دعاءه ، وهكذا أصنامهم لاتحير جوابا .

وخلاصة ذلك — إنه شبه آلهتهم حين استكفَوْا بهم ماأهمهم ، وهم لايشعرون بشىء فضلا عن أن يجيبوا أحد بماء بمرأى من عطشان باسط كفيه إليه يناديه هلمّ أقبل إلىّ وهو لايستطيع ردا ولا جوابا .

(ومادعاء الكافرين إلا فى ضلال) أى فى ضياع وخسار ، فإن دعَوُا الله لم يجبهم ، وإن دعوا الأصنام لم تستطع إجابتهم .

ثم بين عظيم قدرته تعالى فقال :

(ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها) أى وينقاد لعظمته كل شىء ، فيخضع له الملائكة والمؤمنون من الثقلين طوعا فى الشدة والرخاء، والكفار كرها فى حال الشدة كما جاء فى آيات كثيرة كقوله : « وإِذَا مَسَّكُم الضُّرُّ فِى البَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ » وقوله : « فَإِذَا رَكِبُوا فِى الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ . فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ » وقوله : « لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » .

(وظلالهم بالغدو والآصال) أى وتسجد أيضا ظلال من له ظل منهما بالغدوات والعشايا تبعا لانقياد الأجسام التى تشرق عليها الشمس، ثم يصرفه الله تعالى بالمد والتقلص، وتخصيص هذين الوقتين بالذكر لظهور الامتداد والتقلص فيهما ، أو المراد بهما الدوام كما جاء ذلك كثيرا فى استعمالاتهم .

إعادة الكلام فى الوحدانية

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ ، قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا ؟ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ؟ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ؟ أَمْ جَعَلُوا لِلهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ؟ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن كل من فى السموات والأرض خاضع لقدرته ، منقاد لإرادته بالغدو والآصال ، وفى كل وقت وحين ، طوعا أو كرها بحسب مايريد ـ أعاد الكلام مع المشركين ليلزمهم الحجة ويقنعهم بالدليل ويضيق عليهم باب الحوار حتى لا يستطيعوا الفرار من الاعتراف بوحدانيته وشمول قدرته وإرادته وأنه لامعبود سواه ولا رب غيره .

الإيضاح

(قل من رب السموات والأرض) أى قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء الذين اتخذوا من دونه أولياء : من رب هذه الأجرام العلوية والسفلية التى تبهر العقول بجميل صنعها ، وكامل ترتيبها ووضعها ؟ .

(قل الله) أى قل لهم : الذى خلقها وأنشأها وسواها على أتم موضع وأحكم بناء هو الله ، وقد أُمِرَ عليه السلام ليجيب بذلك ، للإشارة إلى أنه هو وهم سواء فى ذلك الجواب الذى لامحيص منه ، وهم لاينكرونه البتة كما قال تعالى : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ » .

(قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؟) أى قل لهم بعد أن ثبت هذا لديكم : فلم اتخذتم لأنفسكم من دون الله معبودات هى جمادات ، لاتملك لأنفسها نفعا ولا ضرا ؟ فكيف تنفع غيرها أو تضر ؟ وإذا لم يكن لها القدرة على شىء من ذلك فعبادتها محض السفه الذى لا يرضاه لنفسه رشيد ، يزن أعماله بميزان الحكمة والمصلحة .

وخلاصة ذلك — أفبعد أن علمتم أنه هو الخالق لهذا الخلق العظيم ، تتخذون من دونه أولياء هم غاية فى العجز ؟ وجعلتم ما كان يجب أن يكون سببا فى الاعتراف بالوحدانية وهو علمكم بذلك ـ سببا فى إشراككم به سواه من أضعف خلقه ، وهو بمعنى قوله : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ »

ثم ضرب مثلا للمشركين الذين يعبدون الأصنام والمؤمنين الذين يعترفون بأن لارب غيره ولامعبود سواه ، فقال :

(قل هل يستوى الأعمى والبصير) أى قل لهم مصوّرا سخيف آرائهم مفنّدا قبيح معتقداتهم : هل يستوى الأعمى الذى لايبصر شيئا ولا يهتدى لمحجة يسلكها إلا بأن يُهدى بدليل والبصير الذى يهدى الأعمى لسلوك الطريق ؟ لاشك أن الجواب أنهما غير متساويين ، فكذلك المؤمن الذى يبصر الحق فيتّبعه ، ويعرف الهدى فيسلكه ، لايستوى وإياكم ؟ وأنتم لاتعرفون حقا ، ولاتبصرون رشدا .

ثم ضرب مثلا للكفر والإيمان بقوله :

(أم هل تستوى الظلمات والنور) أى بل هل تستوى الظلمات التى لاتُرى فيها الطريق فتُسْلَك، والنور الذى يُبْصَر به الأشياء ، ويجلو ضوؤه الظلام — لاشك أن الجواب عن ذلك أنهما لايستويان ، فكذلك الكفر بالله صاحبه منه فى حيرة ، يضرب أبدا فى غمرة لايهتدى إلى حقيقة ولايصل إلى صواب ، والإيمان بالله صاحبه منه فى ضياء ، فهو يعمل على علم بربه ومعرفة منه بأنه يثيبه على إحسانه ، ويعاقبه على إساءته ، ويرزقه من حيث لايحتسب ، ويكلؤه بعنايته فى كل وقت وحين ، فهو يفوّض أمره إليه إذا أظلمت الخطوب ، وتعقدت فى نظره مدْلَهِمَّات الحوادث .

(أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم) أى بل أخلق أوثانكم التى اتخذتموها معبودات من دون الله ، خلقا كخلقه ، فاشتبه عليكم أمرها فيما خَلَقَت وخلق الله ، فجعلتموها له شركاء من أجل ذلك — أم إنما بكم الجهل والبعد عن الصواب ، إذ لايخفى على من له مُسْكة من العقل ، أن عبادة مالايضر ولاينفع ، من الجهل بحقيقة المعبود ، ومن يجب له التذلل والخضوع ، والإنابة والزلفى والإخبات إليه، وإنما الواجب عبادة من يُرْجَى نفعه ويُخْشَى عقابه وضُرّه ، وهو الذى يرزقه ويمونه آناء الليل وأطراف النهار .

ثم ذكر فذلكة لما تقدم ، ونتيجة لما سبق من الأدلة والأمثال التى ضربت لها فقال :

(قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار) أى قل مبينا لهم وجه الحق : الله خالقكم وخالق أوثانكم وخالق كل شىء ، وهو الفرد الذى لاثانى له ، الغالب على كل شىء سواه ، فكيف تعبدون غيره وتشركون به مالا يضر ولا ينفع ؟ .

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) .

تفسير المفردات

الأودية : واحدها وادٍ ، وهو الموضع الذى يسيل فيه الماء والفُرْجة بين الجبلين وقد يراد به الماء الجارى فيه ، بقدرها : أى بمقدارها المتفاوت قلة وكثرة بحسب تفاوت أمكنتها صغرا وكبرا ، واحتمل : أى حمل ، والزبد : مايعلو وجه الماء حين الزيادة كالحبَب ، ومايعلو القدر عند غليانها ، والرابى : العالى المرتفع فوق الماء الطافى عليه ، والجُفاء : مارَمى به الوادى من الزبد إلى جوانبه .

المعنى الجملى

بعد أن ضرب الله مثل البصير والأعمى للمؤمن والكافر ، ومثل النور والظلمات للإيمان والكفر ـ ضرب مثلين للحق فى ثباته وبقائه ، وللباطل فى اضمحلاله وفنائه

ثم بين مآل كل من السعداء والأشقياء وماأعدّ لكل منهما يوم القيامة ، وبين أن حاليهما لايستويان عنده ، وأن الذى يعى تلك الأمثال ويعتبر بها إنما هو ذو اللب السليم ، والعقل الراجح ، والفكر الثاقب .

الايضاح

(أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا) أى أنزل من السحاب مطرا فسالت مياه الأودية بحسب مقدارها فى الصغر والكبر ، فحمل السيلُ الذى حدث من ذلك الماء زبدا عاليا مرتفعا فوقه طافيا عليه — وهذا هو المثل الأول الذى ضرب به الله للحق والباطل والإيمان والكفر .

(ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله) أى ومن الذى يطرحه الناس فى النار من ذهب أو فضة وكذلك من سائر الفِلِزّات كالحديد والنحاس والرّصاص — زبد راب كما يطفو على الماء فى الأودية زبد مثله ، وَيتّخذ من الذهب والفضة حُلِيّ ، ومن الحديد والرصاص والنحاس ومأشبه ذلك متاع وهو مايتمتع به الناس كالأوانى والقدور وغيرها من آلات الحرث والحصد وأدوات المصانع وأدوات القتال والنزال ، وهذا هو المثل الثانى .

(كذلك يضرب الله الحق والباطل) أى ومامثل الحق والباطل إذا اجتمعا إلامثل السيل والزبد ، فكما أن الزبد لايثبت مع الماء ولامع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك فى النار بل يذهب ويضمحل ، فالباطل لاثبات له ولادوام أمام الحق .

ثم فصل هذا بقوله .

(فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض) أى فأما الزبد الذى يعلو السيل فيذهب فى جانبى الوادى ويعْلَق بالشجر وتنْسِفه الرياح ، وكذلك خَبَث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولايرجع منه شىء ، وأما ماينفع الناس من الماء والذهب والفضة فيمكث فى الأرض ، فالماء نشرب به ونسقى به الأرض فيُنْبِت

جيد الزرع الذى ينتفع به الناس والحيوان ، والذهب والفضة نستعملها فى الحلى وصكّ النقود ، والحديد والنحاس ونحوها نستعملها فى متاعنا من الحرث والحصد وفى المعامل والمصانع ووسائل الدفاع ونحو ذلك .

وخلاصة المثلين — أنه تعالى مثّل نزول الحق وهو القرآن الكريم من حضرة القدس ، على القلوب الخالية منه ، المتفاوتة الاستعداد فى ملاحظته وحفظه ، وفى استذكاره وتلاوته ، وهو وسيلة الحياة الروحية والفضائل النفسية والآداب المرضية — بماء نزل من السماء فى أودية قاحلة لم يكن لها سابق عهد به ، وسال بمقدار اقتضت الحكمة أن يكون نافعا فى إحياء الأرض وماعليها ، جالبا لسعادة الإنسان والحيوان ، وكذلك جعله حِلْيَة تتحلى بها النفوس ، وتتصل بها إلى السعادة الأبدية ، ومتاعا يُتمتع به فى المعاش والمعاد ، ومثله بالذهب والفضة وسائر الفلزات التى يتخذ منها أنواع الآلات والأدوات ، وتبقى منتفعا بها رَدَحا طويلا من الزمن .

ومثّل الباطل الذى ابْتُلِى به الكفرة لفقد استعدادهم لعمل الخير بما ران على قلوبهم من شرور المعاصى واجتراح الآثام — بالزبد الرابى الذى يطفو على الماء ، أو يخرج من خبث الحديد والنحاس والفضة والذهب ونحوها ويضمحل سريعا ويزول .

وقال الزجاج : مثل المؤمن واعتقاده ونفع الإيمان له كمثل الماء المنتفع به فى نبات الأرض وحياة كل شىء ، وكمثل نفع الفضة والذهب وسائر الجواهر ، لأنها كلها تبقى منتفعا بها ، ومثل الكافر وكفره كمثل الزبد الذى يذهب جفاء ، وكمثل خبث الحديد وما تخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذى لا ينتفع به اهـ .

(كذلك يضرب الله الأمثال) أى ومثل ضربنا لهذه الأمثال البديعة التى توضح للناس ما أشكل عليهم من أمور دينهم وتظهر الفوارق بين الحق والباطل والإيمان والكفر — نضرب لهم الأمثال فى كل باب حتى تستبين لهم طريق الهدى فيسلكوها وطرق الباطل فينحرفوا عنها ، وتتم لهم سعادة المعاش والمعاد ، ويكونوا المُثُل العليا

بين الناس : « كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ » .

وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعُشْب ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا ورعَوْا وسقَوْا وزرعوا ، وأصابت طائفة منها أخرى إنما هى قِيعان لا تُمْسِك ماء ولا تنبت كلأ ـ فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه الله بما بعثنى به ونفع به الناس فعلِم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أُرْسِلت به » .

وروى أحمد عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد نارا فلما أضاءت ما حولها جعل الفَرَاش وهذه الدواب التى يقعن فى النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها ـ فذلك مثلى ومثلكم أنا آخذ بحُجزكم عن النار ، هلمّ عن النار فتغلبونى فتقتحمون فيها » .

وبعد أن بين سبحانه شأن كل من الحق والباطل فى الحال والمآل وأتم البيان ، شرع يبين حال أهلهما مآلا ترغيبا فيهما وترهيبا ، وتكملة لوسائل الدعوة إلى الحق والخير وتنفيرا عن سلوك طرق الباطل والشر فقال :

(ا) (للذين استجابوا لربهم الحسنى) أى للذين أطاعوا الله ورسوله وانقادوا لأوامره وصدّقوا ما أخبر به فيما نزل عليه من عند ربه ـ المثوبة الحسنى الخالصة من الكدر والنَّصَب ، الدائمة المقترنة بالتعظيم والإجلال .

والآية بمعنى قوله : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » وقوله : « وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا » .

(ب) (والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به ،

أولئك لهم سوء الحساب ، ومأواهم جهنم و بئس المهاد) أى والذين لم يطيعوا الله ولم يمتثلوا أوامره ولم ينتهوا عما نهى عنه لهم ألوان وأنواع من العذاب منها :

(١) إنهم من شدة مايرون من هول العذاب لو استطاعوا أن يجعلوا مافى الأرض جميعا ومثله معه فدية لأنفسهم لفعلوا ، فإن المحبوب أولا لكل إنسان هوذاته ، وماسواها فيُحبّ لكونه وسيلة إلى مصالحها ، فإذا كان مالكا لهذا العالم كله ولما يساويه جعله فداء لنفسه .

وفى هذا من التهويل الشديد ومن سوء ما يلقاهم فى ذلك اليوم ، مالايخفى على من اعتبر وتذكر .

(٢) سوء الحساب ، فيناقشون على الجليل والحقير ، وفى الحديث « من نوقش الحساب عذب » ذاك أن كفرهم أحبط أعمالهم ، وارتكابهم للشرور والآثام ران على قلوبهم وجعلها تستمرئ الغواية والضلالة ، وحبهم للدنيا جعلهم يعرضون عما يقربهم إلى الله زلفى فباءوا بالخسران والهوان والنكال .

(٣) إن مأواهم جهنم وبئس المسكن مسكنهم يوم القيامة ، إذ أنهم غفلوا عما يقربهم إلى ربهم وينيلهم كرامته ورضوانه ، واتبعوا أهواءهم وانغمسوا فى لذاتهم فحقت عليهم كلمته (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) .

ونزل فى حمزة رضى الله عنه وأبى جهل كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قوله تعالى :

(أفمن يعلم إنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) أى لايستوى من يعلم أن الذى أنزله الله عليك من ربك هو الحق الذى لاشك فيه ولا امتراء . ومن لا يعلم فهو أعمى ، لايهتدى إلى خير يفهمه ، ولو فهمه ما انقاد إليه ولا صدقه ، فيبقى حائرا فى ظلمات الجهل وغياهب الضلالة .

قال قتادة : هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله وعقلوه ووعوه ، وهؤلاء كمن هو أعمى عن الحق ، فلا يبصره ولا يعقله اه .

(إنما يتذكر أولوا الألباب) أى إنما يعتبر بهذه الأمثال ويتعظ بها ، ويصل إلى لبّها وسرها ، إلا أولو العقول السليمة ، والأفكار الرجيحة .

الجامع لصفات الخير كتبت له حسنى العقبى

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنْقُضُونَ المِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) .

تفسير المفردات

يدرءون : أى يدفعون ، والعَدْن : الإقامة ، يقال عَدَن بمكان كذا : إذا استقر ، ومنه المعْدِن لمستقَر الجواهر ، والدار : هى دار الآخرة .

المعنى الجملى

بعد أن ضرب الله الأمثال لمن اتبع الحق وسلك سبيل الرشاد ، ولمن ركب رأسه ، وسار فى سبل الضلالة لا يلوى على شىء ولا يقف لدى غاية ــ بيّن أن من جمع صفات الخير الآتية يكون ممن اتبعوا الحق ، وملكوا نواحى الإيمان ، وأقاموا دعائمه ، وهؤلاء قد كُتِب لهم حسنى العقبى والسعادة فى الدنيا والآخرة .

الايضاح

(الذين يوفون بعهد الله) أى الذين يوفون بما عقدوه على أنفسهم فيما بينهم وبين ربهم وفيما بينهم وبين العباد ، وشهدت فطرهم فى هذه الحياة بصحته ، وأُنزِل عليهم فى الكتاب إيجابه .

قال قتادة : إن الله ذكر الوفاء بالعهد والميثاق فى بضع وعشرين موضعا من القرآن عناية بأمره واهتماما بشأنه .

(ولا ينقضون الميثاق) أى الميثاق الذى وثقوه بينهم وبين ربهم من الإيمان به ، وبينهم وبين الناس من العقود كالبيع والشراء وسائر المعاملات والعهود التى تعاهدوا على الوفاء بها إلى أجل ، وفى الحديث : « آية المنافق ثلاث : إذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا حدّث كذب » .

(والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) أى والذين يصلون الرحم التى أمرهم الله بوصلها ، فيعاملون الأقارب بالمودة والحسنى ، ويحسنون إلى المحاويج وذوى الخلة منهم بإيصال الخير إليهم ودفع الأذى عنهم بقدر الاستطاعة ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من سره أن يُبْسَط له فى رزقه ، وأن يُنْسَأ له فى أجله فليصل رحمه» وإنساء الأجل : تأخيره ، وذلك بالبركة له فيه فكأنه قد زاد .

ويدخل فى ذلك جميع حقوق الله وحقوق عباده ؛ كالإيمان بالكتب والرسل ، ووصل قرابة المؤمنين بسبب الإيمان ؛ كالإحسان إليهم ، ونصرتهم ، والشفقة عليهم ، وإفشاء السلام ، وعيادة المرضى ، ومراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقة فى السفر إلى غير ذلك .

أخرج الخطيب وابن عساكر عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن البر والصلة ليخفّفان سوء الحساب يوم القيامة ثم تلا : « والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب » .

(ويخشون ربهم) الخشية : خوف مقرون بالتعظيم والعلم بمن تخشاه ، ومن ثم خص الله بها العلماء بدينه وشرائعه والعالمين بجلاله وجبروته فى قوله : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » والمراد أنهم يخشون ربهم ويخافونه خوف مهابة وإجلال .

(ويخافون سوء الحساب) أى ويحذرون مناقشته إياهم الحساب ، وعدم الصفح لهم عن ذنوبهم ، فهم لرهبتهم جادون فى طاعته ، محافظون على اتباع أوامره وترك نواهيه .

(والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم) الصبر : حبس النفس عن نيل ما تحب ، أى والذين صبروا على ما تكرهه النفس ويثقل عليها من فعل الطاعات وترك الشهوات ، طلبا لرضا ربهم من غير أن ينظروا إلى جانب الخلق رياء وسمعة ، ولا إلى جانب أنفسهم زينة وعجبا .

(وأقاموا الصلاة) أى أدوها على ما رسمه الدين من خشوع القلب واجتناب الرياء والخشية لله ، مع تمام أركانها وهيئاتها احتسابا لوجهه .

(وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية) أى وأنفقوا بعض ما رزقناهم سرا فيما بينهم وبين ربهم ، وعلانية بحيث يراهم الناس ، سواء كان الإنفاق واجبا كالإنفاق على الزوجة والولد والأقارب الفقراء ، أم مندوبا كالإنفاق على الفقراء والمحاويج من الأجانب .

(ويدرءون بالحسنة السيئة) أى ويدفعون الشر بالخير ويجازون الإساءة بالإحسان فهو كقوله : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » ومن ثم قال ابن عباس : أى يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سوء غيرهم .

(أولئك لهم عقبى الدار) أى أولئك الذين وصفناهم بتلك المحاسن والكمالات التى بلغت الغاية فى الشرف والكمال ـ هم الذين لهم العقبى الحسنة فى الدار الآخرة .

ثم بين هذه العقبى فقال :

(جنات عدن يدخلونها) أى تلك العقبى هى جنات إقامة ، يخلَّدون فيها لايخرجون منها أبدا .

ثم ذكر ما يكون فيها من الأنس باجتماع الأهل والمحبين الصالحين فقال :

(ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) أى ويُجْمَع فيها بينهم و بين أحبابهم من الآباء والأزواج والأبناء ممن عمل صالحا لتقر بهم أعينهم ، و يزدادوا سرورا برؤيتهم ، حتى لقد ورد أنهم يتذاكرون أحوالهم فى الدنيافيشكرون الله على الخلاص منها.

وفى الآية إيماء إلى أنه فى ذلك اليوم لاتجْدِى الأنساب إذا لم يُسْعِفْها العمل الصالح ، فالآباء والأزواج والذرية لايدخلون الجنة إلا بعملهم ، وقد أشار إلى ذلك الكتاب الكريم : « يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » . وفى الحديث : أن النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى مرض موته قال لفاطمة : « يافاطمة بنتَ محمد ، سَلِينى من مالى ماشئت ، لا أغنى عنك من الله شيئا » .

ثم ذكر مالهم من الكرامة فيها بتسليم الملائكة عليهم فقال :

(والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) أى وتدخل عليهم الملائكة من هاهنا وهنا للتسليم عليهم ، والتهنئة بدخول الجنة ، والإقامة فى دارالسلام ، فى جوارالصدّيقين والأنبياء والرسل الكرام .

(سلام عليكم بما صبرتم) أى قائلين لهم : أمان عليكم من المكاره والمخاوف التى تحيق بغيركم ، بما احتملتم من مشاقّ الصبر ومتاعبه والآلام التى لاقيتموها فى دار الحياة الدنيا .

(فنعم عقبى الدار) أى فنعم عاقبة الدنيا الجنة .

أخرج ابن جرير « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يأتى قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول: «سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار» ، وكذا كان يفعل «أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم » .

وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَـٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أوصاف المتقين ، وما أعدّ لهم عنده فى دار الكرامة ، بما كان لهم من كريم الصفات وفاضل الأخلاق ـ بين حال الأشقياء وما ينتظرهم من العذاب والنكال ، وأتبع الوعد بالوعيد والثواب بالعقاب على سنة القرآن الدائبة فى مثل هذا « نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ » .

الإيضاح

وصف سبحانه الأشقياء بصفات هى السبب فى خسرانهم :

(١) (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) أى والذين ينقضون عهد الله الذى ألزمه عباده بما أقام عليه من الأدلة العقلية كالتوحيد والقدرة والإرادة والإيمان بالأنبياء والوحى ونحوها .

ونقضه إما بألا ينظروا فيه فلا يمكنهم العمل بموجبه ، وإما بأن ينظروا فيه ويعلموا صحته ثم هم بعدُ يعاندون فيه ولا يعملون بما علموه واعتقدوا صحته .

وقوله : من بعد ميثاقه أى من بعد اعترافهم به وإقرارهم بصحته .

(٢) (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) من الإيمان به وبجميع أنبيائه الذين جاءوا بالحق ، فآمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض ، وقطعوا الرحم وكانوا حربا على المؤمنين وعونا للكافرين ، ومنعوا المساعدات العامة التى توجب التآلف والمودة بين المؤمنين كما جاء فى الحديث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » وجاء أيضا « المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو اشتكى باقى الأعضاء بالسهر والحمى » .

(٣) (ويفسدون فى الأرض) بظلمهم لأنفسهم وظلمهم لغيرهم بابتزاز أموالهم واغتصابها بلا حق ، وتهييج الفتن بين المسلمين وإثارة الحرب عليهم ، وإظهار العدوان لهم .

ثم حكم عليهم بما يستحقون بما دَسَّوْا به أنفسهم فقال :

(أولئك لهم اللعنة) أى أولئك الذين اتصفوا بهذه المخازى وسيء الصفات ، لهم بسبب ذلك الطردُ من رحمته ورضوانه ، والبُعْد من خيرى الدنيا والآخرة .

(ولهم سوء الدار) أى ولهم سوء العاقبة وهو عذاب جهنم ، جزاء وفاقا لما اجترحوه من السيئات ، وأتَوْا به من الشرور والآثام .

يبسط الله الرزق لبعض عباده ويقدر على آخرين لحكمة هو بها عليم

اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِى الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ ، أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩) .

تفسير المفردات

يقدر : يضيِّق كقوله « وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ » أى ضُيِّق ، والمراد أنه يعطيه بقدر كفايته لا يفضل عنه شيء ، متاع : أى متعة قليلة لادوام لها ولا بقاء ، وأناب : أى رجع عن العناد ، وأقبل على الحق ، وتطمئن : أى تسكن وتخشع ، وطوبى لهم : أى لهم العيش الطيب وقرة العين والغبطة والسرور ، والمآب : المرجع والمنقلب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن من نقض عهد الله من بعد ميثاقه ولم يقرّ بوحدانيته وأنكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فهو ملعون فى الدنيا ومعذب فى الآخرة ـ بين هنا أنه تعالى يبسط الرزق لبعض عباده ويضيقه على بعض آخر على ما اقتضته حكمته وسابق علمه بعباده ، ولا تعلق لذلك بإيمان ولا كفر ، فربما وسع على الكافر استدراجا له وضيّق على المؤمن زيادة فى أجره ، ثم ذكر مقالة لهم كثر فى القرآن تردادها وهى طلبهم منه آية تدل على نبوته لإنكارهم أن يكون القرآن آية دالة على ذلك ، ثم ذكر حال المؤمنين المتقين ومآلهم عند ربهم فى جنات تجرى من تحتها الأنهار .

الإيضاح

(الله يبسط الرزق لمن يشاء) أى الله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ممن هو حاذق فى جمع المال ، وله من الحيلة فى الحصول على كسبه واستنباطه بشتى الوسائل مايخفى على غيره ، ولا علاقة لهذا بإيمان وكفر ولا صلاح ومعصية .

(ويقدر) على من يشاء ممن هو ضعيف الحيلة فى كسبه ، وليس بالحوّل القلّب فى استنباط أسبابه ووسائله ؛ وما الغنى والفقر إلا حالان يمران على البرّ والفاجر كما يمر عليهما الليل والنهار والصباح والمساء .

ثم ذكر أن مشركى مكة بطروا بغناهم فقال :

(وفرحوا بالحياة الدنيا) أى وفرح الذين نقضوا العهد والميثاق ببسط الرزق فى الحياة الدنيا ، وعدّوه أكبر متاع لهم وأعظم حظوة عند الناس .

ثم بين لهم خطأهم فقال :

(وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع) أى وما نعيم الدنيا إذا قيس على نعيم

الآخرة إلا نزر يسير سريع الزوال فهو كعُجالة الراكب وزاد الراعى ، فلا حق لهم فى البطر والأشر بما أُوتوا من حظوظها ، وانتفعوا به من خيراتها ، فهم قد اغتروا بالقليل السريع الزوال .

أخرج الترمذى عن المستورد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما الدنيا فى الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم إصبعه هذه فى اليمّ فلينظر بم يرجع ، وأشار بالسبابة »

وأخرج الترمذى وصححه عن ابن مسعود قال : « نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير فقام وقد أثّر فى جنبه ، فقلنا يا رسول الله لو اتخذنا لك ، فقال مالى وللدنيا ، ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » .

ولما أبان أنهم قد انخدعوا بالسراب ، واكتفَوْا بالحباب ، ذكر ما ترتب على ذلك الغرور من اقتراحهم على رسوله صلى الله عليه وسلم الآيات فقال :

(ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه) أى ويقول الذين كفروا من أهل مكة كعبد الله بن أبىّ وأصحابه ، هلا أُنْزِل على محمد آية كما أرسل على الأنبياء والرسل السابقين كسقوط السماء عليهم كِسَفا ، أو تحويل الصفا ذهبا ، أو إزاحة الجبال من حول مكة حتى يصير مكانها مروجا وبساتين إلى نحو أولئك من الاقتراحات التى حكاها القرآن عنهم كقولهم : « فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ » وكأنهم لفرط عنادهم وعظيم مكابراتهم قد ادَّعَوْا أن ما أتى به من باهر الآيات كالقرآن وغيره ليس عندهم من الآيات التى توجب الإذعان والإيمان أو التى لا تقبل شكا ولا جدلا .

ثم أمر رسوله أن يبين لهم أن إنزال الآيات لا دخل له فى هداية ولا ضلال بل الأمر كله بيده .

(قل إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب) أى إنه لا فائدة لكم فى نزول الآيات إن لم يرد الله هدايتكم فلا تَشْغَلوا أنفسكم بها ، ولكن تضرّعوا إليه واطلبوا منه الهداية ، فإن الضلال والهداية بيده وإليه مقاليدها ، وادعوه أن يهيئ

لكم من أمره رشدا ، وأن يمهد لكم وسائل النجاة والسعادة ، ويدفع عنكم نزغات الشيطان ووساوسه ، لتظفروا بالحسنى فى الدارين .

والخلاصة — أن فى القرآن وحده غنى عن كل آية ، فلو أراد الله هدايتكم لصرف اختياركم إلى تحصيل أسبابها وكان لكم فيه مرشدا أيما مرشد ، ولكن الله جعلكم سادرين فى الضلالة لاتلوون على شىء ، ولا ينفعكم إرشاد ولا نصح ، لسوء استعدادكم ، وكثرة لجاجكم وعنادكم ، ومن كانت هذه حاله فأنى له أن يهتدى ولو جاءته كل آية ؟ كما قال : « وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ » وقال : « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » وقال : « وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ » .

أما من أقبلوا إلى الله وتأملوا فى دلائله الواضحة ، وسلكوا طرقه المعبدة ، فالله ينير بصائرهم ويشرح صدورهم ، وهم لابد واصلون إلى الفوز بالحسنى ، وحاصلون على السعادة فى الدنيا والآخرة ، وهم من أشار إليهم بقوله :

(الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله) أى هم الذين آمنوا وركنت قلوبهم إلى جانب الله وسكنت حين ذكره ، وإذا عرض لهم الشك فى وجوده ظهرت لهم دلائل وحدانيته فى الآيات ، وعجائب الكائنات ، فرضى به مولى ورضى به نصيرا ، ومن ثم قال :

(ألا بذكر الله تطمئن القلوب) أى ألا بذكر الله وحده تطمئن قلوب المؤمنين ، ويزول القلق والاضطراب من خشيته ، بما يُفيضه عليها من نور الإيمان الذى يُذْهب الهَلَع والوحشة ، وهى بمعنى قوله فى الآية الأخرى : « ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » .

فالمؤمنون إذا ذكروا عقاب الله ولم يأمنوا من وقوعهم فى المعاصى وجلت قلوبهم كما قال : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ » وإذا ذكروا وعده بالثواب والرحمة سكنت نفوسهم واطمأنت إلى ذلك الوعد وزال منها القلق والوحشة.

وفى الآية إيماء إلى أن الكفار أفئدتهم هواء ، إذ لم تسكن نفوسهم إلى ذكره ، بل سكنت إلى الدنيا وركنت إلى لذاتها .

ثم بين سبحانه جزاء المطمئنين وثوابهم فقال :

(الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) أى إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم الفرح وقُرّة العين عند ربهم ، وحسن المآب والمرجع .

وفى هذا من الترغيب فى طاعته ، والتحذير من معصيته ، ومن شديد عقابه ، ما لا خفاء فيه .

وخلاصة ذلك — أن أهل الجنة منعمون بكل ما يشتهون كما جاء فى الحديث : « فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

محمد صلى الله عليه وسلم ليس بدْعا من الرسل

كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ، قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ، بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ، أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ، وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ

لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ ؟ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٣٤) .

تفسير المفردات

خلت : مضت ، متاب : مرجعى ، قطعت : شققت ، ييأس : يعلم وهولغة هوازن قارعة رزية تقرّع القلوب ، أمليت : أى أمهلت مدة طويلة فى أمن ودعة ، قائم : رقيب ومتولّ للأمور ، تنبئونه : تخبرونه ، بظاهر من القول : أى بباطل منه لاحقيقة له فى الواقع . والسبيل : هو سبيل الحق وطريقه ، والواق : الحافظ .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه طلبهم من رسوله صلى الله عليه وسلم الآيات كما أنزل على الرسل السالفين كموسى وعيسى وغيرهم من النبيين والمرسلين ، وبين أن الهدى هدى الله ، فلو أوتوا من الآيات ماأوتوا ولم يرد الله هدايتهم فلا يجديهم ذلك فتيلا ولا قطميرا ذكر هنا أن محمدا ليس ببدع من الرسل وأن قومه سبقهم أقوام كثيرون ، وطلبوا الآيات من أنبيائهم ، وأجابوهم إلى ما طلبوا ، ولم تغنهم الآيات والنذر ، فكانت عاقبتهم البوار والنكال ، فأنزل على كل قوم من العذاب ما أتى عليهم جميعا ، وأصبحوا معه كأمس الدابر ؛ ولو أن كتابا تُسَيَّر به الجبال عن أماكنها ، أو تشقق به الأرض فتجعل أنهارا وعيونا ، لكان هذا القرآن الذى أنزلناه عليه ، ثم أبان أن الله تعالى قادر على الإتيان بما اقترحوه ، لكنه لم يرد ذلك ، لأنه لاينتج المقصود من إيمانهم .

ثم أتبع ذلك بالتيئيس منه و بالتهديد بقارعة تحل بهم ، و بتسلية النبى صلى الله عليه وسلم على استهزائهم به .

أخرج ابن أبى شيبة وابن المنذر وغيرهما عن الشعبى قال : قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن كنت نبيا كما تزعم فباعد جَبَلَىْ مكة أَخْشَبَيْهَا (اسمى الجبلين) هذين مسيرة أربعة أيام أو خمسة ، فإنها ضيقة حتى نزوع فيها ونرعى ، وابعث لنا آباءنا من الموتى حتى يكلمونا ويخبرونا أنك نبى ، أو احملنا إلى الشام أو اليمن أو إلى الحيرة حتى نذهب ونجىء فى ليلة كما زعمت أنك فعلته فنزلت هذه الآية .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس أنهم قالوا : سَيِّرْ بالقرآن الجبال ، قَطِّعْ بالقرآن الأرض ، أخرج به موتانا ، فنزلت .

الإيضاح

(كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك) أى كما أرسلنا إلى الأمم الماضية رسلا فكذبوهم ، كذلك أرسلناك فى هذه الأمة ، لتبليغهم رسالة الله إليهم ، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك ، فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم .

وخلاصة ذلك — إننا كما أرسلنا إلى أمم من قبلك وأعطيناهم كتبا تتلى عليهم ، أرسلناك وأعطيناك هذا الكتاب لتتلوه عليهم ، فلماذا يقترحون غيره ؟ .

(وهم يكفرون بالرحمن) أى وحالهم أنهم كفروا بمن أحاطت بهم نعمه ، ووسعت كلَّ شىء رحمته ، ولم يشكروا نعمه وفضله عليهم ، ولا سيما إحسانه إليهم بإرسالك وإنزال القرآن عليك ، وهو الكفيل بمصالح الدنيا والآخرة كما قال تعالى : «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ» .

وكفرهم به أنهم جحدوه بتاتا أو أثبتوا له الشركاء .

(قل هو ربى لا إله إلا هو) أى قل لهم : إن الرحمن الذى كفرتم به هو خالقى ومتولّى أمرى ومُبْلِغى مراتب الكمال . لارب غيره ولا معبود سواه ، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

وعن قتادة قال : « ذُكِر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحُدَيْبية حين صالح قريشا كتب فى الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم. فقالت قريش : أما الرحمن فلا نعرفه ، وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم ، فقال أصحابه : دعْنا نقاتِلْهم ، قال لا ، اكتبوا كما يريدون » اه .

(عليه توكلت) أى عليه لاعلى غيره توكلت فى جميع أمورى ، ولا سيما فى نصرتى عليكم .

(وإليه متاب) أى وإليه وحده توبتى ، وهو بمعنى قوله : « واسْتَغفِرْ لِذَنْبِكَ » وفى هذا بيان لفضل التوبة ومقدار عظمها عند الله ، وبعثٌ للكفار على الرجوع عما هم عليه بأبلغ وجه وألطف سبيل ، إذ أُمِر بها عليه السلام وهو منزَّه عن اقتراف الذنوب ، فتوبتهم وهم عاكفون على أنواع الكفر والمعاصى أحق وأجدر .

(ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) أى ولو ثبت أن كتابا سُيِّرت بتلاوته الجبال وزعزعت من أماكنها كما فُعِلَ بالطور لموسى عليه السلام .

(أو قطعت به الأرض) أى شققت وجعلت أنهارا وعيونا كما حدث للحجز حين ضرب به موسى بعصاه .

(أو كلم به الموتى) أى أو كلم أحد به الموتى فى قبورهم بأن أحياهم بقراءته فتكلم معهم بعدُ كما وقع لعيسى عليه السلام — لو ثبت هذا الشىء من الكتب لثبت لهذا الكتاب الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لما انطوى عليه من الآيات الكونية الدالة على بديع صنع الله فى الأنفس والآفاق ، واشتمل عليه من الحكم والأحكام التى فيها صلاح البشر وسعادتهم فى الدار الفانية والدار الباقية ، ومن قوانين العمران التى تكون خيرا لمتبعيها وفوزا لسالكيها ، ويجعل منهم خير أمة أخرجت

للناس ، وهذا بمعنى قوله : « لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ » .

خلاصة ذلك — لو أن ظهور أمثال ما اقترحوه مما تقتضيه الحكمة وتستدعيه المصلحة ، لكان مظهر ذلك هو القرآن الذى لم يعدُّوه آية واقترحوا غيره .

ولا يخفى ما فى هذا من تعظيم شأنه الكريم ، ووصفهم بسُخْف العقل ، وسوء التدبير والرأى ، وبيان أن تلك المقترحات لاينبغى أن يؤبه لها ، ولا يلتفت إليها ، لأنها صادرة عن التشهّى والهوى ، والتمادى فى الضلال والمكابرة والعناد ، لاعن تقدير للأمور على وجهها الصحيح ، وتأمل فى حقائقها ، وما يجب أن يكون لها من الاعتبار .

ويجوز أن يكون المعنى — لو أن كتابا فُعِلَت بوساطته هذه الأفاعيل العجيبة لما آمنوا به ، لفرط عنادهم وغلوهم فى مكابرتهم ، وهذا بمعنى قوله : « وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ » .

(بل لله الأمر جميعا) أى بل مرجع الأمور كلها بيد الله ، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ومن يضلل فلا هادى له ، ومن يهد فما له من مضل .

وخلاصة ذلك — إن الله قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات ، لكن الإرادة لم تتعلق بذلك ، لعلمه أن قلوبهم لاتلين ، ولا يجدى هذا فائدة فى إيمانهم .

(أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا) أى ألم يعلم الذين آمنوا أن الله تعالى لو شاء هداية الناس أجمعين لهداهم ، فإنه ليس ثمة حجة ولا معجزة أنجع فى العقول من هذا القرآن الذى لو أنزل على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله ، لكنه لم يشأ ذلك .

روى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبى إلا وقد أوتى ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىّ فأرجو أن أكون

أكثرهم تابعا يوم القيامة » يريد أن كل نبي انقرضت معجزته بموته ، وهذا القرآن حجة باقية على وجه الدهر ، لاتنقضى عجائبه ، ولا يخلَقُ على كثرة الردِّ ، ولا يَشبع منه العلماء .

(ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة) أى ولا يزال الكافرون تصيبهم البلايا والرزايا ، من القتل والأسر ، والسلب والنهب ، بسبب تماديهم فى الكفر وتكذيبهم لك و إخراجك من بين أظهرهم .

(أو تحل قريبا من دارهم) أى أو تحل تلك القارعة قريبا من دارهم فيفزعون منها و يتطاير شررها إليهم .

(حتى يأتى وعد الله) أى حتى ينجز الله وعده الذى وعدك فيهم ، بظهورك عليهم ، وفتحك أرضهم ، وقهرك إياهم بالسيف .

(إن الله لايخلف الميعاد) أى إن الله منْجزك ما وعدك من النصر عليهم ، لأنه لايخلف وعده كما قال : « فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ، إنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ » .

ولما كان الكفار يسألون النبى صلى الله عليه وسلم هذه الآيات على سبيل الاستهزاء والسخرية ، وكان ذلك يشق عليه ، و يتأذى منه ، أنزل الله تسلية له على سفاهة قومه قوله :

(ولقد استهزئ برسل من قبلك) أي إن يستهزئ بك هؤلاء المشركون من قومك و يطلبوا منك الآيات تكذيبا لما جئتهم به فاصبر على أذاهم وامض لأمر ربك ، فلقد استهزأت أمم من قبلك برسلهم .

ثم بين سبحانه شأنه مع المكذبين فقال :

(فأمليت للذين كفروا) أى فتركتهم مَلاوةً أى مدة من الزمان فى أمن ودعة كما يُملَى للبهيمة فى المرعى .

(ثم أخذتهم فكيف كان عقاب) أى ثم أحللت بهم عذابى ونقمتى حين تمادَوْا فى غيهم وضلالهم ، فانظر كيف كان عقابى إياهم حين عاقبتهم - ألم أذِقْهم أليم العذاب وأجعلهم عبرة لأولى الألباب ؟ .

وقد صدق الله وعده ، ونصر رسوله على عدوه ، فدخل فى دين الله من دخل ، ومن أبى قُتِل ، ودانت العرب كلها له ، وانضوت تحت لوائه ، وحقت عليهم كلمة ربك

وفى هذا تعجيب مما حل بهم ، ودلالة على شدته وفظاعة أمره كما لا يخفى .

ثم ذكر سبحانه مايجرى مجرى الحجاج عليهم ، وما فيه توبيخ لهم وتعجيب من عقولهم ، وكيف إنها وصلت إلى حد لاينبغى لعاقل أن يقبله ولا يرضى به فقال :

(أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) أى أفمن هو قائم بحفظ أرزاق الخلق ومتولى أمورهم وعالم بهم وبما يكسبونه من الأعمال من خير أو شر ولا يعزُب عنه شىء كمن ليس بهذه الصفة من معبوداتكم التى لاتَسْمَع ولا تُبْصِر ، ولا تدفع عن نفسها ولا عمن يعبدها ضرا ، ولا تجلب لهم نفعا .

وخلاصة ذلك — أنه لاعجب من إنكارهم لآياتك الباهرة مع ظهورها ، وإنما العجب كل العجب من جعلهم القادر على إنزالها المجازى لهم على إعراضهم عن تدبر معانيها - بقوارع تَتْرَى واحدة بعد أخرى يشاهدونها رأى العين - كمن لايملك لنفسه نفعا ولا ضرا فضلا عن اتخاذه ربا يُرْجَى نفعه ، أو يخشى ضره .

ونحو الآية قوله : « وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا » وقوله : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » وقوله : « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » .

ثم أكد هذا بقوله :

(وجعلوا لله شركاء) عبدوها معه من أصنام وأوثان وأنداد .

ثم أعقب ذلك بتوبيخ إثر توبيخ فقال :

(قل سموهم) أى صِفُوهم ، فهل لهم مايستحقون به العبادة و يستأهلون الشركة ، وقد يكون المعنى ، سموهم من هم وما أسماؤهم ؟ فإنهم ليسوا ممن يُذكر و يسمّى ، فإنما يسمى من ينفع و يضر .

(أم تنبئونه بما لايعلم فى الأرض) أى بل أتخبرونه بشركاء يستحقون العبادة لايعلمهم ، أو تخبرونه بصفات لهم يستحقون لأجلها العبادة وهو لايعلمها ، وفى هذا نفى لوجودها ، لأنها لو كانت موجودة لعلمها ، لأنه لاتخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

(أم بظاهر من القول) أى بل أتسمونهم شركاء ظنا منكم أنهم ينفعون و يضرون كما تسمونهم آلهة كما قال : « إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى » .

وخلاصة حجاجه على المشركين — نفى الدليل العقلى والدليل النقلى على أحقية عبادتها ـ فبعد أن هدم قاعدة الإشراك بقوله : «أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت» زاد ذلك إيضاحا فقال : وليتهم إذ أشركوا بربهم الذى لاينبغى أن يشرك به ـ أشركوا به من له حقيقة واعتبار ومن ينفع و يضر ، لامن لا اسم له فضلا عن المسمى ، بل من لايعرف له وجود فى الأرض ولا فى السماء ، و يريدون أن ينبئوا عالم السر والنجوى بما لايعلمه ، ثم زاد على ذلك فقال : وما تلك التسمية إلا بظاهر من القول من غير أن يكون تحتها طائل وما هى إلا أصوات جوفاء كثيرة المبانى خالية من المعانى .

(بل زين للذين كفروا مكرهم) أى دعْ هذا الحِجَاج وألق به جانبا ، فإنه لافائدة فيه ، لأنه زيّن لهم كيدهم ، لاستسلامهم للشرك ، وتماديهم فى الضلال .

(وصدوا عن السبيل) أى وصُرِفوا عن سبيل الحق ، بما زين لهم من صحة ماهم عليه .

(ومن يضلل الله فما له من هاد) أى ومن يخذله الله لسوء اعتقاده وفساد أعماله واجتراحه للآثام والمعاصى فلا هادى له يوفقه إلى النجاة و يوصله إلى طرق السعادة .

ونحو الآية قوله : « وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا » وقوله : « إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » .

ثم بين عاقبة أمرهم فقال :

(لهم عذاب فى الحياة الدنيا) أى لهم عذاب شاق فى هذه الحياة بالقتل والأسر وسائر الآفات التى يصيبهم بها .

(ولعذاب الآخرة أشق) أى ولتعذيب الله إياهم فى الدار الآخرة أشد من تعذيبه إياهم فى الدنيا وأشق لشدته ودوامه .

ثم أيأسهم من صرف العذاب عنهم فقال :

(وما لهم من الله من واق) أى وما لهم حافظ يعصمهم من عذاب الله ، إذ لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، ولا يأذن لأحد فى الشفاعة لمن كفر به ومات على كفره .

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ، قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ

اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩)

تفسير المفردات

المثل : الصفة والنعت ، والأُكُل : ما يؤكل ، والظل : واحد الظلال والظلول والأظلال ، والأحزاب : واحدهم حزب ، وهو الطائفة المتحزّبة : أى المجتمعة لشأن من الشئون كحرب أو عداوة أو نحو ذلك ، والمآب : المرجع ، والواق . الحافظ ، والأجل : الوقت والمدة ، والكتاب : الحكم المعين الذى يكتب على العباد بحسب ما تقتضيه الحكمة ، والمحو : ذهاب أثر الكتابة ، وأمّ الكتاب : أصله وهو علم الله تعالى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أعده للكافرين من العذاب والنكال فى الدنيا والآخرة ـ أتبعه بذكر ثواب المتقين فى جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ثم أردفه ذكر فرح المؤمنين من أهل الكتاب بما أنزل عليه من ربه ، وإنكار بعض منهم لذلك ، ثم حث الرسول صلى الله عليه وسلم على القيام بحق الرسالة وتحذيره من مخالفة أوامره ، ثم ختم هذا بذكر الجواب عن شبهات كانوا يوردونها لإبطال نبوته صلى الله عليه وسلم كقولهم : إنه كثير الزوجات ، ولو كان رسولا من عند الله لما اشتغل بأمر النساء .

وخلاصة الجواب — إن محمدا ليس ببدع من الرسل ، فكثير منهم كان له أزواج وذرية ولم يقدح ذلك فى رسالاتهم ، وكقولهم : إنه لو كان رسولا من عند الله لم يتوقف فيما يطلب منه من المعجزات ، فأجيبوا بأن أمر المعجزات مفوّض إلى الله إن شاء أظهرها وإن شاء لم يظهرها ، ولا اعتراض لأحد عليه ، وقولهم : إن ما يخوفنا به من العذاب وظهور النصرة له ولقومه لم يتحقق بعدُ فليس بنبى ولا صادق فيما يقول ،

فأجيبوا عن ذلك بقوله : لكل أجل كتاب : أى لكل حادث وقتا معينا لا يتقدم عنه ولا يتأخر ، فتأخر المواعيد لا يدل على ما تدّعون .

الايضاح

(مثل الجنة التى وعد المتقون) أى فيما نقصّه عليك صفة الجنة التى وعدالله المتقين وأعطاهم إياها كِفاء إخباتهم له و إنابتهم إليه ودعائهم إياه مخلصين له الدين لا شريك له (تجرى من تحتها الأنهار) سارحة فى أرجائها وجوانبها يصرّفونها كيف شاءوا وأين أرادوا .

(أكلها دائم) أى فيها الفواكه والمطاعم والمشارب التى لا تنقطع عنهم ولا تبيد .

(وظلها) كذلك ، فليس هناك حر ولا برد ، ولا شمس ولا قمر ولا ظلمة كما قال تعالى : « لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً » .

و بعد أن وصف الجنة بهذه الصفات الثلاث ـ بين أنها مآل المتقين ومنتهى أمرهم فقال :

(تلك عقبى الذين اتقوا) أى هذه الجنة عاقبة من اتَّقَوا ربهم فأقلعوا عن الكفر والمعاصى واجتراح السيئات ، وعنَتْ وجوههم للحى القيوم ، وخافوا يوما تشيب من هوله الولدان ، وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .

ثم بين عاقبة الكافرين بعد ما بين عاقبة المتقين فقال :

(وعقبى الكافرين النار) أى وعاقبة الكافرين بالله النار ، بما اقترفوا من الذنوب ودنسوا به أنفسهم من الآثام .

وفى الآية فتح باب الطمع على مصراعيه للمتقين ، و إقفاله بالرِّتاج على الكافرين.

ثم بين أن أهل الكتاب انقسموا فئتين : فئة فرحت بنزول القرآن ، وفرقة أنكرته وكفرت ببعضه فقال :

(والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك) من القرآن لما فى كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به كما قال تعالى : « الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ » وهم جماعة ممن آمن من اليهود كعبد الله ابن سَلاَم وأصحابه ، ومن النصارى وهم ثمانون رجلا من الحبشة واليمن ونجران .

(ومن الأحزاب من ينكر بعضه) أى ومن جماعتهم الذين تحزّبوا وتألبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة ككعب بن الأشرف والسيد والعاقب أُسْقُفَّىْ نجران وأشياعهم — من أنكر بعض القرآن وهو مالم يوافق ماحرفوه من كتابهم وشرائعهم .

ولما ذكر سبحانه اختلاف أهل الكتاب فى شأنه صلى الله عليه وسلم — بين بإيجاز ما يحتاج إليه المرء ليفوز بالسعادتين فقال :

(قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به) أى قل لهم صادعا بالحق ولا تكترث بمن ينكره إنى أمرت فيما أنزل إلىّ بأن أعبد الله وحده ولا أشرك به شيئا سواه ، وذلك مالا سبيل إلى إنكاره وأطبقت عليه الشرائع والكتب كما قال : « يا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا » وذلك ما دلت الدلائل التى فى الآفاق والأنفس على وجوب الإذعان له والاعتراف به .

وفى كل شىء له آية تدل على أنه واحـــد

(إليه أدعو) أى إلى طاعته وإخلاص العبادة له وحده أدعو الناس .

(وإليه مآب) أى وإليه وحده مرجعى ومصيرى ومصيركم للجزاء ، ولا خلاف بيننا فى هذا ، فالعجب لكم أن تنكروا المتفق عليه ، وتختلفوا فيما لامحل للخلاف فيه .

وهذه الآية جامعة لشئون النشأة الأولى والآخرة ، فقوله : « قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به » توحى إلى ما جاء به التكليف ، وقوله « إليه أدعو » تشير إلى مهامّ الرسالة ، وقوله : (وإليه مآب) تشير إلى البعث والجزاء للحساب يوم القيامة .

ثم بين سبحانه أنه أرسل رسوله بلغة قومه كما أرسل من قبله رسلا بلغات أقوامهم فقال :

(وكذلك أنزلناه حكما عربيا) أى وكما أرسلنا قبلك المرسلين وأنزلنا عليهم الكتب، أنزلنا عليك القرآن حكما عربيا بلسانك ولسان قومك ليسهل عليهم تفهم معناه واستظهاره . وسمى القرآن حكما : أى فصلا للأمر على وجه الحق - لأن فيه بيان الحلال والحرام وجميع ما يحتاج إليه المكلفون ليصلوا إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

وقد جاء بمعنى الآية قوله : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ » .

ثم إن أهل مكة دَعَوْه إلى أمور يشاركهم فيها فقال :

(ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم) أى ولئن اتبعت أهواء هؤلاء الأحزاب ابتغاء رضاهم ، كالتوجه إلى قبلتهم وعدم مخالفتهم فى شىء مما يعتقدونه .

(مالك من الله من ولى ولا واق) أى ليس لك من دون الله ولىّ ولا ناصر ينصرك ، فينقذك منه إن هو أراد عقابك ، ولا واق يقيك عذابه إن شاء عذابك ، فاحذر أن تتبع أهواءهم وتنهج نهجهم .

وقد تقدم أن مثل هذا من وادى قولهم : (إياك أعنى واسمعى ياجاره) فهو إنما جاء لقطع أطماع الكافرين وتهييج المؤمنين على الثبات فى الدين لا للنبى صلى الله عليه وسلم فهو بمكان لا يحتاج فيه إلى باعث ولا مهيّج .

ونزل : لما عابت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم بكثرة النساء ، فقالوا لو كان نبيا كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء :

(ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية) أى وكما أرسلناك رسولا بشريا ، كذلك بعثنا المرسلين قبلك بشرا يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ويأتون الزوجات ويُولَد لهم .

وفى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أما أنا فأصوم وأُفْطِر ، وأقوم وأنام ، وآكل اللحم ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » :

وقد كان من حكمة تعدد زوجاته أمهات المؤمنين أن اطلعن منه على الأحوال الخفيّة التى تكون بين الرجل والمرأة وعلمهن منه أحكامها ونشرنها بين المؤمنين ، وناهيك بأم المؤمنين عائشة وفيها يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » ومن ثم كانت أكثر من حدّث عن رسول الله بعد أبى هريرة ، وأكثر من حدث عن شمائله وأخلاقه فى السر والعلن ، ومنها عَلِم المسلمون كثيرا من أحكام دينهم ، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يختلفون إليها للحديث والفَتْيا وكانت تحاجهم وتجادلهم ، وتلزمهم الحجة ولا يجدون مَعْدِلا عن التسليم برأيها .

وروى أن المشركين طعنوا فى نبوته لعدم إتيانه بما يقترحونه من الآيات فنزل قوله :

(وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله) أى وما كان فى وسع رسول من الرسل أن يأتى من أُرْسِل إليهم بمعجزة يقترحونها إلا متى شاء الله وعلم أن فى الإتيان بها حكما ومصالح لعباده ، وقد جاء من الآيات بما فيه عبرة لمن اعتبر ، وغناء لمن تفكر وتدبر ، ولكنهم أبَوْا إلا التمادى فى الغواية والضلال كما تقدم من مقال عبد الله بن أبى أمية .

والآيات المقترحة لاتأتى إلا على مقتضى الحكمة فى أزمان يعلمها الله ، وقد جعل لكل زمن من الأحكام مافيه الصلاح والخير للناس ، ولا صلاح فيما اقترحوه ، وهل من الصلاح أن يرضع المراهق اللبن من ظِئره ، وأن يُجعل له مهد ينام فيه ؟ كذلك لاحكمة فى إنزال الآيات التى اقترحوها ، وهذا إيضاح قوله :

(لكل أجل كتاب) أى لكل كتاب أجل أى لكل أمر كتبه الله أجل معين ووقت معلوم ، فلا آية من المقترحات بنازلة قبل أوانها ، ولا عذاب مما خُوِّفوا به بحاصل فى غير وقته ، ولا نبوّة بحاصلة فى غير الزمان المقدر لها ، فموسى وعيسى

ومحمد عليهم السلام جاءوا فى أزمنة رأى الله الصلاح فى وجودهم فيها لا يتقدمون عنها ولا يتأخرون ، وهكذا انقضاء أعمار الناس ووقوع أعمالهم وآجالهم ، كلها كتبت فى آجال ومدد معينة لا تقديم فيها ولا تأخير .

ونحو الآية قوله (لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ) .

فما مثل الدنيا من كواكبها وشمسها وأرضها وزرعها إلا مثل مصنع رُتِّبَتْ أعماله ، ووضعت عماله ، فى حجر معينة ، ووزع بينهم العمل على نظم خاصة ، فى أوقات معينة ، ولهم مناهج يتبعونها ، فتراهم كل يوم يعملون و ينصرفون من أماكنهم ثم يعودون إليها على نهج لا يتغير ولا يتبدل ، فالدنيا قد جعل الله لها نظاما على مقتضى الحقائق الثابتة التى تعلق بها علمه ، وعلى هذا النظام جرت الشمس والقمر والكواكب وظهر النبات والحيوان وتعاقب الموت والحياة ، وظهرت نجوم وفنيت أخرى ، ونبت زرع وحصد آخر ومات نبى وقام آخر ، وامتد دين وانتشر ، وتقلّص دين ونسخ .

وكل كوكب من الكواكب التى تصلح للحياة كأرضنا كأنه صحيفة يكتب فيها و يمحى ، وذلك تابع لما فى المنهج الأصلى ، ومن ثم تتعاقب الأمم والأجيال والدول والنظم على قطر كمصر ، فيتعاقب عليه قدماء المصريين واليونان والرومان ، ولا شك أن كل هذا محو و إثبات على مقتضى المنهج المرسوم ، وهكذا تُنْسَخ آية من القرآن و يؤتى بغيرها ، كما ينسخ زرع بزرع ، وليل بنهار ، وقوم بقوم، ودين نبى بآخر فى ميقاته المعين فى علمه تعالى ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

(يمحو الله ما يشاء و يثبت) وقد أُثِر عن أئمة السلف فيها أقوال لا تناقض فيها بل هى داخلة فيما سلف :

(١) قال الحسن : يمحو الله من جاء أجله و يثبت من بقى أجله .

(٢) وقال عِكْرِمة : يمحو الله القمر و يثبت الشمس .

(٣) وقال الربيع : يقبض الله الأرواح حين النوم ، فيميت من يشاء و يمحوه ويرجع من يشاء فيثبته

(٤) وقال السدى : يمحو الله القمر ويثبت الشمس .

(٥) وقال آخرون : يمحو الله ما يشاء من الشرائع بالنسخ ، ويثبت ما يشاء . فلا ينسخه ولا يبدله .

(٦) وقال آخر : يمحو الله المحن والمصايب بالدعاء .

(وعنده أم الكتاب) هو علم الله ، وجميع مايكتب فى صحف الملائكة لايقع حيثما يقع إلا موافقا لما يثبت فيه فهو أمّ لذلك ، فكأنه قيل يمحو ما يشاء محوه ويثبت ما يشاء وهو ثابت عنده فى علمه الأزلى الذى لايكون شىء إلا وَفق مافيه .

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) .

تفسير المفردات

الأطراف : الجوانب ، المعقب : الذى يكُرّ على الشىء فيبطله ، ويقال لصاحب الحق معقّب ، لأنه يقفو غريمه بالاقتضاء والطلب ، والمكر : إرادة المكروه فى خفْية ، وعقبى الدار : أى العاقبة الحميدة ، والأم : أصل الشىء وما يجرى مجراه ، كأم الرأس للدماغ ، وأم القرى لمكة .

المعنى الجملى

سبق أن ذكر أنهم اقترحوا عليه الآيات استهزاء به وطلبوا استعجال السيئة التى توعدهم بها ، وكان صلى الله عليه وسلم يتمنى وقوع بعض ماتُوعِّدوا به ليكون زاجرا

لغيرهم ، ذكر هنا لرسوله أن وظيفته التبليغ ، ولا يهمه ما سينالهم من الجزاء فعلينا حسابهم ، وهل هم فى شك من حصول ما توعدناهم به وهم يرون بلادهم تنقص من جوانبها بفتح المسلمين لها وقتل أهلها وأسرهم وتشريدهم ، والله يحكم فى خلقه كما يريد ، وقد حكم للمسلمين بالعز والإقبال ، وعلى أعدائهم بالقهر والإذلال - ثم بين أن قومه ليسوا ببدع فى الأمم فقد مكر من قبلهم بأنبيائهم ولم يكن مكرهم ليضيرهم شيئا فكانت العاقبة للمتقين ، وأهلك الله القوم الظالمين ، وسيعلم الكافرون حين يحل بهم العذاب ، لِمَنْ حسن العاقبة ؟ ثم ذكر إنكار اليهود لرسالته وأمره بالجواب عن ذلك بأن الله شهد له بأنه صادق فيها ، فأيده بالأدلة والحجج، وفى شهادته غنى عن شهادة أىّ شاهد آخر ، وكذلك شهد من آمن من أهل الكتاب بأنهم يجدون وصفه فى كتبهم .

الايضاح

(وإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) أى إن أريناك أيها الرسول فى حياتك بعض الذى نَعِد هؤلاء المشركين بالله من العقابَ على كفرهم ، أو توفيناك قبل أن نريك ذلك ، فما عليك إلا تبليغ رسالة ربك ، لا طلب صلاحهم ولا فسادهم ، وعلينا محاسبتهم ومجازاتهم بأعمالهم، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، ونحو الآية قوله تعالى : « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ . إِلا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ . فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ . إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ » .

(أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ؟) أى أشكّ أولئك المشركون من أهل مكة الذين يسألونك الآيات ، ولم يروا أنا نأتى الأرض فنفتحها لك أرضا بعد أرض ، ونلحقها بدار الإسلام ، ونذهِب منها أهلها بالقتل والأسر والإجلاء ؟ أليس هذا مقدمة لما أوعدناهم بحصوله ، ونذيرا بما سيحل بهم من النكال والوبال فى الدنيا والآخرة لو تدبروا ، فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ .

ونحو الآية قوله : « أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الغَالِبُونَ ؟ » .

(والله يحكم لامعقّب لحكمه) أى والله يحكم وحكمه النافذ الذى لا يُردّ ، ولا يستطيع أحد أن يبطله ، وقد جرت سنته أن الأرض يستعمرها عباده الصالحون بالعدل فيها والسير على نهج المساواة وترك الظلم . وقد حكم للمسلمين بالعز والإقبال على ما وضَعَ من السنن العامة ، وعلى أعدائهم بالإدبار وركود ريحهم ، لما سلكوه من الظلم والفساد فى الأرض

(وهو سريع الحساب) فعمّا قريب سيحاسبهم فى الآخرة كِفاء ما دنّسوا به أنفسهم ، وران على قلوبهم بارتكاب الآثام بعد أن يعذبهم فى الدنيا بالقتل والأسر ، فلا تستبطئ عقابهم ، فإنه آت لامحالة ، وكل آت قريب .

ثم بين أن قومه ليسوا ببدع فى الأمم ، فقد مكر كثير ممن قبلهم بأنبيائهم فأخذ الله أخذ عزيز مقتدر فقال :

(وقد مكر الذين من قبلهم) أى وقد مكر كثير من كفار الأمم الماضية بأنبيائهم كما فعل نمرود بإبراهيم ، وفرعون بموسى ، واليهود بعيسى ، ثم دارت الدائرة على الظالمين ، وأهلك الله المفسدين .

وفى هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتصبير بأن العاقبة له لامحالة .

(فلله المكر جميعا) أى إن مكر الماكرين لايضر إلا بإذنه تعالى ، ولا يؤثر إلا بتقديره ، فيجب ألا يكون الخوف إلا منه تعالى .

وفى هذا أمان له صلى الله عليه وسلم من مكرهم .

(يعلم ما تكسب كل نفس) فيعصم أولياءه ويعاقب الماكرين بهم ، ليوفى كل نفس جزاء ما كسبت .

وفى هذا ما لايخفى من شديد الوعيد والتهديد للكافرين الماكرين .

ثم أكد هذا التهديد بقوله :

(وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) أى وسيعلم الكفار إذا قدموا إلى ربهم يوم القيامة حين يدخل الرسول والمؤمنون الجنة ويدخلون النار ، لمن العاقبة المحمودة إذ ذاك ، وإن جهلوا ذلك من قبل ؟ .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أسْقُفٌ من اليمن فقال له عليه السلام : هل تجدنى فى الإنجيل رسولا ؟ قال لا فأنزل الله تعالى :

(ويقول الذين كفروا لست مرسلا) أى ويقول الجاحدون لنبوتك ، الكافرون برسالتك ، لست رسولا من عند الله أرسلك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور وتدعوهم إلى عبادة إله واحد لا شريك له ، وتنقذهم من عبادة الأصنام والأوثان ، وتصلح حال المجتمع البشرى ، وتمنع عنه الظلم والفساد .

(قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم) أى قل حسبى الله شاهدا بتأييد رسالتى ، وصدق مقالتى ، إذ أنزل علىّ هذا الكتاب الذى أعجز البشر قاطبة أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

(ومن عنده علم الكتاب) وهم من أسلم من أهل الكتابين التوراة والإنجيل كعبد الله بن سلام وأضرابه فإنهم يشهدون بنعته فى كتابهم .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : كان من أهل الكتاب قوم يشهدون بالحق ويعرفونه ، منهم عبد الله بن سلام والجارود وتميم الدارى وسلمان الفارسى رضى الله عنهم .

خلاصة هذه السورة

ترى مما تقدم فى تفسير هذه السورة أنها اشتملت على الأمور الآتية :

(١) إقامة الأدلة على التوحيد بما يُرى من خلق السموات والأرض والجبال والأنهار والزرع والنبات على اختلاف ألوانه وأشكاله ، وهذا تفصيل لما أجمله فى السورة

قبلها من قوله : « وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » .

(٢) إثبات البعث ويوم القيامة ، والتعجب من إنكارهم له .

(٣) استعجالهم العذاب من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبيان أنه واقع بهم لامحالة كما وقع لمن قبلهم من الأمم الغابرة .

(٤) بيان أن للإنسان ملائكة تحفظه وتحرسه وتكتب عليه ما يكتسبه من الحسنات والسيئات بأمر الله .

(٥) ضرب الأمثال لمن يعبد الله وحده ولمن يعبد الأصنام بالسيل والزبد الرابى .

(٦) بيان حال المتقين الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب وأقاموا الصلاة وأنفقوا فى السر والعلن ، وبيان مآلهم يوم القيامة .

(٧) بيان حال الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويفسدون فى الأرض وبيان مآلهم .

(٨) إنكار الشركاء مع إقامة الأدلة على أن لاشريك لله .

(٩) وصف الجنة التى وعد بها المتقون وبيان أنها مآل المتقين ومآل الكافرين النار وبئس القرار .

(١٠) بيان أن كثيرا ممن أسلموا من أهل الكتاب يفرحون بما ينزل من القرآن ، إذ يرون فيه تصديقا لما بين أيديهم من الكتاب .

(١١) بيان مهمة الرسول وأن خلاصة ما جاء به - عبادة الله وحده ، وعدم الشرك به ، ودعاؤه لجلب النفع ودفع الضر وأن إليه المرجع والمآب .

(١٢) بيان أن كل رسول أرسل بلغة قومه ليسهل عليهم قبول دعوته وفهمها .

(١٣) تحذير الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته من قبول دعوة المشركين من بعد ما جاءهم من العلم .

(١٤) إن جميع الرسل صلوات الله عليهم كان لهم أزواج وذرية .

(١٥) إن المعجزات ليست بمشيئة الرسل يأتون بها كلما أرادوا ، وإنما هى بإذن الله وإرادته .

(١٦) بيان أن هذه الحياة الدنيا إنما هى محو وإثبات ، وموت وحياة ، فيزيل الله قوما ويوجد آخرين ، وكل ذلك محفوظ فى علم الذى لاتغيير فيه ولا تبديل .

(١٧) إن مهمة الرسل إنما هى التبليغ ، أما الجزاء على مخالفة الأوامر فأمر ذلك إلى الله ، ولا يعنى الرسول أن يحصل فى زمنه أو بعد وفاته .

(١٨) إن انتقام الله من المكذبين قد بدأ فى حياة الرسول بقتل أعدائه وأسرهم وتشريدهم فى البلاد .

(١٩) إن مكر أولئك الكافرين بالرسول ليس ببدع جديد ، فكثير من الأمم السابقة مكروا بأنبيائهم ، وكان النصر حليف المتقين ، ونكّل الله بالقوم الظالمين .

(٢٠) إلحاف الكافرين فى إنكار رسالته صلى الله عليه وسلم ، مع بيان أن الله شهيد على ذلك بما أقام من الأدلة على صدقه ، وكذلك شهادة من آمن من أهل الكتاب بوجود أمارات رسالته صلى الله عليه وسلم فى كتبهم وتبشيرها بها .

سورة إبراهيم

هى مكية وعدد آياتها ثنتان وخمسون .

وارتباطها بالسورة قبلها من وجوه :

(١) إنه قد ذكر سبحانه فى السورة السابقة أنه أنزل القرآن حكما عربيا ولم يصرح بحكمة ذلك وصرح بها هنا .

(٢) إنه ذكر فى السورة السالفة قوله : « وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ » وهنا ذكر أن الرسل قالوا : « مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ » .

(٣) ذكر هناك أمره عليه السلام بالتوكل على الله ، وهنا حكى عن إخوانه المرسلين أمرهم بالتوكل عليه جل شأنه .

(٤) اشتملت تلك على تمثيل الحق والباطل ، واشتملت هذه على ذلك أيضا .

(٥) ذكر هناك رفع السماء بغير عمد ومدّ الأرض وتسخير الشمس والقمر ، وذكر هنا نحو ذلك .

(٦) ذكر هناك مكر الكفار وذكر مثله هنا ، وذكر من وصفه مالم يذكر هناك .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ

فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) .

تفسير المفردات

الظلمات : الضلالات ، والنور : الهدى ، وإذن ربهم : تيسيره وتوفيقه ، والعزيز: الغالب ، والحميد : المحمود المثْنَى عليه بحمده لنفسه أزلا وبحمد عباده له أبدا ، وويل : هلاك ، يستحبون : يختارون ، سبيل الله : هو دينه الذى ارتضاه ، يبغونها : يطلبون لها ، عوجا : زيغا واعوجاجا ، واللسان : اللغة .

الإيضاح

(الر) تقدم أن بينا فى سورتى يونس وهود طريق قراءته والمعنى المراد منه بما أغنى عن إعادته هنا .

(كتاب أنزلناه إليك) أى هذا كتاب أنزلناه إليك أيها الرسول .

(لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) أى لتُنْقِذ الناس من ظلمات الضلالة والكفر إلى نور الإيمان وضيائه ، وتبصِّر به أهل الجهل والعمى ، سبل الرشاد والهدى، بما اشتمل عليه من واضح الآيات البينات ، المرشدة إلى النظر فى حقائق الكون ، الدالة على وحدانية الله تعالى ، وأنه لاشريك له وأن الواجب عبادته وحده ، ثم دعاؤه لجلب النفع ، وكشف الضر ، وفيها أيضا سعادة البشر وصلاحهم فى الدنيا والآخرة .

(بإذن ربهم) أى بتوفيقه ولطفه بهم ، بإرسال نور الهدى إلى قلوبهم ، فيسلكون طرق الفلاح والصلاح .

(إلى صراط العزيز الحميد) أى إلى الصراط المستقيم ، وهو الطريق الذى ارتضاه الله لخلقه وشرعه لهم ، وهو العزيز الذى لايغالب ، المحمود فى جميع أفعاله وأقواله وأمره ونهيه .

ونحو الآية قوله : « اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلمَاتِ » الآية ، وقوله : « هُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » الآية .

ثم بين ماسلف بقوله :

(الله الذى له مافى السموات وما فى الأرض) أى هو الله المتصف بملك مافيهما خلقا وتصرفا وتدبيرا .

وهذه الجملة الدالة على عظمة خالق الأكوان ، المنفرد بالعظمة والسلطان ، قد كُرِّرت فى كثير من سور الكتاب الكريم ، للتنبيه إلى أن من أهم مقاصد هذا الدين أن يكون فى المسلمين حكماء ربانيون ، يتفهمون حقائق هذا الكون ، ويدركون أسرار بدائعه ، ويستخرجون للناس مافى باطن الأرض ، وينتفعون بما فى ظاهرها ، ويتأملون فيما فى السموات من بديع الصنع ، وماتقدمه لنا من الخير العميم الذى ينتفع منه الإنسان والحيوان، فى مأكلهما ومشربهما ومسكنهما وسائر حاجاتهما ومرافقهما .

وجاء فى سورة يوسف قوله تعالى توبيخا للغافلين ، وحثا لهم المستبصرين : « وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » .

ومع كل هذا فواأسفا ، رأينا كثيرا من المسلمين الذين تُتْلَى عليهم هذه الآية صباح مساء ـ يكتفون بمجرد تلاوتها والإيمان بها دون بحث ولاتفهم لمغزاها ولاالمراد منها ، ولااستبصار بما تنطوى عليه من المقاصد والمرامى ، ولوكان ذلك كافيا لكان ذكر الخبز حين الجوع كافيا فى الشِّبع ، والنظر إلى الماء كافيا فى الرِّى .

ثم توعد الذين جحدوا آياته ، وكفروا بوحدانيته ، فقال :

(وويل للكافرين من عذاب شديد) أى وهلاك بشديد العذاب يوم القيامة لمن كفر بك ، ولم يستجب دعوتك ، بإخلاص التوحيد لخالق السموات والأرض ،

وترْك عبادة من لايملك لنفسه شيئا ، بل هو مملوك له تعالى لأنه بعض مافى السموات والأرض .

ثم وصف سبحانه أولئك الكافرين بصفات ثلاث .

(١) (الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة) أى إن أولئك الكافرين يطلبون الدنيا ، ويعملون لها ويتمتعون بلذاتها ، ويقترفون الآثام ، ويرتكبون الموبقات ، ويؤْثِرون ذلك على أعمال الآخرة التى تقرّبهم إلى الله زلفى ، وينسوْن يوما تجازَى فيه كل نفس بما عملت ، يوم يفرّ المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، وفصيلته التى تؤويه ، ومن فى الأرض جميعا .

(٢) (ويصدون عن سبيل الله) أى ويمنعون من تتجه عزائمهم إلى الإيمان بالله واتباع رسوله فيما جاء به من عند ربه ، أن يؤمنوا به ويتبعوه ، لما زين لهم الشيطان من سلوك سبيل الطغيان ، وران على قلوبهم من الفجور والعصيان ، والبعد عند كل مايقرّب إلى الرحمن .

(٣) (ويبغونها عوجا) أى ويطلبون لها الزيغ والعوّج وهى أبعد ماتكون من ذلك ، فيقولون لمن يريدون صدهم وإضلالهم عن سبيل الله ودينه ، إن ذلك الدين ناءٍ عن الصراط المستقيم ، وزائغ عن الحق واليقين ، وإنك لتسمع كثيرا من الملحدين يقول إن القوانين الإسلامية فى الحدود والجنايات شديدة غاية الشدة وإنها تصلح للأمم العربية فى البادية ، لا للأمم التى أخذت قسطا عظيما من الحضارة : « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً » فتلك شريعة دانت لها أمة غيّرت وجه البسيطة ، وملكت ناصية العالم رَدَحاً من الزمان ، وكانت مضرب الأمثال فى العدل وترك الجوْر ، وثلّت عروش الأكاسرة والقياصرة ، وامتلكت بلادهم وأزالت عزهم وسلطانهم ، إلى أن غيّر أهلها معالمها فأركسهم الله بما كسبوا فبدّل عزهم ذلا ، وسعادتهم شقاء ، وتلك سنة الله ، أن الأرض يرثها عباده الصالحون لاستعمارها ، ثم حكم عليهم بما يستحقون فقال :

(أولئك فى ضلال بعيد) أى فهم باختيارهم لأنفسهم حب العاجلة ، وصدهم عن الدين ، وابتغائهم له الزيغ والعوج ـ فى ضلال بعيد عن الحق لا يرجى لهم فلاح ، وأنى لهم ذلك وقد كُبُّوا على وجوههم وُزيِّن لهم الفساد والغىّ ، فيرون حسنا ماليس بالحسن ، وقبيحا ماليس بالقبيح ؟ .

ثم بين سبحانه كمال نعمته و إحسانه إلى عباده ، فذكر أنه يرسل رسله إلى أقوامهم بلغاتهم ، كى لا يشق عليهم فهم الدين وحفظه فقال :

(وماأرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) أى وماأرسلنا رسولا إلى أمة من الأمم من قبلك وقبل قومك إلا بلغة قومه الذين أرسلناه إليهم ، ليُفْهِمهم ماأُرسِل به إليهم من أمره ونهيه بسهولة و يسر ، ولتقوم عليهم الحجة و ينقطع العذر ، وقد جاء هذا الكتاب بلغتهم وهو يُتْلَى عليهم ، فأى عذر لهم فى ألا يفقهوه ، وماالذى صدهم عن أن يدرسوه ، ليعلموا مافيه من حكم وأحكام ، وحلال وحرام ، و إصلاح لنُظُم المجتمع ، ليسعدوا فى حياتهم الدنيا والآخرة ؟ .

والنبى صلى الله عليه وسلم و إن أرسل إلى الناس جميعا ، ولغاتهم متباينة ، وألسنتهم مختلفة ، فإرساله بلسان قومه أولى من إرساله بلسان غيرهم ، لأنهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم و يوضحونه لهم ، حتى يصير مفهوما لهم كما فهموه ، ولو نزل بلغات من أرسل إليهم و بيّنه ولكل قوم بلسانهم لكان ذلك مظنة للاختلاف ، وفتحا لباب التنازع ، لأن كل أمة قد تدّعى من المعانى فى لسانها مالا يعرفه غيرها ، وقد يفضى ذلك إلى التحريف والتصحيف ، بسبب الدعاوى الباطلة التى يقع فيها المتعصبون و بعد أن بين سبحانه أنه لم يكن للناس من عذر فى عدم فهم شرائعه ـ ذكر أن الهداية و الإضلال بيده ومشيئته فقال :

(فيضل الله من يشاء و يهدى من يشاء) أى إن الناس فريقان ، فريق هداه الله وأضاء نور قلبه وشرح صدره للإسلام فاتبع سبيل الرشاد ؛ وفريق رانت على قلبه

الغواية والضلالة ، بما اجترح من الآثام ، وأوغل فيه من المعاصى والذنوب ، وذلك كله بتقديره تعالى ومشيئته ، لارادّ لقضائه ولادافع لحكمه .

(وهو العزيز الحكيم) أى وهو العزيز فلا يغلب مشيئته غالب ، الحكيم فى صنعه ، فلا يفعل إلا ما تقتضيه السنن العامة فى خلقه ، والنواميس التى وضعها لصلاح حال عباده وضلالهم : « سُنَّةَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً » .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥) وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ (٧) وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ (٨) .

تفسير المفردات

الآيات : هى الآيات التسع التى أجراها الله على يده عليه السلام ، والظلمات : الكفر والجهالات ، والنور : الإيمان بالله وتوحيده وجميع ماأُمروا به ، وذكّرهم : أى عظهم ، وأيام الله : وقائعه فى الأمم السابقة ويقال فلان عالم بأيام العرب : أى بحروبها وملاحمها كيوم ذى قار ويوم الفِجَار قال عمرو بن كلثوم :

وأيام لنا غُـــرٌّ طِوال عصينا المَلْكَ فيها أن نَدِينا

والصبار . كثير الصبر ، والشكور كثير الشكر ، يسومونكم . يكلفونكم بلاء . أى ابتلاء واختبار ، وتأذن : أى آذن وأعلم ، وحميد مستوجب للحمد لذاته وإن لم يحْمَده أحد .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أنه أرسل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم إلى الناس ليخرجهم من الظلمات إلى النور ، وأن فى هذا الإرسال نعمة له ولقومه ـ أتبع ذلك بذكر قصص بعض الأنبياء وتفصيل مالاقَوْه من أقوامهم من شديد الأذى والتمرد والعناد ، لما فى ذلك من التسلية له وجميل التأسى بهم ، و بيان أن المقصود من بعثة الرسل واحد وهو إخراج الخلق من ظلمات الضلالات إلى أنوار الهدايات .

الإيضاح

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور) أى كما أرسلناك أيها الرسول وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس من الظلمات إلى النور ، أرسلنا موسى إلى بنى إسرائيل وأيدناه بالآيات التسع التى سلف ذكرها فى سورة الأعراف وأمرناه بأن يدعوهم إلى الإيمان بالله وتوحيده ليخرجوا من ظلمات الجهل والضلال إلى نور الهدى والإيمان .

(وذكرهم بأيام الله) أى عظهم مرغّبا لهم بتذكيرهم بنعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسل فى الأمم السابقة ، ليكون فى ذلك حافز لهم على العمل و يكون لهم بمن سلف أسوة ـ ومخوّفاً موعداً بتذكيرهم بأس الله وعذابه وانتقامه ممن كذب الرسل من الأمم الغابرة كعاد وثمود ، ليكون لهم فى ذلك مزدجر وليحذروا أن يحل بهم مثل ماحل بغيرهم .

وأيام الله فى جانب موسى عليه السلام منها ما كان محنة و بلاء وهى الأيام التى كان فيها بنو إسرائيل تحت قهر فرعون واستعباده ، ومنها ما كانت نعمة كإنجائهم من عدوهم وفلق البحر لهم و إنزاله المنّ والسلوى عليهم .

(إن فى ذلك لآيات لـكل صبار شكور) أى إن فى ذلك التنبيه والتذكير لدلائل على وحدانية الله وقدرته لـكل صبار فى المحنة والبلية ، شكور فى المنحة والعطية.

قال قتادة : نعم العبد عبد إذا ابتُلِي صبر ، و إذا أُعْطِى شكر ، وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أمر المؤمن كله عجب ، لايقضى الله له قضاء إلا كان خيرا ، إن أصابته ضراء صبر فـكان خيرا له ، و إن أصابته سراء شكر فـكان خيرا له » .

وفى هذا إيماء إلى أن الإنسان فى هذه الحياة يجب أن يكون بين صبر وشكر أبدا ، لأنه إما فى مكروه يصبر عليه و إما فى محبوب يشكر عليه ، والوقت فى هذه الحياة ذهب ، فمتى ضاع من حياتنا زمن دون عمل نسدى فيه خدمة لأنفسنا ولديننا ووطننا فقد كفرنا النعمة ، وأضعنا الفرصة ، ولم نعتبر بما حل بمن قبلنا من الأمم الغابرة ، فليحذر كل امرئ أن يضيع حياته بلا عمل ، وليخَفْ على وقت يضيع ، ثم بعده عذاب سريع .

ولما سمع موسى أمر ربه امتثله وأخذ يذكر قومه بأيام الله كما حكى الله عنه فقال :

(و إذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب و يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) أى واذكر لقومك حين قول موسى لقومه : ياقوم تذكروا إنعام الله عليكم إذ أنجاكم من فرعون وآله ، حين كانوا يذيقونكم العذاب ويكلفونكم من الأعمال مالايطاق مع القهر والإذلال ، ويذبحون أبناءكم و يبقون نساءكم على قيد الحياة ذليلات مستضعفات ، وهذا رُزْء من أشد الأرزاء، وأعظم ألوان البلاء ، قال شاعرهم :

ومن أعظم الرزء فيما أرى بقاء البنات وموت البنينا

وفى ذلك التذكير عبرة لهم لو يعتبرون .

(وفى ذلـكم بلاء من ربكم عظيم) أى وفيما ذكر ابتلاء واختبار عظيم من ربكم

لما فيه من نقمة التعذيب والإذلال وقتل الأولاد واستحياء البنات ، ثم نعمة الإنجاء من كل ذلك العسف والقهر ، فالابتلاء كما يكون بالنقمة يكون بالنعمة كما قال « وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » وقال : « وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً » .

(وإذ تأذن ربكم) أى واذكروا يابنى إسرائيل حين آذنكم ربكم وأعلمكم بوعده فقال :

(لئن شكرتم لأزيدنكم) أى لئن شكرتم ماخوّلتكم من نعمة الإنجاء وغيرها بطاعتى فيما آمركم به وأنهاكم عنه لأزيدنكم من نعمى عليكم ، وقد دلت التجارب أن العضو الذى يناط به عمل كلما مرن عليه ازداد قوة ، وإذا عطل عن العمل ضمر وضعف ، وهكذا النعم إن استعملت فيما خلقت له بقيت ، وإن أهملت ذهبت . أخرج البخارى فى تاريخه والضياء فى المختارة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أُلهِم خمسة لم يُحْرَمَ خمسة ـ وفيها من أُلهِم الشكر لم يحرم الزيادة » .

والخلاصة — إن من شكر الله على مارزقه وسّع عليه فى رزقه ، ومن شكره على ماأقدره عليه من طاعته زاد فى طاعته ، ومن شكره على ماأنعم عليه من صحة زاده الله صحة ، إلى نحو أولئك من النعم .

(ولئن كفرتم) النعم وجحدتموها فلم تقوموا بواجب حقها عليكم من شكر المنعم بها .

(إن عذابى لشديد) بحرمانكم منها ، وسلبكم ثمراتها ، فى الدنيا والآخرة ،فتعذبون فى الدنيا بزوالها ، وفى الآخرة بعذاب لاقبل لكم به ، وفى الحديث : « إن العبد ليُحْرَم الرزق بالذنب يصيبه » .

ثم بين سبحانه أن منافع الشكران ومضار الكفران لاتعود إلا إلى الشاكر أو الكافر بتلك النعم ، أما المعبود المشكور فهو متعال عن أن ينتفع بالشكر أو يضره الكفر ، فلا جرم قال :

(وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد) أى إن تجحدوا نعمة الله التى أنعمها عليكم ، ويفعل مثل فعلكم من فى الأرض جميعا ، فما أضررتم بالكفر إلا أنفسكم ، إذ حرمتموها من مزيد الإنعام ، وعرّضتموها للعذاب الشديد، وإن الله غنى عن شكركم وشكر غيركم، وهو المحمود وإن كفر به من كفر، وهذا كقوله : « إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ » الآية ، وقوله : « فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللهُ وَاللهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ » .

وقد يكون موسى قال هذه المقالة حين عاين منهم دلائل العناد ، ومخايل الإصرار على الكفر والفساد ، وتيقن أنه لا ينفعهم الترغيب ، ولا التعريض بالترهيب .

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) .

تفسير المفردات

الريبة : اضطراب النفس وعدم اطمئنانها بالأمر ، وفاطر السموات والأرض أى موجدهما على نظام بديع ، والسلطان : الحجة والبرهان .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ماذكّر به موسى قومه بما أولاهم به من نعمة ، ورفع عنهم من نقمة . ثم ذكر وعده تعالى بالزيادة لمن شكر ، ووعيده بالعذاب لمن كفر ، ثم حذرهم بأن الكفران لايضير ربهم ، وأنه غنى عن حمدهم وحمد من فى الأرض جميعا يذكّرهم بأيام الله فيمن قبلهم ، من الأمم السالفة والأجيال البائدة ، بأسلوب طلىّ ومقال جلىّ ، فذكر القول أوّلا على سبيل الإجمال ، ثم أتبعه بمحاورة بين الرسل وأقوامهم ، أقام فيها الرسل الحجة على أممهم ، ودحَضَ ماتمسكوا به من الترّهات والأباطيل .

الإيضاح

(ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لايعلمهم إلا الله) أى ألم يأتكم خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل التى غاب عن الناس علمها ، وعند الله إحصاؤها .

ثم فصل هذا النبأ وفسره بقوله :

(جاءتهم رسلهم بالبينات) أى جاءتهم رسلهم بالمعجزات الظاهرة ، والبينات الباهرة ، وبين كل رسول لأمته طريق الحق ، ودعاهم إليه ، ليخرجهم من الظلمات إلى النور .

(فردوا أيديهم فى أفواههم) أى عضُّوا بنان الندم غيظا لما جاءهم به الرسل، وضجرا لنفرتهم من استماع كلامهم، إذ سفّهوا أحلامهم، وشتموا أصنامهم، وقد فعلت العرب مثل ذلك مع النبى صلى الله عليه وسلم كما قال سبحانه: «عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ».

وقال أبو عبيدة والأخفش ونعمًا قالا هو مثل، والمراد أنهم لم يؤمنوا ولم يجيبوا، والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت، قد ردَّ يده فى فيه.

(وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به) أى إنا كفرنا بما زعمتم أن الله أرسلكم به، من البينات التى أظهرتموها حجة على صحة رسالتكم، وإنما يقصدون من الكفر بها الكفر بدلالتها على صدق رسالتهم

(وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه مريب) أى وإنا لفى شك مما تدعوننا إليه من الإيمان بالله ووحدانيته، وجملة ماجئتم به من الشرائع.

وخلاصة مقالهم — إنهم جاحدون نبوتهم، قاطعون بعدم صحتها، لأن ماجاءوا به من التعاليم والشرائع مما يُشَكّ فى صدقه، وأن الله سبحانه يدعو إلى مثله. فرد الرسل عليهم منكرين متعجبين من تلك المقالة الحمقاء كما أشار إلى ذلك عز اسمه بقوله:

(قالت رسلهم أفى الله شك؟) أى أفى وجود الله شك، وكيف ذلك والفطرة شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به؛ فالاعتراف به ضرورى لدى كل ذى رأى حصيف كما جاء فى الحديث: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه».

ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب، فتحتاج إلى النظر فى الأدلة الموصلة، إلى ذلك، ومن ثَمَّ وجه الرسل أنظار أممهم إلى هذه الأدلة فقالوا:

(فاطر السموات والأرض) أى هو الذى خلقهما وأبدعهما على غير مثال سابق، ودلائل الحدوث ظاهرة عليهما، فلابد لهما من صانع وهو الله الذى لا إله إلا هو، خالق

كل شيء و إلهه ومليكه ، وقد جاء هذا الوصف فى محاورات الأنبياء جميعا ، وهو نفس الوصف الذى جاء فى أول السورة على لسان نبينا صلى الله عليه وسلم ، ومن هذا يعلم أن كل نبى جعل مطْمحَ نظره توجه النفوس إلى علوم السموات والأرض .

ولما أقاموا الدليل على وجوده وصفوه بكمال الرحمة بقولهم :

(يدعوكم) إلى الإيمان به بإرساله إيانا ، لنخرجكم من ظلمات الوثنية ، إلى نور الوحدانية ، و إخلاص العبادة له ، وهو الواحد القهار .

(ليغفر لـكم من ذنوبكم) أى يدعوكم لمغفرة بعض ذنوبكم ، وهى الذنوب التى بينكم و بين ربكم ، لا المظالم وحقوق العباد .

والمتتبع لأسلوب الـكتاب الـكريم يرى أن كل موضع ذكر فيه مغفرة الذنوب للـكافرين جاء بلفظ (من) كقوله : « وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَـكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ » وقوله : « يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَـكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ » لأنه يخاطبهم فى أمر الإيمان وحده .

وفى المواضع التى يذكر فيها مغفرة الذنوب للمؤمنين تجىء بدون ذكر (مِن) كقوله : « ذٰلِـكُمْ خَيْرٌ لَـكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَـكُمْ ذُنُوبَكُمْ » لأن المغفرة منصرفة إلى المعاصى ومتوجهة إليها .

(و يؤخركم إلى أجل مسمى) أى إلى وقت سماه الله ، وجعله منتهى أعماركم إن أنتم آمنتم به ، وإلا عاجلـكم بالهلاك وعذاب الاستئصال ، جزاء كفرانكم بدعوة الرسل إلى التوحيد ، و إخلاص العبادة للواحد القهار .

ثم حكى سبحانه رد الأمم على مقالة الرسل ، وهو يتضمن ثلاثة أشياء :

(١) (قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا) فلا فضل لـكم علينا ، فلم خُصِصْتم بالنبوة ، وأطلعكم الله على الغيب ، وجعلـكم مخالطين لزمرة الملائـكة دوننا ؛ إلى أنه لو كان الأمر

كما تدّعون لوجب أن تخالفونا فى الحاجة إلى الأكل والشرب وقربان النساء وما شاكل ذلك .

(٢) (تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا) ولاحجة لكم على ماتدّعون ، وليس من حصافة العقل أن نترك أمرا قبل أن يقوم الدليل على خطئه .

(٣) (فأتونا بسلطان مبين) أى بحجة ظاهرة تدل على صحة ماتدّعون من النبوة، أما ذكر السموات والأرض وعجائبهما فلسنا نحفِل بهما ، والعجائب الأرضية والسماوية لانعقلها ، والبشر لايخضعون إلا لمن يأتى لهم بما هو خارج عن طَوْر معتادهم ، وحينئذ يعظّمونه ويبجّلونه ، وهذه المشاهدات لانرى فيها شيئا خارقا للعادة ، وإذاً فلا إيمان ولاتسليم إلابما هوفوق طاقتنا ، كقلب العصا حية ونقل الجبال وما إلى ذلك .

وبعد أن حكى عن الكفار شبهاتهم فى الطعن فى النبوة حكى عن الأنبياء جوابهم عنها فأجابوا عن الأولى والثانية بالتسليم ؛ لكن التماثل لايمنع من اختصاص بعض البشر بمنْصِب النبوة ، لأن هذا منصب يمن الله به على من يشاء من عباده ، كما لايمتنع من أن يخص بعض عباده بالتمييز بين الحق والباطل والصدق والكذب ، وأن يحْرِم الجمع العظيم منه ، وهذا ماأشار إليه بقوله :

(قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) وأجابوا عن الشبهة الثالثة بأن ماجئنا به حجة قاطعة وبينة ظاهرة على صدق رسالتنا ، وما اقترحتموه من الآيات فأمره إلى الله إن شاء أظهره وهو زائد على قدر الكفاية ، وذلك ما أومئوا إليه بقولهم :

(وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله) أى بمشيئته وإرادته ، وليس ذلك فى قدرتنا .

وبعد أن أجابهم الأنبياء عن شبهاتهم أخذ المشركون يخوفونهم ويتوعدونهم بالانتقام منهم وإيذائهم قدر ما يستطيعون ، فقال لهم الأنبياء إنا لانخاف تهديدكم

ولا وعيدكم ، بل نتوكل على الله ونعتمد عليه ، ولا نقيم لما تقولون وزنا ولا نأبه به ، وهذا ما أشار إليه سبحانه بقوله حكاية عنهم :

(وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فى دفع شرور أعدائهم عنهم ، وفى الصبر على معاداتهم .

ثم زادوا أمر التوكل توثيقا وتوكيدا فقالوا :

(ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا) أى وكيف لا نتوكل على الله وقد هدانا إلى سبل المعرفة ، وأوجب علينا سلوك طريقها ، وأرشدنا إلى طريق النجاة ، ومن أنعم الله عليه بنعمة فليشكره عليها بالعمل بها .

(ولنصبرنّ على ما آذيتمونا) أى ولنصبرنّ على إيذائكم بالعناد واقتراح الآيات ونحو ذلك مما لا خير فيه ، وندعوكم لعبادة الله وحده ، ليكون ذلك منا شكرا على نعمة الهداية .

ثم ختموا كلامهم بمدح التوكل وبيان أن إيذاءهم لا يثنيهم عن تبليغ رسالة ربهم فقالوا :

(وعلى الله فليتوكل المتوكلون) أى وعلى الله وحده فليثبت المتوكلون على توكلهم وليحتملوا كل أذى فى جهادهم ، ولا يبالوا بما يصيبهم من أذى ولا بما يلاقون من صعاب وعقبات .

ومن عنده مال أو علم فلينفع به الناس وليكن كالنهر يسقى الزرع والشمس تضىء العباد ، وليصبر على أذى الناس كما صبر الأنبياء وأوذوا ، فالهداة ما خلقوا إلا ليعملوا فهم هداة بطباعهم ، ولذاتهم فى قلوبهم ومنهم تنتقل إلى الناس .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ

الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) .

تفسير المفردات

لتعودنّ : لتصيرن، والملة: الدين والشريعة ، والمقام: موقف الحساب، واستفتحوا: أى طلبوا الفتح بالنصرة على الأعداء ، وخاب : هلك ، والجبار : العاتى المتكبر على طاعة الله ، والعنيد : المعاند للحق المخالف له ، ومن ورائه : أى من بعد ذلك ينتظره ، والصديد مايسيل من جلود أهل النار ، يسيغه : أى يستطيبه يقال ساغ الشراب : إذا جاز الحلق بسهولة ، يأتيه الموت : أى تأتيه أسبابه وتحيط به من كل جهة ، عذاب غليظ : أى شديد غير منقطع .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر مادار من الحوار والجدل بين الرسل وأقوامهم ، وذكر الحجج التى أدلى بها الرسل ، وقد كان فيها المَقْنَع لمن أراد الله له الهداية والتوفيق ، ومن كان له قلب يعى به الحكمة وفصل الخطاب ــ ذكر هنا أنهم بعد أن أُفْحِمُوا لم يجدوا وسيلة إلا استعمال القوة مع أنبيائهم كما هو دأب المحجوج المغلوب فى الخصومة ، فخيروا رسلهم بين أحد أمرين إما الخروج من الديار : وإما العودة إلى الملة التى عليها الآباء والأجداد ، فأوحى الله إلى أنبيائه أن العاقبة لكم ، وستدور عليهم الدائرة ، وستحلّون محلهم فى ديارهم وسيعذبون فى الآخرة بنار جهنم ، ويرون ألوانا من العذاب لا قبل لهم بها .

الايضاح

(وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا) أى وقال الذين كفروا بالله لرسلهم حين دعوْهم إلى توحيده تعالى وترك عبادة الأصنام والأوثان : لنخرجنكم من بلادنا مطرودين منها ، إلا أن تعودوا فى ديننا الذى نحن عليه ، من عبادة الأصنام كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به : « لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا » الآية ، وكما قال قوم لوط : « أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ » الآية ، وقال إخبارا عن مشركى قريش : « وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ، وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا » .

وخلاصة هذا — ليكونن أحد الأمرين لامحالة : إما إخراجكم ، و إماصيرورتكم فى ملتنا ملة الآباء والأجداد ، وهى عبادة الآلهة والأوثان ، وقد مكّن لهم فى ذلك أنهم كانوا كثرة وكان أهل الحق قلة ، كما جرت بذلك العادة فى كل زمان ومكان ، فإن الظّلَمة يكونون متعاونين متعاضدين ، ومن ثم استطاعوا أن يُبْرِمُوا هذا الحكم بلاهوادة ولارِفْق ، كما هو شأن المعتزّ بقوته ، الذى لايخشى اعتراضا ولاخلافا .

والأنبياء صلوات الله عليهم لم يكونوا فى ملتهم ولم يعبدوا الأصنام طيلة حياتهم ، لكنهم لما نشئوا بين ظهرانَيْهم ، وكانوا من أهل تلك البلاد ، ولم يظهروا فى أول أمرهم مخالفة لهم ــ ظنوا أنهم كانوا على دينهم .

ولما تمادت الأمم فى الكفر وتوعدوا الرسل بأخذهم بالشدة والإيقاع بهم ــ أوحى الله إليهم بإهلاك من كفر بهم ، ووعدهم بالنصر والغلب على أعدائهم كما أشار إلى ذلك بقوله :

(فأوحى إليهم ربهم لنهلكنّ الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم) أى فأوحى الله إلى رسله قائلا لهم : لنهلكن من تناهى فى الظلم من المشركين ، ولنسكننكم أرضهم وديارهم بعد إهلاكهم عقوبة لهم على قولهم : (لنخرجنكم من أرضنا) .

وفى ذلك وعيد وتهديد للمشركين من قريش على كفرهم وجراءتهم على نبيه ، وتثبيت وأمر له بالصبر على ما يلقى من المكروه كما صبر من كان قبله من الرسل ، و بيان لأن عاقبة من كفر به الهلاك وعاقبته النصر عليهم كما قال : «سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ » وقال : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ، وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ » وقال : « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » .

ثم ذكر السبب فى نصرهم عليهم فقال :

(ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد) أى هكذا أفعل بمن خاف مقامه بين يدىّ يوم القيامة ، وخاف وعيدى فاتقانى بطاعتى وتجنب سخطى ـ أنصره على من أراد به سوءا و بغى به مكروها من أعدائى ، وأورثه أرضه ودياره .

ثم بين أن كلا من الفريقين الأمم والرسل طلبوا المعونة والتأييد من ربهم و إلى ذلك أشار بقوله :

(واستفتحوا) أى واستفتحت الرسل على أممها أى استنصرت الله عليها ، واستفتحت الأمم على أنفسها كما قالوا : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

ثم ذكر مآل المشركين و بيّن أن النصر للمتقين فقال :

(وخاب كل جبار عنيد) أى وهلك كل متكبر مجانب للحق منحرف عنه .

(من ورائه جهنم) أى ومن وراء الجبار العنيد جهنم أى هى له بالمرصاد تنتظره ، ليسكنها مخلدا فيها أبدا ، و يُعْرَض عليها فى الدنيا غدوّا وعشيا إلى يوم التناد .

ثم بين شرابه فيها فقال :

(و يسقى من ماء صديد) أى ليس له فى النار شراب إلا ماء يخرج من جوفه وقد خالطه القيح والدم ، وخص بالذكر لأنه آلم أنواع العذاب .

ثم ذكر ألمه من ذلك الشراب فقال :

(يتجرعه ولا يكاد يسيغه) أى يتحساه جُرْعة بعد جرعة ، ولا يكاد يزدرده ، من شدة كراهته ، ورداءة طعمه ولونه، وريحه وحرارته كما قال : « وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ » وقال : « وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِى الْوُجُوهَ » .

ثم ذكر ما يحيط به من الأهوال فقال :

(ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت) أى وتحيط به أسبابه من الشدائد وأنواع العذاب من كل جهة من الجهات من قدامه ومن خلفه ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله فى نار جهنم ، ليس منها نوع إلا يأتيه الموت منه لو كان يموت ، لكنه لا يموت كما قال تعالى : « لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا » .

ثم أكد شدائدها وعظيم أهوالها فقال :

(ومن ورائه عذاب غليظ) أى وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ أى مؤلم أغلظ من الذى قبله وأمرّ كما قال تعالى : «وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ . لاَ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ » وقال : « وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ . هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ . وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ » .

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَىْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلاَلُ الْبَعِيدُ (١٨) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما يلاقيه الكافرون فى هذا اليوم العصيب من سائر أنواع العذاب التى سلف وصفها ــ بين هنا أن ماعملوه فى الدنيا من صالح الأعمال لايجديهم فتيلا ولاقطميرا ، فما أشبهه إذ ذاك برماد أطارته الريح فى يوم عاصف فذهبت به فى كل ناحية ، فهم لايجدون من أعمالهم فيه شيئا ، ثم بين أن ذلك اليوم آت لاريب فيه ، فإن من أنشأ السموات والأرض بلا معين ولاظهير قادر على أن يفنيهم ويأتى بخلق سواهم ، وليس ذلك بعزيز ولا بممتنع عليه .

الايضاح

(مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف) أى مامثل أعمال الكافرين التى كانوا يعملونها فى الدنيا ويزعمون أنها تنفعهم يوم الجزاء ــ إلا كمثل رماد حملته الريح وأسرعت الذهاب به فى يوم عاصف فنسفته ولم تبق له أثرا ، فهم يوم القيامة لايجدون منها شيئا ينفعهم عند الله فينجيهم من عذابه ، إذ لم يكونوا يعملونها لله خالصة ، بل كانوا يشركون فيها الأصنام والأوثان :

والمراد من تلك الأعمال أعمال البر كالصدقة ، وصلة الرحم ، وبر الوالدين ، وإطعام الجائع ، وإغاثة الملهوف ، ونحو ذلك.

ثم أكد نفى فائدتها لهم إذ ذاك فقال :

(لايقدرون مما كسبوا على شىء) أى لايقدرون يوم القيامة على شىء من أعمالهم فى الدنيا ، فلا يرون لها أثرا من ثواب أو تخفيف عذاب ، كما لا ننتفع بالرماد إذا أرسلت عليه الريح فى يوم عاصف .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا » وقال : « مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِى هٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ

قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ ، وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » وورد في الصحيح عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت « يارسول الله إن ابن جُدْعان كان فى الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين ، هل ذلك نافعه ؟ قال لاينفعه ، لأنه لم يقل : رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين » .

(ذلك هو الضلال البعيد) أى ذلك السعى والعمل على غير أساس ولااستقامة ، حتى فقدوا ثوابهم منه أحوجَ ما كانوا إليه ، هو الضلال البعيد عن طريق الحق والصواب .

ثم ذكر دليل وحدانيته فقال :

(ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز) أى ألم تعلم أيها الرسول أن الله أنشأ السموات والأرض بالحكمة وعلى الوجه الصحيح الذى يحق أن يخلقا عليه ، ومن قدر على خلقهما على أتم نظام وأحكم وضع بلامعين ولاظهير ، فهو قادر على أن يفنيكم ويأتى بخلق جديد سواكم ، وما ذلك بممتنع ولا متعذر عليه

ومثل الآية قوله : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى ، بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

وخلاصة ذلك — إنهم بعدوا فى الضلال وأمعنوا فى الكفر بالله ، مع وضوح الآيات الدالة على قدرته الباهرة وحكمته البالغة ، وأنه هو الحقيق بأن يُرْجَى ثوابه ويُخْشى عقابه .

وَبَرَزُوا لِلّٰهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ ؟ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَالَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ

لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣) .

تفسير المفردات

وبرزوا : أى صاروا بالبَراز وهى الأرض المتسعة ، ويراد بها مجتمع الناس فى ذلك اليوم والضعفاء : واحدهم ضعيف ، ويراد به ضعيف الرأى والفكر ، والذين استكبروا : هم رؤساؤهم الذين استغووهم ، والتبع : واحدهم تابع كخادم وخدم ، مغنون : أى دافعون ، ومحيص : أى مَنْجَى ومَهْرب ، والسلطان : التسلط ، بمصرخكم : أى بمغيثكم ، يقال استصرخنى فأصرخته : أى استغاثنى فأغثته .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مايلقاه الأشقياء فى ذلك اليوم من العذاب ، وذكر أن أعمالهم الطيبة التى كانت فى الدنيا أُحبطت فلم تغن عنهم شيئا — ذكر هنا محاورة بين الأتباع المستضعفين والرؤساء المتبوعين ، ومايحدث فى ذلك الوقت من الخجل لهم ، ثم أردفها مناظرة وقعت بين الشيطان وأتباعه من الإنس . وبعد أن ذكر أحوال الأشقياء وبالغ فى بيانها وتفصيلها شرح أحوال السعداء وما أعد لهم من الثواب العظيم والأجر الجزيل .

الإيضاح

(وبرزوا لله جميعا) أى برزت الخلائق كلها برُّها وفاجرها لله الواحد القهار : أى اجتمعت فى براز من الأرض ، وهو المكان الذى ليس فيه شىء يستر أحدا .

(فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا) أى فقال الأتباع لقادتهم وسادتهم الذين استكبروا عن عبادة الله وحده وعن اتباع قول الرسل : إنا كنا تابعين لكم ، تأمروننا فنأتمر وتنهوننا فننتهى .

(فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء) أى فهل تدفعون عنا اليوم شيئا من ذلك العذاب كما كنتم تعدوننا وتمنوننا فى الدنيا .

وقد حكى الله رد أولئك السادة عليهم :

(قالوا لو هدانا الله لهديناكم) أى لو أرشدنا الله تعالى ، وأضاء أنوار بصائرنا وأفاض علينا من توفيقه ومعونته ، لأرشدناكم ودعوناكم إلى سبل الهدى ، ووجهنا أنظاركم إلى طرق الخير والفلاح ، ولكنه لم يهدنا فضللنا السبيل فأضللناكم .

ولما كان هذا القول منهم أمارة الجزع قالوا :

(سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص) أى ليس لنا مهرب ولا خلاص مما نحن فيه إن صبرنا أو جزعنا .

وخلاصة ذلك — سيّان الجزع والصبر ، فلا نجاة لنا من عذاب الله .

وفى مثل الآية قوله : «وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ» وقوله : «رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا . رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا» .

ولما ذكر سبحانه المناظرة التى ستكون بين الأتباع والرؤساء أردفها المناظرة التى ستكون بين الشيطان وأتباعه حينئذ فقال :

(وقال الشيطان لما قضى الأمر) أى وقال إبليس مخاطبا أتباعه من الإنس ، بعد أن حكم الله بين عباده فأدخل المؤمنين فراديس الجنات ، وأسكن الكافرين سحيق الدركات .

(إن الله وعدكم وعد الحق) أى إن الله وعدكم على ألسنة رسله بالبعث وجزاء كل عامل على عمله ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، ووعده حق وخبره صدق .

(ووعدتكم فأخلفتكم) أى ووعدتكم أن لا جنة ولا نار ، ولا حشر ولا حساب، ولئن كانا فنعم الشفيع لكم الأصنام والأوثان ، فأخلفتكم موعدى إذ لم أقل إلا بهرجا من القول وباطلا منه ، فاتبعتمونى وتركتم وعد ربكم ، وهو وليكم ومالك أمركم .

ونحو الآية قوله : « يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا » .

(وما كان لى عليكم من سلطان) أى وما كان لى قوة وتسلط تجعلنى ألجئكم إلى متابعتى على الكفر والمعاصى .

(إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى) أى ولكن بمجرد أن دعوتكم إلى الضلال بوسوستى وتزيينى ، أسرعتم إلى إجابتى ، واتبعتم شهوات النفوس ، وأطعتم الهوى، وخضتم فى مسالك الردى .

(فلا تلومونى ولوموا أنفسكم) لأنه ما كان منى إلا الدعاء وإلقاء الوسوسة ، ولوموا أنفسكم ، إذا استجبتم لى باختياركم الذى نشأ عن سوء استعدادكم بلا حجة منى ولا برهان، بل بتزيينى وتسويلى ، ولم تستجيبوا لربكم وقد دعاكم دعوة الحق المقرونة بالحجج والبينات .

(ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخىّ) أى ما أنا بمغيثكم مما أنتم فيه من العذاب فأزيل صراخكم ، وما أنتم بمغيثىّ مما أنا فيه من العذاب والنكال .

(إنى كفرت بما أشركتمون من قبل) أى إنى جحدت اليوم أن أكون شريكا لله فيما أشركتمونى فيه من قبل هذا اليوم أى فى الدنيا ، وهذا كقوله : « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ » .

ومعنى كفره بإشراكهم تبرؤه منه واستنكاره له ، وهذا كقوله تعالى : « إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ » .

(إن الظالمين لهم عذاب أليم) أى قال إبليس ذلك ، قطعا لأطماع الكفار من الإغاثة والنجاة من العذاب ، وإنما حكى الله ذلك عنه ليكون تنبيها للسامعين ، وحضًّا لهم على النظر فى عاقبة أمرهم ، والاستعداد لذلك اليوم الذى يقول فيه الشيطان ما يقول ، فيثوبوا إلى رشدهم ويرجعوا عن غيهم ويتذكروا هول ذلك الموقف ورهبته .

ولما جمع سبحانه فريقى السعداء والأشقياء فى قوله : « وَبَرَزُوا لِلهِ جَمِيعًا » وبالغ فى وصف حال الأشقياء من وجوه كثيرة — ذكر حال السعداء وما أعد لهم من نعيم مقيم فى ذلك اليوم فقال :

(وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها) أى وأدخل الذين صدقوا الله ورسوله ، فأقروا بوحدانيته تعالى ورسالة رسله ، وعملوا بطاعته ، فانتهوا إلى أمره ونهيه ، بساتين تجرى من تحتها الأنهار ماكثين فيها أبدا ، لا يتحولون عنها ولا يزولون منها .

(بإذن ربهم) أى بتوفيقه تعالى ، إذ وجّه نفوسهم فى الدنيا لكسب الخيرات ، والميل إلى العمل بما يرضيه ويرضى رسوله ، وأنار بصائرهم للاعتقاد بأن يوم الجزاء آت لا ريب فيه ، فأعدُّوا له العُدّة ، فكان على الله بمقتضى وعده أن يدخلهم جناته كفاء ما جدّوا فى رضاه ، ونصبوا فى طاعته ، خوفا من هول ذلك اليوم العصيب .

(تحيتهم فيها سلام) أى تحييهم الملائكة بالسلام بإذن ربهم ، تعظيما لشأنهم وعناية بأمرهم ، وجاء فى هذا المعنى قوله تعالى فى وصف دخولهم الجنة : « حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » وقوله : « وَالْمَلَائِكَةُ

يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ » وقوله : « وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاَماً » كما يحييهم ربهم جلت قدرته إظهارا لرضاه عنهم ، وإجلالا وإكبارا لهم كما قال : « سَلاَمٌ قَوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ » .

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً ، كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ، وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ، اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) .

تفسير المفردات

المثل : قول فى شىء يشبَّه بقول فى شىء آخر ، لما بينهما من المشابهة ، ويوضح الأول بالثانى ، ليتم انكشاف حاله به ، ثابت : أى ضارب بعروقه فى الأرض ، فى السماء : أى جهة العلو ، تؤتى أكلها : أى تعطى ثمرها ، بإذن ربها : أى بإرادة خالقها ، اجتثت : أى استؤصلت وأخذت جثتها ، والقرار : الاستقرار ، القول الثابت : أى الذى ثبت عندهم وتمكن فى قلوبهم .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه حال الأشقياء ومآل أمرهم ومايلاقونه من الشدائد والأهوال فى نار جهنم التى لايجدون عنها محيصا ، وذكر أحوال السعداء وماينالون من فوز عند ربهم — ضرب لذلك مثلا يبين حال الفريقين ويوضح الفرق بين الفئتين ، وبه ألبس المعنويات

لباس الحسيات ، ليكون أوقع فى النفس وأتم لدى العقل ، والأمثال لدى العرب هى المنهج المسلوك ، والطريق المتبع ، لإيضاح المعانى إذا أريد تثبيتها لدى السامعين ، والقرآن الكريم ملىء بها ، والسنة النبوية جرت على منهاجه ، فكثيرا ماتُتْبِع المسائل الهامة بضرب الأمثال لها ، لتستقر فى النفوس ، وتنقش فى الصدور .

الإيضاح

(ألم تر كيف ضرب الله مثلا) أى ألم تعلم أيها الإنسان علم اليقين كيف ضرب الله مثلا ووضعه الموضع اللائق به .

(كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها) أى إن الله جلت قدرته شبه الكلمة الطيبة وهى الإيمان الثابت فى قلب المؤمن الذى يُرفع به عمله إلى السماء كما قال : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصالِحُ يَرْفَعُهُ » وتُنال بركته وثوابه فى كل وقت، فالمؤمن كلما قال لا إله إلا الله صَعِدت إلى السماء وجاءت بركتها وخيرها — بالشجرة الطيبة المثمرة الجميلة المنظر الشذّية الرائحة التى لها أصل راسخ فى الأرض به يؤمن قلعها وزوالها ، وفروعها متصاعدة فى الهواء (فيكون ذلك دليلا على ثبات الأصل ورسوخ العروق، وعلى بعدها عن عفونات الأرض وقاذورات الأبنية) فتأتى الثمرة نقية خالية من جميع الشوائب ، وتثمر فى كل حين بأمر ربها وإذنه ، وإذا اجتمع لهذه الشجرة كل هذه المميزات كثر رغبة الناس فيها .

وخلاصة ذلك — إنه تعالى شبه كلمة الإيمان بشجرة ثبتت عروقها فى الأرض ، وعلت أغصانها إلى السماء ، وهى ذات ثمر فى كل حين ، ذاك أن الهداية إذا حلت قلبا فاضت منه على غيره ، وملأت قلوبا كثيرة ، فكأنها شجرة أثمرت كل حين ، لأن ثمراتها دائمة لامقطوعة ولا ممنوعة ، وكل قلب يتلقّى عما يشاكله ، ويأخذ منه بسرعة أشد من سرعة إيقاد النار فى الهشيم ، أو سريان الكهرباء فى المعادن ، أو الضوء فى الأثير .

وقد روى عن ابن عباس أن الكلمة الطيبة هى قول « لا إله إلا الله » وأن الشجرة الطيبة : هى النخلة ، وعن ابن عمر قال « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أخبرونى عن شجرة تشبه الرجل المسلم لا يتحاتّ ورقها لاصيفا ولاشتاء وتؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، قال ابن عمر فوقع فى نفسى أنها النخلة ، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان ، فكرهت أن أتكلم ، فلما لم يقولوا شيئا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : النخلة . فلما قمنا قلت لعمر : ياأبتاه ، والله لقد كان وقع فى نفسى أنها النخلة ، قال مامنعك أن تتكلم ؟ قلت لم أركم تتكلمون ، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئا ، قال عمر : لأن تكون قلتها أحبُّ إلىّ من كذا وكذا » رواه البخارى .

ثم نبه سبحانه إلى عظم هذا المثل ليكون ذلك داعية تدبره ومعرفة المراد منه فقال:

(ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) أى إن فى ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير للناس ، لأن أنس النفوس بها أكثر ، فهى تخرج المعنى من خفىّ إلى جلىّ ، ومما يعلم بالفكر إلى مايعلم بالاضطرار والطبع ، وبها يطبق المعقول على المحسوس فيحصل العلم التام بالشىء الممثّل له .

(ومثل كلة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار) أى ومثل كلة الكفر وماشا كلها مثل شجرة خبيثة كالحنظل ونحوه مما ليس له أصل ثابت فى الأرض ، بل عروقها لاتتجاوز سطحها ، وقد اقتلعت من فوق الأرض ، لأن عروقها قريبة منه ، أو لاعروق لها فى الأرض ، فكما أن هذه لاثبات لها ولا دوام ، فكذلك الباطل لايدوم ولايثبت ، بل هو زائل ذاهب ، وثمره مرّ كريه كالحنظل .

وماأقوى الحق وأثبته ، وأكثر نفعه للناس ، فهو ثابت الدعائم متين الأركان ، وما كل حين كالنخل .

والخلاصة — إن أرباب النفوس العالية وكبار المفكّرين هم أصحاب الكلمة الطيبة ، وعلومهم تعطى أممهم نعما ورزقا فى الدنيا ، وهى مستقرة فى نفوسهم ، وفروعها ممتدة

إلى العوالم العلوية والسفلية ، وتثمر كل حين لأبناء أمتهم ولغيرهم ، فيهتدى بها المؤمنون، وماأشبههم بالنخلة التى لها أصل مستقر وفروع عالية وثمر دائم ويأكل الناس منها صيفا وشتاء .

وأرباب الشهوات والنفوس الضعيفة والمقلّدون فى العلم هم أصحاب الكلمة الخبيثة التى لاثبات لها كالحنظل .

وبعد أن وصف الكلمة الطيبة بما سلف أخبر بفوز أصحابها ببغيتهم فى الدنيا والآخرة فقال :

(يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) أى يثبتهم بالكلمة الطيبة التى ذكرت صفاتها العجيبة فيما سلف مدة حياتهم ، إذا وجد من يفتنهم عن دينهم ويحاول زلالهم كما جرى لبلال وغيره من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد الموت فى القبر الذى هوأول منزل من منازل الآخرة، وفى مواقف القيامة فلا يتلعثمون ولايضطربون إذا سئلوا عن معتقدهم ولاتدهشهم الأهوال .

أخرج ابن أبى شيبة عن البَرَاء بن عازب أنه قال فى الآية : التثبيت فى الحياة الدنيا إذا جاء الملكان إلى الرجل فى القبر فقالا له: مَن ربك ؟ قال ربى الله ، وقالا : ومادينك ؟ قال دينى الإسلام ، وقالا ومانبيك ؟ قال نبيى محمد صلى الله عليه وسلم .

وعن عثمان بن عفان قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال : « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت ، فإنه الآن يُسْأَل » أخرجه أبو داود .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى سؤال الملائكة للميت فى قبره وفى جوابه لهم ، وفى عذاب القبر وفتنته وليس هذا موضعها . نسأل الله التثبيت فى القبر وحسن الجواب بمنه وكرمه ، إنه على مايشاء قدير .

وعلى هذا فالمراد بالحياة الدنيا مدة الحياة ، والآخرة يوم القيامة ، والعرض للحساب .

وبعد أن وصف الكلمة الخبيثة فى الآية المتقدمة بين حال أصحابها بقوله :

(ويضل الله الظالمين) أى ويخلق فيهم الضلال عن الحق الذى ثبّت المؤمنين عليه بحسب إرادتهم واختيارهم ، لسوء استعدادهم وميلهم مع شهوات النفوس وتدسيتها بصنوف الشرور والمعاصى ، سنة الله فى عباده ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

والمراد بالظالمين هنا الكفار ، لأنهم ظلموا أنفسهم بتبديلهم فطرة الله التى فطر الناس عليها وعدم اهتدائهم إلى القول الثابت .

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى عن ابن عباس رضى الله عنهما « إن الكافر إذا حضره الموت تنزل عليه الملائكة عليهم السلام يضربون وجهه ودبره ، فإذا دخل قبره أُقعِد فقيل له من ربك ؟ لم يرجع إليهم شيئا وأنساه الله تعالى ذكر ذلك ، وإذا قيل له من الرسول الذى بعث إليك ؟ لم يهتد له ولم يُرْجِع إليه شيئاً ، فذلك قوله تعالى : (ويضل الله الظالمين) » .

(ويفعل الله ما يشاء) أى وبيده تعالى الهداية والإضلال بحسب ماتقتضيه سننه العامة التى سنها فى عباده ، بحسب استعداد النفوس وقبولها لكل منهما ، فلا تنكروا قدرته على اهتداء من كان ضالا ولا ضلال من كان منكم مهتديا ، فإن بيده تصريف خلقه ، وتقليب قلوبهم ، يفعل فيهم ما يشاء .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١) .

تفسير المفردات

البوار : الهلاك ، يقال رجل بائر وقوم بُورٌ كما قال : « وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا » ويصلونها : يقاسون حرها ، والأنداد : واحدهم ندّ وهو المثل والشبيه ، والمصير : المرجع ، والبيع : الفدية ، والخلال : المخالّة والصداقة .

المعنى الجملى

بعد أن ضرب عز اسمه الأمثال بيانا لحالى الفريقين، وذكر ما يُلهمه من التوفيق فى الدارين للسعداء، وما ينال الأشقياء من الخذلان والإضلال، جزاء ما كسبت أيديهم من تدسيتهم لأنفسهم باجتراحهم للشرور والآثام، و بين أن كل ذلك يفعله على حسب ما يرى من الحكمة والمصلحة.

ذكر هنا الأسباب التى أوصلتهم إلى سوء العاقبة معجّبا رسوله مما صنعوا من الأباطيل التى لا تكاد تصدر ممن له حظّ من الفكر والنظر، ولم تكن هذه الطامة خصّيصَى بهم، بل كانت فتنة شعواء عمتهم جميعا «وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً».

ذاك أنهم بدلوا النعمة كفرا، والشكر جحدا و إنكارا، وليت البليّة كانت واحدة بل أضافوا إليها أخرى فاتخذوا لله الأنداد والشركاء، ثم ثلّثوا بإضلال غيرهم فكانوا دعاة الكفر وأعوان الفتنة:

فلو كان همّ واحد لاحتملته ولكنه هم وثان وثالث

ومن ثم كانت عاقبتهم التى لا مرد لها العذاب الأليم فى جهنم و بئس المصير؛ ثم بين لرسوله أن مثل هؤلاء لا تجدى فيهم العِظَة، فذرهم يتمتعوا فى هذه الحياة حتى حين، ثم لا بد لهم من النصيب المحتوم.

و بعد أن أمر الكافرين على سبيل الوعيد والتهديد بالتمتع بنعيم الدنيا، أمر عباده المؤمنين بعدم المغالاة فى التمتع بها، والجد فى مجاهدة النفس والهوى، ببذل النفس والمال فى كل ما يرفع شأنهم، و يقرّبهم من ربهم، و ينيلهم الفوز لديه فى يوم لا تنفع فيه فدية ولا صداقة ولا خلة: «يَوْمَ لاَ يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ».

أخرج عطاء عن ابن عباس أن هؤلاء هم كفار مكة. وأخرج الحاكم وابن جرير والطبرانى وغيرهم عن على كرم الله وجهه أنه قال فى هؤلاء المبدّلين: هم الأفجران من قريش بنو أمية و بنو المُغيرة، فأما بنو المغيرة فقطع الله تعالى دابرهم يوم بدر، وأما بنو أمية فمتعوا إلى حين.

الإيضاح

عدّد سبحانه الأسباب التى أوقعت هؤلاء الأشقياء ومن شايعهم فى سوء المنقلب وحصرها فى ثلاثة :

(١) (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا) أى ألم تعلم وتعجب من قوم بدّلوا شكر النعمة غمطا لها وجحودا بها ، كأهل مكة الذين أسكنهم الله حرما آمنا يُجْبَى إليه ثمرات كل شىء وجعلهم قوّام بيته ، وشرّفهم بإرسال رسوله محمد صلى الله عليه وسلم من بينهم ، فكفروا بتلك النعمة فأصابهم الجدب والقحط سبع سنين دأبا وأُسِروا يوم بدر ، وصُفِّدوا فى السلاسل والأغلال ، وقُتِل منهم العدد العديد من صناديدهم ورجالاتهم ممن كانوا يضنّون بهم و يحتفظون بمواضعهم • ليوم كريهة وسِداد ثغر •

(وأحلوا قومهم دار البوار) أى وأحلوا من شايعهم على الكفر دار الهلاك الذى لاهلاك بعده .

ثم بين هذه الدار فقال :

(جهنم يصلونها وبئس القرار) أى هذه الدار هى جهنم دار العذاب التى يقاسون حر نارها ، وبئس المستقر هى لمن أراد الله به النكال والوبال .

(٢) (وجعلوا لله أندادا) أى واتخذوا لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى ليس كمثله شىء — أندادا وشركاء من الأصنام والأوثان ، أشركوهم به فى العبادة كما قالوا فى الحجّ : لبيك لاشريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك .

(٣) (ليضلوا عن سبيله) أى لتكون عاقبة أمر الذين شايعوهم على ضلالهم ، الصدُّ والإعراض عن سبيله القويم ودينه الحنيف ، والوقوع فى حمأة الكفر والضلال .

ولما حكى الله عنهم هذه الهنات الثلاث ، تبديل النعمة ، واتخاذ الأنداد والأمثال ، وإضلال قومهم ، أمر نبيه أن يقول لهم على سبيل التهديد والوعيد : سيروا على ما أنتم عليه ، فإنه لافائدة فى نصحكم وإرشادكم والعاقبة النار .

(قل تمتعوا) أى تمتعوا بما أنتم فيه سادرون مما سيؤدى بكم إلى مهاوى الهلاك ، من الكفران وعبادة الأوثان والأصنام والسعى فى إضلال الناس والصد عن سبيله .

ثم بين جزاءهم المحتوم فقال :

(فإن مصيركم إلى النار) أى إن مرجعكم وموئلكم إليها كما قال : « نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ » وسمى الله تعالى ذلك تمتعا ، لأنهم تلذذوا به ، وأحسوا بغبطة وسرور كما يتلذذون بالمشتهيات من النعم ، وهذا الأسلوب التهكمى يستعمل فى التخاطب كثيرا فترى الطبيب يأمر مريضه بالاحتماء من بعض مايضره ويؤذيه ، ثم لا يرى منه إلا تماديا فى الإعراض عن أوامره ، واتباعا لشهواته فيقول له : كل ماتريد ، فإن مصيرك إلى الموت ، وما مراده من ذلك إلا التهديد ليرتدع ويقبل مايقول . وكما يقال لمن سعى فى مخالفة السلطان : اصنع ماشئت ، فإن مصيرك إلى السيف.

وبعد أن هدد الكفار على انغماسهم فى اللذات ، أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر خلّص عباده بإقامة العبادات البدنية ، وأداء الفرائض المالية فقال :

(قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم) أى قل لهم : أقيموا الصلاة على وجهها ، وأدوها كما طلب ربكم ، فهى عماد الدين ، وهى التى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهى المصباح للمؤمن يستضىء به للقرب من ربه ، وأدوا الزكاة شكرا له على نعمه الجزيلة ، رأفة بعباده الفقراء سدا لخلتهم وإيجادا للتضامن والتعاون بين الإخوة فى الدين : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » .

(سرا وعلانية) أى أنفقوا ذلك فى السر والعلن ، ولكل منهما حال تستحب فيها وقد تقدم القول فى تفصيل ذلك .

(من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال) أى من قبل أن يأتى اليوم الذى لاتنفع فيه فدية ، ولا تُجْدِى فيه صداقة ، فلا يشفع خليل لخليل ولا يُصْفَح ، عن عقابه لمخالّته لصديقه ، بل هناك العدل والقسط كما قال : « فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ

وَلاَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا » وقال : « أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ » .

أدلة التوحيد المنصوبة فى الآفاق والأنفس

اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ، وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) .

تفسير المفردات

السماء : السحاب ، وكل ما علا الإنسان فأظله فهو سماء ، والرزق : كل ماينتفع به ، والتسخير : التيسير والإعداد ، والفلك : السفن ، دائبين : أى دائمين فى الحركة لايفتران ، يقال دأب فى العمل إذا سار فيه على عادة مطردة كما قال : « تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا » آتاكم : أى أعطاكم ، لاتحصوها : لاتطيقوا حصرها ، والإحصاء : العد بالحصى ، وكان العرب يعتمدونه فى العد كاعتمادنا فيه على الأصابع ، ظلوم : أى لنفسه بإغفال شكر النعمة ، كفار : شديد الكفران والجحود لها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال الكافرين لنعمه ، حين بدّلوا الشكر بالكفر ، واتخذوا لله أندادا ، فكان جزاؤهم جهنم وبئس المهاد ، ثم أمر المؤمنين بإقامة شعائر الدين من صلاة وزكاة ، شكرا لربهم على ما أوتوا من النعم ، وحثا لهم على الجهاد فى سبيل كالهم ورقيهم ببذل النفس والنفيس وهو المال ، لتكمل لهم السعادة فى الدارين —

شرع يذكر الأدلة المنصوبة فى الآفاق والأنفس التى توجب على عباده المثابرة على شكره ودوام الطاعة له ، ويذكر النعم الجسام التى يتقلبون فى أعطافها آناء الليل وأطراف النهار ، ليكون فى ذلك حث لهم على التدبر فيما يأتون وفيما يذرون ، وفيه عظيم الدلالة على وجوب شكر الصانع لها ، كما فيه أشد التقريع للكافرين الذين أعرضوا عن النظر والتفكر فى تلك النعم ، فكان هذا داعية كفرها وجحودها ، وغمطها وكنودها .

الإيضاح

(الله الذى خلق السموات والأرض) أى الله الذى خلق لكم السموات والأرض ، هما أكبر خلقا منكم ، وفيهما من المنافع لكم ما تعلمون وما لا تعلمون ، وتقدم تفصيل هذا فى مواضع متعددة من كتابه الكريم .

(وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) أى وأنزل من السماء غيثا أحيا به الشجر والزرع ، فأثمرت لكم رزقا تأكلون منه وتعيشون به .

والآية كقوله : « وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى » أى من ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع .

(وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره) أى وذلل لكم السفن بأن أقدركم على صنعها ، وجعلها طافية على وجه الماء ، تجرى عليه بأمره تعالى وسخر البحر لحملها ، ليقطع المسافرون بها المسافات الشاسعة من إقليم إلى إقليم لجلب ماهناك إلى هنا ونقل ماهنا إلى هناك .

(وسخر لكم الأنهار) تشق الأرض شقا من قطر إلى قطر ، لانتفاعكم بها حيث تشربون منها ، وتتخذون جداول تسقون بها زروعكم وجناتكم ، وما أشبه ذلك .

(وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) أى دائمين فى الحركة ، لا يفتران إلى انقضاء عمر الدنيا كما قال : « لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » وقال : « يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ، أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » .

(وسخر لكم الليل والنهار) يتعاقبان ، فالنهار لسعيكم فى أمور معاشكم وما تحتاجون إليه فى أمور دنياكم ، والليل لتسكنوا فيه كما جاء فى الآية الأخرى « وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ » فالشمس والقمر يتعاقبان، والليل والنهار يتعارضان، فتارة يأخذ هذا من ذاك فيطول، ثم يأخذ الآخر من هذا فيقصر، كما قال تعالى : « يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلاَ هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ » .

(وآتاكم من كل ما سألتموه) أى هيّأ لكم كل ما تحتاجون إليه فى جميع أحوالكم من ... الذى هو حقيق أن تسألوه ، سواء أسألتموه أم لم تسألوه ، لأن هذه الدنيا ... م الله فيها منافع يجهلها الناس وهى مُعَدَّة لهم ، فلم يسأل اللهَ أحدٌ فى الأمم الماضية ان يعطيهم الطائرات والمغناطيس والكهرباء ، بل خلقها وأعطاها للناس بالتدريج ، لم يزل هناك عجائب ستظهر لمن بعدنا .

(وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) أى لا تطيقوا عدّ أنواعها فضلا عن القيام بشكرها .

وفى صحيح البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم لك الحمد غير مكفىّ ولا مودّع ولا مستغنى عنه ربنا » . وأثر عن الشافعى أنه قال : الحمد لله الذى لا يؤدّى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره بها ، وقال شاعرهم :

لو كلُّ جارحةٍ منى لها لغةٌ ... تُثنى عليك بما أوليتَ من حسنِ

لكان ما زاد شكرى إذ شكرت به ... إليك أبلغَ فى الإحسان والمننِ

(إن الإنسان لظلوم كفار) أى إن الإنسان الذى بدل نعمة الله كفرا لشاكر غير من أنعم عليه ، فهو بذلك واضع للشكر فى غير موضعه — ذاك أن الله هو الذى أنعم عليه بما أنعم ، واستحق إخلاص العبادة له ، فعبَد هو غيره وجعل له أندادا ليضل عن سبيله وذلك هو ظلمه ، وهو جحود لنعمه التى أنعم بها عليه ، لصرفه العبادة إلى غير من أنعم بها عليه ، وتركه طاعة من أنعم عليه .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي ، وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) .

تفسير المفردات

واجنبنى : أى أبعدنى ، وأصل التجنب أن يكون الرجل فى جانب غير ما عليه غيره ، ثم استعمل فى البعد مطلقا ، وتهوى إليهم : أى تسرع شوقا وحبا ، ويقوم الحساب: أى يثبت ويتحقق كما يقال قامت السوق والحرب : أى وجدتا .

المعنى الجملى

بعد أن نصب سبحانه الأدلة على أن لامعبود سواه ، وأنه لايجوز بحال أن يعبد غيره ، وطلب إلى رسوله أن يعجب من حال قومه ، إذ بدّلوا نعمة الله كفرا ، وعبدوا الأوثان والأصنام .

ذكر هنا أن الأنبياء جميعا حثوا على ترك عبادة الأصنام ، فإبراهيم صلوات الله عليه وهو أبوهم نعى على قومه عبادتها ، وطلب إلى الله أن يجنبه و بنيه ذلك ، فإنها كانت سببا فى ضلال كثير من الناس ، وشكر الله على أن وهب له على كبره ولديه إسماعيل وإسحاق ، ثم ختم مقاله بأن يغفر له ولوالديه وللمؤمنين ذنوبهم عند العرض والحساب .

الإيضاح

(وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا) أى واذكر لقومك مذكّرًا لهم بأيام الله خبر إبراهيم إذ قال: ربى المحسن إلىّ بإجابة دعائى، اجعل مكة بلدا آمنا .

وقد أجاب الله تعالى دعاءه فجعله حرما لايُسْفَك فيه دم ، ولايظلم فيه أحد ولا يصاد صيده ولا يختلى خلاه كما قال : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ »

(واجنبنى وبنىّ أن نعبد الأصنام) أى وباعدنى وبنىّ من أن نعبد الأصنام، أى ثبتنا على مانحن عليه من التوحيد وملة الإسلام والبعد عن عبادة الأصنام .

وقد استجيب دعاؤه فى بعض بنيه دون بعض ولاضير فى ذلك .

(ربّ إنهن أضللن كثيرا من الناس) أى يارب إن الأصنام أزلن كثيرا من الناس عن طريق الهدى وسبيل الحق حتى عبدوهن وكفروا بك .

(فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم) أى فمن تبعنى على ماأنا عليه من الإيمان بك ، وإخلاص العبادة لك والبعد عن عبادة الأوثان ـ فإنه مستنّ بسنتى وجار على طريقتى ، ومن خالف أمرى فلم يقبل منى مادعوته إليه وأشرك بك ، فإنك قادر على أن تغفر له وترحمه بالتوبة عليه وهدايته إلى الصراط المستقيم .

(ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم) أى يارب إنى أسكنت بعض ذريتى وهم أولاد إسماعيل بواد غير ذى زرع وهو وادى مكة عند بيتك الذى حرمت التعرض له والتهاون به وجعلت ماحوله حرما لمكانه .

(ربنا ليقيموا الصلاة) أى إنما جعلته محرما ليتمكن أهله من إقامة الصلاة عنده ويعمروه بذكرك وعبادتك .

(فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم) أى فاجعل قلوب بعض الناس محترقة شوقا إليهم .

(وارزقهم من الثمرات) أى وارزق ذريتى الذين أسكنتهم هناك من أنواع الثمار بأن تجبى إليهم ذلك من شاسع الأقطار ، وقد استجاب الله ذلك كما قال: «أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا » قال الدكتور عبدالعزيز إسماعيل باشا فى كتابه (الإسلام والطب الحديث) دعاء سيدنا إبراهيم يفسر ماقلناه، وهو أن الدعاء سنة طبيعية لا أكثر ولا أقل ، فالنبى يدعو ربه ليلهم الناس حج البيت ، فهو يستعين بسنة طبيعية وهى إلهام الخالق لنا حج البيت مع أنه يعلم أن الله قادر على أن ينزل عليهم رزقا من السماء ، ولكن النبى ضرب لنا مثلا فى طريق استعمال الدعاء وقيمته ، فالدعاء لايلغى سنة طبيعية ولا يأتى بالمعجزات ، ولكن الداعى يطلب من الخالق الهداية إلى إحدى السنن الطبيعية وسأضرب لك مثلا بالنسبة للمريض وعلاجه ، فقد أخبرنى البعض أن من يطلب الطبيب لايستعين بالدعاء ، والحقيقة غير ذلك ، فالوالد الذى يدعو ربه لشفاء ولده ، لافائدة من دعائه إذا كان ولده قد مات أو إذا كان مرضه مميتا حتما ، ولكن قد يكون للمرض طرق علاج خاصة ، أو يشفى من نفسه فى ظروف خاصة ، فالدعاء فى هذه الحال معناه إلهام المريض ومن حوله من طبيب وغيره استعمال الطريق المؤدى إلى الشفاء ، والطبيب يحتاج دائما إلى هذا الإلهام ، وكم من مرة يقف فى مفترق الطرق ولا يدرى أية ناحية يسلك ، وكل طريق سنة طبيعية تؤدى إلى نتيجة خاصة ، والدعاء هداية إلى السنة المؤدية إلى الشفاء ، وهكذا يكون الدعاء والتطبيب وكل أعمال الإنسان يكمل بعضها بعضا وليست متناقضة ، فدعاء سيدنا إبراهيم معناه أن يلهم الناس بواسطة القوانين الطبيعية حج البيت ، وقد يقال ولكننا لانشعر بإلهام من عند الله ، وكل أفعالنا نتيجة مباشرة لتفكيرنا ، والشخص الذى يحج

لايشعر بإلهام أو شىء خفى ، ولكن الحقيقة أن أفعال الإنسان قد تكون نتيجة تفكيره واختباراته ويكون سبب حركاتها ظاهرا ؛ وقد تكون أفعاله غير منطبقة على تفكيره واختباراته ولكنه مع ذلك يندفع إلى العمل ، وكثيرا مانشاهد أشخاصا لايفكرون فى الحج مدة طويلة ، ولكن فجأة و بدون سبب ظاهر يصممون على الحج وينفذون إرادتهم ، وهذا العمل ظاهره الاختيار طبعا ولكنهم مدفوعون بقوة مسيطرة عليهم أشبه بالغريزة أو الوحى

وقد أجاب الله إبراهيم إلى دعائه ، فألهم الناس الحج فى آلاف السنين و إلى ماشاء الله ، لافى مدى حياته فحسب ؛ وفى هذا إظهار لقدرة الخالق وصدق وعده ا ه .

(لعلهم يشكرون) أى رجاء أن يشكروا تلك النعمة بإقامة الصلاة وأداء واجبات العبودية .

وفى هذا إيماء إلى أن تحصيل منافع الدنيا إنما هو ليستعان بها على أداء العبادات وتحصيل الطاعات ، وفى دعائه عليه السلام مراعاة للأدب والمحافظة على الضراعة وعرض الحاجة واجتلاب الرأفة ، ومن ثم منّ الله عليه بالقبول و إعطاء المسئول ، ولابدع فى ذلك فهو خليل الرحمن وأبو الأنبياء جميعا .

(ربنا إنك تعلم مانخفى ومانعلن) أى أنت تعلم ماتخفى قلوبنا حين سؤالك مانسأل، ومانعلن من دعائنا فنجهر به .

(ومايخفى على الله من شىء فى الأرض ولافى السماء) أى ولايخفى على الله شىء يكون فى الأرض أو فى السماء ، لأن ذلك كله ظاهر متجلّ له ، لأنه مدبره وخالقه ، فكيف يخفى عليه .

(الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل و إسحاق) أى الحمد لله الذى وهب لى وأنا آيس من الولد لكبر سنى — ولدين : إسماعيل و إسحاق .

(إن ربى لسميع الدعاء) أى إن ربى لسميع دعائى الذى أدعو به من قولى : «اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِى وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ » وقد كان إبراهيم سأله الولد

بقوله : « رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصّالِحِين » فلما استجاب الله دعاءه قال الحمد لله الخ .

(رب اجعلنى مقيم الصلاة) أى رب اجعلنى مؤديا ماألزمتنى من فريضتك التى فرضتها علىّ .

(ومن ذريتى) أى واجعل أيضا ذريتى مقيمى الصلاة ، وقد خص الصلاة من بين فرائض الدين لأنها العنوان الذى يمتاز به المؤمن من غيره ، ولما لها من المزية العظمى فى تطهير القلوب بترك الفواحش ماظهر منها وما بطن

(ربنا وتقبل دعاء) المراد بالدعاء العبادة أى ربنا تقبل عبادتى كما جاء فى قوله : « وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَأَدْعُو رَبِّى » .

وجاء فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الدعاء هو العبادة ثم قرأ : وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » .

(ربنا اغفر لى ولوالدىّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب) أى ربنا اغفر لى مافرط منى من الذنوب ولأبوىّ، وقد روى عن الحسن أن أمه كانت مؤمنة : واستغفاره لأبيه كان عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه كما قال تعالى : «وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ » الآية ، وللمؤمنين بك ممن تبعنى على الدين الذى أنا عليه، فأطاعك فى أمرك ونهيك ــ يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ، وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ

تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ وَبَرَزُوا لِلّٰهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ، إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هٰذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ (٥٢).

تفسير المفردات

تشخص : ترتفع ، مهطعين : مسرعين إلى الداعى ، مقنعى رءوسهم : أى رافعيها مع الإقبال بأبصارهم إلى مابين أيديهم من غير التفات إلى شىء . لايرتد : لايرجع ، هواء : خالية من العقل والفهم لفرط الحيرة والدهشة ، ويقال للجبان والأحمق قلبه هواء : أى لاقوة ولا رأى له كما قال حسان يهجو أبا سفيان بن حرب :

ألا أبلغ أبا سفيان عنى فأنت مجوّف نخب هواء

من زوال : أى من انتقال من دار الدنيا إلى دار أخرى للجزاء . وضربنا لكم الأمثال : أى بينا لكم أنهم مثلكم فى الكفر واستحقاق العذاب . عزيز : أى غالب

على أمره ينتقم من أعدائه لأوليائه ، وبرزوا : أى خرجوا من قبورهم ، مقرّنين أى مشدودين ، فى الأصفاد : أى فى القيود واحدها صَفَد ، سرابيلهم ، واحدها سربال : وهو القميص ، والقطران : دُهن يتحلّب من شجر الإِبْهل والعَرْعَر والتوت كالزفت تدهن به الإبل إذا جَرِبت . ويقال له الهِناء ، وهو أسود اللون منْتِن الريح تقول هنأت البعير أهنؤهُ إذا طليته بالهناء ، وتغشى وجوههم النار : أى تعلوها وتحيط بها ، بلاغ : كفاية فى العظة والتذكير .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه أن جزاء من بدّلوا نعمة الله كفرا وجعلوا له الأنداد جهنم يصلونها وبئس المهاد ، وطلب إلى عباده المؤمنين مجاهدة النفس والهوى وإقامة فرائض الدين ـ ذكر هنا تسلية لرسوله وتهديدا للظالمين من أهل مكة أن تأخيرهم وتمتعهم بالحظوظ الدنيوية ليس إهمال للعقوبة ولا لغفلة عن حالهم ، وإنما كان لحكمة اقتضت ذلك وهم مُرصَدون ليوم شديد الهول ، له من الأوصاف ما بُيِّنَ بعدُ ، وعليك أيها الرسول أن تنذر الناس بقرب حلوله ، وأنهم فى ذلك اليوم سيطلبون الردّ إلى الدنيا ليجيبوا دعوة الداعى ، وهيهات هيهات .

صاح هل رَيْتَ أو سمعت براعٍ ردَّ فى الضَّرع ماقَرَى فى الحِلاب

وقد كان لكم معتبر فى تلك المساكن التى تسكنونها ، فإنها كانت لقوم أمثالكم كفروا بأنعم الله ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

ألا إن وعد الله لرسله لا يُخْلَف ، وهو ناصرهم وخاذل أعدائه ، كما قال : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا » وقال : « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » ومحاسبهم فى يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات ، يوم يخرجون من قبورهم للحساب أمام الواحد القهار ، وترى حال المجرمين يجلّ عن الوصف .

وهذا الذى قصصته عليكم تبليغ و إنذار ، ليتذكر به ذوو العقول الراجحة ، وليعلموا أن الله واحد لاشريك له .

الايضاح

(ولاتحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) تقدم أن مثل هذا الخطاب من وادى قولهم : (إياكِ أعنى واسمعى ياجاره) فهو فى صورته للنبى صلى الله عليه وسلم والمراد أمته، وفيه تسلية للمؤمنين وتهديد للظالمين بأن الله محص أعمالهم ومحيط بها ، وسيجزيهم وصفهم فى الحين الذى سبق فى علمه ، وأن عقابهم لا بدّ آت ، فتركه بمنزلة حسبانه تعالى غافلا عن أعمالهم ، إذ العلم بذلك مستوجب لعقابهم لامحالة .

ثم أوعدهم حلول يوم يحاسبون فيه على أعمالهم وفيه من الهول مايُحيِّر اللب، ويدهش العقل فقال :

(إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) أى إنما يمهلهم ويمتعهم بكثير من لذات الحياة ولا يعجل عقوبتهم ، ليوم شديد الهول ترتفع فيه أبصار أهل الموقف ، وتبقى مفتوحة لا تطرف من الفزع والاضطراب .

(مهطعين) أى يأتون مسرعين إلى الداعى بالذلة والاستكانة كما يسرع الأسير والخائف .

(مقنعى رءوسهم) أى رافعيها مع دوام النظر من غير التفات إلى شىء .

(لايرتد إليهم طرفهم) أى لا يرجع إليهم تحريك أجفانهم كما كانوا يفعلون فى الدنيا فى كل لحظة ، بل تبقى أعينهم مفتوحة لاتطرف من شدة الفزع والخوف .

(وأفئدتهم هواء) أى إنها مضطربة تجيش فى صدورهم ، تجىء وتذهب ، ولاتستقر فى مكان حتى تبلغ الحناجر ، لشدة مايرون من هول موقف الحساب .

ثم ذكر مقالتهم حين يرون هذا الهول ومافيه من العذاب فقال :

(وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب

نجب دعوتك ونتبع الرسل) أى وخوّف أيها الرسول القوم الظالمين ، وازجرهم عما هم عليه من الظلم شفقة بهم - هول يوم العذاب وشدته حين يقولون من الهلع والجزع : ربنا أرجعنا إلى الدنيا ، وأمهلنا أمدا قريبا ، نجب فيه دعوة الرسل إلى توحيدك ، وإخلاص العبادة لك ، بعد أن جحدنا ذلك .

ثم رد عليهم مقالتهم بقوله :

(أولم تكونوا أقسمتم من قبل مالكم من زوال) أى وحينئذ يقال لهم على سبيل التوبيخ والتقريع : ألم تحلفوا فى الدنيا أنكم إذا متم لاتخرجون لبعث ولا حساب كما حكى الله عنهم « وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَيَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ » فذوقوا وبال أمركم .

أخرج البيهقى عن محمد بن كعب القُرَظى أنه قال : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله تعالى فى أربع منها ، فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا يقولون : « رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ، فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ؟ » فيجيبهم الله عزوجل « ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَادُعِيَ اللهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ، وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا ، فَالْحُكْمُ لِلهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ » ثم يقولون : « رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ » فيجيبهم جل شأنه : « فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا » الآية ، ثم يقولون : « رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ » فيجيبهم تبارك وتعالى : « أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ » الآية ، ثم يقولون : « رَبنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ » فيجيبهم جل جلاله « أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ » فيقولون « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ » فيجيبهم جلا وعلا « اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ » فلا يتكلمون بعدها إن هو إلا زفير وشهيق وحينئذ ينقطع رجاؤهم ويُقبل بعضهم ينبح فى وجه بعض وتُطْبَق عليهم جهنم . اللهم إنا نعوذ

بك من غضبك ، ونلوذ بكَنَفك من عذابك ، ونسألك التوفيق للعمل الصالح فى يومنا لغدنا ، والتقرب إليك بما يرضيك قبل أن يخرج الأمر من يدنا اهـ .

(وسكنتم فى مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال) أى وأقمتم فيها واطمأننتم وسرتم سيرة من قبلكم فى الظلم والفساد ، لم تفكروا فيما سمعتم من أخبار من سكنوها قبلكم ولم تعتبروا بأيام الله فيهم وأنه أهلكهم بظلمهم ، وأنكم إن سرتم سيرتهم حاق بكم مثل ماحاق بهم ، بعد أن تبين لكم مافعلنا بهم من الإهلاك والعقوبة بمعاينة آثارهم وتواتر أخبارهم ، ومثّلنا لكم فيما كنتم مقيمين عليه من الشرك الأشباه والنظائر ، فلم ترعَوُوا ولم تتوبوا من كفركم .

الآن تسألون التأخير للتوبة حين نزل بكم من العذاب ما نزل ؟ فهيهات هيهات ، قد فات مافات ، ولن يكون ذلك حتى يلج الجمل فى سم الخياط .

ثم بين أن حالهم كحال من سبقهم حذو القُذّة بالقُذّة فقال :

(وقد مكروا مكرهم) أى وقد مكروا فى إبطال الحق وتقرير الباطل مكرهم الذى استفرغوا فيه كل جهدهم ، وأحكموا أسبابه حتى لم يبق فى قوس الحق منزع .

ثم ذكر بعدئذ أن الله عليم بكل مادبّروا فقال :

(وعند الله مكرهم) أى ومكتوب عند الله مكرهم ، وهو لامحالة لمجازيهم عليه ، ومعذبهم من حيث لايشعرون .

والخلاصة — عند الله جزاؤهم وماهو أعظم منه ، فرأيهم آفن ، إذ هم سلكوا طريقا كان ينبغى البعد عنها بعد أن استبان فسادها .

ثم ذكر أن عاقبة مكرهم الخسران والبوار فقال :

(وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال) أى وما كان مكرهم لتزول به آيات الله وشرائعه ، ومعجزاته الظاهرة على أيدى الرسل التى هى كالجبال فى الرسوخ والثبات .

والخلاصة — تحقير شأن مكرهم وأنه ما كان لتزول منه الآيات والنبوات الثابتة ثبوت الجبال ، فليس بمزيل شيئا منها مهما قوى وكان غاية فى المتانة والعظم .

(فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) هذا الخطاب لرسوله صلى الله عليه وسلم على نهج سالفه ، والمقصود منه تثبيت أمته على ثقتهم بوعد ربهم وتيقنهم بإنجازه ، بتعذيب الظالمين وأنه منزل سخطَه بمن كذّبه وجحد نبوته .

(إن الله عزيز ذو انتقام) أى غالب على أمره ، لايمتنع منه من أراد عقوبته ، قادر على كل من طلبه ، لايفوته بالهرب منه ؛ وهو ذو انتقام ممن كفر برسله ، وكذبهم وجحد نبوتهم ، وأشرك به واتخذ معه إلها غيره .

ثم ذكر زمان الانتقام فقال :

(يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) أى إنه تعالى ذو انتقام يوم تبدل الأرض غير الأرض بأن تتطاير هذه الأرض كالهباء وتصير كالدخان المنتشر ثم ترجع أرضا أخرى بعد ذلك ، وتبدل السموات بانتشار كواكبها وانفطارها وتكوير شمسها وخسوف قمرها .

قال ابن عباس رضى الله عنهما هى تلك الأرض إلا أنها تغيرت فى صفاتها ، فتسير عن الأرض جبالها ، وتُفَجَّر بحارها وتُسَوَّى ، فلا يرى فيها عوج ولاأمْت ، وروى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يبدل الله الأرض غير الأرض فيبسطها ويمدها مدّ الأديم العُكاظىّ ، فلا ترى فيها عوجا ولاأمتا » .

وهذه الآية الكريمة من معجزات القرآن التى أيدها العلم الحديث وانطبقت عليه أشد الانطباق ، فعلماء الفلك الآن يقولون إن الأرض والشمس وسائر الكواكب السيارة كانت فيما مضى كرة نارية حارة طائرة فى الفضاء ، ودارت على محورها ملايين السنين ، ثم تكونت منها الشمس ، وبعد ملايين أخرى فصلت منها السيارات ومنها الأرض ، وبعد مئات الألوف انفصلت عنها الأقمار .

ولا شك أن هذه الحال بعينها ستعاد كرّة أخرى: أى إن الأرض والكواكب والشمس بعد ملايين السنين ستنحلّ مرة أخرى ويذوب ذلك الموجود كله، ويتطاير فى الفضاء حقبة من الزمن، ثم تعاد كرة أخرى وتكون شمس غير هذه الشمس وأرض غير هذه الأرض وسموات غير هذه السموات.

روى مسلم عن عائشة قالت «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله: يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات - فأين يكون الناس يومئذ يارسول الله؟ فقال: على الصراط».

وروى عن أبيّ بن كعب أنه قال فى معنى التبديل: إن الأرض تصير نيرانا.

وعلى الجملة فقد اتفق العلم الحديث مع الآيات والأحاديث على أن الأرض تصير نارا وأن الناس لايكونون عليها، بل هناك ماهو أعجب وهو ماروى عن ابن مسعود وأنس رضى الله عنهما من قولهما: يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطىء عليها أحد خطيئة، ولابدع فى أن تكون أرضا جديدة لم يسكنها أحد، بل تخلق خلقا جديدا.

(وبرزوا لله الواحد القهار) أى وخرجوا من قبورهم لحكم الله والوقوف بين يدى الواحد القهار، فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولامستجار سواه.

وفى هذا من تهويل الخطب مالايخفى، لأنهم إذا وقفوا عند ملك عظيم قهار لايشاركه سواه فى سلطانه كانوا على خطر، إذ لامنازع له ولامغيث سواه.

وبعد أن وصف سبحانه نفسه بكونه قهارا - بين عجز المجرمين وذلتهم فقال:

(وترى المجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفاد. سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار) وصفهم سبحانه بجملة أمور:

(١) إنه يقْرَن بعضهم إلى بعضهم فى القيود ويُضَمّ كلٌّ إلى مشاركه فى كفره وعمله كما قال تعالى «وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ» وقال: «فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ» وفى الحديث: «أنت مع من أحببت».

(٢) إن قُمُصَهم التي يلبسونها من قطران ، والمراد من ذلك أن جلود أهل النار تطلى بالقطران حتى يعود طلاؤها كالسرابيل ، ليجتمع عليهم أربعة ألوان من العذاب : لذع القطران وحرقته ، وإسراع اشتعال النار في الجلود ، واللون الأسود الموحش ، ونتن الريح .

(٣) إن وجوههم تعلوها النار ، وتحيط بها وتسعَّر أجسامهم المسرْبلة بالقطران ، وإنما ذكرت الوجوه مع أن ذلك يكون لسائر الجسم — لكونها أعز الأعضاء الظاهرة وأشرفها .

ونظير الآية قوله : « أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقوله : « يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ » .

(ليجزى الله كل نفس ما كسبت) أى فعل الله ذلك بهم جزاء وفاقا بما كسبوا فى الدنيا من الآثام ، لكى يثيب كل نفس بما كسبت من خير أو شر ، فيجزِىَ المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته .

(إن الله سريع الحساب) فيحاسب جميع العباد فى أسرع من لمح البصر ، ولا يشغله حساب عن حساب : كما لا يشغله رزق زيد عن رزق عمرو .

(هذا بلاغ للناس) أى هذا القرآن الكريم بلاغ للناس ، أبلغ الله به إليهم فى الحجة ، وأعذر إليهم بما أنزل فيه من مواعظه وعبره .

(ولينذروا به) عقاب الله ويحذروا به نقمته .

(وليعلموا أنما هو إله واحد) أى وليعلموا بما احتج به عليهم من الحجج فيه ، إنما هو إله واحد لا آلهة شتى كما يقول المشركون بالله ، وهو الذى سخر لهم الشمس والقمر ، والليل والنهار ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لهم .

(وليذكر أولو الألباب) أى وليتذكروا ويتعظوا بما احتج الله به من الحجج ، فيزدجروا عن أن يجعلوا معه إلها غيره ، وفى تخصيص التذكر بأولى الألباب إعلاء لشأنهم ، وإيماء إلى أنهم هم أهل النظر والاعتبار .

وجملة القول : إنه سبحانه جعل لهذا البلاغ ثلاث فوائد هى الحكمة من إنزال الكتب والرسل :

(١) إن الرسل يخوّفون الناس عقاب الله وينذرونهم بأسه ، ليكمّلوهم بمعرفة ربهم وتقواه والعمل على طاعته .

(٢) إن الناس ترتقى قوتهم النظرية إلى منتهى كمالها ، بتوحيد الخالق والاعتراف بأنه مدبر الكون والمسيطر عليه .

(٣) إنهم يستصلحون قوتهم العملية بتدرعهم بلباس التقوى .

فذلكة لمحتويات السورة

(١) هداية الناس إلى معرفة ربهم الخالق للسموات والأرض .

(٢) ذم الكافرين الذين يستحبون الدنيا ويصدّون عن الدين القويم .

(٣) بيان أن الرسل إنما يُرْسَلون بلغات أقوامهم ، ليسهل عليهم فهم الأوامر والنواهى .

(٤) التذكير بأيام الله ببيان ماحدث للرسل مع أقوامهم ، ليكون فى ذلك تسلية لرسوله ، وماهدد به الأمم رسلهم من الإخراج والنفى من الديار .

(٥) وعيد الكافرين على كفرهم وذكر مايلقونه من العذاب ، وضرب الأمثلة لذلك .

(٦) وعد المؤمنين بجنات تجرى من تحتها الأنهار ، وضرب المثل لذلك .

(٧) دعوة إبراهيم ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام التى أضلت كثيرا من الناس ، ثم شكره على ماوهبه من الأولاد على كبر سنه ، ثم طلبه المغفرة منه له ولوالديه وللمؤمنين يوم العرض والحساب .

(٨) بيان أن تأخير العذاب عن المجرمين ليوم معلوم إنما كان لحكمة اقتضت ذلك ، وحينئذ يرون من الذلة والصغار وسوء العذاب ما يجل عنه الوصف .

تم تفسير هذا الجزء بحلوان من أرباض القاهرة فى صبيحة يوم الأحد لثلاثين من شهر ربيع الثانى من سنة ثلاث وستين وثلثمائة وألف من الهجرة النبوية .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه الكرام .

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

الصفحة المبحث

الصفحة المبحث

الصفحة المبحث

تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير المرحوم

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية

بكلية دار العلوم سابقا

الجزء الرابع عشر

دار إحياء التراث العربي

بيروت

الجزء الرابع عشر

ســــورة الحجر

هى مكية وآيها تسع وتسعون .

ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنها افتتحت بمثل ما افتتحت به سابقتها من وصف الكتاب المبين .

(٢) إنها شرحت أحوال الكفار يوم القيامة وتمنيهم أن لو كانوا مسلمين كما كانت السالفة كذلك .

(٣) إن فى كل منهما وصف السموات والأرض .

(٤) إن فى كل منهما قصصا مفصّلا عن إبراهيم عليه السلام .

(٥) إن فى كل منهما تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم بذكر ما لاقاه الرسل السالفون من أممهم وكانت العاقبة للمتقين .

بسم الله الرحمن الرحيم

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١) رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢) ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ

يَعْلَمُونَ (٣) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (٤) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥) .

شرح المفردات

ربما (بضم الراء وتخفيف الباء وتشديدها) كلمة تدل على أن ما بعدها قليل الحصول، فإذا قيل ربما زارنا فلان دل على أن حصول الزيارة منه قليل ، يلههم : أى يشغلهم من قولهم : لهِيتُ عن الشئ ألْهَى لَهْيا إذا أعرضت عنه ، ما تسبق : أى ما يتقدم زمان أجلها .

الإيضاح

(الر) تقدم القول فى بيان معانى هذه الحروف ومبانيها ، فذكرنا أنها حروف تنبيه بمنزلة ألا ، ويا ، وينطق بأسمائها ساكنة فيقال : (ألفْ . لامْ . را) .

(تلك آيات الكتاب وقرآن مبين) أى تلك السورة منْ آيات ذلك الكتاب الكامل من بين سائر الكتب المنزلة من عند الله ، المبين للرشد من الغى ، والمظهر فى تضاعيفه للحكم والأحكام .

(ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين) هذا إخبار من الله عن الكفار بأنهم سيندمون فى الآخرة على ما كانوا عليه من الكفر ، ويتمنون أن لو كانوا فى الدنيا مسلمين.

عن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا اجتمع أهل النار فى النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين : ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا بلى ، قالوا فما أغنى عنكم الإسلام وقد صرتم معنا فى النار ؟ قالوا كانت لنا ذنوب فأُخِذْنا بها ، فسمع الله ما قالوا ، فأمر بمن كان فى النار من أهل القبلة فأُخْرِجوا ، فلما رأى ذلك من بقى من الكفار قالوا ياليتنا كنا مسلمين

فنخرج كما خرجوا ، قال ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ـ الر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ، ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين».

ونحو الآية قوله تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَالَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » . قال الزجاج: إن الكافر كلما رأى حالا من أحوال العذاب ورأى حالا من أحوال المسلم ودَّ أن لو كان مسلما .

وقصارى ذلك — قد يتمنى الذين كفروا لو كانوا مسلمين حينما يعاينون العذاب وقت الموت : « والْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ » وفى الموقف حينما يرون هول العذاب وقد انصرف المسلمون إلى الجنة وسيقوا هم إلى النار، والمسلمون المذنبون عُذِّبوا بذنوبهم ثم خرجوا منها و بقى الكافرون فى جهنم .

وقد جاءت (ربما) للتقليل على سنة العرب فى نحو قولهم : ربما تندم على مافعلت ، ولعلك تندم على مافعلت ، لايقصدون التقليل فى نحو ذلك ، وإنما يريدون أن الندم لو كان مشكوكا فيه أولو كان قليلا لحق عليك ألا تفعل هذا الفعل ، إذ العاقل يتحرز من التعرض للغم المظنون كما يتعرض للغم المتيقن ، ويبتعد عن القليل منه كما يبتعد عن الكثير .

(ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل) أى دعهم أيها الرسول فى غفلاتهم يأكلون كما تأكل الأنعام ، ويتمتعون بلذات الدنيا وشهواتها ، وتلهيهم الآمال عن الآجال، فيقول الرجل منهم غدا سأنال ثروة عظيمة، وأحظى بما أشتهى، ويعلو ذكرى، ويكثر ولدى ، وأبنى القصور ، وأُكْثِر الدور ، وأقهر الأعداء ، وأفاخر الأنداد ، إلى نحو ذلك مما يغرق فيه من بحار الأمانى والآمال وطلب المحال .

ثم علل الأمر بتركهم بقوله :

(فسوف يعلمون) سوء صنيعهم إذا هم عاينوا سوء جزائهم ، ووخامة عاقبتهم وفى هذا وعيد بعد تهديد ، وإلزام لهم بالحجة ومبالغة فى الإنذار ، وقد

جاء فى أمثالهم (أعذر من أنذر) و إيماء إلى أن التلذذ والتنعم وعدم الاستعداد للآخرة والتأهب لها — ليس من أخلاق المؤمنين .

أخرج أحمد والطبرانى والبيهقى عن عمرو بن شعيب مرفوعا قال : « صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين ، ويهلك آخرها بالبخل والأمل » . وروى عن الحسن أنه قال : ما أطال عبد الأمل ، إلا أساء العمل ، وروى عن على أنه قال : إنما أخشى عليكم اثنتين ، طول الأمل واتباع الهوى ، فإن طول الأمل ينسى الآخرة ، واتباع الهوى يَصُدُّ عن الحق .

و بعد أن هدد من كذب الرسول بقوله : ذرهم يأكلوا و يتمتعوا و يلههم الأمل ، ذكر سر تأخير عذابهم إلى يوم القيامة وعدم التعجيل به كما فعل بكثير من الأمم السالفة فقال :

(وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم) أى وما أهلكنا قرية من القرى بالخسف بها و بأهلها كما فعل ببعضها ، أو بإخلائها من أهلها بعد إهلاكهم كما فعل بأخرى ، إلا ولها أجل مقدر مكتوب فى اللوح المحفوظ لاينسى ولا يغفل عنه ولا يتقدم عن وقته ولا يتأخر .

وخلاصة ذلك — إننا لو شئنا لعجلنا لهم العذاب فصاروا كأمس الدابر ، ولكن لكل أجل كتاب ، وشأننا الإمهال لا الإهمال .

و بعد أن بين سبحانه أن الأمم المهلكة كان لكل منهم وقت معين لهلاكهم بحسب ماهو مكتوب فى اللوح — بين أن كل أمة منهم ومن غيرهم لها أجل لا يمكن التقدم عليه ولا التأخر عنه فقال :

(ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون) أى لايجىء هلاك أمة قبل مجى أجلها ، ولا يتأخر الهلاك متى حل الأجل .

و فى هذا تنبيه لأهل مكة وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من الشرك والإلحاد

الذى يستحقون به الهلاك ، وزجر لهم بأن هـذا الإمهال لاينبغى أن يغترّوا به ، فالهلاك مدّخر لهم لايتقدم ولا يتأخر .

وَقَالُوا يَاأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦) لَوْمَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧) مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ (٨) إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (١١) كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (٢٣) وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥) .

تفسير المفردات

الذكر : هو القرآن ، و (لوما) مثل (هلا) كلمة تفيد الحث والحضّ على فعل مايقع بعدها ، منظرين : أى مؤخرين ، والشيع : واحدهم شيعة وهى الجماعة المتفقة على مبدأ واحد فى الدين والمعتقدات ، أو فى المذاهب والآراء . نسلكه : أى نُدْخِله يقال سلكت الخيط فى الإبرة : أى أدخلته فيها ، يعرجون : يصعدون ، سُكِّرت : سددت ومنعت من الإبصار ، مسحورون: أى سحرنا محمد بظهور ما أبداه من الآيات

المعنى الجملى

بعد أن هدد سبحانه الكافرين وبالغ فى ذلك أيما مبالغة — شرع يذكر بعض مقالاتهم فى محمد صلى الله عليه وسلم المتضمنة للكفر بما جاء به ، ثم يذكر ماهم فيه من

جحود وعناد بلغا مدًى تنكر معه المشاهدات ، ويُدَّعى معه السحر والخداع حين رؤية المبصرات .

ثم ذكر سبحانه لرسوله صلى الله عليه وسلم تسلية له أن ما صدر منهم من السفه ليس بدعا ، فهذا دأب كل محجوج ، فكثير من الأمم السالفة فعلت مثل هذا مع أنبيائها ، فلك أسوة بهم فى الصبر على سفاهتهم وجهلهم .

قال مقاتل : القائلون هذه المقالة هم عبد الله بن أمية والنضر بن الحرث ونوفل بن خُوَيلد والوليد بن المغيرة من صناديد قريش .

الإيضاح

(وقالوا يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون) أى وقالوا استهزاء وتهكما : أيها الرجل الذى زعم أنه نُزِّل عليه القرآن : إن ما تقوله أملاه عليك الجنون ، وليس له معنى معقول ، وهو مخالف لآرائنا ، بعيد من معتقداتنا ، فكيف نقبل مالا تقبله العقول ، ولا ترضاه الفحول ، من رجالاتنا الفخام ، وعشائرنا العظام ؟

(لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين) أى إن كان ما تدعيه حقا وقد أيدك الله وأرسلك ، فما منعك أن تسأله أن ينزل معك ملائكة من السماء يشهدون بصدق نبوتك .

وخلاصة ذلك : إن من يخالف آراءنا إما مجنون وإما له سلطان عظيم من ربه ، وحينئذ فماذا يمنعه أن يقويه بالملائكة ليشهدوا بصدقه ؟ .

ونحو الآية قوله : « وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ » وقال فرعون فى شأن موسى : « فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ » وقوله : « وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ، لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا » .

وقد أجاب الله عن اقتراحهم فقال :

(ما ننزل الملائكة إلا بالحق) أى ما ننزل الملائكة إلا بالحكمة والفائدة ، وليس فى نزول الملائكة من السماء وأنتم تشاهدونهم - فائدة لكم ، لأنكم إذا رأيتموهم قلتم إنهم بشر لأنكم لا تطيقون رؤيتهم إلا وهم على الصورة البشرية ، إذ هم من عالم غير عالمكم ، وإذا قالوا نحن ملائكة كذبتموهم ، لأنهم على صورتكم فيحصل اللبس ولا تنتفعون بهم وإلى هذا أشار فى سورة الأنعام بقوله : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ » .

(وما كانوا إذا منظرين) أى إن فى نزول الملائكة ضررا لهم لا محالة ، لأنا نهلكهم ولا نؤخرهم ، إذ قد جرت عادتنا فى الأمم قبلهم أنهم إذا اقترحوا آية وأنزلناها عليهم ولم يؤمنوا بها - يكون العذاب فى إثرها ، فلو أنا أنزلناهم ولم يؤمنوا بهم لحق عليهم عذاب الاستئصال ولم يُنْظَرُوا ساعة من نهار .

والخلاصة - إنه ليس فى إنزال الملائكة إليهم فائدة لهم بل فيه اللبس عليهم ، إلى ما فيه من الضرر المحقق لهم وهو الهلاك ، وحينئذ يفوت ما قضينا به من تأخيرهم وإخراج من أردنا إيمانه من أصلابهم .

ثم أجاب سبحانه عن قولهم الأول ، وردّ إنكارهم تنزيل الذكر واستهزاءهم برسول الله صلى الله عليه وسلم وسلاّه على ذلك بقوله :

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) أى إنما أنتم قوم ضالون مستهزئون بنبينا ، وليس استهزاؤكم بضائره ، لأنا نحن نزلنا القرآن ونحن حافظوه ، فقولوا إنه مجنون ، ونحن نقول : إنا نحفظ الكتاب الذى أنزلناه عليه من الزيادة والنقص ، والتغيير والتبديل ، والتحريف والمعارضة ، والإفساد والإبطال .

وسيأتى فى مستأنف الأزمان من يتولون حفظه والذب عنه ، ويدعون الناس إليه ، ويستخرجون لهم ما فيه من عبر وحكم ، وآداب وعلوم ، تناسب ما تستخرجه

العقول من المخترعات ، وتستنبطه الأفكار من نظريات وآراء فيستنير بها العارفون ، ويهتدى بهديها المفكرون ، فلا تبتئس أيها الرسول بما يقولون وما يفعلون .

ثم سلّى رسوله عما أصابه من سفه قومه وادعائهم جنونه ـ بأن هذا دأب الأمم المكذبة لرسلها من قبل ، فلقد أصابهم مثل ما أصابك من قومك ، فاستهزءوا بهم كما استهزأ قومك بك ، فنصرنا رسلنا وكبتنا أعداءهم ، وسيكون أمركم وأمرهم كذلك ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(ولقد أرسلنا من قبلك فى شيع الأولين ، وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) أى إننا أرسلنا قبلك رسلا لأمم قد مضت ، وما أتى أمة رسول إلا كذبوه واستهزءوا به ، لما جرت به العادة من أن فعل الطاعات وترك اللذات ـ مستثقل على النفوس ـ إلى أنهم يدعونهم إلى ترك ما ألفوا من المعتقدات الخبيثة ، وترك عبادة الأوثان الباطلة ، وذلك مما يشق على النفوس ، إلى أن الرسول قد يكون فقيرا لا أعوان له ولا أنصار ، ولا مال ولا جاه ، فلا يتبعه الرؤساء وذوو البأس والقوة ، بل يعملون على مشاكسته ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، إلى أن الله يخذلهم ويلقى دواعى الكفر فى قلوبهم بحسب السنن التى سنها لعباده كما يرشد إلى ذلك قوله :

(كذلك نسلكه فى قلوب المجرمين ، لا يؤمنون به وقد خلت سنة الاولين) أى كذلك نلقى القرآن فى قلوب المجرمين مستهزأ به غير مقبول لديهم ، لأنه ليس فى نفوسهم استعداد لتلقى الحق ، ولا تضىء نفوسهم بمصابيح هدايته الربانية ، كما كانت حال الأمم الماضية حين ألقيت عليهم الكتب المنزّلة من الملأ الأعلى .

وقد جرت سنة الله فى الأولين ممن بعث إليهم الرسل أن يخذلهم ويُدْخِل الكفر والاستهزاء فى قلوبهم ، ثم يهلكهم وتكون العاقبة للمتقين والنصر حليف رسله والمؤمنين ، فلك أسوة بالرسل قبلك مع أممهم المكذبة ، ولست بأوحدى فى ذلك .

والخلاصة ـــ هكذا نفعل باللاحقين كما فعلنا بالسابقين ، ويستهزىء بك

المجرمون ولا يؤمنون بكتابنا ، وسيحل بهم مثل ما حل بالأولين وننصرك عليهم بعد حين كما قال : « وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ » .

ثم بين سبحانه عظيم عنادهم ومكابرتهم للحق فقال :

(ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون . لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون) أى ولو فتحنا على هؤلاء المعاندين بابا من السماء فظلوا فى ذلك الباب يصعدون ، فيرون من فيها من الملائكة ، وما فيها من العجائب — لقالوا لفرط عنادهم وغلوهم فى المكابرة : إنما سدت أبصارنا ، فما نراه تخيل لا حقيقة له ، وقد سحرنا محمد بما يظهر على يديه من الآيات .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ » .

وخلاصة هذا — هبنا فتحنا عليهم بابا من السماء وقلنا لهم اعرجوا فيه ، أفلا يقولون فى أنفسهم ويقول بعضهم لبعض : إنما سحرنا محمد كما يفعل علماء السيميا . إذ يفعلون أفعالا تخيل للإنسان أنه طائر وليس بطائر ، وكما يفعل علماء التنويم المغناطيسى فى هذه الأيام ، فالمنوَّم يقول للمنوِّم : أنت ملك . أنت امرأة . أنت كذا فيصدِّق كل ما قيل له . وهكذا فى النوع البشرى أقوام لهم قدرة على استهواء العقول فيخيلون للإنسان ما لا حقيقة له ، وقد أصبح هذا العلم فنًّا يدرس فى معاهد أوربا وأمريقا . فكيف يكون مثل هذا دليلا أو موجبا للتصديق ؟ كلا فإن أمثال ذلك لا يقوم بهداية نوع الإنسان .

وبعد فكيف يقترح هؤلاء عليك الآيات ، ويُغْرَمون بما يخرق العادات . من ملائكة يرونها ، وعجائب ينظرونها ، وهل تغنى تلك الآيات ، وهل النوع الإنسانى يكفيه ما يخالف العادات ؟ فما يشتبه على الناس بأفعال السحرة والمشعوذين يوقعهم

فى اللبس، فكم من نبى أيدناه بمثل تلك الآيات ولم يؤمن به من قومه إلا قليل منهم، وما الآيات إلا ماتفهمه العقول، وتمحّصه القرائح درسا وتحليلا، وبحثا واستنباطا.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (١٨) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩) وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠)

تفسير المفردات

البروج: واحدها برج وهى النجوم العظام، ومنها نجوم البروج الاثنى عشر المعروفة فى علم الفلك، للناظرين: أى المفكّرين المستدلين بذلك على قدرة مقدّرها وحكمة مدبّرها، وحفظناها: أى منعناها، والرجيم: أى المرجوم المرمى بالرِّجام: أى الحجارة، والمراد بالرجيم هنا المرميّ بالنجوم، واسترق: من السرقة، وهى أخذ الشىء خفية شبه به خطفتهم اليسيرة من الملأ الأعلى، والسمع: المراد به ما يسمع، والشهاب الشعلة الساطعة من النار الموقدة ومن السحاب فى الجو وتبعت القوم تبعا وتباعة بالفتح: أى مشيت خلفهم أو مروا بك فمضيت معهم وأتبعت القوم إذا كانوا قد سبقوك فلحقتهم، مددناها: أى بسطناها، والرواسى: واحد هاراسية وهى الجبال الثوابت، موزون: أى مقدر بمقدار معين تقتضيه الحكمة والمصلحة.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر شديد جحودهم وأنهم مهما أوتوا من الآيات لم يفدهم ذلك شيئا حتى بلغ من أمرهم أن ينكروا المشاهدات ويدعوا الخداع حين رؤية المبصرات،

ـ أعقب هذا ببيان أنهم قد كانوا فى غنى عن كل هذا ، فإن فى السماء و بروجها العالية ، وشموسها الساطعة ، وأقمارها النيّرة ، وسياراتها الدائرة ، وثوابتها الباسقة عبرة لمن اعتبر ، وحجة لمن ادّكر ، فهلاّ نظروا إلى الكواكب وحسابها ، ونظامها ومداراتها ، وكيف حدثت بها الفصول والسنون ، وكيف كان ذلك بمقادير محدودة وأوقات معلومة ؟ لاتغيير فيها ولا تبديل ، فبأمثال هذا يكون اليقين ، وبالتدبر فيه تقوى دعائم الدين ، و يشتد أزْر سيد المرسلين .

وهلاّ رأَوْا الأرض كيف مُدّت ، وثبتت جبالها ، وأنبتت نباتها ، بمقادير معلومة موزونة فى عناصرها وأوراقها ، وأزهارها وثمارها ، وجعل فيها معايش للإنسان والحيوان . أفلا يعتبرون بكل هذا ؟ « وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ، وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ » .

الإيضاح

(ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين) أى ولقد خلقنا فى السماء نجوما كبارا ثوابت وسيارات ، وجعلناها وكواكبها بهجة لمن تأمل وكرر النظر فيما يرى من عجائبها الظاهرة ، وآياتها الباهرة ، التى يحار الفكر فى دقائق صنعتها ، وقدرة مبدعها .

ونحو الآية قوله تعالى : « إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ » .

(وحفظناها من كل شيطان رجيم) أى ومنعنا كل شيطان رجيم من القرب منها كما قال فى آية أخرى . « وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ » أى وحفظناها من كل شيطان خارج من الطاعة برميه بالشهب ، كما تحفظ المنازل من متجسس يُخْشَى منه الفساد .

(إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين) أى لكن من أراد اختطاف شىء من عالم الغيب مما يتحدث به الملائكة فى الملأ الأعلى ـ تبعه كوكب مشتعل

نارا ظاهرا المبصرين فأحرقه ، ولم يصل إلى معرفة شيء مما يدبّر فى ملكوت السموات ، وبهذا المعنى قوله : « لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ »

وجاء بمعنى الآية قوله فى سورة الجن حكاية عنهم : « وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا . وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا » وقوله فى صورة الملك : « وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ » .

وبعد ، فالكتاب الكريم أخبر بأن الشياطين أرادوا أن يختطفوا شيئا من أخبار الغيب مما لدى الملائكة الكرام ، فسُلِّطت عليهم الشهب المشتعلة ، والنجوم المتقدة، فأحرقتهم، ولا نبحث عن معرفة كنه ذلك ، ولا ننعم فى النظر، لندرك حقيقته. لأنا لم نؤتَ من الوسائل والأسباب ما يمكننا من معرفة ذلك معرفة صحيحة ، تجعلنا نؤمن به إيمانا مبنيا على البرهان بوسائله المعروفة ، وليس لنا إلا التصديق بما جاء فى الكتاب وأُوحِيَ به إلى النبي الكريم ، والبحث وراء ذلك لايقفنا على علم صحيح ، بل على حدْس وتخمين ، لا حاجة للمسلم به للاطمئنان فى دينه ، فالأحرى به أن يُعْرِض عنه لئلا يحيد عن القصد ، ويضل عن سواء السبيل .

وبعد أن ذكر الدلائل السماوية على وحدانيته أتبعها بذكر الدلائل الأرضية فقال:

(والأرض مددناها) أى وقد بسطنا الأرض وجعلناها ممتدة الطول والعرض والعمق ، ليمكن الانتفاع بها على الوجه الأكمل ، وهذا فيما يظهر فى مرأى العين ، فلا يدل على نفى الكروية عن الأرض ، لأن الكرة العظيمة ترى كالسطح المستوى .

(وألقينا فيها رواسى) أى وجعلنا فيها جبالا ثوابت خوف أن تضطرب بسكانها كما قال فى آية أخرى : « وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ » وقد سبق تفصيل ذلك فى سورة الرعد .

(وأنبتنا فيها من كل شىء موزون) أى إن كل نبات قد وزنت عناصره وقدرت تقديرا ، فترى العنصر الواحد يختلف فى نبات عنه فى آخر بوساطة امتصاص الغذاء من العروق الضاربة فى الأرض ومنها يرفع إلى الساق والأغصان والأوراق والأزاهير ، والذى حدد هذا الاختلاف ، تلك الفتحات الشعرية التى فى ظواهر الجذور وثقوب كل نبات لا تسع إلا المقدار اللازم لها من العناصر وتطرد ما سواه ، لأنه لا يلائمها ، إذ هى قد كونت على هيئة خاصة بحيث لا تبتلع إلا تلك المقادير بعينها .

وهاك عنصر البوتاس تره يدخل فى حب الذرة الذى نأكله بمقدار ٣٢ ٪ وفى القصب ٣٤٫٣ ٪ وفى البرسيم بمقدار ٣٤٫٦ ٪ وفى البطاطس بمقدار ٦١٫٥ ٪ وبهذا التفاوت صلح القصب لأن يكون سكراً ، والبرسيم لأن يكون قوتا للبهائم ، والذرة والبطاطس لأن تكونا قوتا للإنسان .

وحسبك دليلا على ذلك ماتجده فى سورة الرحمن من قوله : «وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلاَّ تَطْغَوْا فِى الْمِيزَانِ» كما نظم سبحانه الكواكب فى سيرها وأوضاعها، وحركاتها وأضوائها، ووزن عناصرها بمقادير يتناسب بعضها مع بعض .

فلك الحمد ربنا جعلت كل شىء فى الحياة موزونا بقدر معلوم ، لتتدبر نظم الحياة ، فنعرف قدرة منشىء العالم ، وأنه لم يخلق شيئا فيه جزافا ، ليكون فيه دليل على قدرة المبدع والمدبر له حال وجوده .

(وجعلنا لكم فيه معايش) أى إن أنواع معايشكم من غذاء وماء ، ولباس ودواء ، قد سخرناها لكم فى الأرض ، فلا السمك فى البحر غذيتموه ، ولا الطير فى الجو ربيتموه ، ولا غيرهما من أشجار الجبال والغابات وحيوان البر والبحر خلقتموه .

(ومن لستم له برازقين) أى وجعلنا لكم فيها من لستم رازقيه من العيال والمماليك والخدم والدواب . وفى هذا إيماء إلى أن الله يرزقهم وإياهم لا أنهم يرزقون منهم ، وفى ذلك عظيم المنة ، وجزيل الفضل والعطاء ، وواسع الرحمة لعباده .

وخلاصة هذا — إنه سبحانه يسّر لكم أسباب المكاسب ، وصنوف المعايش وسخّر لكم الدواب التى تركبونها ، والأنعام التى تأكلونها ، والعبيد التى تستخدمونها ، فكل أولئك رزقهم على خالقهم لا عليكم ، فلكم منها المنفعة ، ورزقها على الله تعالى .

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢) وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥) .

تفسير المفردات

الخزائن : واحدها خِزانة وهى المكان الذى تحفظ فيه نفائس الأموال ، واللواقح : واحدها لاقح أى ذات لقاح وحمل ، وأسقيناكموه : أى جعلناه لكم سقيا لمزارعكم ومواشيكم ، تقول العرب إذا سقت الرجل ماء أو لبنا سقيته ، وإذا أعدوا له ماء لشرب أرضه أو ماشيته قالوا أسقيته أو أسقيت أرضه أو ماشيته ، والمستقدمين : من ماتوا ، والمستأخرين : الأحياء الذين لم يموتوا بعد .

المعنى الجملى

بين سبحانه فيما سلف أنه أنزل النبات وجعل لنا فيه معايش فى هذه الحياة وهنا أتبعه بذكر ماهو كالسبب فى ذلك ، وهو أنه تعالى مالك كل شىء وأن كل شىء سهل عليه ، يسير لديه ، فإن عنده خزائن الأشياء من النبات والمعادن النفيسة والمخلوقات البديعة مما لاحصر له .

الايضاح

(وإن من شىء إلا عندنا خزائنه) أى ما من شىء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده والإنعام به متى أردنا دون أن يكون تأخير ولا إبطاء ، فخزائن ملكنا مليئة بما تحبون من النفائس ، غير محجوبة عن الباحث الساعى إلى كسبها من وجوهها بحسب السنن التى وضعناها ، والنظم التى قدرناها ، ولا يمنعها مانع ، ولا يستطيع دفعها دافع ، فهى تحت قبضة الطالب لها إذا أحسن المسعى ، وأحكم الطلب كما قال : « فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ » .

(وما ننزله إلا بقدر معلوم) أى وما نعطى ذلك ألا بقسط محدود نعلم أن فيه الكفاية لدى الحاجة ، وفيه الرحمة بالعباد كما قال : « كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » .

وقد جرت سنة القرآن بأن يسمى مايصل إلى العباد بفضل الله وجوده إنزالا كما قال : « وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ » وقال « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ » .

ثم فصل بعض مافى خزائنه من النعم فقال :

(وأرسلنا الرياح لواقح) أى إن من فضله على عباده وإحسانه إليهم أن أرسل إليهم الرياح لواقح ، ويكون ذلك على ضروب :

(١) أن يرسلها حاملات للسحاب، فتلقّح بها الأشجار بما تنزل عليها من الأمطار ، فتغيرها من حال إلى حال ، فتعطيها حياة جديدة ؛ إذ تزدهر أزهارها ، وتثمر أغصانها ، بعد أن كانت قد ذَبلت وصوّحت ، وأصبحت فى مرأى العين كأنها ميتة لا حياة فيها كما قال تعالى : « وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ » .

(٢) أن يرسلها ناقلة لقاح الأزهار الذكور إلى الأزهار الإناث لتخرج الثمر والفواكه للناس .

(٣) أن يرسلها لتزيل عن الأشجار ماعلِق بها من الغبار، لينفُذ الغذاء إلى مسامّها فيكون ذلك رياضة للشجر والزرع كرياضة الحيوان .

(فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه) أى فأنزلنا من السحاب مطرا فأسقيناكم ذلك المطر لشرب زرعكم ومواشيكم ، وفى ذلك استقامة أمور معايشكم، وتدبير شئون حياتكم إلى حين كما قال : « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ » .

(وما أنتم له بخازنين) أى ولستم بخازنى الماء الذى أنزلناه ، فتمنعوه من أن أسقيه من أشاء ، لأن ذلك بيدى وهو خاضع لسلطانى ، إن شئت حفظتُه على سطح الأرض، وإن شئت غار فى باطنها وتخلل طبقاتها ، فلا أُبقِى منه شيئا ينفع الناس والحيوان ، ويسقى الزرع الذى عليه عماد حياتكم .

والخلاصة — نحن القادرون على إيجاده وخزنه فى السحاب وإنزاله ، وما أنتم على ذلك بقادرين .

وبعد أن ذكر نظم المعيشة فى هذه الحياة ذكر إحياء الإنسان وإماتته فقال :

(وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون) أى وإنا لنحيي من كان ميتا إذا أردنا ، ونميت من كان حيا إذا شئنا، ونحن نرث الأرض ومن عليها، فنميتهم جميعا ولا يبقى حىّ سوانا ، ثم نبعثهم كلهم ليوم الحساب ، فيلاقى كل امرئ جزاء ماعمل إن خيرا وإن شرا .

ثم أقام الدليل على إمكان ذلك وأثبت قدرته عليه فقال :

(ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين) أى ولقد علمنا من مضى منكم وأحصيناهم وما كانوا يعملون ، ومن هو حى ومن سيأتى بعدكم ، فلا تخفى علينا أحوالكم ولا أعمالكم ، فليس بالعسير علينا جمعكم يوم التناد للحساب والجزاء يوم ينفخ فى الصور كما قال :

(وإن ربك هو يحشرهم) فيجمع الأولين والآخرين عنده يوم القيامة ، من أطاعه منهم ومن عصاه ، ويجازى كلا بما عمل ، بحسب ما وضع من السنن ، وقدّر من ارتباط المسببات بأسبابها ، وجعل لكل عمل جزاء له .

ثم أكد هذا وزاده إيضاحا فقال :

(إنه حكيم عليم) أى إنه تعالى باهر الحكمة واسع العلم ، فهو يفعل ما يشاء على مقتضى الحكمة والعدل ، وما يؤيده من سعة العلم والفضل .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧) وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤) وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ

اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢) وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤) .

تفسير المفردات

صلصال : أى طين يابس يصلصل ويصوّت إذا نُقِر وهو غير مطبوخ ، فإذا طبخ فهو فَخَّار ، وحمإ : أى طين تغير واسودّ من مجاورة الماء له واحدته حمأة ، ومسنون : أى مصوّر مفْرَغ على هيئة الإنسان كالجواهر المذابة التى تصب فى القوالب . والجانّ : أى هذا الجنس كما أن الإنسان يراد به ذلك ، فإذا أريد بالإنسان آدم أريد بالجان أبو الجن، ونار السموم : هى النار الشديدة الحرارة التى تقتل وتنفذ فى المسامّ ، بشرا : أى إنسانا وسمى بذلك لظهور بشرته أى ظاهر جلده ، سويته: أى أتممت خلقه وهيَّأته لنفخ الروح فيه، والنفخ : إجراء الريح من الفم أو غيره فى تجويف جسم صالح لإمساكها والامتلاء بها، ويراد به هنا إضافة ما به الحياة على المادة القابلة لها، ورجيم : أى مرجوم مطرود من كل خير وكرامة ، اللعنة : الإبعاد على سبيل السخط؛ يوم الدين: أي يوم الجزاء ، فأنظرنى: أى أمهلنى وأخرنى ولا تمتنى ، ويوم الوقت المعلوم : هو وقت النفخة الأولى حين تموت الخلائق كما روى عن ابن عباس ، والإغواء : الإضلال ، هذا صراط علىّ : أى هذا صراط حق لابد أن أراعيه ؛ مستقيم أى لا انحراف فيه فلا يُعْدَل عنه إلى غيره ، والسلطان : التسلط والتصرف بالإغواء ، سبعة أبواب: أى سبع طبقات، جزء مقسوم: أى فريق معين مفروز من غيره .

الإيضاح

(ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون) أى ولقد خلقنا أول فرد من أفراد الإنسان من طين يابس يصلصل ويصوت إذا نقر ، أسود متغير مفْرَغ فى قالب ليجفّ وييبس كالجواهر المذابة التى تُصَبّ فى القوالب .

ونحو الآية قوله : « خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ » وقد جاء «خلق آدم على أطوار مختلفة فكان أولا ترابا » كما قال : « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ » ثم كان طينا كما قال : « إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ » ثم كان صلصالا من حمأ مسنون كما جاء فى هذه الآية وإنما خلقه على ذلك الوضع ، ليكون خلقه أعجب وأتم فى الدلالة على القدرة .

(والجانّ خلقناه من قبل من نار السموم) أى وخلقنا هذا الجنس من قبل خلق آدم من نار الريح الحارة التى لها لَفْح وتقتل من أصابته .

وعن ابن مسعود: هذه السموم جزء من سبعين جزءا من السموم التى خلق منها الجان ثم قرأ : (والجان خلقناه من قبل من نار السموم) وقد ورد فى الصحيح «خلقتْ الملائكة من نور ، وخلقت الجان من مارج من نار ، وخَلق آدم مما وُصِف لكم »

وفى الآية إيماء إلى شرف آدم عليه السلام وطيب عنصره وطهارة محتِده ، وعلينا أن نؤمن بأن الجن خلقت من النار ، ولكنا لا نعرف كنه ذلك ولا حقيقته ، فذلك ما لا سبيل إلى معرفته إلا من طريق الوحى .

وبعد أن ذكر سبحانه فى معرض الدليل على قدرته — خلق الإنسان الأول ، ذكر بعد مقاله للملائكة والجن بشأنه فقال :

(وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمأ مسنون . فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين . فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين . قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون) أى واذكر أيها الرسول لقومك حين نوّه ربكم بذكر أبيكم آدم فى ملائكته قبل خلقه ، وتشريفه بأمر الملائكة بالسجود له ، وتخلف إبليس عدوه عن السجود له من بين سائر الملائكة حسداً وعناداً واستكبارا بالباطل فقال : «لم أكن لأسجد» الخ .

وحكى عنه فى آية أخرى أنه قال : « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » .

وتقدم هذا القصص فى سورة الأعراف وقلنا هناك : إن الأمر بالسجود أمر تكليفى ، وأنه قد وقع حوار بين إبليس وربه ، ويرى كثير من العلماء أن القصة بيان لغرائز البشر والملائكة والشيطان، إذ جعل الملائكة وهم المدبرون لأمور الأرض بإذن ربهم مسخرون لآدم وذريته ، وجعل هذا النوع مستعدا للانتفاع بالأرض كلها لعلمه بسنن الله فيها وعمله بهذا السنن ، فانتفع بمائها وهوائها ومعادنها و نباتها وحيوانها وكهربائها ونورها ، وبذا أظهر حكمة الله فى خلقها ، واصطفى بعض أفراده وخصهم بوحيه ورسالته وجعلهم مبشرين ومنذرين ، وجعل الشيطان عاصيا متمردا على الإنسان وعدوًّا له ، وجعل النفوس البشرية وسطا بين النفوس الملكية المفطورة على طاعة الله وإقامة سننه فى صلاح الخلق ، وبين أرواح الجن الذين يغلب على شرارهم ـ الشياطين ـ التمرد والعصيان .

وقد ذكر سبحانه حجاج إبليس وذكر سبب امتناعه عن السجود لآدم بأنه خير منه ، فإنه خلق من النار وآدم من الطين ، والنار خير من الطين وأشرف منه ، والشريف لا يعظّم مَن دونه ولو أمره ربه بذلك .

وفى هذا ضروب من الجهالة وأنواع من الفسق والعصيان فإنه :

(١) اعترض على خالقه بما تضمنه جوابه .

(٢) احتج عليه بما يؤيد به اعتراضه .

(٣) إنه جعل امتثال الأمر موقوفا على استحسانه وموافقته لهواه ، وهذا رفض لطاعة الخالق وترفّع عن مرتبة العبودية .

(٤) استدلاله على خيريته بالمادة التى منها التكوين ، وخيرية المواد بعضها على بعض أمر اعتبارى تختلف فيه الآراء ، إلى أن الملائكة خُلِقوا من النور وهو قد خلق من النار ، والنور خير من النار ، وهم قد سجدوا امتثالا لأمر ربهم .

(ه) إنه قد جهل ما خُصَّ به آدم من استعداده العلمى والعملى أكثر من سواه، ومن تشريفه بأمر الملائكة بالسجود له، فكان بذلك أفضل منهم وهم أفضل من إبليس بعنصر الخلقة والطاعة لربهم.

(قال فاخرج منها فإنك رجيم. وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين. قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون. قال فإنك من المنظرين. إلى يوم الوقت المعلوم) أمره سبحانه أمرا كونيا لا يخالَف بالخروج من المنزلة التى كانت فيها من الملأ الأعلى، ثم جعله مرجوما مطرودا وأتبعه لعنة لا تزال متواصلة لا حقة به متواترة عليه إلى يوم القيامة، وهو يُبْعث الخلق من قبورهم، فيحشرون لموقف الحساب وهو وقت النفخة الأولى، فلما تحقق النَّظِرة.

(قال رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين. إلا عبادك منهم المخلصين) أى قال إبليس: رب بسبب إغوائك إياى وإضلالى لأزينن لذرية آدم وأحببنّ إليهم المعاصى وأرغّبنّهم فيها ولأغْويَنَّهم كما أغويتنى وقدّرت علىّ ذلك إلا من أخلص منهم لطاعتك، ووفقته لهدايتك، فإن ذلك ممن لا سلطان لى عليه ولا طاقة لى به.

ثم هدده سبحانه وأوعده بقوله:

(قال هذا صراط علىّ مستقيم) أى قال هذا طريق مرجعه إلىّ، فأجازى كل امرئ بعمله، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، كما يقول القائل لمن يتوعده ويتهدده: طريقك علىّ. وأنا على طريقك: أى لا مهرب لك منى، ونظير الآية قوله تعالى: «إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ».

وهذا رد لما جاء فى كلام إبليس حيث قال: «لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ. ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ» الآية.

(إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين) أى إن عبادى

لا سلطان لك على أحد منهم سواء أكانوا مخلصين أم غير مخلصين ، لكن من اتبعك باختياره صار من أتباعك .

وقال سفيان بن عيينة : ليس لك عليهم قوة ولا قدرة على أن تلقيهم فى ذنب يضيق عنه عفوى .

والخلاصة — إن إبليس أوهم أن له على بعض عباد الله سلطانا بقوله لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين ، فأكذبه الله بقوله إن عبادى الخ .

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عن إبليس : « وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي » وقوله « إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ » .

(وإن جهنم لموعدهم أجمعين) أى وإن جهنم موعد جميع من اتبع إبليس وهى مقرهم وبئس المهاد جزاء ما اجترحوا من السيئات وكفاء ما دنّسوا به أنفسهم من قبيح المعاصى .

(لها سبعة أبواب) أى لها سبع طبقات ينزلونها بحسب مراتبهم فى الغواية والضلالة .

أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما أنها : جهنم والسعير ولظى والحُطَمة وسقر والجحيم والهاوية وهى أسفلها .

(لكل باب منهم جزء مقسوم) أى كتب لكل باب منها فريق معين من أتباع إبليس يدخلونه ولا محيد لهم عنه بحسب أعمالهم واختلاف مراتبهم فى النار .

قال ابن جُرَيج : النار سبع دركات وهى جهنم ثم لظى ثم الحُطَمة ثم السعير ثم سقر ثم الجحيم ثم الهاوية ؛ فأعلاها للعصاة الموحدين ، والثانية لليهود ، والثالثة للنصارى ، والرابعة للصابئين ، والخامسة للمجوس ، والسادسة للمشركين ، والسابعة للمنافقين ، فجهنم أعلى الطبقات ثم ما بعدها تحتها وهكذا .

وروى عن ابن عباس أن جهنم لمن ادعى الربوبية ، ولظى لعبدة النار ، والحطمة لعبدة الأصنام ، وسقر لليهود ، والسعير للنصارى ، والجحيم للصابئين، والهاوية للموحدين العصاة ، وهؤلاء يُرْجَى لهم ولا يرجى لغيرهم أبدا . وليس فى هذا أثر مرفوع يمكن أن يركن إليه ويجعل حجة فيه .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) اُدْخُلوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِين (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨) .

تفسير المفردات

المتقون : هم الذين اتقَوْا الكفر والفواحش ولهم ذنوب من الصغائر تكفرها الصلوات وغيرها ، جنات : أى بساتين ، وعيون: أى أنهار جارية ، بسلام : أى بسلامة من الآفات ، وأمن من المخافات ، والغل : الحقد الكامن فى القلب ، والسرر : واحدها سرير وهو مجلس رفيع مهيأ للسرور ، والنصب : الإعياء والتعب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه حال أهل الغواية ، وبين أنهم فى نار جهنم يخلّدون فيها أبدا، وأنهم يكونون فى طبقات بعضها أسفل من بعض ، بمقدار ما اجترحوا من السيئات ، واقترفوا من المعاصى ــ أردفه ذكر حال أهل الجنة وما يتمتعون به من نعيم مقيم ، ووفاق بعضهم مع بعض ، لا ضِغْن بينهم ولا حقد ، وهم يتحدثون على سرر متقابلين ولا يجدون مس التعب والنصب ، ولا يخرجون منها أبدا .

الإيضاح

(إن المتقين فى جنات وعيون) أى إن الذين اتَّقَوْا الله وخافوا عقابه ، فأطاعوا أوامره واجتنبوا نواهيه — يمتعون فى جنات تجرى من تحتها الأنهار كما قال : « مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ » الآية .

(ادخلوها بسلام آمنين) أى ويقال لهم : ادخلوها وأنتم سالمون من الآفات والمنغصات ، آمنون من سلب تلك النعم التى أنعم بها ربكم عليكم وأكرمكم بها ، ولا تخافون إخراجا ولا فناء ولا زوالا .

(ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين) أى وأخرجنا ما فى صدور هؤلاء المتقين الذين ذكرت صفتهم — من الحقد والضغينة من بعضهم لبعض .

روى القاسم عن أبى أمامة قال : يدخل أهل الجنة الجنةَ على ما فى صدورهم فى الدنيا من الشحناء والضغائن ، حتى إذا توافَوْا وتقابلوا نزع الله ما فى صدورهم فى الدنيا من غل ثم قرأ : (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن على كرم الله وجهه أنه قال لابن طلحة : إنى لأرجو أن أكون أنا وأبوك من الذين قال الله تعالى (ونزعنا ما فى صدورهم) الآية . فقال رجل من همدان : إن الله سبحانه أعدل من ذلك ، فصاح علىّ صيحة تداعى لها القصر ، وقال . فمن إذاً إن لم نكن نحن أولئك .

والخلاصة — إن الله طهّر قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات فى الجنة ونزع منها كل غل وألقى فيها التوادّ والتحاب والتصافى .

والمراد بكونهم على سرر متقابلين أنهم فى رفعة وكرامة .

وقد روى أن الأسرّة تدور بهم حيثما داروا ، فهم فى جميع أحوالهم متقابلين ، لا ينظر بعضهم إلى أقفية بعض ، وهم يجتمعون ويتنادمون ويتزاورون ويتواصلون .

(لا يمسهم فيها نصب) أى لا يلحقهم فى تلك الجنات مشقة ولا أذى ، لأنهم ليسوا فى حاجة إلى ما يوجب ذلك من السعى فى تحصيل ما لا بدّ لهم منه ، لحصول كل ما يشتهون من غير مزاولة عمل .

روى الشيخان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله أمرنى أن أبشِّر خديجة ببيت فى الجنة من قَصَبٍ لا صخَبَ فيه ولا نَصَبَ .

(وما هم منها بمخرجين) أى وهم خالدون فيها أبدا لا يبرحونها ، يشعرون بلذة النعيم ودوامه ، فهم فى خلود بلا زوال ، وكمال بلا نقصان ، وفوز بلا حرمان .

والخلاصة — إن المسرة بالنعيم لا تتم إلا إذا توافرت فيه أمور :

(١) أن يكون مقرونا بالتعظيم ، وإلى ذلك الإشارة بقوله . (ادخلوها بسلام آمنين) .

(٢) أن يكون خالصا من شوائب الضرر ، روحانية كانت كالحقد والحسد والغضب ، وإلى ذلك الإشارة بقوله (ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا) أو جسمانية كالإعياء والتعب ، وإلى ذلك الإشارة بقوله (لا يمسهم فيها نصب) .

(٣) أن يكون دائما غير قابل للزوال ، وإلى ذلك الإشارة بقوله (وما هم منها بمخرجين) .

نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠) وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢) قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣) قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ

إِلاَّ الضَّالُّونَ (٥٦) قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧) قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا
إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨) إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩) إِلاَّ امْرَأَتَهُ
قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠) فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ
إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٦٢) قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣)
وَآتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ
أَدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) وَقَضَيْنَا
إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هٰؤُلاَءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (٦٦) وَجَاءَ أَهْلُ
الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧) قَالَ إِنَّ هٰؤُلاَءِ ضَيْفِي فَلاَ تَفْضَحُونِ (٦٨)
وَاتَّقُوا اللهَ وَلاَ تُخْزُونِ (٦٩) قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ؟ (٧٠) قَالَ
هٰؤُلاَءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢)
فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ
حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ ؟ (٧٥) وَإِنَّهَا
لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ
الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ (٧٨) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (٧٩) وَلَقَدْ
كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا
مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ
الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤) ·

تفسير المفردات

تقول: أنبأت القوم إنباء ونبّأتهم تنبئة : إذا أخبرتهم ، والأفصح فى كلمة الضيف: ألا تثنى ولا تجمع حين تستعمل للمثنى والجمع والمؤنث بل تستعمل بلفظ واحد لكل ذلك ، والوجل : اضطراب النفس لخوفها من توقع مكروه يصيبها ، عليم : أى ذى علم كثير ، بالحق : أى بالأمر المحقق الذى لا شك فى وقوعه ، وقَنِط من كذا : أى يئس من حصوله والضالون : الكفار الذين لا يعرفون كمال قدرته تعالى وسعة رحمته ، وخطبكم : أى أمركم وشأنكم الذى لأجله أُرْسِلْتم ، قدرنا: أى قضينا وكتبنا؛ يقال قضى الله عليه كذا وقدّره عليه : أى جعله على مقدار الكفاية فى الخير والشر ، وقدر الله الأقوات : جعلها على مقدار الحاجة ، والغابرين : أى الباقين مع الكفار ليهلكوا معهم ، وأصله من الغبرة وهى بقية اللبن فى الضَّرْع ، منكرون : أى لا أعرفكم ولا أعرف من أىّ الأقوام أنتم ؟ ولأى غرض دخلتم علىّ ؟ ويمترون : أى يشكّون ويكذبون به ، فأسر بأهلك : أى اذهب بهم ليلا ، والقطع من الليل : الطائفة منه كما قال :

افتحى الباب وانظرى فى النجوم　　　كم علينا من قِطْع ليل بهيم

اتبع أدبارهم : أى كن على إثرهم لتسرع بهم وتطّلع على أحوالهم، وقضينا : أى أوحينا ، ودابر : آخر ، ومقطوع : أى مهلك مستأصل ، مصبحين : أى فى وقت الصباح ، والمدينة : هى سَذُوم (بالذال المعجمة) مدينة قوم لوط ، والاستبشار : إظهار السرور ، والفضيحة : إظهار ما يوجب العار ، والخزى : الذل والهوان ، والعَمْر والعُمْر (بالفتح والضم) : الحياة ، وهو حين القسم بالفتح لاغير ، سكرتهم : غوايتهم : يعمهون أى يتحيرون ، والصيحة : الصاعقة ، وكل شىء أهلك به قوم فهو صيحة وصاعقة أخرجه ابن المنذر عن ابن جرير ، ومشرقين : أى داخلين فى الشروق وهو بزوغ الشمس ، والسجيل : الطين المتحجر وهو معرّب لا عربى فى المشهور ، للمتوسمين :

أى المتفرسين الذين يتثبتون فى نظرهم ليعرفوا سمة الشىء وعلامته ، يقال توسمت فى فلان خيرا : أى ظهرت لى منه علاماته ، قال عبد الله بن رواحة يمدح النبى صلى الله عليه وسلم :

إنى توسمت فيك الخير أعرفه والله يعلم أنى ثابت البصر

لبسبيل مقيم : أى لبطريق واضح مُعْلَم ليس بخفى ولا زائل ، وأصحاب الأيكة : قوم شعيب عليه السلام ، والأيكة : الغيضة ، وهى الشجر الملتف بعضه على بعض وقد كانوا فى مكان كثير الأشجار كثيف الغبار ، لبإمام مبين : أى لبطريق واضح وأصل الإمام ما يؤتم به سمى به الطريق لأنه يُؤْتم ويتّبع ، وأصحاب الحجر: هم ثمود ، والحجر : واد بين المدينة والشام كانوا يسكنونه ، ويسمى كل مكان أحيط بالحجارة حجرا ومنه حجر الكعبة ، وآياتنا : هى الناقة وفيها آيات كثيرة كعظم خلقها ، وكثرة لبنها ، وكثرة شربها ، والإمام : ما يؤتم به ومن جملة ذلك الطريق التى تُسْلَك .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أوعد به أهل الغَواية فى يوم القيامة من دخول جهنم ، وذكر أنها دركات لأولئك الغاوين بحسب اختلاف أحوالهم بمقدار ما دنّسوا به أنفسهم من اتخاذ الانداد والشركاء وارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ثم أعقبه بذكر ما أعدّ لعباده المؤمنين من الجنات والعيون والنعيم المقيم والراحة التى لا نصب بعدها ولا تعب ، وجلوس بعضهم مع بعض ، يتنادمون ويتجاذبون أطراف الأحاديث، وهم فى سرور وحبور على سرر متقابلين — أردف ذلك فذلكة وخلاصة لما سبق ، فأمر نبيه أن يبلغ عباده أنه غفار لذنوب من تابوا وأنابوا إلى ربهم ، وأن عذابه مؤلم لمن أصرّوا على المعاصى ولم يتوبوا منها ، ثم فصل ذلك الوعد والوعيد فذكر البشارة لإبراهيم بغلام عليم ، وذكر إهلاك قوم لوط بما اجترحوا من كبرى الموبقات ، وفظيع الجنايات ، بفعلهم فاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين ، حتى

صاروا كأمس الدابر ، وأصبحوا أثرا بعد عين ، وإهلاك أصحاب الأيكة قوم شعيب جزاء ظلمهم بشركهم بالله ونقصهم للمكاييل والموازين ، فانتقم الله منهم بعذاب يوم الظلة ، وإهلاك أصحاب الحجر وهم ثمود الذين كذبوا صالحا وكانوا ذوى حَوْل وطَوْل ، وغنى ومال ، وقوة وبطش ، فأعرضوا عن آيات ربهم حينما جاءتهم على يدى رسوله ، فأخذتهم الصيحة وقت الصباح ولم يغن عنهم مالهم من دون الله شيئا حين جاء أمره .

أخرج ابن جرير وابن مردويه من طريق عطاء بن أبى رباح عن رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم قال : « طلع علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الباب الذى يدخل منه بنو شيبة فقال : (ألا تراكم تضحكون) ثم أدبر حتى إذا كان عند الحجر رجع إلينا القَهْقَرَى فقال : إنى لما خرجت من الباب جاء جبريل عليه السلام فقال يا محمد إن الله يقول لك : لِمَ تُقْنِطُ عبادى (نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم . وأن عذابى هو العذاب الأليم) » .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنه قال فى قوله (نبئ عبادى) الآية : بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو يعلم العبد قدر عفو الله لما تورّعَ من حرام ، ولو يعلم العبد قدر عذاب الله لَبَخَع نفسه » .

وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله سبحانه خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة ، فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة ، وأرسل فى خلقه كلهم رحمة واحدة ، فلو يعلم الكافر كل الذى عنده من رحمة لم ييأس من الرحمة ، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله تعالى من العذاب لم يأمن من النار » .

الإيضاح

(نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم) أى أخبر أيها الرسول عبادى أنى أنا الذى أستر ذنوبهم إذا تابوا منها وأنابوا ، بترك فضيحتهم بها وعقوبتهم عليها ، الرحيم بهم أن أعذبهم بعد توبتهم منها .

وفى قوله (نبئ عبادى) إيماء إلى أنه ينبئ كل من كان معترفا بعبوديته ، فيشمل ذلك المؤمن المطيع والعاصى ، وغير خاف ما فى ذلك من تغليب جانب الرحمة من قبله تعالى على جانب العقاب .

(وأن عذابى هو العذاب الأليم) أى وأخبرهم أيضا بأن عذابى لمن أصر على معاصىّ وأقام عليها ولم يتب منها ــ هو العذاب المؤلم الموجع الذى لا يشبهه عذاب آخر . وفى هذا تهديد شديد وتحذير لخلقه أن يقدُموا على معاصيه ، ومن الأمر لهم بالإنابة والتوبة .

والخلاصة — إن الله جمع لعباده بين التبشير والتحذير ، ليكونوا على قدمى الرجاء والخوف ، وحال الأنس والهيبة .

ثم ذكر سبحانه قصصا تقدم مثله بأسلوب آخر فى سورة هود وبدأ بقصص إبراهيم عليه السلام فقال :

(ونبئهم عن ضيف إبراهيم إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما) أى أخبر عبادى عن ضيوف إبراهيم خليل الرحمن وهم الملائكة الذين أرسلهم الله إلى قوم لوط ليستأصلوا شأفتهم ويبيدوهم على ظلمهم ، فقالوا حين دخلوا عليه سلاما : أى سَلِمتَ من الآفات والآلام سلاما .

(قال إنا منكم وجلون) أى قال إبراهيم للضيف : إنا خائفون منكم ، لأنهم دخلوا عليه بلا إذن وفى وقت لا يجىء فى مثله طارق ، أو لأنه حين قرّب إليهم العجل الحنيذ لم يأكلوا منه ، والضيف إذا لم يأكل مما يقدم له من الطعام يُظَنّ أنه لم يأت لخير ، ويؤيد هذا قوله فى سورة هود : « فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً » .

(قالوا لا توجل) أى قال الضيف لإبراهيم : لا تخف ولا يحُمْ حول ساحتك الخوف والهَلَع .

ثم عللوا النهى عن الوجل بقولهم :

(إنا نبشرك بغلام عليم) أى إنا جئناك بالبشرى بغلام ذى علم وفِطْنة وفهمٍ لدين الله ، وسيكون له شأن ، لأنه سيصير نبيا .

ونحو الآية قوله : « وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا » .

ثم قال إبراهيم متعجبا من مجىء ولد من شيخ وعجوز :

(أبشرتمونى على أنْ مسنى الكبر ؟) أى أبشرتمونى بذلك مع مس الكبر وتأثيره فى ، وتلك حال تنافى هذه البشرى .

(فبم تبشرون) أى فبأى أعجوبة تبشرون ؟ إذ لا سبيل فى العادة إلى مثل ذلك ، وكأنه عليه السلام أراد أن يعرف : أيُعْطَى هذا الولد مع بقائه على حاله من الشيخوخة التامة ، أو يُرْجَع شابا ثم يعطى الولد ، لما جرت به العادة من أن الولد لا يكون إلا حين الشباب .

فأجابوه مؤكدين ما بشروه به ، تحقيقا لما قالوا وليكون بشارة بعد بشارة :

(قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين) أى قال ضيف إبراهيم له : بشرناك بما يكون حقا ، وإنا لنعلم أن الله قد وهب لك غلاما ، فلا تكن من الذين يقنطون من فضل الله فييأسوا من خرق العادة ، بل أبْشِر بما بشرناك به واقبل البشرى .

والخلاصة — إنه عليه السلام استعظم نعمة الله عليه ، فاستفهم هذا الاستفهام التعجبى المبنى على السنن التى أجراها الله بين عباده ، لا أنه استبعد ذلك على قدرة الله ، فهو أجلّ من ذلك قدرا ، ويؤيد هذا جوابه عليه السلام .

(قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) أى قال إبراهيم للضيف : لا ييأس من رحمة الله إلا من أخطأ سبيل الصواب ، وغفل عن رجاء الله الذى لا يخيب من رجاه ، فضلّ بذلك عن الرأى القيّم ، وهذا كقول يعقوب : « لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ » .

وخلاصة مقاله — إنه نفى القنوط عن نفسه على أتم وجه ، فكأنه قال : ليس بى قنوط من رحمته تعالى ، لكن حالى تنافى فيض تلك النعم الجليلة التى غمرنى بها ، وتوالى المكرمات التى شملت آل هذا البيت .

و بعد أن تحقق عليه السلام مصداق هذه البشرى ورأى أنهم أتوا مختفين على غير ما عهد عليه ملك الوحى ؟ سألهم عن أمرهم ليزول عنه الوجل .

(قال فما خطبكم أيها المرسلون) أى قال لهم : ما الأمر العظيم الذى جئتم لأجله سوى البشرى ؟ وكأنه عليه السلام فهم من مجرى حديثهم فى أثناء الحوار أن ليست هذه البشرى هى المقصودة، بل لهم شأن آخر لأجله أرسلوا . لأنهم كانوا عددا والبشارة لا تحتاج إلى مثل هذا العدد ، ومن ثم اكتفى بالواحد فى بشارة زكريا ومريم عليهما السلام ؛ وأيضا لو كانت البشارة هى المقصودة لابتدءوا بها ، فأجابوه :

(قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين) أى قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين من قوم لوط ، واكتفوا بهذا القدر من الجواب ، لأن إبراهيم يعلم أن الملائكة إذا أرسلوا إلى المجرمين كان ذلك لهلاكهم و إبادتهم . ومما يرشد إلى هذا الفهم قولهم :

(إلا آل لوط إنا لمنجوهم أجمعين) أى إلا أتباع لوط فى الدين فلن نهلكهم ، بل ننجيهم من العذاب الذى أمرنا أن نعذب به قوم لوط .

(إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين) أى لا نهلك آل لوط وأتباعه إلا امرأته فقد قضى الله أنها من الباقين مع الكفرة ، ثم هى مهلكة بعد ذلك معهم ، وقد أضاف الملائكة هذا التقدير إلى أنفسهم مع أنه لله تعالى ، بيانا لمزيد قربهم من ربهم ، واختصاصهم به تعالى كما يقول خاصة الملك : دبّرنا كذا وأمرنا بكذا ، والمدبر الآمر هو الملك .

و بعد أن بشّروا إبراهيم عليه السلام بالولد وأخبروه بأنهم مرسلون بعذاب قوم مجرمين — ذهبوا إلى لوط وآله كما قال سبحانه .

(فلما جاء آل لوط المرسلون ، قال إنكم قوم منكرون) أى فلما خرج المرسلون من عند إبراهيم وجاءوا قرية لوط أنكرهم لوط ولم يعرفهم وقال لهم : من أى الأقوام أنتم ، ولأى غرض جئتم ؟ وإنى أخاف أن تمسونى بمكروه .

ونحو الآية قوله : « وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا »

وإنما قال هذه المقالة ، لأنه لم يشاهد من المرسلين حين مقاساة الشدائد ومعاناة المكايد من قومه الذين يريدون بهم ما يريدون — إعانة ولا مساعدة فيما يأتى وما يذر حين تجشم الأهوال فى تخليصهم ، فأنكر خذلانهم له ، وتركهم نصره حين المضايقة التى حلت به بسببهم حتى اضطر إلى أن يقول : « لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ » كما جاء فى سورة هود .

(بل جئناك بما كانوا فيه يمترون) أى قال له الرسل : ما جئناك بما خطر ببالك من المكروه ، بل بما فيه سرورك وهو عذابهم الذى كنت تحذرهم منه وهم يكذبونك فيه قبل مجيئه ، فأنى لك بعد هذا أن تعتريك مساءة وضيق ذرع ؟

وخلاصة ما أرادوا أن يقولوا — ماخذلناك ، وما خلّينا بينك وبينهم ، بل جئناك بما يدمّرهم ويهلكهم ، من العذاب الذى كنت تتوعدهم به وهم يكذبونك .

واختاروا هذا الأسلوب ولم يقولوا جئناك بعذابهم لإفادة ذلك شيئين : تحقق عذابهم وتحقق صدقه عليه السلام بعد أن كابد منهم كثيرا من الإنكار والتكذيب .

(وأتيناك بالحق وإنا لصادقون) أى وجئناك بالأمر المحقق المتيقن الذى لامجال فيه للامتراء والشك ، وهو العذاب الذى كُتِبَ وقُدِّر لقوم لوط ، وإنا لصادقون فيما أخبرناك به .

ثم شرعوا يرتبون له مبادئ النجاة قبل حلول العذاب بقومه فقالوا له :

(فأسر بأهلك بقطع من الليل) أى فسِرْ بأهلك ببقية من الليل ، وأهله على ما رُوِى هما ابنتاه .

(واتبع أدبارهم) أى وكن من وراء أهلك الذين تسرى بهم ، وعلى إثرهم تذود عنهم ، وتسرع بهم ، وتراقب أحوالهم ، حتى لا يتخلّف منهم أحـــد لغرض ، فيصيبه العذاب .

(ولا يلتفت منكم أحد) فيرى ما ينزل بقومه فيرق قلبه لهم ، وليوطن نفسه على الهجرة ، و يطيب نفسا بالانتقال إلى المسكن الجديد .

ثم أكدوا هذا النهى بقولهم (وامضوا حيث تؤمرون) أى وامضوا حيث يأمركم ربكم غير ملتفتين إلى ماوراءكم كالذى يتحسر على مفارقة وطنه، فلا يزال يلوى له أخادعه كما قال أبو تمام :

تلفتُّ نحو الحىّ حتى وجدتُنى وجِعت من الإصْغاء لِيتاً وأَخْدَعا

والخلاصة — إنهم أُمِروا بمواصلة السير ونُهُوا عن التوانى والتوقف ليكون ذلك أقطع للعوائق ، وأحق بالإسراع للوصول إلى المقصد الحقيقى وهو بلاد الشام .

ثم بين العلة فى الأمر بالإسراء السريع فقال :

(وقضينا إليه ذلك الأمر) أى وأوحينا إليه أن ذلك الأمر مقضى مبتوت فيه :

ثم فصّل ذلك الأمر فقال :

(إن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) أى إن آخر قومك وأولهم مجذوذ مستأصل صباح ليلتهم ، ولا يبقى منهم أحد

ونحو الآية قوله : « فَقُطِـعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الذِينَ ظَلَمُوا » .

ثم شرع يذكر ما صدر من القوم حين علموا بقدوم الأضياف وما ترتب عليه مما أشير إليه أولا على سبيل الإجمال فقال :

(وجاء أهل المدينة يستبشرون) أى وجاء أهل سذوم حين سمعوا أن ضيفا قد ضافوا لوطا ـ مستبشرين بنزولهم مدينتهم طمعا فى ركوب الفاحشة منهم .

وفى هذا إيماء إلى فظاعة فعلهم ، إذ هم خالفوا ما جرى به العرف ، ورُكب فى الأذواق السليمة ، من إكرام الغريب وحسن معاملته ، وقصدوا بهم الفاحشة التى لم يسبقهم بها أحد من العالمين .

روى أن امرأة لوط أخبرتهم بأنه نزل بلوط ثلاثة من المُرْد ما رأينا قط أصبح منهم وجها ولا أحسن شكلا ، فذهبوا إلى دار لوط طلبا لهم ، مظهرين اغتباطا وسرورا بهم .

ثم أخبر عن مقالة لوط لقومه حين رآهم يقصدون بهم السوء .

(قال إن هؤلاء ضيفى فلا تفضحون) أى قال لوط لقومه : إن هؤلاء الذين جئتموهم تريدون منهم الفاحشة ضيفى ، وحقٌّ على الرجل إكرام ضيفه ، فلا تفضحونى فيهم ، وأكرمونى بترك التعرض لهم بمكروه .

ثم زاد النهى توكيدا بقوله :

(واتقوا الله ولا تخزون) أى وخافوا الله فىّ وفى أنفسكم أن يحل بكم عقابه ، ولا تهينونى فيهم بالتعرض لهم بالسوء ، وهذه الجملة آكد فى الغرض من سابقتها ، إذ التعرض للجار بعد حمايته والذبّ عنه أجلب للعار ، ومن ثم عبر عن لجاجهم ومجاهرتهم بمخالفته بالخزى ، وأمرهم بتقوى الله فى ذلك .

فأبانوا له أنه السبب فى الفضيحة وفى هذا الخزى :

(قالوا أولم ننهك عن العالمين ؟) أى قال قومه له : أولم ننهك أن تضيف أحدا من العالمين أو تؤويه فى قريتنا ؟ إذ هم كانوا يتعرضون لكل غريب بالسوء ، وكان لوط ينهاهم عن ذلك على قدر حوله وقوته ويحول بينهم وبين من يَعْرِضون له ، وكانوا قد نهَوْه عن التعرض لهم فى مثل ذلك .

وخلاصة مقالهم — إن ماذكرت من الخزى والفضيحة أنت مصدره ، والجالب له ، فلولا تعرضك لنا ، ما أصابك ما أصابك .

ولما رآهم متمادين فى غيّهم ، لا يرعَوون عن غَوايتهم ، ولا يُقْلِعون عما هم عليه .

(قال هؤلاء بناتى إن كنتم فاعلين) أى قال لوط لقومه : تزوجوا النساء ولا تفعلوا ماقد حرم الله عليكم من إتيان الرجال إن كنتم فاعلين ما آمركم به ، منتهين إلى أمرى ، وقد سمى نساء قومه بناته ، لأن رسول الأمة كالأبّ لهم كما قال تعالى : « النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ » .

ثم أبان له الرسول أنه لا أمل فى ارعوائهم عن غيهم فقالوا :

(لعمرك إنهم لفى سكرتهم يعمهون) أى قالت الملائكة للوط : وحياتك أيها الرسول إن قومك لفى ضلالتهم التى جعلتهم حيارى لايعرفون ما أحاط بهم من البلاء ، ولا ماذا يصيبهم من العذاب المنتظر ، لما أصابهم من عمى البصيرة ، فهم لايميزون الخطأ من الصواب ، ولا الحسن من القبيح

ثم ذكر سبحانه عاقبة أمرهم فقال .

(فأخذتهم الصيحة مشرقين) أى فنزل بهم العذاب المنتظر ، وأخذتهم الصاعقة وقت الشروق ، وكان ابتداؤها من الصبح وانتهاؤها حين الشروق، ومن ثم قال أوّلا مصبحين وقال هنا مشرقين ، وأخذ الصيحة قهرها لهم وتمكنها منهم، ومن ثمّ يقال للأسير أخيذ .

ثم بيّن كيفية أخذها لهم ولقريتهم فقال :

(فجعلنا عاليها سافلها، وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) أى فجعلنا عالى المدينة وهو ماعلى وجه الأرض سافلها فانقلبت عليهم وأمطرنا عليهم أثناء ذلك حجارة من طين متحجر ، وقد تقدم ذكر ذلك فى سورة هود .

وخلاصة ذلك — إنه تعالى أرسل عليهم ثلاثة ألوان من العذاب :

(١) الصيحة المنكرة الهائلة ، والصوت المفزع المخيف .

(٢) إنه قلب عليهم القرية ، فجعل عاليها سافلها .

(٣) إنه أمطر عليهم حجارة من سجيل .

ثم ذكر أن فى هذا القصص عبرة لمن اعتبر فقال :

(إن فى ذلك لآيات للمتوسمين) أى إن فيما فعلناه بقوم لوط من الهلاك والعذاب لدلالات للمفكرين الذين يعتبرون بما يحدث فى الكون من عظات وعبر ، ويستدلون بذلك على ما يكون لأهل الكفر والمعاصى من عقاب بئيس بما كانوا يكسبون .

أخرج البخارى فى التاريخ والترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم وأبو نعيم

وابن مردويه عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله تعالى ، ثم قرأ : إن فى ذلك لآيات للمتوسمين » .

والفراسة على نوعين :

(١) ما يوقعه الله فى قلوب الصلحاء فيعلمون بذلك أحوال الناس بالحَدْس والظن

(٢) ما يحصل بدلائل التجارب والأخلاق .

وقد صنّف الناس فى القديم والحديث كتبا فى ذلك ، وبعض العلماء يجعلها دليلا يحكم به كما فعل إياس بن معاوية (كان قاضيا ذكيا فى عهد التابعين) .

ثم لفت أنظار أهل مكة إلى الاعتبار بها لو أرادوا فقال :

(وإنها لبسبيل مقيم) أى وإن هذه المدينة — مدينة سدوم — التى أصابها ما أصابها من العذاب — لبطريق واضح لا تخفى على السالكين ، فآثارها باقية إلى اليوم لم تندثر ولم تخف ، فالذين يمرون عليها من الحجاز إلى الشام يشاهدون آثارها كما قال فى الآية الأخرى : « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » .

ثم أيأس من اعتبارهم بها ، إذ هى لا يعتبر بها إلا المؤمنون فقال :

(إن فى ذلك لآية للمؤمنين) أى إن فيما فعلناه بقوم لوط من الهلاك والدمار وإنجائنا لوطا وأهله — لدلالة جلية للمؤمنين المصدقين بالله ورسله ، إذ هم يعرفون أن ذلك إنما كان انتقاما من الله لأنبيائه من أولئك الجهال الذين عَصَوْا أمر ربهم ، وكفروا برسله ولم يرعَوُوا عن غيّهم وضلالهم بعد إنذارهم ونصحهم .

أما الذين لا يؤمنون بالله فيجعلون ذلك حوادث كونية ، لأسباب فلكية ، وشؤون أرضية ، جعلت الأرض تنهار لحدوث فراغ فى بعض أجزائها . كما يشاهد اليوم فى البلاد ذات البراكين من اختفاء بلاد فى باطن الأرض وابتلاع الأرض لها كما حدث فى مدينة مسينا بايطاليا سنة ١٩٠٩ ، وظهور جزائر فى وسط المحيطات لم تكن من قبل .

و بعد أن ذكر قصص قوم لوط أتبعه بقصص قوم شعيب عليه السلام فقال :

(وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين) أى وإن أصحاب الأيكة كانوا بجبلّتهم ظالمين كفارا ، ليس لديهم استعداد للإيمان بالله ورسله ، أرسل الله إليهم و إلى أهل مدين شعيبا فكذبوه .

أخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان بعث الله إليهما شعيبا » .

(فانتقمنا منهم) جزاء ما دنسوا به أنفسهم من الكفر والمعاصى .

فسُلِطّ على أصحاب الأيكة الحر سبعة أيام لايُظلِ منه ظِلٌّ ، ولا يمنعهم منه شيء ، ثم أرسلت عليهم سحابة فحلُّوا تحتها يلتمسون الرُّوح منها ، فبعثت عليهم منها نارٌ فاضطرمت عليهم فأكلتهم ، فذلك عذاب يوم الظلة ، إنه كان عذاب يوم عظيم .

وأما أهل مدين فقد أخذتهم الصيحة .

ثم ذكر عز اسمه أنه قد كان من حق قريش أن يعتبروا بهما فقال :

(وإنهما لبإمام مبين) أى وإن مدينة أصحاب الأيكة ومدينة قوم لوط لبطريق واضح يأتمون به فى سفرهم ويهتدون به فى مسيرهم .

ثم ذكر سبحانه قصة صالح فقال :

(ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين) أى ولقد كذبت ثمود نبيهم صالحا عليه السلام ومن كذب رسولا من رسل الله فكأنما كذب الجميع ، لاتفاق كلهم على التوحيد والأصول العامة التى لاتختلف باختلاف الأمم والأزمان .

(وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين) أى وأريناهم حججنا الدالة على نبوة صالح عليه السلام من الناقة وغيرها ، فأعرضوا عنها ولم يعتبروا بها .

(وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا آمنين) من هدمها ونقب اللصوص لها أو تخريب الأعداء لقوة أسرها وبديع إحكامها ، وقد تقدم تفصيل ذلك فى سورة الأعراف .

ثم ذكر ميقات هلاكهم فقال :

(فأخذتهم الصيحة مصبحين) أى فأخذتهم صيحة الهلاك حين كانوا فى ضحوة اليوم الرابع من اليوم الذى أوعدوا فيه بالعذاب كما جاء فى قوله : « فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ » .

(فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) أى فما دفع عنهم مانزل بهم ما كانوا يكسبون من نحت البيوت وجمع الأموال وكثرة العدد وجمع العُدد ، بل خرُّوا جاثمين هَلْكَى حين حل بهم قضاء الله .

وروى البخارى وغيره عن ابن عمر « أن النبى صلى الله عليه وسلم مرّ بالحِجْر وهو ذاهب إلى تبوك ، فقنّع رأسه ، وأسرع براحلته ، وقال لأصحابه : لاتدخلوا بيوت القوم المعذّبين إلا أن تكونوا باكين : فإن لم تبكوا فتباكَوْا خشية أن يصيبكم ما أصابهم » .

وأخرج ابن مردويه عنه قال : « نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عام غزوة تبوك بالحجر عند بيوت ثمود ، فاستقى الناس من مياه الآبار التى كانت تشرب منها ثمود ، وعجنوا منها ونصبوا القدور باللحم ، فأمرهم بإهراق القدور وعلف العجين للإبل : ثم ارتحل عن البئر التى كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُذّبوا وقال : إنى أخشى عليكم أن يصيبكم مثل الذى أصابهم ، فلا تدخلوا عليهم » .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨٦) .

تفسير المفردات

بالحق : أى بالحكمة والمصلحة ، والساعة يوم القيامة ، والصفح : ترك التثريب واللوم ، والصفح الجميل : ما خلا من العتب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى القصص السالف إهلاك الأمم المكذبة لرسلها ، وعذابها بشتى أنواع العذاب ، كفاء ما دنسوا به أنفسهم من فظائع الشرك ، وأنواع المعاصى التى تقوّض دعائم الإخلاص لبارئ النسم ، وتهدّ أركان نظم المجتمع ؛ بعبادة الأصنام والأوثان ، وتطفيف الكيل والميزان ، وإتيان الفاحشة التى تشمئز منها النفوس ، وتنفر منها الأذواق السليمة — أرشد هنا إلى أنهم بعملهم هذا قد تركوا ما قضت به الحكمة والمصلحة ، من خلق السموات والأرض لعبادة خالقها وطاعته واستقرار نظم المجتمع على وجه صالح صحيح ، ودأبوا على عبادة غيره من الأصنام والأوثان ، فكان من العدل تطهير الأرض منهم ، دفعا لشرورهم وإصلاحا لمن يأتى بعدهم .

الإيضاح

(وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) أى وما خلقنا الخلائق ، مما فى الأرض والسماء وما بينهما ، إلا بالعدل والإنصاف لا بالظلم والجور ، فإهلاكنا للأمم التى كذبت رسلها وقصصنا عليك قصصها ، وتعجيل النقمة لهم لم يكن ظلما بل كان عدلا وحكمة .

وفى هذا إيماء إلى أن ما يصيب غيرهم من المكذبين لك من العذاب فى الآخرة فيه عدل ومصلحة للبشر .

ثم هدد العصاة وتوعدهم فقال :

(وإن الساعة لآتية) أى وإن يوم القيامة لآت لا ريب فيه ، وحينئذ ينتقم الله ممن يستحق العذاب ، ويحسن إلى من يستحق الإحسان ، فارضَ بما يكون لهم من شديد العقاب .

(فاصفح الصفح الجميل) أى فأعرض عنهم إعراضا جميلا ، واحتمل أذاهم ، وعاملهم معاملة الصفوح الحليم .

وخلاصة ذلك — خالقهم بخلق حسن ، وتأنّ عليهم واحلُم عنهم ، وأنذرهم ، وادعُهم إلى ربك قبل أن تقاتلهم .

(إن ربك هو الخلاق العليم) أى إن ربك هو الذى خلقهم وخلق كل شىء ، وهو العليم بهم وبما يألفون وما يذرون ، وهو المدبّر لأمورهم ، والمقدّر لها على وجه الحكمة والمصلحة

وقصارى ذلك — إنه خالقك وخالقهم ، وعليم بأحوالك وأحوالهم ، ولا يخفى عليه شىء مما جرى بينك وبينهم ، فخليق بك أن تكل الأمور إليه ، ليحكم بينك وبينهم ، وقد علم أن الصفح الجميل أولا أولى بهم إلى أن يحكم السيف بينك وبينهم .

وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧) لاَ تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (٨٩) كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١) فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣) فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ (٩٧) فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (٩٨) وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (٩٩) .

تفسير المفردات

المثانى : واحدها مثنى من التثنية وهو التكرير والإعادة ، ومد عينيه إلى مال فلان : اشتهاه وتمناه ، والأزواج : واحدها زوج وهو الصِّنف ، وخفض الجناح :

يراد به التواضع واللين، وأصل ذلك أن الطائر إذا أراد أن يضم فرخه إليه بسط جناحه له ، والجناحان من الإنسان : جانباه ، والنذير : المخوّف بعقاب الله من لم يؤمن به ، وعضين : أى أجزاء واحدها عضة من عضيت الشاة جعلتها أعضاء وأقساما ، فاصدع بما تؤمر : أى اجهر به من صدع بالحجة إذا تكلم بها جهارا ، يضيق صدرك : أى ينقبض من الحسرة والحزن ، والساجدين : أى المصلّين ، واليقين : الموت وسمى به لأنه أمر متيقن لا شك فيه .

المعنى الجملى

بعد أن أمر رسوله أن يصبر على أذى قومه ، وأن يصفح عنهم الصفح الجميل — أردف ذلك ذكر ما أولاه من النعم ، وما أغدق عليه من الإحسان، ليسهل عليه الصفح ويكون فيه سلوة له على احتمال الأذى، فذكر أنه آتاه السبع المثانى ـ الفاتحة ـ والقرآن العظيم الجامع لما فيه هدى البشر وصلاحهم فى دنياهم وآخرتهم .

وبعد أن ذكر له تظاهر نعمه عليه ، نهاه عن الرغبة فى الدنيا ، ومد العينين إليها ، يتمنى ما فيها من متاع ؛ ونهاه عن الحسرة على الكفار أن لم يؤمنوا بالقرآن وبما جاء به وأمره بالتواضع لفقراء المسلمين ، وبإنذار قومه المشركين بتبليغهم ما أمر به الدين وما نهى عنه ، بالبيان الكافى ، والإعذار الشافى ، وبيان عاقبة أمرهم بتحذيرهم أن يحل بهم ما حل بالمقتسمين « اليهود والنصارى » الذين جعلوا القرآن أقساما ، فآمنوا بما وافق التوراة وكفروا بما عدا ذلك ، ويبين لهم أن ربهم سيسألهم عن جريرة أعمالهم .

ثم أمره أن يعلن ما أمر به من الشرائع ، ولا يلتفت إلى لوم المشركين وتثريبهم له ، ولا يبال بما سيكون منهم ، فالله تعالى كفاه أمر المستهزئين به وأزال كيدهم ، وإذا ساوره ضيق الصدر من سماع سفههم واستهزائهم كما هو دأب البشر ، فليسبح ربه

وليحمده وليكثر الطاعة له ، فالعبد إذا حزبه أمر نزع إلى طاعة ربه ، وقد كفل سبحانه أن يكشف عنه ما أهمه .

الايضاح

(ولقد آتيناك سبعا من المثانى والقرآن العظيم) أى ولقد أكرمناك بسبع آيات هى الفاتحة التى تُثْنَى وتكرر فى كل صلاة ، وهذا قول عمر وعلى وابن مسعود لما روى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « أم القرآن السبع المثانى التى أُعْطِيتُها » أو لأنها قُسِمَت قسمين : ثناء ودعاء ، وقد روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يقول الله تعالى : قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين » وأكرمناك أيضا بالقرآن العظيم .

وتخصيص الفاتحة بالذكر من بين القرآن الكريم لمزيد فضلها على نحو ماجاء فى قوله تعالى : « وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ » .

وبعد أن عرّف سبحانه رسوله عظيم نعمه عليه فيما يتعلق بالدين ــ نهاه عن الرغبة فى الدنيا فقال :

(لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم) أى لاتتمنَّيَنْ أيها الرسول ماجعلنا من زينة الدنيا متاعا للأغنياء من اليهود والنصارى والمشركين ، فإن من وراء ذلك عقابا غليظا .

والخطاب وإن كان موجها إلى النبى صلى الله عليه وسلم ــ تعليم لأمته كما تقدم مثله كثيرا ، يؤيد هذا ما روى أنه أتت من بُصرى وأذرعات سبع قوافل لقُرَيظة والنَّضير فى يوم واحد فيها أنواع من البَزِّ (الأقمشة) والطيب والجواهر ، فقال المسلمون : لو كانت لنا لتقوينا بها ، ولأنفقناها فى سبيل الله .

وخلاصة ذلك ــ لقد أوتيت النعمة العظمى التى إذا قيست بها كل النعم كانت حقيرة ، فقد أوتيت سبع آيات هى خير من السبع القوافل .

(ولا تحزن عليهم) إذلم يؤمنوا ، ليقوى بمكانهم الإسلام ، وينتعش بهم المؤمنون ؛ وقد كان صلى الله عليه وسلم يود أن يؤمن به كل من بُعِث إليه ، ويتمنى لمزيد شفقته عدم إصرار الكفار على كفرهم .

وبعد أن نهاه عن الالتفات إلى الأغنياء من الكفار أمره بالتواضع لفقراء المسلمين فقال :

(واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين) أى وألن جانبك ، وارفق بمن آمن بك واتبعك ، ولا تجفُ بهم ، ولا تُغْلِظ عليهم .

ونحو الآية قوله تعالى : « أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ » وقوله فى صفة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ »

ثم بين وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم فقال :

(وقل إنى أنا النذير المبين) أى أنا النذير للناس من عذاب أليم أن يحل بهم على تماديهم فى غيهم ، كما حل بمن تقدمهم من الأمم المكذبة لرسلها ، فانتقم الله منهم بإنزال العذاب بهم .

وفى الصحيحين عن أبى موسى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إنما مَثَلى ومَثَلُ ما بعثنى الله به كمثل رجل أتى قومه فقال ياقوم : إنى رأيت الجيش بعينىّ وإنى أنا النذير العُرْيان ، فالنَّجاءَ النجاءَ ، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا وانطلقوا على مَهَلهم فنجَوْا ، وكذبه طائفة منهم فأصبحوا مكانهم ، فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعنى واتبع ماجئت به ، ومثل من عصانى وكذب ماجئت به من الحق » .

(كما أنزلنا على المقتسمين . الذين جعلوا القرآن عضين) أى ولقد آتيناك سبعا من المثانى كما آتينا من قبلك من اليهود والنصارى التوراة والإنجيل ، وهم الذين اقتسموا القرآن وجزءوه أجزاء فآمنوا ببعضه الذى وافق كتابيهما ، وكفروا ببعضه

وهو ما خالفهما ــ أخرج ذلك البخارى وسعيد بن منصور والحاكم وابن مردويه عن ابن عباس من طرق عدة .

وبعد أن بين وظيفة الرسول ذكر أن الحساب على الأعمال موكول إلى الله لا إليه فقال .

(فوربك لنسألنهم أجمعين . عما كانوا يعملون)أى فلنسألن الكفار جميعا سؤال تأنيب وتوبيخ لهم على ما كانوا يقولون ويفعلون فيما بعثناك به إليهم وفيما دعوناهم إليه من الإقرار بى وبتوحيدى والبراءة من الأنداد والأوثان ، روى أبو جعفر عن الربيع عن أبى العالية فى تفسير الآية قال : يسأل الله العباد كلهم عن خَلّتين يوم القيامة عما كانوا يعبدون ، وعماذا أجابوا المرسلين .

وعن مُعاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا معاذ إن المرء يُسْأل يوم القيامة عن جميع سعيه حتى كحل عينيه ، وعن فُتات الطينة بأصبعه ، فلا أُلفيَنّك يوم القيامة وأحدٌ غيرك أسعد بما آتاك الله منك » .

وبعد أن ذكر أن وظيفته التبليغ شدّد عليه فى الجهر به جهد المستطاع فقال:

(فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) أى فاجْهَر بإبلاغ ما أُمِرْت به من الشرائع وواجِه به المشركين ، ولا تلتفت إلى ما يقولون ، ولا تبالِ بهم ولا تَخَفْهُم ، فإن الله كافيكهم ، وحافظك منهم .

ولما كان هذا الصدع شديدا عليه لكثرة ما يلاقيه من أذى المشركين ذكر أنه حارسه وكالئه منهم فلا يخشى بأسهم فقال :

(إنا كفيناك المستهزئين) أى إنا كفيناك شر المستهزئين الذين كانوا يسخرون منك ومن القرآن، وهم طائفة من المشركين لهم قوة وشوكة ، كانوا كثيرى السفاهة والأذى لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين يرونه أو يمر بهم ، أفناهم الله وأبادهم وأزال كيدهم ؛ وقد اختُلِف فى عدتهم ، فقوم يقولون هم خمسة : الوليد بن المغيرة والعاص ابن وائل وعدى بن قيس والأسود بن عبد يغوث والأسود بن عبد المطلب ، وقد ماتوا

جميعا بأهون الأسباب ، فتعلق بثوب الوليد سهم فتكبر أن يبعده عنه فأصاب عرقا في عقبه فمات ، ومات العاص بشوكة في إخمص قدمه ، وأصاب عدى بن قيس مرض في أنفه فمات ، وأصيب الأسود بن عبد يغوث بداء وهو قاعد في أصل شجرة فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات (هذه أعراض حمى التيفوس فيغلب أن يكون قد أصيب بها) وعَمِي الأسود بن عبد المطلب .

وقوم يقولون هم سبعة من أشراف قريش ومشركيها .

ثم وصف هؤلاء المستهزئين بالشرك فقال :

(الذين يجعلون مع الله إلٰها آخر) أي هم الذين اتخذوا إلٰها آخر مع الله يعبدونه .

وفي وصفهم بهذا الوصف تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم وتهوين للخطب عليه ، إذ أنهم لم يقتصروا على الاستهزاء بمقام النبوة، بل تعدوه إلى الإشراك بربهم، المدبر لأمورهم والمحسن إليهم .

ثم توعدهم على ما كانوا يصنعون فقال :

(فسوف يعلمون) عاقبة أمرهم حين يحل بهم عذاب ربهم ، يوم تجزى كل نفس بما عملت ، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .

وبعد أن سلاه بكفاية شرهم ودفع مكرهم ذكر تسلية أخرى له فقال :

(ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون) من كلمات الشرك والاستهزاء ، كما هو دأب الطبيعة البشرية حين ينوب الإنسان مايؤلمه ويحزنه ، أن يرى في نفسه انقباضا وضيقا في الصدر وأسى وحسرة على ماحل به .

ثم أمره سبحانه بأن يفزع لكشف ما نابه من ضيق الصدر إلى تسبيح الله وحمده فقال :

(فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين . واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) أي اذا نزل بك الضيق ووجمت نفسك فافزع إلى ربك ، ونزهه عما يقولون ، حامدا له

على توفيقك للحق ، وهدايتك إلى سبيل الرشاد ، وصلّ آناء الليل وأطراف النهار ، فإن فى مناجاة ربك ما يقرّبك إلى حضرة القدس ، ويسمو بنفسك إلى الملإ الأعلى كما ورد فى الحديث « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » ودم على ما أنت عليه طالبا المزيد من فضله ، حتى يأتيك الموت، فهناك الجزاء بلا عمل، وهنا العملُ ولا جزاء .

وقصارى ذلك — إنه تعالى أرشده إلى كشف ما يجده فى نفسه من الغم بفعل الطاعات ، والإكثار من العبادات ، وقد كان صلى الله عليه وسلم إذا حزَبه أمر ، واشتد عليه خَطْب ، فزِع إلى الصلاة ، روى أحمد عن ابن عمار أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « قال الله تعالى يا ابن آدم لا تعجِز عن أربع ركعات من أول النهار أكفك آخره » .

وقد حكى الله عن أهل النار أنهم يقولون : « لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ . وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ . وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ . وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ . حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ » .

وفى هذا دلالة على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على المرء ما دام ثابت العقل، روى البخارى عن عمران بن حُصَين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «صلِّ قائما ، فإن لم تستطع فقاعدا ، فإن لم تستطع فعلى جنب » .

اللهم وفقنا لطاعتك ، واهدنا لعبادتك ، واجعلنا من المتقين الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

خلاصة ما اشتملت عليه السورة الكريمة

من الحكم والأحكام

(١) وصف القرآن الكريم .

(٢) الإعراض عن المشركين حتى يحل بهم ريب المنون .

(٣) استهزاء المشركين وإنكارهم لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وتكذيبهم لما يرونه من الآيات .

(٤) إقامة الأدلة على وجود الله بما يرونه من الآيات فى خلق السموات والأرض وفى خلق الإنسان .

(٥) عصيان إبليس أمر ربه فى السجود لآدم وذكر الحوار بينه وبين ربه ، وطلبه الإنظار إلى يوم الدين .

(٦) بيان حالى أهل الجنة وأهل النار يوم القيامة .

(٧) قصص بعض الأنبياء وذكْر ماأهلك الله به كل أمة من الأمم المكذبة لرسلها.

(٨) بيان أن الحكمة فى خلق السموات والأرض هى عبادة الله وحده و إقامة العدل والنظام فى المجتمع .

(٩) ذكر ما أنعم الله به على نبيه من السبع المثانى والقرآن العظيم .

(١٠) نهى نبيه والمؤمنين عن تمنى زخرف الدنيا وزينتها .

(١١) أمره صلى الله عليه وسلم بخفض الجناح والرفق بمن اتبعه من المؤمنين .

(١٢) التذكير بنعمة الله عليه بإهلاك أعدائه المستهزئين الذين جعلوا القرآن عضين.

(١٣) الأمر بالدعوة للدين جهرا والصدع بها وعدم المبالاة بالمشركين .

(١٤) أمره صلى الله عليه وسلم بالتسبيح والعبادة إذا ضاق صدره باستهزاء المشركين والطعن فيه وفى كتابه الكريم .

سورة النحـــل

هذه السورة مكية سوى ثلاث آيات من آخرها فإنهن نزلن بين مكة والمدينة مُنْصَرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من أُحُد .

وآيها ثمان وعشرون ومائة .

ووجه ارتباطها بما قبلها أنه لما قال فى السورة السالفة : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ » كان ذلك تنبيها إلى حشرهم يوم القيامة وسؤالهم عما فعلوه فى الدنيا ، فقيل : « أَتَى أَمْرُ اللهِ » وأيضا فإن قوله فى آخرها : « وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » شديد الالتئام بقوله أتى أمر الله .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَتَىٰ أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) .

تفسير المفردات

أتى أمر الله : أى قرب ودنا ، ويقال فى مجرى العادة لما يجب وقوعه قد أتى وقد وقع ، فيقال لمن طلب مساعدة حان مجيئها ، جاءك الغوث ، وأمر الله عذابه للكافرين ، والروح : الوحى وهو قائم فى الدين مقام الروح من الجسد ، فهو محيى القلوب التى أماتها الجهل ، من أمره : أى بأمره ومن أجله ، أنذروا : أى خوِّفوا ، فاتقون : أى خافوا عقابى ، لمخالفة أمرى وعبادة غيرى .

المعنى الجملى

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخوّف المشركين تارة بعذاب الدنيا من قتل وأسر كما حدث يوم بدر ، وتارة بعذاب الآخرة ، ثم إنهم لما لم يشاهدوا شيئا من ذلك احتجوا بذلك على تكذيبه وطلبوا منه الإتيان بذلك العذاب روى أنه لما نزل قوله تعالى: « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ » قال الكافرون حين خلَوْا إلى شياطينهم إن هذا يزعم أن القيامة قد قَرُبت فأمسكوا عن بعض ماتعملون ، حتى ننظر ماهو كائن ، فلما تأخرت قالوا ماترى شيئا مما تخوّفنا به ، فنزل قوله تعالى : «اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ » فأشفقوا وانتظروا ، فلما امتدت الأيام قالوا يامحمد ماترى شيئا مما تخوفنا به . فنزل قوله : (أتى أمر الله) فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رءوسهم فنزل قوله : (فلا تستعجلوه) .

الايضاح

(أتى أمر الله فلا تستعجلوه) أى قرب عذاب المشركين وهلاكهم ، أما إتيانه بالفعل وتحققه فمنوط بحكم الله النافذ ، وقضائه الغالب على كل شىء، فهو يأتى فى الحين الذى قدّره وقضاه .

ونظم سبحانه المتوقع فى صورة المحقق إيذانا بأنه واجب الوقوع ، والشىء إذا كان بهذه المثابة يسوغ فى عرف التخاطب أن يُعَدَّ واقعا ، ومعنى قوله فلا تستعجلوه لاتطلبوا حصوله قبل حضور الوقت المقدّر فى علمه تعالى .

وفى هذا تهديد من الله لأهل الكفر به و برسوله ، و إعلام منه لهم، بقرب عذابهم وهلاكهم الذى لابد منه .

(سبحانه وتعالى عما يشركون) أى تبرأ الله تعالى عن الشريك والشفيع الذى يدفع الضر عنكم ، وفى هذا رد لمقالهم حين قالوا : لئن حكم الله علينا بإنزال العذاب فى الدنيا أو فى الآخرة — لتشفَعَنَّ لنا هذه الأصنام التى نعبدها من دونه .

وخلاصة هذا — إن تلك الجمادات الخسيسة التى جعلتموها شركاء لله وعبدتموها ، هى أحقر الموجودات، وأضعف المخلوقات، فكيف تجعلونها شريكة لله فى التدبير والشفاعة فى الأرض والسموات؟ .

ثم أجاب عن شبهة لهم إذ قالوا : هب الله قضى على بعض عباده بالشر وعلى آخرين بالخير ، فمن يعرف هذه الأسرار التى لا يعلمها إلا هو ؟ فقال :

(ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) أى ينزل سبحانه ملائكته بالوحى إلى من يريد من عباده المصطَفَيْن الأخيار ، أن أنذروا عبادى أن إله الخلق واحد لا إله إلا هو ، وأنه لاتنبغى الألوهية إلا له ، ولا يصلح أن يُعْبَد شىء سواه ، فاحذروه وأخلصوا له العبادة ، فإن فى ذلك نجاتكم من الهَلَكة ، وقد جاء ذكر الروح بمعنى الوحى فى قوله : « وَكَذٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ » وفى قوله: « يُلْقِى الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » .

والمراد بقوله من أمره — بيان أن ذلك التنزيل والنزول لا يكونان إلا بأمره تعالى كما قال حكاية عن الملائكة : « وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ » وقال : لَايَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ » وقال : « يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَايُؤْمَرُونَ » وقال : « لَايَعْصُونَ اللّٰهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » ففى كل ذلك دليل على أن الملائكة لا يُقْدِمون على عمل إلا بأمره تعالى وإذنه .

وفى الآية إيماء إلى أن الوحى من الله إلى أنبيائه لا يكون إلا بوساطة الملائكة ، ويؤيد ذلك قوله : « وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ » فقد بدأ بذكر الملائكة ، لأنهم هم الذين يتلقَّوْن الوحى من الله بلا وساطة ، وذلك الوحى هو الكتب ، وهم يوصلون هذا الوحى إلى الأنبياء — لاجرم جاء الترتيب على هذا الوضع

خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٤) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَالَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) .

تفسير المفردات

أصل النطفة : الماء الصافى و يراد بها هنا مادة التلقيح ، والخصيم : بمعنى المخاصم كالخليط بمعنى المخالط ، والعشير : بمعنى المعاشر والمراد به المنطيق المجادل عن نفسه ، المنازع للخصوم ، والمبين : المظهر للحجة ، والدفء : ما يستدفأ به من الأكسية ، والمنافع : هى دَرّها وركوبها والحرث بها وحملها الماء ونحو ذلك ، جمال : أى زينة فى أعين الناس وعظمة لديهم ، تريحون : أى تردونها بالعشى من المرعى إلى مراحها يقال أراح الماشية إذا ردها إلى المُرَاح ، تسرحون : أى تُخْرِجونها غُدْوة من حظائرها ومبيتها إلى مسارحها ومراعيها ، والأثقال : واحدها ثِقْل وهو متاع المسافر ، وشق الأنفس : مشقتها وتعبها ، القصد : الاستقامة ، يقال سبيل قَصْد وقاصد إذا أدّاك إلى مطلوبك ، وجائر : أى مائل عن الحجة ، منحرف عن الحق ، وتسيمون : أى تَرْعَوْنَ يقال أسام الماشية وسوّمها جعلها ترعى ، وذرأ : خلق ، ألوانه : أى أصنافه ، مواخر واحدها ماخرة : أى جارية من مَخَرَ الماء الأرض أى شقها ، والمَيْد : الحركة والاضطراب يمينا وشمالا ، وعلامات : أى معالم يَستدلّ بها السابلة من نحو جبل ومَنْهَل ورائحة تراب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه منزّه عن الشريك والولد ، وأنه لا إله إلا هو ، وأمر بتقواه وإخلاص العبادة له — ذكر هنا أدلة التوحيد واتصاف ذاته الكريمة بصفات الجلال والإكرام بأسلوب بديع جمع فيه بين دلالة المصنوع على الصانع والنعمة على المنعم ، ونبّه بذلك إلى أن كل واحد من هذا كاف فى صرف المشركين عما هم عليه من الشرك ، وكلما بصّرهم طائفة مما يرون ويشاهدون بكّتهم على مايقولون ويفعلون ، وبين لهم كفرانهم نعمتى الرعاية والهداية ، فاحتج على وجوده بخلق الأجرام الفلكية ،

ثم ثنى بذكر أحوال الإنسان ، ثم ثلّث بذكر أحوال الحيوان ، ثم ربّع بذكر أحوال النبات ، ثم اختتم القول بذكر أحوال العناصر الأربعة .

الإيضاح

(خلق السموات والأرض بالحق تعالى عما يشركون) أى خلق سبحانه العالم العلوى وهو السموات والعالم السفلى وهو الأرض بما حوت — بالحق أى على نهج تقتضيه الحكمة ولم يخلقهما عبثا ، منفردا بخلقهما لم يشْرَكه فى إنشائهما وإحداثهما شريك ، ولم يُعِنْه على ذلك معين ، تعالى الله عن ذلك ، إذ ليس فى قدرة أحد سواه أن ينشئ السموات والأرض ، فلا تليق العبادة إلا له .

وبعد أن ذكر أدلة الأكوان ، ذكر خلق الإنسان ، فقال :

(خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين) أى خلق الإنسان من نطفة أى من ماء مهين — خلقا عجيبا فى أطوار مختلفة ، ثم أخرجه إلى ضياء الدنيا بعد ما تم خلقه ، ونفخ فيه الروح ، فغذاه ونماه ورزقه القوت ، حتى إذا استقل ودرَج نسى الذى خلقه خلقا سويا من ماء مهين ، بل خاصمه فقال : « مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ » وعبد مالا يضر ولا ينفع : « وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالاَ يَنْفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا » .

(والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون) امتن سبحانه على عباده بما خلق لهم من الأنعام وهى الإبل والبقر والغنم كما تقدم تفصيل ذلك فى سورة الأنعام ، إذ عدها ثمانية أزواج ، وبما جعل لهم فيها من المنافع من الأصواف والأوبار والأشعار ، لباسا وفراشا ، ومن الألبان شرابا ، ومن الأولاد أكلا .

(ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون) أى ولكم فى هذه الأنعام زينة حين تردُّونها بالعشى من مسارحها إلى منازلها التى تأوى إليها ، وحين إخراجها من مُراحها إلى مسارحها ، وخصص هذين الوقتين بالذكر ، لأن الأفنية تتزين بها

ويتجاوب ثغاؤها ورُغاؤها حين الذهاب والإياب ، فيعظم أربابها فى أعين الناظرين إليها ، وقدم الإراحة على السرح مع تأخرها فى الوجود ، لأن الجمال فيها أظهر ، وجلب السرور فيها أكمل ، ففيها حضور بعد غيبة ، وإقبال بعد إدبار ، على أحسن ما يكون ، إذ تكون ملأى البطون ، حافلة الضروع .

(وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس) أى وهى أيضا تحمل أمتعتكم وأحمالكم من بلد إلى آخر لم تكونوا بالغيه بدونها إلا بكُلْفة ومشقة وجهد شديد .

ونحو الآية قوله : « وَإِنَّ لَكُمْ فِى الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ » وقوله : « اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ »

(إن ربكم لرءوف رحيم) ومن ثم أسبغ عليكم نعمه الجليلة ، ويسّر لكم الأمور الشاقة العسيرة ، ومن رأفته ورحمته بكم أنْ خلق لكم الأنعام لمنافعكم ومصالحكم كما قال : « أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ . وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ؟ » .

(والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) أى وخلق لكم الخيل والبغال والحمير أيضا لتركبوها ، وجعلها لكم زينة تتزينون بها ـ إلى مالكم فيها من منافع أخرى .

(ويخلق مالا تعلمون) غير هذه الدواب مما يهدى إليه العلم وتستنبطه العقول كالقُطُر البرية والبحرية والطائرات التى تحمل أمتعتكم وتركبونها من بلد إلى آخر ومن قطر إلى قطر ، والمطاود الهوائية التى تسير فى الجو والغواصات التى تجرى تحت الماء إلى نحو أولئك مما تعجبون منه ، ويقوم مقام الخيل والبغال والحمير فى الركوب والزينة.

وبعد أن شرح سبحانه دلائل وحدانيته أرشد إلى أنه كفيل ببيان الطريق السوى لمن أراده فقال :

(وعلى الله قصد السبيل) أى وعلى الله بيان الطريق المستقيم الموصّل من سلكه إلى الحق ، بنصب الأدلة وإرسال الرسل عليهم السلام وإنزال الكتب لدعوة الناس إليه ، فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضِلُّ عليها .

ونحو الآية قوله : « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » وقوله « هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ » .

(ومنها جائر) أى ومن السبل سبيل جائر عن الاستقامة ، معوج زائغ عن الحق ؛ فالسبيل القاصد هو الإسلام ، والجائر منها هو غيره من الأديان الأخرى ، سماوية كانت أو أرضية .

وخلاصة هذا — إن ثمة طرقا تُسْلَكُ للوصول إلى الله ، وليس يصل إليه منها إلا الطريق الحق ، وهى الطريق التى شرعها ورضيها وأمر بها ، وهى طريق الإسلام له والإخبات إليه وحده كما أرشد إلى ذلك بقوله : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ، مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ » وما عداها فهو جائر ، وعلى الله بيان ذلك ، ليهتدى إليه الناس ، ويبتعدوا عن سواه .

ثم أخبر سبحانه بأن الهداية والضلال بقدرته ومشيئته فقال :

(ولو شاء لهداكم أجمعين) أى ولو شاء سبحانه لجعلكم كالنمل والنحل فى حياتكم الاجتماعية ، أوجعلكم كالملائكة مفطورين على العبادة وتقوى الله ، فلا تتجه نفوسكم إلى المعصية ، ولا تسعى إلى الشر ، ولكنه شاء أن يجعلكم تعملون أعمالكم باختياركم وتسعَوْن إليها بعد بحثها وفحصها من سائر وجوهها ، ثم ترجّحون منها ما تميل إليه نفوسكم ، وما ترون فيه الفائدة لكم كما قال عز من قائل : « وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ

طريقى الخير والشر - إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَافُوراً » وقد تقدم إيضاح هذا عند قوله : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً » وعند قوله : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ، إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » .

وبعد أن ذكر نعمته عليهم بتسخير الدواب والأنعام - شرع يذكر نعمته عليهم فى إنزال المطر فقال :

(هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون) أى إن الذى خلق لكم الأنعام والخيل وسائر البهائم لمنافعكم ومصالحكم - هو الذى أنزل المطر من السماء عذبا زلالا تشربون منه وتسقون أشجاركم ونباتكم التى تسيمون فيها أنعامكم وفيها ترعى .

(ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات) أى ينبت لكم بالماء الذى أنزله من السماء زرعكم وزيتونكم ونخيلكم وأعنابكم ومن كل الثمرات غير ذلك - أرزاقا لكم وأقواتا نعمة منه عليكم وحجة على من كفر به .

(إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) أى إن فيما ذكر من إنزال الماء وغيره . لأدلة وحججاً على أنه لا إله إلا هو ، لقوم يعتبرون مواعظ الله ويتفكرون فيها حتى تطمئن قلوبهم بها ، وينبلج نور الإيمان فيها ، فيضىء أفئدتهم ويزكّى نفوسهم ، فمن فكّر فى أن الحبة والنواة تقع فى الأرض وتصل إليها نداوة منها تنفذ فيها ، فينشق أسفلها فيخرج منه عروق تنبسط فى الأرض ويخرج منها ساق ينمو وتخرج فيه الأوراق والأزهار والحبوب والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الأشكال والألوان والخواص والطباع - علم أن مَنْ هذه آثاره لايمكن أن يشبهه شىء فى صفات كماله فضلا عن أن يشاركه فى أخص صفاته وهى الألوهية واستحقاق العبادة .

ولله در القائل :

تأمّلْ فى رياض الورد وانظُرْ إلى آثار ما صنع المليكُ
عيون من لُجَيْنٍ شاخصاتٌ على أهـــدابها ذهبٌ سبيك
على قُضُب الزبرجد شاهداتٌ بأنّ الله ليس له شريك

(وسخر لـكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) أى ومن نعمه تعالى عليكم مضافة إلى النعم التى سلف ذكرها — أن سخر لـكم الليل والنهار يتعاقبان ، خِلْفَة لمنامكم واستراحتـكم ، وتصرفـكم فى معايشكم وسعيكم فى مصالحـكم وسخر لـكم الشمس والقمر يدأبان فى سيرهما وإنارتهما أصالة وخلافة ، وأدائهما ما نيط بهما من تربية الأشجار والزرع وإنضاج الثمرات وتلوينها إلى نحو ذلك من الآثار والمنافع التى ربطها سبحانه بوجودهما ، وبهما يعرف عدد السنين والشهور ، وفى ذلك صلاح معايشكم، وسخر لـكم النجومَ بأمره تجرى فى أفلاكها بحركة مقدّرة لا تزيد ولا تنقص لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) أى إن فى ذلك التسخير لدلالات واضحات لقوم يعقلون حجج الله ويفهمون ما نبههم إليه بها .

وعبر هنا بالعقل وفى خاتمة الآية السالفة بالتفـكر ، من قِبَل أن الآثار العلوية متعددة ، ودلالة ما فيها من عظيم القدرة والعلم والحـكمة على الوحدانية ظاهرة لا تحتاج إلا إلى العقل من غير تفـكر ولا تأمل ، بل تدرَك بالبديهة ، بخلاف الآثار السفلية من الزرع والنخيل والأعناب فهى تحتاج فى دلالتها على وجود الصانع إلى فـكر وتدبر ونظر شديد .

(وما ذرأ لـكم فى الأرض مختلفا ألوانه) أى وما خلق لـكم فى الأرض من عجائب الأمور ومختلف الأشياء ، من معادن ونبات وحيوان على اختلاف أجناسها وأشكالها ومنافعها وخواصها .

(إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون) آلاء الله ونعمه فيشكرونه على ما أنعم ، ويُخْبِتُون إليه على ما تفضل به وأحسن .

وبعد أن ذكر أنواع النعم فى البر شرع يفصِّل نعمه فى البحر فقال :

(وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا) أى وهو الذى سخر لكم البحر ـ الماء الملح والعذب ـ لتأكلوا منه سمكا تصطادونه .

وفى وصفه بالطراوة تنبيه إلى أنه ينبغى المسارعة إلى أكله ، لأنه يسرع إليه الفساد والتغير ، وقد أثبت الطب أن تناوله بعد ذهاب طراوته من أضر الأشياء ، فسبحان الخبير بخلقه ، ومعرفة ما يضر استعماله وما ينفع ، وفيه أيضا إيماء إلى كمال قدرته تعالى فى خلقه الحلو الطرى فى الماء المر الذى لا يشرب .

وقد كره العلماء أكل الطافى منه على وجه الماء ، وهو الذى يموت حتف أنفه فى الماء فيطفو على وجهه ، لحديث جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم : « ما نَضَب عنه الماء فكلوا ، وما لفظه فكلوا ، وماطفا فلا تأكلوا » فالمراد من ميتة البحر فى الحديث « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » ما لفظه لا مامات فيه من غير آفة .

(وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) كاللؤلؤ المخلوق فى صدفه العائش فى البحار ولا سيما المحيط الهندى ، والمرجان الذى ينبت فى قيعانها ، وتوجد حقول من المرجان فى البحر الأبيض المتوسط أمام تونس والجزائر ، متى تم ينعها حصدتها الدولة الفرنسية وباعتها المسلمين وهم لا يعلمون شيئا من أمرها ، وكأنهم لم يقرءوا القرآن وكأنهم لم يخلقوا فى هذه الأرض ، وكأنهم يقولون : ربنا لا نستخرج ، بل نشترى من المستخرجين من الأرض ، وكأنهم ليسوا مخاطبين بالاستخراج المباح ، وبذا حرّموا على أنفسهم ما أباحه الله لهم ، وقد بلغ ما استُخْرِج من المرجان سنة ١٨٨٦ م ٧٧٨ ألف كيلوجرام ثمنها خمسة ملايين وسبعمائة وخمسون ألف فرنك .

(وترى الفلك مواخر فيه) أى وترى السفن جوارى فيه ، تشقه بحيزومها ومُقَدَّمها، مُقْبِلة مدبرة من قطر إلى قطر ومن بلد إلى آخر ، ومن إقليم إلى إقليم لجلب ما هنالك إلى هنا ، وما هنا إلى هنالك ومن ثم قال :

(ولتبتغوا من فضله) أى ولتطلبوا فضل الله ورزقه بركوبه للتجارة .

(ولعلكم تشكرون) أى ولتشكروا ربكم على ما أنعم به عليكم ، إذ جعل ركوب البحر مع كونه مظنة للهلاك سببا للانتفاع وحصول المعاش مع عدم الحاجة إلى الحل والترحال والاستراحة والسكون ، ولله در القائل :

وإنا لفى الدنيا كركب سفينة نظن وقوفا والزمان بنا يسرى

(وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم) أى وألقى فى الأرض جبالا ثوابت لتقر ولا تضطرب بما عليها من الحيوان ، فلا يهنأ لهم عيش بسبب ذلك كما قال : « وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا » وما الأرض إلا كسفينة على وجه الماء ، فإذا لم يكن فيها أجرام ثقيلة تضطرب وتميل من جانب إلى جانب بأدنى الأسباب ، وإذا وضعت فيها أجرام ثقيلة استقرت على حال واحدة ، فكذا الأرض لولم يكن عليها هذه الجبال لاضطربت ، وقد تقدم إيضاح هذا وسيأتى بعد .

(وأنهارا) أى وجعل فيها أنهارا تجرى من مكان إلى آخر رزقا للعباد ، فهى تنبع فى مواضع وهى رزق لأهل مواضع أخرى ، فهى تقطع البقاع والبرارى وتخترق الجبال والآكام حتى تصل إلى البلاد التى سخر لأهلها أن تنتفع بها كما يشاهد فى نهر النيل ، إذ ينبع من أواسط أفريقية ، ويمر بجبال ووهاد فى السودان ، ويستفيد منه الفائدة الكبرى أهل مصر دون سواها ، وكل ذلك بتقدير اللطيف الخبير .

(وسبلا) أى وكذلك جعل فيها سبلا أى طرقا نسلك فيها من بلاد إلى أخرى ، وقد تحدث ثلمة فى الجبل لتكون ممرا طريقا وكما قال تعالى فى وصف الجبال : « وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا » الآية .

(لعلكم تهتدون) بتلك السبل إلى ما تريدون فلا تضلون .

(وعلامات) أى وجعل فيها علامات أى دلائل يهتدى بها السارى من جبال كبار وآكام صغار ونحو ذلك ، حتى إذا ضل الطريق كانت عونا له ، وهدته إلى السبيل السوى فى البر والبحر .

(وبالنجم هم يهتدون) بالليل فى البرارى أو فى البحار .

وفى الآية إيماء إلى أن مراعاة النجوم أصل فى معرفة الأوقات والطرق والقبلة ، ويحسن أن نتعلم من علم الفلك مايفيد تلك المعرفة .

قال قتادة : إنما خلق الله النجوم لثلاثة أشياء : لتكون زينة للسماء ، ومعالم للطرق ، ورجوما للشياطين ، فمن قال غير ذلك فقد تكلف مالا علم له به .

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ؟ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨) وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) .

تفسير المفردات

المراد بمن يخلق : الله سبحانه وتعالى ، ومن لايخلق : الملائكة وعيسى والأصنام ، وما يشعرون : أى لايعلمون ، وأيان : كمتى كلمتان تدلان على الزمن ، لاجرم : أى حقا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الدلائل على وجود الإله القادر الحكيم على أحسن ترتيب وأكمل نظام، وكان فى ذلك تفصيل وإيضاح لأنواع النعم ووجوه الإحسان- قفَّى على ذلك بتبكيت الكفار وإبطال شركهم وعبادتهم غير الله من الأصنام والأوثان ،

لما يلزم ذلك من المشابهة بينه تعالى وبينها ، ثم أردف ذلك بيان أن لهذا الخالق نعما لاتحصى على عباده ، وأنهم مهما بالغوا فى الشكر ، وأجتهدوا فى العبادة ، فليسوا ببالغين شيئا مما يجب عليهم نحوه ، ولكنه يستر عليهم ما فرط من كفرانها ، ويرحمهم بفيض النعم عليهم مع عدم استحقاقهم لها ، ثم أعقب هذا بذكر خواص الألوهية وهى علم السر والنجوى والخلق وهذه الأصنام ليس لها شىء من ذلك ، فهى مخلوقة لا خالقة ، ولا شعور لها بحشر ولا نشر ، ومن هذا كله يُعْلَمَ أن الإله واحد لا شريك له ، ثم ذكر الأسباب الداعية إلى الإشراك ، وهى تحجّر القلوب وإنكار التوحيد ، فهى لا ترغب فى الثواب ، ولا ترهب العقاب ، وتستكبر عن عبادة الواحد الديان ــ لاجرم بقيت مصِرَّة على ما كانت عليه من الجهل والضلال .

الايضاح

(أفمن يخلق كمن لايخلق ؟ أفلاتذكرون ؟) أى أفمن يخلق هذه الخلائق العجيبة التى عددناها عليكم ويُنْعِم هذه النعم العظيمة ــ كمن لا يخلق شيئا ولا ينعم نعماً صغيرة ولا كبيرة ، أفلا تذكرون هذه النعم وهذا السلطان العظيم والقدرة على ما شاء من الحكمة ، وعجز أوثانكم وضعفها ومهانتها ، وأنها لاتجلب إلى نفسها نفعا ، ولا تدفع ضرا ، فتعرفوا بذلك خطأ ما أنتم عليه من عبادتها ، وإقراركم لها بالألوهية .

وخلاصة هذا — الإنكار عليهم ورميهم بالجهل وسوء التقدير وقلة الشكر لمن أنعم عليهم بما لايحصى من النعم ، مع وضوح ذلك وقلة احتياجه إلى تدبر وتفكر وإطالة نظر ، بل يكفى فيه تنبه العقل ، ليعلم أن العبادة لا تليق إلا للمنعم بكل هذه النعم ، أما هذه الأصنام التى لا فهم لها ولا قدرة ولا اختيار ، فلا تنبغى عبادتها ولا الاشتغال بطاعتها .

قال قتادة فى الآية : الله هو الخالق الرازق ، لاهذه الأوثان التى تُعْبَد من دون الله ، لا تَخْلُق شيئا ولا تملك لأهلها ضرا ولا نفعا اه .

وبعد أن نبههم سبحانه إلى عظمته ، ذكّرهم بنعمه عليهم وإحسانه إليهم فقال :

(وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) أى وإن تعدوا نعم الله لاتضبطوا عددها ، فضلا عن أن تستطيعوا القيام بشكرها ، فإن العبد مهما أتعب نفسه فى طاعته ، وبالغ فى شكران نعمه ، فإنه يكون مقصرا ، فنعم الله كثيرة ، وعقل المخلوق قاصر عن الإحاطة بها ، ومن ثم فهو يتجاوز عن ذلك التقصير ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(إن الله لغفور) فيستر عليكم تقصيركم فى القيام بشكرها .

(رحيم) بكم فيُفيض عليكم نعمه مع استحقاقكم للقطع والحرمان ، بما تأتون وما تذرون من أصناف الكفر والعصيان ، ومن أفظع ذلك وأعظمه جُرْما المساواة بين الخالق والمخلوق .

قال بعض الحكماء : إن أىّ جزء من البدن إذا اعتراه الألم نغّصَ على الإنسان النعم ، وتمنى أن ينفق الدنيا لوكانت فى ملكه حتى يزول عنه ذلك الألم ، وهوسبحانه يدبّر جسم الإنسان على الوجه الملائم له ، مع أنه لاعلم له بوجود ذلك ، فكيف يطيق حصر نعمه عليه أو يقدر على إحصائها ، أو يتمكن من شكر أدناها ؟ .

ربنا هذه نواصينا بيدك ، خاضعة لعظم نعمك ، معترفة بالعجز عن تأدية الشكر لشىء منها ، لانحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، ولا نطيق التعبير بالشكر لك ، فتجاوز عنا ، واغفر لنا ، وأسبل ذيول سترك على عوراتنا ، فإنك إلا تفعل نهلِكْ ، لتقصيرنا فى شكر نعمك ، فكيف بما فرط منا من التساهل فى الائتمار بأوامرك ، والانتهاء عن مناهيك ؟

العفو يرجى من بنى آدم فكيف لا يُرْجَى من الربِّ اهـ

وبعد أن أبطل عبادة الأصنام ، من قِبَل أنها لا قدرة لها على الخلق والإنعام ، أبطل عبادتها بوجه آخر وهو أن الإله يجب أن يكون عليما بالسر والعلانية ، وهذه الأصنام جماد لا معرفة لها بشىء فكيف تجْمُلُ عبادتها ؟ وإلى ذلك أشار بقوله :

(والله يعلم ماتسرون وما تعلنون) أى والله يعلم ما تسرونه فى ضمائركم ، وتخفونه عن غيركم ، وما تبدونه بألسنتكم وجوارحكم وأفعالكم ، وهو محصٍ ذلك كله عليكم

فيجازيكم به يوم القيامة، فيجازى المحسن بإحسانه ،والمسيء منكم بإساءته، وهو سائلكم عما كان منكم من الشكر فى الدنيا على النعم التى أنعمها عليكم فيها ، ما أحصيتم منها ومالم تحصوا .

ثم وصف سبحانه هذه الأصنام بصفات تجعلها بمعزل عن استحقاق العبادة تنبيها إلى كمال حماقة المشركين وأنهم لايفهمون ذلك إلا بالتصريح دون التلويح فقال :

(١) (والذين تدعون من دون الله لايخلقون شيئا وهم يخلقون) أى والأوثان التى تعبدونها من دون الله لاتخلق شيئا بل هى مخلوقة، فكيف يكون إلها ما يكون مصنوعا، وغيره هو الذى دبّر وجوده ؛ ونحو الآية قوله : « أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ؟ وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ » .

(٢) (أموات غير أحياء) أى هى أموات ولا تعتريها الحياة بوجه ، فلا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ، وفائدة قوله غير أحياء بيان أن بعض مالا حياة فيه قد تدركه الحياة بعدُ كالنطفة التى ينشئها الله تعالى حيوانا ، وأجساد الحيوان التى تبعث بعد موتها ، أما هذه الأصنام من الحجارة والأشجار فلا يعقب موتها حياة وذلك أتم فى نقصها .

(٣) (وما يشعرون أيان يبعثون) أى وما تدرى هذه الأصنام التى تعبدونها من دون الله متى تُبعث عبدتها .

ولا يخفى مافى ذلك من التهكم بها، لأن شعور الجماد بالأمور الظاهرة بديهى الاستحالة لدى كل أحد ، فكيف بما لا يعلمه إلا العليم الخبير ؛ كما أن فيه تهكما بالمشركين من قِبَل أن آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم ليجازوهم على عبادتهم إياهم ، وفيه تنبيه إلى أن البعث من لوازم التكليف ، لأنه جزاء على العمل من خير أو شر ، وأن معرفة وقته لابد منه فى الألوهية .

ولما أبطل طريق عبدة الأصنام وبين فساد مذهبهم صرح بالمدّعَى ولخص النتيجة بعد إقامة الحجة فقال :

(إلهكم إله واحد) أى معبودكم الذى يستحق العبادة وإفراد الطاعة له دون

سائر الأشياء ـ معبود واحد لاتصلح العبادة إلا له ، فأفردوا له الطاعة ، وأخلصوا له العبادة ، ولا تجعلوا معه شريكا سواه .

ثم ذكر الأسباب التى لأجلها أصر الكفار على الشرك وإنكار التوحيد فقال :

(فالذين لايؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون) أى فالذين لايصدقون بوعد الله ولا وعيده ، ولا يقرون بالمعاد إليه بعد الممات ـ قلوبهم جاحدة لما قصصناه عليكم ، من قدرة الله وعظمته. وجزيل نعمه عليهم، وأن العبادة لاتصلح إلا له، والألوهية ليست لشىء سواه ، فلا يؤثر فيها وعظ ، ولا ينجع فيها تذكير ؛ وهم مستكبرون عن قبول الحق ، متعظمون عن الإذعان للصواب ، مستمرون على الجحد ، تقليدا لما مضى عليه آباؤهم من الشرك به كما حكى سبحانه عنهم قولهم : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ » وقولهم : « أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلٰهًا وَاحِدًا ؟ إِنَّ هٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ » وقال : « وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ ، وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ » .

ثم ذكر وعيدهم على أعمالهم فقال :

(لاجرم أن الله يعلم مايسرون وما يعلنون) أى حقا إن الله يعلم مايسر هؤلاء المشركون من إنكارهم لما قصصته عليك واستكبارهم على الله ، ويعلم مايعلنون من كفرهم به ، وافترائهم عليه .

ثم علل سوء صنيعهم بشدة استكبارهم فقال :

(إنه لايحب المستكبرين) أى إن الله لايحب المستكبرين عن توحيده ، والاستجابة لأنبيائه ورسله ، بل يبغضهم أشد البغض ، وينتقم منهم أعظم الانتقام .

أخرج مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لايدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر ، ولا يدخل

النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان ، فقال رجل : يارسول الله ، الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة ، فقال : إن الله جميل يحب الجمال ، الـكبر من بَطِر الحق ، وغمص الناس » . وفى الصحيح « إن المتـكبرين أمثال الذر يوم القيامة، تطؤهم الناس بأقدامهم لتـكبرهم » .

وَإِذا قِيلَ لَهُمْ ماذَا أَنْزَلَ رَبُّـكُمْ قَالُوا أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) قَدْ مَـكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللهُ بُنْيانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ؟ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْـكَافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِـكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ ، فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ ، بَلَى إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَـكَبِّرِينَ (٢٩) .

تفسير المفردات

الأساطير : واحدها أسطورة كأرجوحة وأراجيح ، وهى الترّهات والأباطيل ، والأوزار : الآثام واحدها وِزْر ، ساء مايزرون : أى بئس شيئا يحملونه ، والمكر : صرف غيرك مما يريده بحيلة ، ويراد به هنا مباشرة الأسباب وترتيب المقدمات ، فأتى الله بنيانهم من القواعد : أى أهلـكه وأفناه كما يقال أتى عليه الدهر ، والقواعد :

الدعائم والعَمَد : واحدها قاعدة ، خرّ : سقط ، يخزيهم : يذلهم ويهينهم ، وتشاقون: أى تخاصمون وتنازعون الأنبياء وأتباعهم فى شأنهم ، وأصله أن كلا من المتخاصمين فى شِقّ وجانب غير شق الآخر ، والذين أوتوا العلم : هم الأنبياء ، والسلم : الاستسلام والخضوع ، بلى بمعنى نعم ، والمثوى : مكان الثواء والإقامة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر دلائل التوحيد ونصب البراهين الواضحة على بطلان عبادة الأصنام، أردف ذلك بذكر شبهات من أنكروا النبوة مع الجواب عنها ، وبين أنهم ليسوا بدع فى هذه المقالة ، فقد سبقتهم أمم قبلهم فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، فأهلكهم فى الدنيا ، وسيخزيهم يوم القيامة بما فعلوا ، ثم ذكر أنهم حين يشاهدون العذاب يستسلمون ، ويقولون ما كنا نعمل من سوء ، ولكن الله عليم بهم وبما فعلوا ، ولا مثوى لأمثال هؤلاء المتكبرين إلا جهنم وبئس المثوى هى :

الايضاح

(وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين) أى وإذا قيل لهؤلاء الذين لايؤمنون بالآخرة من المشركين : أى شىء أنزله ربكم ؟ قالوا لم ينزل شيئا ، إنما الذى يتلى علينا أساطير الأولين أى هو مأخوذ من كتب المتقدمين .

ونحو الآية قوله : حكاية عنهم : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً » وكانوا يفترون على الرسول صلى الله عليه وسلم أقوالا مختلفة؛ فتارة يقولون إنه ساحر ، وأخرى إنه شاعر أو كاهن ، وثالثة إنه مجنون ، ثم قر قرارهم على ما اختلقه زعيمهم الوليد بن المغيرة المخزومى كما حكى عنه الكتاب الكريم : « إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ » أى ينقل ويحكى، فتفرقوا معتقدين

صحة قوله ، وصدق رأيه ، قبّحهم الله ، وكان المشركون يقتسمون مداخل مكة ينفّرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سألهم وفود الحاج ، ويقولون هذه المقالة .

ثم بين عاقبة أمرهم فقال :

(ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم) أى وإنما قدّرنا عليهم أن يقولوا ذلك ، لتكون عاقبتهم أنهم يتحملون آثامهم وآثام الذين يتبعونهم ويوافقونهم أى يصير عليهم خطيئة ضلالهم فى أنفسهم ، وخطيئة إغوائهم وإضلالهم لغيرهم واقتدائهم بهم كما جاء فى الحديث « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا » .

ونحو الآية قوله تعالى « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ » والمراد من قوله (كاملة) أنه لاينقص منها شىء ولا يُكفَّرُ بنحو نكبة تصيبهم فى الدنيا ، ولا طاعة مقبولة تكفّر بعض تلك الأوزار كما هو حال المؤمنين .

وفائدة قوله بغير علم- بيان أنهم يضلون من لا يعلم أنهم ضُلاّل وأنهم على الباطل، وفى ذلك تنبيه إلى أن كيدهم لايروج على ذى لب ، وإنما يقلدهم الجهلة الأغبياء ، وزيادة تعيير وذم لهم ، إذ كان عليهم إرشاد الجاهلين لا إضلالهم .

وقُصارى القول - إن هؤلاء قد دنّسوا أنفسهم ، واختاروا لها الكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمسلمين ، فكانوا السبب فيما احتملوه من الأوزار والآصار ، كما كانوا واسطة فى تحمل من اتبعوهم هذه الأوزار أيضا، والله تعالى لم يظلمهم فيما جازاهم به. بل هم الذين قسطوا وجاروا على أنفسهم ، فاستحقوا هذا الجزاء .

ثم هددهم وتوعدهم فقال :

(ألا ساء ما يزرون) أى بئس شيئا يرتكبونه من الإثم والذنب ما يفعلون .

ثم بين لهم أن غائلة مكرهم عائدة إليهم ، ووبال ذلك لاحق بهم كدأب من قبلهم من الأمم الخالية الذين أصابهم من العذاب ماأصابهم بتكذيبهم لرسلهم فقال :

(قد مكر الذين من قبلهم فأتى الله بنيانهم من القواعد فخرّ عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون) أى إن حال من قبلهم وقد دبروا الحيل ونصبوا الحبائل ليمكروا بها رسل الله فأبطلها الله وجعلها سبيلا لهلاكهم ، كحال قوم بنوا بنيانا وعَمَدوه بالأساطين ، فضُعْضِعت أساطينه ، وسقط عليهم السقف ، فهلكوا تحته من حيث لايشعرون بسقوطه ـ فما نصبوه من الأساطين وظنوه سبب القوّة والتحصين فى البنيان صار سبب الهلاك ، كذلك هؤلاء كانت عاقبة مكرهم وبالاً عليهم ، ونحو الآية قولهم فى المثل : من حفر لأخيه جُبًّا ، وقع فيه منكبًّا .

وخلاصة ذلك — إن الله أحبط أعمالهم وجعلها وبالا عليهم ونقمة لهم .

وبعد أن بين سبحانه ماحل بأصحاب المكر فى الدنيا من العذاب والهلاك ، بين حالهم فى الآخرة فقال :

(ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائى الذين كنتم تشاقون فيهم) أى ثم إن ربك يوم القيامة يخزيهم بعذاب أليم ، ويقول لهم حين ورودهم عليه على سبيل الاستهزاء والسخرية : أين الذين كنتم تزعمون فى الدنيا أنهم شركائى ، وهلا تُحْضِرونهم اليوم ليدفعوا عنكم مايحل بكم من العذاب ، فقد كنتم تعبدونهم فى الدنيا وتتولّونهم ، والولىّ ينصر وليّه .

والمراد من المشاقة فيهم مخاصمة الأنبياء وأتباعهم فى شأنهم وزعمهم أنهم شركاء حقا حين بيّنوا لهم ذلك ، والمراد بالاستفهام عن ذلك الاستهزاء والتبكيت والاحتقار لشأنهم ، إذ كانوا يقولون : إن صح ماتدعون إليه من عذابنا فالأصنام تشفع لنا .

والخلاصة — إنه لاشركاء ولا أماكن لهم .

ثم ذكر مقال الأنبياء والمرسلين فى شأنهم يوم القيامة .

(قال الذين أوتوا العلم إن الخزى اليوم والسوء على الكافرين) أى قال الذين

أوتوا العلم بدلائل التوحيد وهم الأنبياء صلوات الله عليهم والمؤمنون الذين كانوا يدعونهم فى الدنيا إلى دينهم ، فيجادلون وينكرون عليهم : إن الذل والهوان والعذاب يوم الفصل على الكافرين بالله وآياته ورسله - ومرادهم بهذه المقالة الشماتة وزيادة الإهانة للكافرين .

ثم بين أن الكافرين الذين يستحقون هذا العذاب هم الذين استمر كفرهم إلى أن تتوفاهم الملائكة وهم ظالموا أنفسهم فقال :

(الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) أى الكافرين الذين تقبض ملائكة الموت أرواحهم وهم ظالمو أنفسهم ومعرّضوها للعذاب المخلّد بكفرهم ، وأى ظلم للنفس أشد من الكفر ؟

ثم ذكر حالهم حينئذ من الخضوع والمذلة فقال :

(فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء) أى فاستسلموا وانقادوا حين عاينوا العذاب قائلين: ما كنا نشرك بربنا أحدا ، وهم قد كذبوا على ربهم واعتصموا بالباطل رجاء النجاة .

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عنهم : « وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » .

ثم أكذبهم سبحانه فيما قالوا فقال :

(بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون) أى بل كنتم تعملون أعظم السوء وأقبح الآثام والله عليم بذلك ، فلا فائدة لكم فى الإنكار والله مجازيكم بأفعالكم .

ثم بين مايترتب على قبيح أفعالهم فقال :

(فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيهم فلبئس مثوى المتكبرين) أى فادخلوا طبقات جهنم ، وذوقوا ألوانا من العذاب ، بما دنستم به أنفسكم من الإشراك بربكم، واجتراحكم عظيم الموبقات والمعاصى - خالدين فيها أبدا ، وبئس المقيل والمقام دار الذل والهوان لمن كان متكبرا عن اتباع الرسل والاهتداء بالآيات التى أنزلت عليهم ، وما أفظعها من دار ، وصفها ربنا بقوله : « لاَ يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا » .

وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا خَيْرًا ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ ، وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ ، كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ (٣١) الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أحوال المكذبين بالله ورسوله الذين ينكرون وحيه ويقولون إن محمدا قد لفق أساطير الأولين وترّهاتهم ونقلها للناس ، وادّعى أنها من رب الأرض والسموات ، وذكر ماسينالهم من النكال والوبال ، إذ يدخلون جهنم خالدين فيها كفاء ما اجترحت أيديهم من الآثام وكسبته من المعاصي - أردف ذلك وصف المؤمنين الذين إذا سئلوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا ، وذكر ما أعدّه لهم من الخير والسعادة في جنات تجرى من تحتها الأنهار جزاء وفاقا لما أحسنوا من العمل وأتوْا به من جميل الصنع .

الإيضاح

(وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم ؟ قالوا خيرا) أى وقيل للذين خافوا عقاب ربهم: أىّ شىء أنزله ربكم؟ قالوا أنزل خيرا وبركة ورحمة لمن اتبع دينه وآمن برسوله.

روى ابن أبي حاتم عن السُّدّى قال : اجتمعت قريش فقالوا إن محمدا رجل حلو اللسان إذا كلمه الرجل ذهب بعقله ، فانظروا ناسا من أشرافكم المعدودين المعروفة أنسابهم ، فابعثوهم فى كل طريق من طرق مكة على رأس ليلة أو ليلتين ، فمن جاء يريده فردوه عنه ، فخرج ناس فى كل طريق ، فكان إذا أقبل

الرجل وافدا لقومه ينظر مايقول محمد ، ووصل إليهم قال أحدهم أنا فلان بن فلان فيعرّفه نسبه و يقول له : أنا أخبرك عن محمد . إنه رجل كذاب لم يتبعه على أمره إلا السفهاء والعبيد ومن لاخير فيهم ، وأما شيوخ قومه وخيارهم فمفارقون له ، فيرجع الوافد ، فذلك قوله تعالى : (وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين) فإن كان الوافد ممن عزم الله له الرشاد فقالوا له مثل ذلك ، قال : بئس الوافد لقومى إن كنت جئت حتى إذا بلغت مسيرة يوم رجعت قبل أن ألقى هـذا الرجل وأنظر مايقول ، وآتى قومى ببيان أمره ، فيدخل مكة فيلقى المؤمنين فيسألهم ماذا يقول محمد ؟ فيقولون خيرا .

ثم فصلوا هذا الخير فقالوا :

(للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة) أى للذين آمنوا بالله ورسوله وأطاعوه فى هذه الدنيا ، ودعَوْا عباده إلى الإيمان والعمل بما أمر به ــ مثوبة حسنة من عند ربهم ، كفاء ماقدموا من عمل صالح وخير عميم .

ونحو الآية قوله : « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

ثم ذكر جزاءهم فى الآخرة وما أعدّ لهم من جزيل النعم فقال :

(ولدار الآخرة خير) من الحياة الدنيا ، والجزاء فيها أتمّ من الجزاء فى تلك .

ونحو الآية قوله : « وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا » الآية ، وقوله : « وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ » وقوله لرسوله :

« وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى » .

وفصل هذا الجزاء بقوله :

(ولنعم دار المتقين . جنات عدن يدخلونها تجرى من تحتها الأنهار) أى ولنعمت

الدار للمتقين جنات إقامة تجرى من بين قصورها وأشجارها الأنهار ، حسنت مستقرا ومقاما .

ثم بين أن نعمها غير ممنوعة ولا مقطوعة فقال :

(لهم فيها مايشاءون) أى للذين أحسنوا فى هذه الدنيا فى جنات عدن ما يشاءون مما تشتهى أنفسهم وتقرّ به أعينهم كما قال : « وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

ثم ذكر أن هذا جزاء لهم على أعمال البر والتقوى فقال :

(كذلك يجزى الله المتقين) أى مثل ذلك الجزاء الأوفى يجزى الله الذين اتقوا الشرك والمعاصى .

وفى هذا حث للمؤمنين على الاستمرار على التقوى ، وحث لغيرهم على تحصيلها .

ثم وصف الله المتقين بقوله :

(الذين تتوفاهم الملائكة طيبين) قال الراغب : الطيب من الناس من تعرّى من نجاسة الجهل والفسق وقبائح الخصال ، وتحلّى بالعلم والإيمان ومحاسن الأعمال ، وهذا إيضاح لقول مجاهد : الطيب من تزكو أقواله وأفعاله .

(وقوله طيبين) كلمة مختصرة جامعة لكثير من المعانى ، يدخل فيها إتيانهم بكل ما أُمروا به ، واجتنابهم كل مانهوا عنه ، واتصافهم بفضائل الأخلاق وجميل السجايا ، وبراءتهم من ذميم الرذائل ، وتوجههم إلى حضرة القدس ، وعدم اشتغالهم بعالم الشهوات واللذات الجسمانية ، ويتبع ذلك أنه يطيب لهم قبض أرواحهم ، لأنها لم تقبض إلا مع البشارة بالجنة حتى كأنهم مشاهدوها ، ومن هذه حاله لا يألم بالموت كما قال : « إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ، وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ . نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ . نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ » .

ثم حكى ماتقوله الملائكة بشرى لهم فقال :

(يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) أى تقول لهم الملائكة : سلام عليكم ، لايحيق بكم مكروه بعدُ، ادخلوا الجنة التى أعدها لكم ربكم ، ووعدكموها بما قدمتم من عمل ، وبما دأبتم على تقواه وطاعته ، والمراد من قوله (ادخلوا الجنة) البشارة بالدخول فيها بعد البعث إذا أريد الدخول بالأرواح والأبدان، فإن أريد الدخول بالأرواح فحسبُ كان ذلك حين التوفى كما يشير إليه قوله صلى الله عليه وسلم « القبر إما روضة من رياض الجنة ، أو حفرة من حفر النار » .

أخرج ابن جرير والبيهقى عن محمد بن كعب القُرَظى قال : إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال : السلام عليك ياولىّ الله ، الله يقرأ عليك السلام وبشره بالجنة » اه .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ ، كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤) .

تفسير المفردات

ينظرون : ينتظرون ، وأمر ربك : هو الهلاك وعذاب الاستئصال ، وحاق بهم أى أحاط بهم ، وخص استعمالا بإحاطة الشر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر طعن المشركين فى القرآن بنحو قولهم : إنه أساطير الأولين ، وإنه قول شاعر ، ثم هددهم بضروب من التهديد والوعيد ، ثم أتبعه بالوعد بالثواب لمن صدق به ـ قفّى على ذلك ببيان أن الكفار لايزدجرون عن أباطيلهم إلا إذا جاءتهم

الملائـكة قابضة أرواحهم، أو يأتيهم عذاب الاستئصال، فلا يُبْقِى منهم أحدا، ثم أتبعه ببيان أن هؤلاء ليسوا ببدع فى الأمم ، فقد فعل من قبلهم مثل فعلهم فأصابهم الهلاك جزاء مافعلوا ، وما ظلمهم الله ولـكن هم قد ظلموا أنفسهم: « إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » .

الايضاح

(هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائـكة) أى ماينتظر كفار مكة الذين قالوا إن القرآن أساطير الأولين ، إلا أن تأتيهم الملائـكة تقبض أرواحهم .

(أو يأتى أمر ربك) بالعذاب فى الدنيا كما فعل بأسلافهم من الـكفار، فيرسل عليهم الصواعق ، أو يخسف بهم الأرض ، أو يأتيهم العذاب من حيث لايشعرون ، وهذا تهديد لهم على تماديهم فى الباطل واغترارهم بالدنيا .

وخلاصة هذا — حثهم على الإيمان بالله ورسوله ، والرجوع إلى الحق قبل أن ينزل بهم مانزل بمن قبلهم من السالفين المـكذبين لرسلهم .

ثم ذكر أنهم ليسوا بأول من كذب الرسل فقال :

(كذلك فعل الذين من قبلهم) أى هكذا تمادى أسلافهم فى شركهم حتى ذاقوا بأسنا ، وحل بهم عذابنا ونـكالنا .

ثم ذكر أن مايصيبهم جزاء لما كسبت أيديهم فقال :

(وما ظلمهم الله ولـكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى وما ظلمهم الله بإنزال العذاب بهم ، لأنه أعذر إليهم ، وأقام حججه عليهم ، بإرسال رسله، و إنزال كتبه ، ولـكن ظلموا أنفسهم بمخالفة الرسل وتـكذيبهم ما جاءوا به .

ثم أعقبه بذكر ماترتب على أعمالهم فقال :

(فأصابهم سيئات ماعملوا وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون) أى فلهذا أصابتهم

عقوبة الله على مافعلوا ، وأحاط بهم عذابه الأليم ، جزاء ما كانوا يسخرون من الرسل حين توعدوهم بعقابه .

ونحو الآية قوله : « هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ » .

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ ، كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ، فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٧) .

تفسير المفردات

الطاغوت: كل معبود دون الله، من شيطان وكاهن وصنم وكل من دعا إلى ضلال، ويقع على الواحد كقوله « يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ » وعلى الجمع كقوله : «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ » حقت : وجبت وثبتت بالقضاء السابق فى الأزل ، لإصراره على الكفر والعناد .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن هؤلاء المشركين لايزدجرون إلا إذا جاءتهم الملائكة بالتهديد والوعيد ، أو أتاهم عذاب الاستئصال ، كما حدث لمن قبلهم من الأمم جزاء استهزائهم برسل الله ــ قفّى على ذلك ببيان أنهم طعنوا فى إرسال الأنبياء جملة وقالوا

إنا مجبورون على أعمالنا ، فلا فائدة من إرسالهم ، فلو شاء الله أن نؤمن به ولا نشرك به شيئا ونحل ما أحله ولا نحرم شيئا مما حرمنا لكان الأمر كما أراد ، لكنه لم يشأ إلا ما نحن عليه ، فما يقوله الرسل إنما هو من تلقاء أنفسهم لا من عند الله .

وقد رد الله عليهم مقالهم بأنه كلام قد سبق بمثله المكذبون من الأمم السالفة ، وما على الرسل إلا التبليغ وليس عليهم الهداية ، ولم يترك الله أمة دون أن يرسل إليها هاديا يأمر بعبادته ، وينهاهم عن الضلال والشرك ، فمنهم من استجاب دعوته ، ومنهم من أضله الله على علم ، فحقت عليهم كلمة ربك ، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، ثم أمرهم بالضرب فى الأرض ليروا آثار أولئك المكذبين الذين أخذوا بذنوبهم ، ثم ذكّر رسوله بأن الحرص على إيمانهم لاينفعك شيئا ، فإن الله لا يخلق الهداية جبرا وقسرا فيمن يختار الضلالة لنفسه ، كما لايجد أحداً يدفع عنه بأس الله ونقمته .

الايضاح

(وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شىء) أى وقال الذين أشركوا بالله فعبدوا الأصنام والأوثان من دونه تعالى معتذرين عما هم عليه من الشرك محتجين بالقدر : ما نعبد هذه الأصنام إلا لأنه قد رضى عبادتنا لها ، ولا حرّمنا ما حرمنا من البحائر والسوائب والوصائل ونحو ذلك إلا لأنه قد رضى ذلك منا ، ولو كان كارها لما فعلنا لهدانا إلى سواء السبيل ، أو لعجّل لنا العقوبة وما مكننا من عبادتها .

وقد رد الله عليهم شبهتهم بقوله :

(كذلك فعل الذين من قبلهم) أى ومثل ذلك الفعل الشنيع فعل الذين من قبلهم من الأمم ، واستن هؤلاء سنتهم وسلكوا سبيلهم فى تكذيب الرسول واتباع أفعال آبائهم الضلاّل .

ثم بين خطأهم فيما يقولون و يفعلون فقال :

(فهل على الرسل إلا البلاغ المبين) أى فهل على الرسل الذين امِروا بتبليغ رسالات ربهم من أمره ونهيه إلا إبلاغ الرسالة وإيضاح طريق الحق وإظهار أحكام الوحى التى منها أن مشيئته تعالى تتعلق بهداية مَن وجَّه همته إلى تحصيل الحق كما قال « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا » وليس من وظيفتهم إلجاء الناس إلى الإيمان شاءوا أو أبَوْا ، فإن ذلك ليس من شأنهم ، ولا من الحكمة التى عليها مدار التكليف حتى يستدل بعدم ظهور آثارها على عدم حقية الرسل أو على عدم تعلق مشيئة الله بذلك

وقصارى هذا — إن الثواب والعقاب لابد فيهما من أمرين : تعلق مشيئته تعالى بوقوع أحدهما ، وتوجيه همة العبد إلى تحصيل أسبابه وصرف اختياره إلى الدأب على إيجاده ، وإلا كان كل من الثواب والعقاب اضطراريا لا اختياريا ، والرسل ليس من شأنهم إلا تبليغ الأوامر والنواهى ، أما العمل بها إلجاء وقسرا فليس من وظيفتهم لا فى كثير ولا قليل .

ثم بين سبحانه أن بعثة الرسل أمر جرت به السنة الإلهية فى الأمم كلها وجُعِلت سببا لهدى من أراد الله هدايته ، وزيادة ضلال من أراد ضلاله كالغذاء الصالح ينفع المزاج السوىّ ويقوّيه ، ويضر المزاج المنحرف ويفنيه فقال :

(ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) أى ولقد أرسلنا فى كل أمة سلفت قبلكم رسولا كما بعثنا فيكم رسولا ، فقال لهم : اعبدوا الله وحده لا شريك له ، واحذروا أن يغويكم الشيطان ويصدكم عن سبيل الله فتضلوا .

ونحو الآية قوله : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ » وقوله : « وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ؟ » .

وإجمال القول — إن المشيئة الشرعية للكفر منتفية ، لأنه تعالى نهاهم عن ذلك على ألسنة رسله ، والمشيئة الكونية وهى تمكين عباده من الكفر وتقديره لهم

بحسب اختيارهم وصرف همتهم إلى تحصيل أسبابه ، لاحجة لهم فيها ، لأنه تعالى خلق النار وجعل أهلها من الشياطين وأهل الكفر ، وهو لايرضى لعباده الكفر ، وله فى ذلك حجة ناصعة وحكمة بالغة .

ثم بين سبحانه أنه أنكر على عباده المكذبين كفرهم بإنزال العقوبة بهم فى الدنيا بعد إنذار الرسل فقال :

(فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة) أى فمن بعثنا فيهم رسلنا من هداه الله ووفقه لتصديقهم وقبول إرشادهم والعمل بما جاءوا به ، ففازوا وأفلحوا ونجوا من عذابه ، ومنهم من جاروا عن قصد السبيل ، فكفروا بالله وكذبوا رسله واتبعوا الطاغوت ، فأهلكهم بعقابه ، وأنزل بهم شديد بأسه الذى لايردّ عن القوم المجرمين .

(فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) أى فسيروا فى الأرض التى كان يسكنها القوم الظالمون ، والبلاد التى كانوا يعمرونها كديار عاد وثمود ومن سار سيرتهم ممن حقت عليه الضلالة ، وانظروا إلى آثار سخطنا عليهم ، لعلكم تعتبرون بما حل بهم .

ثم خاطب سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم مسليا له على مايراه من جحود قومه وشديد إعراضهم ومبالغتهم فى عنادهم ، مع حدَبه عليهم وعظيم رغبته فى إيمانهم ، ومبينا له أن الأمر بيد الله وليس له من الأمر شىء فقال :

(إن تحرص على هداهم فإن الله لايهدى من يضل) أى إن تحرص أيها الرسول على هداية قومك ـ لاينفعهم حرصك إذا كان الله يريد إضلالهم بسوء اختيارهم وتوجيه عزائمهم ، إلى عمل المعاصى والإشراك بربهم .

ونحو الآية قوله : « إِنَّكَ لَاتَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ » وقوله حكاية عن مقالة نوح لقومه : « وَلاَ يَنْفَعُكُمْ نُصْحِى إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ » وقوله : « مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ » .

وجمل القول — إن من اختار الضلالة ووجّه همته إلى تحصيل أسبابها فالله سبحانه لا يخلق فيه الهداية قسرا و إلجاء ، لأن مدار الإيمان والكفر الاختيار لا الإلجاء والاضطرار .

(وما لهم من ناصرين) أى وما لهم ناصر ينصرهم من الله إن أراد عقوبتهم كما قال : « أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ » .

وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لاَ يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ ، بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ، وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠) .

تفسير المفردات

الجهد ، بفتح الجيم : المشقة : و بضمها . الطاقة ، وجهد أيمانهم : أى غاية اجتهادهم فيها ، و بلى : كلة جواب كنعم لـكنها لا تقع إلا بعد النفى فتثبت ما بعده ، وعدا عليه حقا : أى وعد ذلك وعدا عليه حقا ، أى ثابتا متحققا لا شك فيه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه حجتهم وقولهم إنه لا حاجة إلى الأنبياء جميعا ، لأنا مجبورون فيما نفعل ، وأنه لو شاء الله أن نهتدى لـكان ، دون حاجة إلى إرسال الأنبياء ، وردّه عليهم بأن الحاجة إليهم إنما هى فى تبليغ ما أمر به وترك ما نهى عنه ولا يلزمون أحدا بإيمان ولا كفر — أردف هذا بشبهة أخرى لهم ، إذ قالوا إنما نحتاج إلى الأنبياء لو كان لنا عودة إلى حياة جديدة بعد الموت فيها ثواب وعقاب ، ولـكن

العودة إلى حياة أخرى غير ممكنة ولا معقولة ـ ذاك أن الجسم إذا تفرق وذهبت أجزاؤه كل مذهب امتنع أن يعود بعينه ليحاسب ويعاقب ، فرد الله عليهم ماقالوا بأن هذا ممكن ، وقد وعد عليه وعدا حقا ، وأنه فعل ذلك ليميز الخبيث من الطيب والعاصى من المطيع ، وأيضا فإيجاده تعالى للأشياء لايتوقف على سبق مادة ولا آلة ، بل يقع ذلك بمحض قدرته ومشيئته ، وليس لقدرته دافع ولا مانع .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى العالية قال : كان لرجل من المسلمين على رجل من المشركين دين فأتاه يتقاضاه فكان فيما تكلم به ، والذى أرجوه بعد الموت إنه لكذا وكذا ، فقال له المشرك : إنك لتزعم أنك تُبْعَث من بعد الموت ، وأقسم جهد يمينه لايبعث الله من يموت ، فأنزل الله (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) الآية .

وأخرج هؤلاء عن أبى هريرة قال: « قال الله : سبّنى ابن آدم ولم يكن ينبغى له أن يسبنى ، وكذّبنى ولم يكن ينبغى له أن يكذبنى، فأما تكذيبه إياى فقال (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت) وقلت : (بلى وعدا عليه حقا) وأما سبه إياى فقال : (إن الله ثالث ثلاثة) وقلت : (هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد) » .

الايضاح

(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لايبعث الله من يموت) أى إنهم اجتهدوا فى الحلف، وأغلظوا فى الأيمان ، أنه لايقع بعث بعد الموت ، وهذا استبعاد منهم لحصوله، من جَرَّاء أن الميت يفنى ويُعْدَم ، والبعث إعادة له ، و إعادة المعدوم مستحيلة .

وقد رد الله عليهم وكذبهم بقوله :

(بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لايعلمون) أى بلى سيبعثه الله بعد مماته ، وقد وعد بذلك وعدا حقا لابد منه ، ولكن أكثر الناس لجهلهم بشئون الله وصفات كماله من علم وقدرة وحكمة ونحوها ، لايعلمون أن وعد الله لابد من نفاذه

وأنه باعثهم بعد مماتهم يوم القيامة أحياء ، ومن قِبَل هذا جَرُءوا على مخالفة الرسل ، ووقعوا فى الكفر والمعاصى .

ثم ذكر سبحانه الحكمة فى المعاد ، وقيام الأجساد يوم التناد فقال :

(ليبين لهم الذى يختلفون فيه) أى بل يبعثهم ليبين لهم وجه الحق فيما جاء به الرسل وخالفتهم فيه أممهم، فيمتاز الخبيث من الطيب، والمطيع من العاصى ،والظالم من المظلوم ، إلى نحو أولئك مما كان مدار دعوة أولئك الرسل وأنكرته الأمم الذين أرسلوا إليهم ، ويجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى .

(وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين) أى وليعلم الذين جحدوا وقوع البعث والجزاء أنهم كانوا كاذبين فى قولهم : لايبعث الله من يموت ، وسيدعُّون إلى نار جهنم دعًّا ، وتقول لهم الزبانية : « هٰذِهِ النَّارُ الَّتِى كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ . أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَاتُبْصِرُونَ . اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْلَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

ثم أخبر سبحانه عن كامل قدرته،وأنه لايعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء فقال:

(إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) أى إنا إذا أردنا أن نبعث من يموت فلا تعب علينا ولا نصَب فى إحيائه ولا بعثه ، لأنا إذا أردنا ذلك فإنما نقول له: كن فيكون ، لامعاناة فيه ، ولا كُلفَة علينا .

ونحو الآية قوله : « فَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » وقوله : « وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » وقوله : « مَاخَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ » .

وخلاصة هذا — إنه تعالى مثّل حصول المقدورات وَفق مشيئته، وسرعة حدوثها حين إرادته ، بسرعة حصول المأمور حين أمر الآمر وقوله ، دون هوادة ولا تراخ .

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) .

المعنى الجملى

بعد أن حكى سبحانه أن الكفار أقسموا بالله جهد أيمانهم على إنكار البعث والقيامة ، وتمادَوْا فى الغىّ والضلالة ، (ومن هذه حاله فليس بالعسير عليه أن يقدم على إيذاء المؤمنين بألوان من الإيذاء ، حتى يضطروهم إلى الهجرة عن الديار ومفارقة الأهل والأوطان) ـ ذكر هنا حكم تلك الهجرة و بين ما لهؤلاء المهاجرين من حسنات فى الدنيا وأجر فى الآخرة ، من جَرّاء أنهم فارقوا أوطانهم وصبروا وتوكلوا على الله .

وفى هذا ترغيب لغيرهم فى الهجرة واحتمال كل أذى فى سبيل الله احتسابا للأجر .

أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى هذه الآية قال : هؤلاء أصحاب محمد ، ظلمهم أهل مكة فأخرجوهم من ديارهم ، حتى لحق طوائف منهم بأرض الحبشة ، ثم بوّأهم الله المدينة بعد ذلك فجعلها لهم دار هجرة ، وجعل لهم أنصارا من المؤمنين .

الايضاح

(والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة) أى والذين فارقوا قومهم ودورهم وأوطانهم، وذهبوا إلى بلاد أخرى احتسابا لأجر الله ونيلا لمرضاته، من بعد ما نالهم من الكفار من أذى فى أنفسهم وأموالهم ـ لنسكننّهم فى الدنيا مساكن حسنة يرضَوْنها، إذ هم لما تركوا مساكنهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله عوضهم الله خيرا منها فى الدنيا ، فمكّن لهم فى البلاد ، وحكّمهم فى رقاب العباد ، وصاروا أمراء وحكاما ، وكان كل منهم للمتقين إماما .

ثم أخبر سبحانه أن ثوابه لهم فى الدار الآخرة أعظم مما أعطاهم فى الدنيا فقال :

(ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) أى ولثواب الله إياهم على هجرتهم من أجله فى الآخرة أكبر ، لأن ثوابه إياهم هنالك الجنة التى لايفنى نعيمها ، ولا يزول خيرها .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن عمر بن الخطاب أنه كان إذا أعطى الرجل من المهاجرين عطاءه يقول: خذ بارك الله لك فيه : هذا ما وعدك الله فى الدنيا ، وما ذَخَرَه لك فى الآخرة أفضل ثم تلا هذه الآية .

(الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون) أى هؤلاء هم الذين صبروا على ما نالهم من أذى قومهم ولم يرجعوا القهقرى ، وعلى مفارقة الوطن المحبوب ، وعلى احتمال الغربة بين ناس لم تجمعهم بهم ألفة نسب ولا جوار فى دار : وقد فوّضوا أمرهم إلى ربهم الذى أحسن لهم العاقبة فى الدنيا والآخرة ، وأعرضوا عن كل ما سواه .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَيَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٤٧) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ

وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠) .

تفسير المفردات

أهل الذكر : أهل الكتاب كما قال : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ » أى التوراة ، والبينة : هى المعجزات الدالة على صدق الرسول ، والزبر : واحدها زبور ، وهى كتب الشرائع والتكاليف التى يبلغها الرسل إلى العباد ، والذكر : القرآن ، لتبين للناس : أى لتوضح لهم ما خفى عليهم من أسرار التشريع ، والمكر : السعى بالفساد خفية ، والسيئات: أى الأعمال التى تسوءهم عاقبتها ، يخسف بهم الأرض: أى يزيلها من الوجود وهم على سطحها ، فى تقلبهم : أى فى أسفارهم وسيرهم فى البلاد البعيدة للسعى فى أرزاقهم كما قال : « لاَيَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلاَدِ » بمعجزين : أى بفائتين الله تعالى بالهرب والفرار، والتخوف : التنقص من قولهم تخوّفت الشيء وتخيفّته إذا تنقصته ، والمراد أنه ينقص أموالهم وأنفسهم قليلا قليلا حتى يأتى عليها الفناء جميعا، ويتفيأ : من الفيء يقال فاء الظل يفيء فيئا إذا رجع وعاد بعد ما أزاله ضياء الشمس ، والظلال : واحدها ظل وهو ما يكون أول النهار قبل أن تناله الشمس ، قال رؤبة : كل ما كانت عليه الشمس فزالت عنه فهو فيء ، وما لم يكن عليه الشمس فهو ظل ، واليمين والشمائل : جانبا الشيء الكثيف من الجبال والأشجار وغيرها ، والسجود : الانقياد والخضوع من قولهم سجدت النخلة إذا مالت لكثرة الحمل ، ومنه قوله : « واسجد لقرد السوء فى زمانه » أى اخضع له ، داخرون : أى صاغرون منقادون واحدهم داخر وهو الذى يفعل ما تأمره به شاء أو أبى ، يخافون ربهم : أى يخافون عقابه ، من فوقهم : أى بالقهر والغلبة كما قال : « وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ » .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر جلت قدرته ما قاله المشركون من أنهم لاحاجة بهم إلى الأنبياء ، لأن الحاجة إليهم إنما تدعو لو كانت هناك حياة أخرى يحاسبون فيها ، وهم لايصدقون بها ، وليس من المعقول أن تكون - أردف ذلك بشبهة أخرى لهم إذ قالوا هب الله أرسل رسولا فليس من الجائز أن يكون بشرا فالله أعلى وأجل من أن يكون رسوله واحداً من البشر ، فلو بعث إلينا رسولا لبعثه ملكا ، ثم أجاب عن هذه الشبهة بأن سنة الله أن يبعث رسله من البشر ، و إن كنتم فى شك من ذلك فاسألوا أهل الكتاب عن ذلك ؛ ثم هددهم أن يخسف بهم الأرض كما خسف بقارون ، أو يأتيهم بعذاب من السماء فيهلكهم بغتة كما فعل بقوم لوط ، أو يأخذهم وهم يتقلبون فى أسفارهم ومعايشهم، أو يأخذهم طائفة بعد أخرى ؛ ثم أعقب هذا بما يدل على كمال قدرته فى تدبير أحوال العالم العلوى والسفلى على أتم نظام وأحكم تقدير .

الايضاح

(وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم) أى وما أرسلنا من قبلك رسلا إلى أممهم للدعوة إلى توحيدنا والانتهاء إلى أمرنا - إلا رجالا من بنى آدم نوحى إليهم لا ملائكة .

ومجمل القول - إنا لم نرسل إلى قومك إلا مثل الذين كنا نرسلهم إلى من قبلهم من الأمم أى رسلا من جنسهم وعلى منهاجهم .

روى الضحاك عن ابن عباس أن الله لما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم أنكر العرب ذلك وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشرا فأنزل الله : « أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ » الآية .

ونحو الآية قوله : « وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ » وقوله : « مَا هَذَا

إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ؟ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ » وقوله : « وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً » .

(فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون) أى فاسألوا أهل الكتب السابقة من اليهود والنصارى : أبشرا كانت الرسل إليهم أم ملائكة ؟ فإن كانوا ملائكة أنكرتم وإن كانوا بشرا فلا تنكروا أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم رسولا .

(بالبينات والزبر) تقول العرب زبرت الكتاب : أى كتبته كما قال تعالى « وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ » أى وما أرسلنا رسلا إلا رجالا بالأدلة والحجج التى تشهد لهم بصدق نبوتهم ، والكتب التى تشمل التكاليف والشرائع التى يبلغونها من الله إلى العباد .

(وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) أى وأنزلنا إليك القرآن تذكيرا وعظة للناس ، لتعرفهم ما أنزل إليهم من الأحكام والشرائع وأحوال القرون المهلكة بأفانين العذاب جزاء عنادهم مع أنبيائهم ، وتبين لهم ما أشكل عليهم من الأحكام وتفصل لهم ما أجمل بحسب مراتبهم فى الاستعداد والفهم لأسرار التشريع .

(ولعلهم يتفكرون) أى وتوقعا منك ، وانتظارا لتفكرهم فى هاتيك الأسرار والعبر، وإبعادا لهم عن سلوك سبيل الغابرين من المكذبين حتى لا يصيبهم مثل ما أصابهم.

ثم حذّرهم وخوّفهم مغبّة ماهم فيه من العصيان والكفر فقال :

(أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون . أو يأخذهم فى تقلبهم فما هم بمعجزين . أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم) أى أفأمن الذين مكروا برسول الله من أهل مكة ، وراموا صد أصحابه عن الإيمان بالله أن يصيبهم بعقوبة من عنده :

(١) إما بأن يخسف بهم الأرض ويبيدهم من صفحة الوجود كما فعل بقارون من قبل .

(٢) وإما بأن يأتيهم بعذاب من السماء فجأة من حيث لايشعرون كما صنع بقوم لوط .

(٣) وإما بأن يأخذهم بعقوبة وهم فى أسفارهم يكدحون فى الأرض ابتغاء الرزق ، وماهم بممتنعين عليه فائتين له بالهرب والفرار كما قال : « وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى ليُملِى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلِته » .

(٤) وإما بأن يخيفهم أولا ثم يعذبهم بعد ذلك ، بأن يهلك طائفة فتخاف التى تليها حتى يأتى عليهم جميعا ، ويكون هذا أشد عليهم إيلاما ووحشة .

وختم الآية بما ختم به ، لبيان أنه لم يأخذهم بعذاب معجّل ، بل أخذهم بحالات يخاف منها كالرياح الشديدة ، والصواعق والزلازل، وفىذلك امتداد وقت، ومهلة يمكن فيها تلافى التقصير ، وهذا من آثار رحمته بعباده .

ثم ذكر آثار قدرته على خلقه فقال :

(أولم يروا إلى ما خلق الله من شىء يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله وهم داخرون) أى ألم ينظر هؤلاء الذين مكروا السيئات إلى ما خلق الله من الأجسام القائمة ، كالأشجار والجبال التى تتفيأ ظلالها ، وترجع من موضع إلى موضع عن اليمين والشمائل ، فهى فى أول النهار على حال ثم تتقلص ، ثم تعود إلى حال أخرى فى آخر النهار ، مائلة من جانب إلى جانب ومن ناحية إلى أخرى ، صاغرة منقادة لربها ، خاضعة لقدرته .

ثم ذكر ما هو كالدليل لما سلف فقال :

(ولله يسجد مافى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لايستكبرون) أى ولله يخضع مافى السموات وما فى الأرض مما يدِبّ عليها ، وكذلك ملائكته الذين فى السماء وهم لا يستكبرون عن التذلل والخضوع له .

(يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون) أى يخاف هؤلاء الملائكة

والدواب التى فى الأرض ربهم الذى هو من فوقهم بالقوة والقهر - أن يعذبهم إن عصوه ، ويفعلون ما أمرهم به ، فيؤدون حقوقه ويجتنبون سخطه .

ونحو الآية قوله : « وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ » .

ومجمل القول — إنه تعالى نبه إلى أنه لعظمته وكبريائه ، تدين له المخلوقات بأسرها، جمادها ونباتها وحيوانها ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة .

وَقَالَ اللّهُ لاَ تَتَّخِذُوا إِلٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلٰهٌ وَاحِدٌ ، فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ، أَفَغَيْرَ اللّهِ تَتَّقُونَ ؟ (٥٢) وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) .

تفسير المفردات

الرهبة : الخوف ، والدين : الطاعة ، والواصب : الدائم كما قال : « لَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ » وتجأرون : أى تتضرعون لكشفه . وأصل الجؤار : صياح الوحش ثم استعمل فى رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة .

المعنى الجملى

لما بين سبحانه فى الآيات السالفة أن كل ما سواه من جماد وحيوان وإنس وجن وملك - منقاد له وخاضع لسلطانه - أتبع ذلك بالنهى عن الشرك به ، وبين أن كل ماسواه فهو ملكه ، وأنه مصدر النعم كلها ، وأن الإنسان يتضرع إليه إذا مسه

الضر ، فإذا كشفه عنه رجع إلى كفره ، وأن الحياة الدنيا قصيرة الأمد ، ثم يعلم الكفار بعدئذ مايحل بهم من النكال والوبال جزاء لهم على سيء أعمالهم وقبيح أفعالهم .

الايضاح

(وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياى فارهبون) أى وقال الله لعباده : لا تتخذوا لى شريكا ولا تعبدوا سواى ، فإنكم إذا عبدتم معى غيرى جعلتموه لى شريكا ، ولا شريك لى ، إنما هو إله واحد ، ومعبود واحد ، وأنا ذاك ، فاتقونى وخافوا عقابى ، بمعصيتكم إياى ، بإشراككم بى غيرى ، أو عبادتكم سواى .

وإنما ذكر العدد مع أن صيغة التثنية مغنية عنه ، للدلالة على أن المنهى عنه هى الاثنينية وأنها منافية للألوهية ، كما أن وصف الإله بالوحدة فى قوله (إنما هو إله واحد) للدلالة على أن المقصود إثبات الوحدانية وأنها من لوازم الألوهية ، أما الألوهية فغير منكرة ولا متنازع فيها .

والخلاصة — إنه تعالى أخبر أنه لا إله إلا هو، وأنه لا تنبغى العبادة إلا له وحده

(وله ما فى السموات والأرض وله الدين واصبا) أى ولله ملك مافى السموات والأرض من شيء ، لا شريك له فى شيء من ذلك ، وهو الذى خلقهم ، وهو الذى يرزقهم ، وبيده حياتهم وموتهم ، وله الطاعة والإخلاص على طريق الدوام والثبات .

ثم ذكر ما هو كالنتيجة لذلك فقال :

(أفغير الله تتقون) أى أفبعد أن علمتم هذا ترهبون غير الله ، وتحذرون أن يسلبكم نعمة ، أو يجلب لكم أذى، أو ينزل بكم نقمة إذا أنتم أخلصتم العبادة لربكم ، وأفردتم الطاعة له ، وما لكم نافع سواه .

وإجمال ذلك — إنكم بعد أن عرفتم أن إله العالم واحد ، وعرفتم أن كل

ما سواه فهو فى حاجة إليه فى وجوده وبقائه ، كيف يعقل أن يكون لامرئ رغبة أو رهبة من غيره ؟

ولما بين أن الواجب ألا يتقى غير الله — ذكر أنه يجب ألا يشكر إلا هو فقال :

(وما بكم من نعمة فمن الله) أى وما بكم من نعمة فى أبدانكم من عافية وصحة وسلامة ، وفى أموالكم من نماء وزيادة ، فالله هو المنعم بها عليكم ، والمتفضل بها لاسواه ، فبيده الخير وهو على كل شىء قدير ، فيجب عليكم أن تشكروه على هذه النعم المتواصلة ، وإحسانه الدائم الذى لاينقطع .

أحسِنْ إلى الناس تستعبد قلوبهم		فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

(ثم إذا مسكم الضر فإليه تجأرون) أى ثم إذا أصابكم فى أبدانكم سقم ومرض أو حاجة عارضة ، أو شدة وجهد فى العيش ووسائل الحياة ، فإليه تضرُخُون بالدعاء وتستغيثون به ليكشف ذلك عنكم ، علما منكم أنه لا يقدر على إزالة ذلك إلا هو .

(ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون) أى ثم إذا وهب لكم ربكم العافية ، ورفع عنكم ما أصابكم من مرض فى أبدانكم ، أو شدة فى معاشكم ، بتفريج البلاء عنكم ، إذا جماعة منكم يجعلون لله شريكا فى العبادة ، فيعبدون الأوثان ، ويذبحون لها الذبائح ، شكرا لغير من أنعم بالفرج ، وأزال من الضر .

ونحو الآية قوله : (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا) .

قال السيد الألوسى فى تفسيره : وفى الآية ما يدل على أن صنيع العوام اليوم من الجؤار إلى غير الله تعالى ممن لايملك لهم بل ولا لنفسه نفعاً ولا ضرا — عند إصابة الضر بهم وإعراضهم عن دعائه تعالى بالكلية — سفه عظيم وضلال جديد

لكنه أشد من الضلال القديم ، ومما تقشعرّ منه الجلود ، لحصوله ممن يؤمن باليوم الموعود .

إن بعض المتشيخين قال لى وأنا صغير : إياك ثم إياك أن تستغيث بالله إذا خَطْب دهاك ، فإن الله تعالى لا يعجّل فى إغاثتك ، ولا يهمه سوء حالتك ، وعليك بالاستغاثة بالأولياء السالفين ، فإنهم يعجّلون فى تفريج كربك ، ويهمهم سوء ما حل بك ، فمجّ ذلك سمعى ، وهمى دمعى ، وسألت الله تعالى أن يعصمنى والمسلمين من أمثال هذا الضلال المبين ، ولكثير من المتشيخين اليوم كلمات مثل ذلك اه .

(ليكفروا بما آتيناهم) أى قيضنا لهم ذلك لتكون عاقبة أمرهم أن يجحدوا نعم الله عليهم ، وأنه هو المسدى لها ، وأنه هو الكاشف للنقم عنهم . وقد فعلوا ذلك لسوء استعدادهم وخبث طويتهم ، وبما ران على قلوبهم من الكفر والعصيان ، فجحدوا فضل الملك الديان ، وإحسان صاحب الطَّوْل والإحسان .

ثم توعدهم على سوء صنيعهم وأبان لهم عاقبة أمرهم فقال .

(فتمتعوا فسوف تعلمون) أى فتمتعوا فى هذه الحياة الدنيا إلى أن توافيكم آجالكم ، وتبلغوا الميقات الذى وُقّت لحياتكم وتمتعكم فيها ، وبعدئذ ستصيرون إلى ربكم ، فتعلمون عند لقائه وبال ما كسبت أيديكم ، وسوء مغبة أعمالكم ، وتندمون حين لا ينفع الندم .

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ، أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ

فِي التُّرَابِ ؟ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ، وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠) .

تفسير المفردات

تفترون : أى تكذبون ، سبحانه : أى تنزيها له عن النقائص ؛ والبشارة فى أصل اللغة إلقاء الخبر الذى يؤثّر فى تغير بشرة الوجه ، ويكون فى السرور والحزن فهو حقيقة فى كل منهما ، وعلى هذا جاءت الآية ، ثم خص فى عرف اللغة بالخبر السارّ ، ويقال لمن لقى مكروها قد اسودّ وجهه غما وحزنا ، ولمن ناله الفرح والسرور استنار وجهه وأشرق ، والكظيم : الممتلئ غما وحزنا ؛ والكظم مخرج النفس يقال أخذ بكظامه إذا أخذ بمخرج نفسه ، ومنه كظم غيظه أى حبسه عن الوصول إلى مخرج النفس ، ويتوارى : أى يستخفى ؛ وقد كان من عادتهم فى الجاهلية أن يتوارى الرجل حين ظهور آثار الطلق بامرأته ، فإن أُخْبِر بذكر ابتهج ، وإن أخبر بأنثى حزن وبقى متواريا أياما يدبّر فيها مايصنع ، ويمسكه : أى يحبسه كقوله (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ) والهون : الهوان والذل ، ويدسّه : أى يخفيه ، ومثل السوء : أى الصفة السوء ، وهى احتياجهم إلى الولد وكراهتهم للبنات خوف الفقر والعار ، ولله المثل الأعلى : أى الصفة العليا وهى أنه لا إله إلا هو ، وأن له جميع صفات الجلال والكمال .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه سُخْف أقوال أهل الشرك ، أردف ذلك بذكر قبائح أفعالهم التى تمجها الأذواق السليمة .

الإيضاح

حكى سبحانه بعض قبائح المشركين الذين عبدوا الأوثان والاصنام وعدّ منها :

(١) (ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا مما رزقناهم) أى ويجعل هؤلاء المشركون

للأصنام التى لا يعلمون منها ضرا ولا نفعا نصيبا مما رزقناهم من الحرث والأنعام وغيرهما مما خلق الله يتقربون به إليها ، وهذا إشراك منهم لما لا يعلمون منه الفائدة بالذى يعلمون أنه الذى هو خلقهم وهو الذى رزقهم وهو الذى ينفعهم وهو الذى يضرهم دون غيره ، وقد سبق تفصيل ذلك فيما حكى الله عنهم فى سورة الأنعام بقوله : « وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيباً فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا ، فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » .

ثم توعدهم على ما فعلوا فقال :

(تالله لتسألن عما كنتم تفترون) أى أقسم لأسألنكم عما افتريتموه واختلقتموه من الباطل ، ولأعاقبنكم على ذلك عقوبة تكون كِفاء كفرانكم نعمى ، وافترائكم علىّ .

ونحو الآية قوله : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » .

وهذا السؤال سؤال تأنيب وتقريع لهم على ما اجترحوا من أقوال وأفعال .

(٢) (ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون) أى ولقد بلغ من جهل هؤلاء المشركين وعظيم أباطيلهم أنهم يجعلون خلقهم ، ومدبّر شؤونهم ، واستحق شكرهم على جزيل نعمائه — البنات ، إذ قالت خزاعة : الملائكة بنات الله كما قال عز اسمه : « وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثاً » وعبدوها مع الله وقد أخطئوا فى ذلك خطأ كبيرا ، وضلوا ضلالا بعيدا ، إذ نسبوا إليه الأولاد ولا أولاد له ، وأعطوه منها أخسها وهى البنات وهم لا يرضونها لأنفسهم ، بل لا يرضون إلا البنين كما قال تعالى : « أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى ؟ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى » وقال : « أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ . وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ ؟ مَا لَكُمْ ، كَيْفَ تَحْكُمُونَ » .

والمراد من قوله ولهم ما يشتهون : أنهم يختارون لأنفسهم الذكور ويأنفون من البنات التى نسبوها إلى الله ، تعالى الله عن ذلك علوّا كبيرا .

قال ابن عباس يقول : تجعلون لى البنات ، ترتضونهن لى ولا ترتضونهنّ لأنفسكم.

ثم أكد ما سلف بقوله :

(وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب) أى وإذا بشر أحد هؤلاء الذين جعلوا لله البنات بولادة أنثى ظل وجهه مسودا كئيبا من الهم ممتلئا غيظا وحنقا من شدة ما هو فيه من الحزن ، يتوارى من الناس خجلا واستحياء : ولا يود أن يراه أحد من مساءته بما بشر بها ، ويدور بخلده أحد أمرين : إما أن يمسكها ويبقيها بقاء ذلة وهوان فلا يورّثها ولا يُعنى بها ، بل يفضّل الذكور عليها ، وإما أن يدسها فى التراب ويدفنها وهى حية ، وذلك هو الوأد المذكور فى قوله تعالى «وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ . بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ » .

ومعنى قوله (ألا ساء ما يحكمون) بئس ماقالوا ، وبئس ماقسموا ، وبئس مانسبوه إليه ، فإنهم بالغوا فى الاستنكاف من البنت من وجوه :

(١) اسوداد الوجه .

(٢) الاختفاء من القوم من شدة نفرتهم منها .

(٣) إنهم يُقدِمون على قتلها ووأدها ، خشية العار أو خوف الجوع والفقر .

ثم جعل تذييلا لما تقدم قوله :

(للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء) أى للذين لا يصدّقون بالمعاد والثواب والعقاب من المشركين ، صفة السوء التى هى كالمثل فى القبح ، من حاجتهم إلى الولد ، ليقوم مقامهم بعد موتهم ، وتفضيلهم للذكور للاستظهار بهم ، ووأدهم للبنات خشية العار أو الفقر ، وذلك يومئ إلى العجز والقصور والشح البالغ أقصى غاية .

(ولله المثل الأعلى) أى وله تعالى الصفة العليا ، وهى أنه الواحد المنزه عن الولد وأنه لا إله إلا هو ، وله صفات الكمال والجلال من القدرة والعلم والإرادة ونحو ذلك .

(وهو العزيز الحكيم) أى وهو المنيع تكبرا وجلالا ، لا يغلبه غالب ، الحكيم الذى لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة البالغة .

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ ، وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ (٦٢) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤) .

تفسير المفردات

المراد من الناس: العصاة، والأجل المسمى: يوم القيامة، ويجعلون: يثبتون وينسبون إليه ، وما يكرهون : هى البنات ، وتصف ألسنتهم الكذب : أى يكذبون ؛ كما يقال عينها تصف السحر أى هى ساحرة ، وقدها يصف الهيف أى هى هيفاء ، لا جرم : أى حقا ، مفرطون : أى مقدمون معجل بهم إليها من أفرطته إلى كذا أى قدمته ، ويقال لمن تقدم إلى الماء لإصلاح الدلاء والأرسان فارط وفرط ، وليهم : ناصرهم ومساعدهم ، اليوم : أى فى الدنيا .

المعنى الجملى

لما حكى سبحانه عن المشركين عظيم كفرهم وقبيح أفعالهم — بين هنا حلمه بخلقه مع ظلمهم وأنه يمهلهم بالعقوبة إظهارا لفضله ورحمته ، ولو آخذهم بما كسبت

أيديهم ماترك على ظهر الأرض دابة ، أما الظالم فبظلمه وأما غيره فبشؤمه كاقال سبحانه: « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » لكنه سبحانه يحلم ويستر ويُنظِر إلى أجل مسمى، ثم سلّى رسوله صلى الله عليه وسلم على ما كان يناله من أذى عشيرته بأن قومه ليسوا ببدع فى الأمم ، فقد أرسلنا رسلا إلى أمم من قبلك فكذبوهم فلك بهم أسوة ، فلا يحزنك تكذيبهم ولا تبخع نفسك عليهم أسى وحسرة .

الايضاح

(ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة) أى ولو يؤاخذ الله عصاة بنى آدم بمعاصيهم ماترك على ظهر الأرض دابة .

أخرج البيهقى وغيره عن أبى هريرة أنه سمع رجلا يقول : إن الظالم لا يضرّ إلا نفسه ، فقال لا والله ، بل إن الُحبارى فى وكرها لتموت من ظلم الظالم .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه كاد الجعل (الجعران) يهلك فى جحره بذنب ابن آدم ثم قرأ الآية .

وأخرج أحمد عن أبى هريرة أنه قال : ذنوب ابن آدم قتلت الجعل فى جحره ، ثم قال إى والله زمن غرق قوم نوح عليه السلام .

(ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) أى ولكن بحلمه يؤخر هؤلاء الظلمة فلا يعاجلهم بالعقوبة إلى أجل سماه الله لعذابهم ، فإذا جاء الوقت الذى وقت لهلاكهم لا يستأخرون عن الهلاك ساعة فيمهلون ولا يستقدمون قبله حتى يستوفوا أعمارهم ، وقد تقدم نظير هذا .

(ويجعلون لله ما يكرهون) أى وينسب هؤلاء المشركون إلى الله سبحانه ما يكرهون لأنفسهم من البنات والشركاء فى الرياسة .

(وتصف ألسنتهم الكذب أن لهم الحسنى) أى ويكذبون فيما يدعون إذ يزعمون

أن لهم العاقبة الحسنى عند الله وهى الجنة على تقدير وجودها ، فقد روى أنهم قالوا : إن كان محمد صادقا فى البعث فلنا الجنة بما نحن عليه ، فرد الله عليهم مقالهم بقوله :

(لاجرم أن لهم النار وأنهم مفرطون) أى حقا أن لهم النار وليس بعد عذابها عذاب، وأنه معجل بها إليهم وهم مقدمون لها .

ثم بين سبحانه أن هذا الصنيع الذى صدر من قريش قد حدث مثله من الأمم السالفة فى حق أنبيائهم فقال مسليا رسوله على ما كان يناله من الغم بسبب جهالاتهم.

(تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم) أى والله لقد أرسلنا رسلا من قبلك إلى أممهم بمثل ما أرسلناك به إلى أمتك ، من الدعاء إلى توحيد الله و إخلاص العبادة له ، وخلع الأنداد والأوثان ، فحسّن لهم الشيطان ما كانوا عليه مقيمين من الكفر به وعبادة الأوثان ، فكذبوا رسلهم وردّوا عليهم ما جاءوا به من عند ربهم ، وما كان ناصرهم فيما اختاروا إلا الشيطان، وبئس الناصر والمعين ، ولهم فى الآخرة عذاب أليم حين ورودهم إلى ربهم ، إذ لاتنفعهم إذ ذاك ولاية الشيطان كما لم تنفعهم فى الدنيا .

ثم ذكر سبحانه أنه ما أهلك من أهلك ، إلا بعد أن أقام الحجة ، وأزاح العلة فقال :

(وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) أى وما أنزلنا عليك كتابنا ، وما بعثناك به إلى عبادنا، إلا لتبين لهم مااختلفوا فيه من دين الله ، فيعرفوا الحق من الباطل ، وتقيم عليهم حجة الله التى بعثك بها ، وهو هدى للقلوب الضالة ، ورحمة لقوم يؤمنون به فيصدقون بما فيه ، ويقرءون بما تضمنه من أمر الله ونهيه ويعملون به .

وخلاصة ذلك — إن هذا الكتاب هو الفاصل بين الناس فيما يتنازعون فيه ، وأنه الهادى لهم إلى سبيل الرشاد .

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦) وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧) وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩) .

تفسير المفردات

المراد بحياة الأرض : إنباتها الزرع والشجر وإخراجها الثمر ، يسمعون : أى يسمعون سماع تدبر وفهم . قال الفراء والزجاج : النعم والأنعام واحد يذكر ويؤنث ، ولهذا تقول العرب هذه نعم وارد ، ورجحه ابن العربى فقال إنما يرجع التذكير إلى معنى الجمع والتأنيث إلى معنى الجماعة وقد جاء بالوجهين هنا وفى سورة المؤمنين ، والعبرة : الاعتبار والعظة ، والفرث : كثيف ما يبقى من المأكول فى الكرش والمِعَى ، خالصا : أى مصفًّى من كل ما يصحبه من مواد أخرى ، سائغا : أى سهل المرور فى الحلق ، يقال ساغ الشراب فى الحلق وأساغه صاحبه قال تعالى : « ولا يكاد يسيغه » والسكر : الخمر ، والرزق الحسن : الخل والرُّبُّ والتمر والزبيب ونحو ذلك ، وأوحى. ألهم وعلّم ، وبيوتا : أى أوكارا ؛ وأصل البيت مأوى الإنسان واستعمل هنا فى الوكر الذى تبنيه النحل لتعسيل فيه ، لما فيه من دقة الصنع وجميل الهندسة ، ويعرشون : أى يرفعون من الكروم والسقوف ، والسبل : الطرق واحدها سبيل ، والذلل واحدها ذلول : أى

منقادة طائعة ، والشراب العسل ، مختلف ألوانه من أبيض إلى أصفر إلى أسود بحسب اختلاف المرعى .

المعنى الجملى

بعد أن وعد المؤمنين بجنات تجرى من تحتها الأنهار، وأوعد الكافرين بنار تلظّى، جزاء ما دنّسوا به أنفسهم من الإشراك بربهم ونسبة البنات إليه وافترائهم عليه ما لم ينزل به سلطانا — عاد إلى ذكر دلائل التوحيد من قِبَل أنه قطب الرحى فى الدين الإسلامى وكل دين سماوى، ويليه إثبات النبوات والبعث والجزاء ، فبين أنه أنزل المطر من السماء لتحيا به الأرض بعد موتها ، وثنَّى بإخراج اللبن من الأنعام ، وثلث باتخاذ الخمر والخل والدِّبْس من الأعناب والنخيل ، وربّع بإخراج العسل من النحل وفيه شفاء للناس ، وقد بين أثناء ذلك كيف ألهم النحل بناء البيوت والبحث عن أرزاقها من كل فجٍّ .

الايضاح

(والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون) نبه سبحانه عباده إلى الحجج الدالة على توحيده ، وأنه لا تنبغى الألوهية إلا له ولا تصلح العبادة لشىء سواه ، فبين أن ذلك المعبود هو الذى أنزل من السماء مطراً ، فأنبت به أنواعا مختلفة من النبات فى أرض ميتة يابسة ، لا زرع فيها ولا عُشْب ، إن فى ذلك الإحياء بعد الموت لدليلا واضحا، وحجة قاطعة على وحدانيته تعالى وعلمه وقدرته لمن يسمع هذا القول سماع تدبر وفهم لما يسمع ، إذ لا عبرة بسماع الآذان ، فهو أشبه بسماع الحيوان .

وبعد أن ذكر نزول الماء من السحاب ذكر خروج اللبن من الضَّرْع ، وفيه أكبر الأدلة على قدرة القادر فقال : .

(وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين) أى وإن لكم أيها الناس لعظة فى الأنعام دالة على باهر قدرتنا ، وبديع صنعنا ، وواسع فضلنا ، ورحمتنا بعبادنا ، فإننا نسقيكم مما فى بطونها من اللبن الخالص من شائبات المواد الغريبة ، السهل التناول ، اللذيذ الطعم ، وهو متولد من بين فرث ودم .

فإن الله جلت قدرته جعل الحيوان يتغذى بما يأكل من نبات ولحوم ونحوها حتى إذا هضم المأكول تحول بإذنه تعالى إلى عصارة نافعة للجسم وفضلات تطرد إلى الخارج ، ومن هذه العصارة يتكون الدم الذى يسرى فى عروق الجسم لحفظ الحياة ، وبعض هذا الدم يذهب إلى الغدد التى فى الضرع فتحولها إلى لبن ، فكأنّ الصانع الحكيم جعلها مصنعا ومعملا لتحويل الدم إلى لبن ، وهكذا فى الجسم غدد أخرى كالغدد الأنفية للمخاط والغدد الدمعية للعين ، والغدد المنويّة التى تحول الدم إلى مادة التلقيح .

وبعد أن ذكر اللبن وبين أنه جعله شرابا سائغا للناس ، ثلّث بذكر ما يتخذ من الأشربة من ثمرات النخيل والأعناب فقال :

(ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا) أى ولكم أيضا عبرة فيما نسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب مما تتخذونه خمرا وخلا ودِبْسًا (عسل التمر) وتمرا .

روى عن ابن عباس أنه قال : السَّكَر ما حُرِّمَ من ثمرتيهما ، والرزق الحسن ما أُحِلّ من ثمرتيهما كالخل والرُّب (المربة) والتمر والزبيب ونحو ذلك .

(إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون) أى إن فى ذلك لآية باهرة لمن يستعملون عقولهم بالنظر والتأمل فى الآيات ، ويعتبرون بما يستخلص من العبر .

(وأوحى ربك إلى النحل) أى وألهم ربك النحل وألقى فى رُوعها ، وعلّمها أعمالا يتخيل منها أنها ذوات عقول .

وقد تتبع علماء المواليد أحوالها وكتبوا فيها المؤلفات بكل اللغات ، وخصصوا لها مجلات تنشر أطوارها وأحوالها ، وقد وصلوا من ذلك إلى أمور :

(١) إنها تعيش جماعات كبيرة قد يصل عدد بعضها نحو خمسين ألف نحلة ، وتسكن كل جماعة منها فى بيت خاص يسمى خلية .

(٢) إن كل خلية يكون فيها نحلة واحدة كبيرة تسمى الملكة أو اليعسوب ، وهى أكبرهم جثة وأمرها نافذ فيهم ، وعدد يتراوح بين أربعمائة نحلة وخمسمائة يسمى الذكور ، وعدد آخر من خمسة عشر ألفا إلى خمسين ألف نحلة ، ويسمى الشغالات أو العاملات .

(٣) تعيش هذه الفصائل الثلاث فى كل خلية عيشة تعاونية على أدق ما يكون نظاما، فعلى الملكة وحدها وضع البيض الذى يخرج منه نحل الخلية كلها ، فهى أم النحل، وعلى الذكور تلقيح الملكات وليس لها عمل آخر وعلى الشغالة خدمة الخلية وخدمة الملكات وخدمة الذكور ، فتنطلق فى المزارع طوال النهار لجمع رحيق الأزهار ثم تعود إلى الخلية فتفرز عسلا يتغذى به سكان الخلية صغاراً وكباراً . وتفرز الشمع الذى تبنى به بيوتا سداسية الشكل تخزن فى بعضها العسل ، وفى بعض آخر منها تربى صغار النحل ، ولا يمكن المهندس الحاذق أن يبنى مثل هذه البيوت حتى يستعين بالآلات كالمسطرة والفرجار (البرجل) . قال الجوهرى : ألهمها الله أن تبنى بيوتها على شكل سداسى حتى لا يحصل فيه خلل ولا فرجة ضائعة، كما عليها أن تنظف الخلية وتخفق بأجنحتها لتساعد على تهويتها ، وعليها أيضا الدفاع عن الملكة وحراستها من الأعداء كالنمل والزنابير وبعض الطيور .

ثم فسر سبحانه ما أوحى به إليها بقوله :

(أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون) أى اجعلى لك بيوتا فى الجبال تأوين إليها ، أو فى الشجر أو فيما يعرش الناس ويبنون من البيوت والسقف والكروم ونحوها .

(ثم كلى من كل الثمرات) أى ثم كلى أيتها النحل من كل ثمرة تشتهينها ، حلوة أو مُرّة أو بين ذلك .

(فاسلكى سبل ربك ذللا) أى فاسلكى الطرق التى ألهمك الله أن تسلكيها ، وتدخلى فيها لطلب الثمار ، ولا تعسر عليك وإن توعّرت ، ولا تضلّى عن العودة منها وإن بعُدت .

وبعد أن خاطب النحل أخبر الناس بفوائدها لأن النعمة لأجلهم فقال :

(يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه) أى يخرج من بطونها عسل مختلف الألوان ، فتارة يكون أبيض وأخرى أصفر ، وحينا أحمر بحسب اختلاف المرعى .

(فيه شفاء للناس) لأنه نافع لكثير من الأمراض ، وكثيرا ما يدخل فى تركيب العقاقير والأدوية .

روى البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدرى أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه فقال : إن أخى استطلق بطنه فقال له رسول الله (اسقه عسلا) فسقاه عسلا ، ثم جاء فقال يا رسول الله : سقيته عسلا فما زاده إلا استطلاقا ، قال (اذهب فاسقه عسلا (فذهب فسقاه عسلا ثم جاء فقال يارسول الله مازاده ذلك إلا استطلاقا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (صدق الله وكذب بطن أخيك ، اذهب فاسقه عسلا) فذهب فسقاه عسلا فبرئ .

وعلل هذا بعض الأطباء الماضين قال : كان لدى هذا الرجل فضلات فى المعدة ، فلما سقاه عسلا تحللت فأسرعت إلى الخروج فزاد إسهاله ، فاعتقد الأعرابى أن هذا يضره وهو فائدة لأخيه ، ثم سقاه فازداد التحلل والدفع ، وكلما سقاه حدث مثل هذا حتى اندفعت الفضلات الفاسدة المضرة بالبدن ، فاستمسك بطنه ، وصلح مزاجه ، وزالت الآلام والأسقام بإرشاده عليه السلام .

وروى البخارى عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« الشفاء فى ثلاثة فى شَرْطة مِحجم ، أو شَرْبة عسل ، أو كَيَّة بنار ، وأنهى أمتى عن الكَىّ » .

وقد أثبت الطب الحديث ما للعسل من فوائد ، أدع الكلام فيها ليتولى شرحها النطاسى الكبير المرحوم عبد العزيز إسماعيل باشا قال فى كتابه : [الإسلام والطب الحديث] .

ما أصدق الآية الكريمة ! « فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ » إن التركيب الكيماوى للعسل كما يلى :

من ٢٥ — ٤٠ ٪ دكستروز (جلوكوز) .
« ٣٠ — ٤٥ ٪ ليفيلوز .
« ١٥ — ٢٥ ٪ ماء .

والجلوكوز الموجود فيه بنسبة أكثر من أى غذاء آخر ، وهو سلاح الطبيب فى أغلب الأمراض ، واستعماله فى ازدياد مستمر بتقدم الطب ، فيعطى بالفم وبالحقن الشرجية وتحت الجلد وفى الوريد ، ويعطى بصفته مقويا ومغذيا ، وضد التسمم الناشئ من مواد خارجية كالزرنيخ والزئبق والذهب والكلوفرم والمورفين الخ ، وضد التسمم الناشىء من أمراض أعضاء الجسم مثل التسمم البولى والناشئ من أمراض الكبد ، والاضطرابات المعدية والمعوية ، وضد التسمم فى الحميات ، مثل التيفويد والالتهاب الرئوى والسحائى المخى والحصبة ، وفى حالات ضعف القلب ، وحالات الذبحة الصدرية ، وبصفة خاصة فى الارتشاحات العمومية الناشئة من التهابات الكلى الحادة وفى احتقان المخ وفى الأورام المخية الخ

وقد يقال: وما أهمية هذه الآية مع أن كل أنواع الغذاء لها فوائد ، وقد ذكر العسل لأنه غذاء لذيذ الطعم وبطريق المصادفة .

فالحقيقة هى أن أنواع الغذاء الأخرى لاتستعمل كعلاج إلا فيما ندر من الأمراض الناشئة عن نقصها فى الغذاء فقط ، وهذه الفواكه التى تشبه العسل فى الطعم ؛ فإن

السكر الذى فيها هو سكر القصب أو أنواع أخرى ، وليس فيها إلا نسبة ضئيلة من (الجلوكوز) الذى هو أهم عناصر العسل.

وإذا علمنا أن الجلوكوز يستعمل مع الأنسولين حتى فى حالة التسمم الناشئ عن مرض البول السكرى — علمنا مقدار فوائده ، وأن القرآن الكريم لم يذكره بطريق المصادفة ، ولكنه تنزيل ممن خلق الإنسان والنحل ، وعلم كلا منهما علاقته بالآخر اهـ .

كيف يتكون العسل

تمتص الشغالة رحيق الأزهار ، فينزل ويجتمع فى كيس فى بطنها ، وهناك يمتزج بعصارة خاصة فيتحول إلى عسل ، ولله در أبى العلاء إذ يقول :

والنحل يجنى المرّ من زهر الرُّبا ... فيعود شهدا فى طريق رُضابه

ثم تعود النحلة إلى الخلية فتفرز العسل من فمها فى البيوت الشمعية التى خصصت بتخزين العسل ، وكلما امتلأ بيت منها غطاه النحل بطبقة من الشمَع وانتقل إلى بيت آخر .

شمع النحل

تفرز الشغالة صفحات رقيقة صلبة من الشمع تخرجها من بين حلقات بطنها ، ثم تمضغها بفيها حتى تلين ، ويسهل تشكلها بحسب ما تريد ، فتستعملها فى بناء بيوتها السداسية الشكل .

فوائد النحل

(١) نأخذ منها العسل الذى هو غذاء لذيذ الطعم يحوى مقداراً كبيراً من المواد المفيدة للجسم .

(٢) نأخذ منها الشمَع الذى تصنع منه شموع الإضاءة .

(٣) تساعد على تلقيح الأزهار فتكون سبباً فى زيادة الثمار وجودة نوعها .

(إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون) أى إن فى إخراج الله من بطون النحل الشرابَ المختلف الألوان الذى فيه شفاء للناس — لدلالة واضحة على أن من سخر النحل، وهداها لأكل الثمرات التى تأكلها ، واتخاذها البيوت فى الجبال والشجر والعروش ، وأخرج من بطونها ما أخرج مما فيه شفاء للناس ، هو الواحد القهار الذى ليس كمثله شىء، وأنه لا ينبغى أن يكون له شريك ، ولا تصح الألوهة إلا له .

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَىْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِى الرِّزْقِ ، فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَى مَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ، أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) .

تفسير المفردات

أرذل العمر : أردؤه وأخسه ؛ يقال رذل الشىء يرذل رذالة وأرذله غيره قال تعالى حكاية عما قاله قوم شعيب له : « وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ » والحفدة : أولاد الأولاد على ما روى عن الحسن والأزهرى وواحدهم حافد ككتبة وكاتب : من الحفد وهو الخفة فى الخدمة والعمل ؛ يقال منه حفد يحفِد حفْدا وحُفودا وحَفَدانا : إذا أسرع كما جاء

فى القنوت (وإليك نسعى ونحفِد) والطيبات : اللذائذ ، والمراد بالباطل : منفعة الأصنام وبركتها ؟

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عجائب أحوال الحيوان ، وما فيها من نعمة للإنسان ؛ كالأنعام التى يتخذ من ضَرْعها اللبن ، والنحل التى يشتار منها العسل ، ويؤخذ منها الشمَع للاضاءة — أردف ذلك بيان أحوال الناس، فذكر مراتب أعمارهم ، وأن منهم من يموت وهو صغير ، ومنهم من يُعمَّر حتى يصل إلى أرذل العمر ، ويصير نسّاءً لا يحفظ شيئا ، وفى ذلك دليل على كمال قدرة الله ووحدانيته ، ثم ثنىَّ بذكر أعمال أخرى لهم وهى تفضيل بعضهم على بعض فى الرزق ، فقد يُرى أكيسُ الناس وأكثرهم عقلا وفهما يُفْنِى عمره فى طلب القليل من الدنيا وقلّ أن يتيسر له ، بينا يُرى أقلُّ الناس علما وفهما تتفتح له أبواب السماء ، ويأتيه الرزق من كل صوب ، وذلك دليل على أن الأرزاق قد قسمها الخلاق العليم كما قال : « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وقال الشافعى رحمه الله :

ومن الدليل على القضاء وكونه		بؤسُ اللبيب وطيبُ عيشِ الأحمقِ

ثم ثلث بذكر نعمة ثالثة عليهم ، إذ جعل لهم أزواجا من جنسهم ، وجعل لهم من هذه الأزواج بنين وحفدة ، ورزقهم المطعومات الطيبة من النبات كالثمار والحبوب والأشربة ، أو من الحيوان على اختلاف أنواعها .

الايضاح

(والله خلقكم ثم يتوفاكم ومنكم من يرد إلى أرذل العمر) أى والله أوجدكم ولم تكونوا شيئا أنتم ولا آلهتكم التى تعبدونها من دون الله، ثم وقَّت أعماركم بآجال مختلفة، فمنكم من تُعجَّل وفاته ، ومنكم من يهرم ويصير إلى أرذل العمر وأخسه ، فتنقص قواه

وتفسد حواسه ويكون فى عقله وقوته كالطفل كما قال : « وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى الْخَلْقِ » .

أخرج البخارى وابن مردويه عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى دعائه : « أعوذ بك من البخل والكسل وأرذل العمر وعذاب القبر وفتنة الدجال وفتنة المحيا والممات » وثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ بالله أن يُرَدّ إلى أرذل العمر ، ونُقِل عن على كرم الله وجهه أن أرذل العمر خمس وسبعون سنة ، وهذا ليس بالمطرد ولا بالكثير .

(لكى لا يعلم من بعد علم شيئا) أى إنما رده إلى أرذل العمر ليعود جاهلا كما كان حين طفولته وصباه ، لا يعلم شيئا مما كان يعلمه فى شبابه ، لأن الكبر قد أضعف عقله وأنساه ، فلا يعلم شيئا مما كان يعلم ، وقد انسلخ من عقله بعد أن كان كامل العقل.

وخلاصة ذلك — إنه يكون نسّاء ، فإذا كسب علما فى شىء لم يلبث أن ينساه ويزول من ساعته ، فيقول لك من هذا ؟ فتقول له هذا فلان ، فلا يمكث إلا هنيهة ثم يسألك عنه مرة أخرى .

(إن الله عليم قدير) أى إن الله عليم بكل شىء ، فيعلم وجه الحكمة فى الخلق والتوفى والرد إلى أرذل العمر ، ولا ينسى شيئا من ذلك ، وهو قدير على كل شىء فلا يعجزه شىء أراده .

ومجمل القول — إن ما يعرض فى الهرم من ضعف القوة والقدرة وانتفاء العلم يتنزه عن مثله المولى جل شأنه ، فهو كامل العلم تام القدرة ، لا يتغير شىء منهما بمرور الأزمنة كما يتغير علم البشر وقدرتهم .

ولما ذكر سبحانه تفاوت الناس فى الأعمار ذكر تفاوتهم فى الأرزاق فقال :

(والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق) أى والله تعالى جعلكم متفاوتين فى أرزاقكم ، فمنكم الغنى ومنكم الفقير ، ومنكم الملوك ومنكم المالك ، وأعطاكم من الرزق أكثر مما أعطى مماليككم ، ولم يجعل ذلك بحسن الحيلة وفضل العقل فحسب ، فكثيرا

ما نرى الحُوَّل القُلَّبَ لا يحصل إلا على الكفاف من الرزق بعد الجهد الجهيد ، بينما نرى الأحمق يتقلب فى نعيم العيش وزخرف الدنيا ، ولله درّ سفيان بن عيينة إذ يقول :

كم من قوىّ قوىٍّ فى تقلبه	مهذّب الرأى عنه الرزق منحرف
ومن ضعيفٍ ضعيفُ العقل مختَلِط	كأنه من خليج البحر يغترف

(فما الذين فضّلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء) أى فما الذين فضِّلوا بالرزق وهم الموالى بجاعلى رزقهم من الأموال وغيرها ـ شركة بينهم وبين مماليكهم بحيث يساوونهم فى التصرف فيها ويشاركونهم فى تدبيرها .

والخلاصة — إن الله جعلكم متفاوتين فى الرزق ، فرزقكم أكثر مما رزق مماليككم، وهم بشر مثلكم وإخوانكم ،فكان ينبغى أن تردوا فضل مارُزقتموه عليهم وتتساووا وإياهم فى الملبس والمطعم والمسكن ، لكنكم لم ترْضَوْا بهذه المساواة مع أنهم أمثالكم فى البشرية والمخلوقية لله عز وجل ، فما بالكم تشركون بالله فيما يليق إلا به من الألوهية والمعبودية بعض عباده ، بل أخس مخلوقاته .

وهذا مثل ضربه الله سبحانه لبيان قبح ما فعله المشركون من عبادة الأصنام والأوثان تقربا لهم .

ونحو الآية قوله: « هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ؟ » .

(أفبنعمة الله يجحدون ؟) إذا أضافوا بعض تلك النعم الفائضة عليهم من مولاهم إلى شركائهم ، وجعلوها أندادا ، وهى لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا .

ثم ذكر ضروبا أخرى من ضروب نعمه على عباده تنبيها إلى جليل إنعامه بها إذ هى زينة الحياة فقال :

(والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة) أى والله سبحانه جعل لكم أزواجا من جنسكم، تأنسون بهن، وتقوم بهن جميع مصالحكم

وعليهن تدبير معايشكم ، وجعل لكم منهن بنين وحفدة أى أولاد أولاد يكونون زهرة الحياة الدنيا وزينتها ، وبهم التفاخر والتناصر والمساعدة لدى البأساء والضراء .

(ورزقكم من الطيبات) أى ورزقكم من لذيذ المطاعم والمشارب ، وجميل الملابس والمساكن ما تنتفعون به إلى أقصى الحدود وأبعد الغايات .

(أفبالباطل يؤمنون) أى أفهم بعد هذا البيان الواضح ، والدليل الظاهر ، يوقنون بأن الأصنام شركاء لربهم ينفعونهم ويضرونهم ويشفعون لهم عنده ، وأن البحائر والسوائب والوصائل حرام عليهم كما حرمها لهم أولياء الشيطان ؟ .

وليس بعد هذا تأنيب وتوبيخ ، إذ ساقه مساق ما فيه الشك وطلب منهم الجواب عنه .

(وبنعمة الله هم يكفرون ؟) أى وهم بهذه النعم المتظاهرة عليهم من ربهم يكفرون فيضيفونها إلى غير الخالق ، وينسبونها إلى غير موجدها من صنم أو وثن ؟

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلاَ تَضْرِبُوا لِلّٰهِ الْأَمْثَالَ ، إِنَّ اللّٰهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٧٤) ضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكاً لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ، هَلْ يَسْتَوُونَ ؟ الْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللّٰهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لاَ يَأْتِ بِخَيْرٍ ، هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦) .

تفسير المفردات

رزق السماء : المطر ، ورزق الأرض : النبات والثمار التى تخرج منها ، فلا تضربوا لله الأمثال : أى لاتجعلوا له الأنداد والنظراء فهو كقوله : « فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا » وضرب المثل للشىء : ذكر الشبيه له ، ليوضح حاله المبهمة ويزيل ماعرض من الشك فى أمره ، والبَكَم : الخرس، وهو إماناشىء من صمم خلقى وإما لسبب عارض ولا علة فى أذنيه ، فهو يسمع لكن لسانه معتقل لايطيق الكلام ، فكل من ولد غير سميع فهو أبكم ، لأن الكلام بعد السماع ، ولا سماع له ؛ وليس كل أبكم يكون أصم صمما طبيعيا ، فإن بعض البُكْم لايكونون صُمًّا ، والكَلّ : الغليظ الثقيل من قولهم كَلّت السكين إذا غلظت شفرتها فلم تقطع ، وكَلّ عن الأمر : ثقل عليه فلم يستطع عمله يوجهه: أى يرسله فى وجه معين من الطريق ، يقال وجهته إلى موضع كذا فتوجه إليه ، على صراط مستقيم : أى طريق عادل غير جائر .

المعنى الجملى

بعد أن بين عزت قدرته دلائل التوحيد البيان الشافى فيما سلف ــ أردف ذلك الرد على عابدى الأوثان والأصنام ، فضرب لذلك مثلين يؤكد بهما إبطال عبادتها : أولهما العبد المملوك الذى لايقدر على شىء ، والحر الكريم الغنى الكثير الإنفاق سرا وجهرا ، ولفت النظر إلى أنهما هل يكونان فى نظر العقل سواء مع تساويهما فى الخلق والصورة البشرية؟ وإذا امتنع ذلك فكيف ينبغى أن يسوى بين القادر على الرزق والإفضال ، والأصنام التى لاتملك ولا تقدر على النفع والضر .

والثانى مثل رجلين أحدهما أبكم عاجز لايقدر على تحصيل خير وهو عبء ثقيل على سيده ، وثانيهما حُوّلٌ قُلّبٌ ناطق كامل القدرة ، أيستويان لدى أرباب الفكر مع استوائهما فى البشرية ؟ وإذاً فكيف يدور بخلد عاقل مساواة الجماد برب العالمين فى الألوهية والعبادة ؟ .

قال ابن عباس نزلت هذه الآية فى عثمان بن عفان ومولى له كافر يسمى أسيد ابن أبى العاص: كان يكره الإسلام وكان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المئونة وكان المولى ينهاه عن الصدقة والمعروف .

الإيضاح

(ويعبدون من دون الله مالا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا ولا يستطيعون) أى ويعبد هؤلاء المشركون بالله من دونه أوثانا لاتملك لهم رزقا من السموات ، فلا تقدر على إنزال القَطْر منها لإحياء الميت من الأرضين ، ولا تملك لهم رزقا منها ، فلا تقدر على إخراج شىء من نباتها ولا ثمارها ، ولا على شىء مما ذكر فى سالف الآيات مما أنعم الله به على عباده ، ولا يستطيعون أن يملكوا ذلك ولا يمكنهم .

وفائدة قوله (ولا يستطيعون) أن من لا يملك شيئا قد يكون فى استطاعته أن يتملكه بوجه ، فبين بذلك أن هذه الأصنام لاتملك وليس فى استطاعتها تحصيل الملك .

وبعد أن بين ضعفها وعجزها رتب على ذلك ماهو كالنتيجة له فقال :

(فلا تضربوا لله الأمثال) أى فلا تجعلوا لله مِثْلا ولا تشبّهوه بخلقه ، فإنه لامثل له ولا شبيه .

أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس أنه قال فى الآية : أى لا تجعلوا معى إلها غيرى ، فإنه لا إله غيرى .

ثم هددهم على عظيم جرمهم ، وكبير مااجترحوا من الكفر والمعاصى فقال :

(إن الله يعلم وأنتم لاتعلمون) أى إن الله يعلم كنه ماتفعلون من الإجرام وعظيم الآثام ، وهو معاقبكم عليه أشد العقاب ، وأنتم لاتعلمون حقيقته ولا مقدار عقابه : ومن ثم صدر ذلك منكم وتجاسرتم عليه ونسبتم إلى الأصنام مالم يصدر منها ولا هى منه فى قليل ولا كثير .

وبعد أن نهاهم سبحانه عن الإشراك أعقبه بمثل يكشف عن فساد ما ارتكبوه من الحماقات والجهالات فقال :

(ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء ومن رزقناه منا رزقا حسنا فهو ينفق منه سرا وجهرا هل يستوون) أى إن مثلكم فى إشراككم بالله الأوثان ، مثلُ من سوّى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف ، وحرّ مالك مالا ينفق منه كيف يشاء ، ويتصرف فيه كما يريد ، والفطرة الأولى تشهد بأنهما ليسا سواء فى التجلة والاحترام ، مع استوائهما فى الخَلْق والصورة — فكذلك لا ينبغى لعاقل أن يسوّى بين الإله القادر على الرزق والإفضال والأصنام التى لا تملك ولا تقدر على شىء البتة .

ثم ذكر ما هو كالنتيجة لما سلف فقال :

(الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون) أى الحمد الكامل لله خالصا دون ما تدْعون من دونه من الأوثان ، فإياه فاحْمَدوا دونها ، ما الأمر كما تفعلون ، ولا القول كما تقولون ، فليس للأوثان عندكم من يد ولا معروف فتُحمدَ عليه ، إنما الحمد لله ، ولكن أكثر هؤلاء الكفار الذين يعبدونها لا يعلمون أن ذلك كذلك ، فهم بجهلهم بما يأتون وما يذرون يجعلونها لله شركاء فى العبادة والحمد .

ثم ضرب مثلا آخر يدل على ما يدل عليه المثل السابق على وجه أظهر وأوضح فقال :

(وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء وهو كلٌّ على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ؟) أى ضرب الله مثلا لنفسه والآلهة التى يعبدونها من دونه مثل رجلين أحدهما أخرس أصم لا يُفْهِم ولا يَفْهَم ، فلا يقدر على شىء مما يتعلق بنفسه أو بغيره ، وهو عيال على من يعوله ويلى أمره ، حيثما يرسله مولاه فى أمر لا يأت بنُجْح ولا كفاية مهمّ — وثانيهما

رجل سليم الحواس عاقل ينفع نفسه وينفع غيره ، يأمر الناس بالعدل وهو على سيرة صالحة ودين قويم — هل يستويان ؟

كذلك الصنم لا يسمع شيئا ولا ينطق ، لأنه إما خشب منحوت وإما نحاس مصنوع لايقدر على نفع من خدمه ، ولا دفع ضر عنه ، وهو كلٌّ على من يعبده ، يحتاج أن يحمله ويضعه ويخدمه ، وهو لا يعقل مايقال له فيأتمر بالأمر ، ولا ينطق فيأمر وينهى ، هل يستوى هو ومن يأمر بالحق ويدعو إليه ، وهو الله الواحد القهار الذى يدعو عباده إلى توحيده وطاعته ! وهو مع أمره بالعدل على طريق مستقيم لايعوجّ عن الحق ولا يزول عنه .

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧) وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) .

تفسير المفردات

الساعة : الوقت الذى تقوم فيه القيامة ، سميت بذلك لأنها تفجأ الإنسان فى ساعة ما فيموت الخلق بصيحة واحدة ، ولمح البصر : رجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها، والأفئدة واحدها فؤاد: وهى القلوب التى هيأها الله للفهم و إصلاح البدن ، والجو : الهواء بين الأرض والسماء .

المعنى الجملى

بعد أن مثّل سبحانه نفسه بمن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ، ومستحيل أن يكون كذلك إلا إذا كان كامل العلم والقدرة — أردف ذلك ما يدل على كمال علمه ، فأبان أن العلم بغيوب السموات والأرض ليس إلا له ، وما يدل على كمال قدرته ، فذكر أن قيام الساعة فى السرعة كلمح البصر أو أقرب ، ثم عاد إلى ذكر الدلائل على توحيده ، وأنه الفاعل المختار ، فذكر منها خلق الإنسان فى أطواره المختلفة ، ثم الطير المسخّر بين السماء والأرض ، وكيف جعله يطير بجناحين فى جو السماء ما يمسكه إلا هو بكامل قدرته .

الإيضاح

(ولله غيب السموات والأرض) أى ولله علم ما غاب عن أبصاركم فى السموات والأرض مما لا اطلاع لأحد عليه إلا أن يُطْلِعه الله ، والمراد به جميع الأمور الغائبة عن علوم المخلوقين التى لا سبيل إلى إدراكها حسا ولا إلى فهمها عقلا .

(وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب) أى وما شأنها فى سرعة المجىء إلا كرجع الطرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها ، أو هو أقرب من هذا وأسرع ، لأنه إنما يكون بقول (كن فيكون) .

ونحو الآية قوله «وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ» أى فيكون ما يريد كطرف العين .

وقريب من هذا قوله : « مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ » .

والخلاصة — إن قيام القيامة ومجىء الساعة التى ينتشر فيها الخلق للوقوف فى موقف الحساب — كنظرة من البصر ، وطرفة من العين فى السرعة .

وخص قيام الساعة من بين الغيوب ، لأنه قد كثرت فيه المماراة فى جميع

الأزمنة والعصور ، ولدى كثير من الأمم ، فأنكره كثير من البشر وجعلوه مما لا يدخل في باب الممكنات .

ثم ذكر ماهو كالبرهان على إمكان حدوثها وسرعة وقوعها فقال :

(إن الله على كل شيء قدير) أي إن الله قادر على مايشاء ، لا يمتنع عليه شيء أراده ، فهو قادر على إقامتها في أقرب من لمح البصر .

ثم ذكر سبحانه مننه على عباده بإخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئا ، ثم رزقهم السمع والأبصار والأفئدة فقال :

(والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة) أي والله جعلكم تعلمون مالا تعلمون بعد أن أخرجكم من بطون أمهاتكم ، فرزقكم عقولا تفقهون بها، وتميزون الخير من الشر ، والهدى من الضلال، والخطأ من الصواب ، وجعل لكم السمع الذي تسمعون به الأصوات ، فيفقه بعضكم عن بعض ماتتحاورون به فيما بينكم، والأبصار التي تبصرون بها الأشخاص فتتعارفون بها ، وتميزون بعضها من بعض ، والأشياء التي تحتاجون إليها في هذه الحياة ، فتعرفون السبل ، وتسلكونها للسعي على الأرزاق و السلع لتختاروا الجيد وتتركوا الرديء ، وهكذا جميع مرافق الحياة ووجوهها .

لعلكم تشكرون : أي رجاء أن تشكروه باستعمال نعمه فيما خلقت لأجله ، وتتمكنوا بها من عبادته تعالى ، وتستعينوا بكل جارحة وعضو على طاعته .

روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « يقول الله تعالى : من عادَى لي وليًّا فقد بارزني بالحرب ، وماتقرب إليّ عبدي بشيء أفضل من أداء ماافترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن دعاني لأجبته ، ولئن استعاذ بي لأعيذنّه ، وما ترددتُ في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن ، يكره الموت

وأكره مساءته ، ولا بد له منه » أى إن العبد إذا أخلص الطاعة صارت أفعاله كلها لله عز وجل ، فلا يسمع إلا لله ، ولا يبصر إلا لله أى لما شرعه الله له ، ولا يبطش ولا يمشى إلا فى طاعته عز وجل ، مستعينا به فى ذلك كله .

ثم نبه عباده إلى دليل آخر على كال قدرته فقال :

(ألم يروا إلى الطير مسخرات فى جو السماء مايمسكهن إلا الله) أى ألم ينظروا إلى الطير مذللات فى الهواء بين السماء والأرض مايمسكهن فى الجو عن الوقوع إلا الله عز وجل بقدرته الواسعة ، وقد كان فى ثقل أجسادها ، ورقة الهواء مايقتضى وقوعها ، إذ لا علاقة من فوقها ، ولا دعامة من تحتها ، ولو سلبها ماأعطاها من قوة الطيران لم تقدر على النهوض ارتفاعا .

وقد كان العلماء قديما يعلمون تخلخل الهواء فى الطبقات العالية فى الجو وهى نظرية لم تدرس فى العلوم الطبيعية إلا حديثا ، فقد أثر عن كعب الأحبار أنه قال : إن الطير يرتفع فى الجو اثنى عشر ميلا ولا يرتفع فوق ذلك .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) أى إن فى ذلك التسخير فى الجو والإمساك فيه — لدلالات على أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنه لا حظ للأوثان والأصنام فى الألوهية — لمن يؤمن بالله ، ويقر بوجدان ماتعاينه أبصارهم ، وتحسه حواسهم .

وخصص هذه الآيات بالمؤمنين ، لأنهم هم المنتفعون بها ، وإن كانت هى آيات لجميع العقلاء .

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ،

وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ ، كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (٨١) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣) .

تفسير المفردات

سكنا: أى مسكنا ، والظعن (بالسكون والفتح) السير فى البادية لِنُجْعة أو طلب ماء أو مرتع ، والأصواف : للضأن ، والأوبار : للإبل ، والأشعار : للمعز ، والأثاث : متاع البيت كالفرش والثياب وغيرها ، ولا واحد له من لفظه ، والمتاع : مايتمتع وينتفع به فى المتجر والمعاش ، إلى حين : أى إلى انقضاء آجالكم ، والظلال : مايستظل به من الغمام والشجر والجبال وغيرها ، والأكنان واحدها كِنّ : وهو الغار ونحوه فى الجبل ، والسرابيل واحدها سربال : وهو القميص من القطن والكتّان والصوف وغيرها ، وسرابيل الحرب الجواشن والدروع ، والبأس : الشدة ، ويراد به هنا الحرب .

المعنى الجملى

بعد أن أقام سبحانه الأدلة على توحيده . قفى على ذلك بذكر ما أنعم به على عباده فجعل لهم بيوتا يأوون إليها وتكون سكنا لهم ، وجعل لهم من جلود الأنعام بيوتا يستخفون حملها فى أسفارهم ، ويجعلونها خياما فى السفر والحضر ، وجعل لهم فى الجبال الحصون والمعاقل ، وجعل لهم الثياب التى تقيهم الحر ، والدروع والجواشن من الحديد لتقى بعضهم أذى بعض فى الحرب .

وقصارى هذا — إنه امتن على عباده ، فبدأ بما يخص المقيمين بقوله : وجعل لكم من بيوتكم سكنا ، ثم بما يخص المسافرين منهم ممن لهم قدرة على ضرب الخيام بقوله : وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا ، ثم بمن لاقدرة لهم على ذلك ولا يأويهم

إلا الظلال بقوله ، وجعل لكم مما خلق ظلالا ، ثم بما لا بد منه لكل أحد بقوله : وجعل لكم سرابيل الخ ، ثم بما لاغنى عنه فى الحروب بقوله : وسرابيل تقيكم بأسكم .

الإيضاح

(والله جعل لكم من بيوتكم سكنا) أى والله الذى جعل لكم من بيوتكم التى هى من الحجر والمدر مسكنا تقيمون فيه وأنتم فى الحضر .

(وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم) أى وجعل لكم قبابا وفساطيط من شعر الأنعام وأصوافها وأوبارها ، تستخفون حملها يوم ترحالكم من دوركم وبلادكم وحين إقامتكم بها .

(ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثا ومتاعا إلى حين) أى وجعل لكم من أصواف الضأن وأوبار الإبل وأشعار المعز أثاثا لبيوتكم تكتسون به وتستعملونه فى الغطاء والفراش ، ومتاعا من مال وتجارة إلى أجل مسمى ، وهو حين نقضاء آجالكم .

(والله جعل لكم مما خلق ظلالا) أى ومن نعمه تعالى عليكم أن جعل لكم مما خلق من الأشجار وغيرها ظلالا تستظلون بها من شديد الحر .

(وجعل لكم من الجبال أكنانا) أى وجعل لكم من الجبال مواضع تستكنون فيها كالمغارات والكهوف ونحوها .

(وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر) أى وجعل لكم ثيابا من القطن والكتّان والصوف ونحوها ، تقيكم الحر الشديد الذى فى بلادكم وهو مما يذيب دماغ الضبّ حين حَمارّة القيظ .

(وسرابيل تقيكم بأسكم) أى وجعل لكم دروعا وجواشن تقيكم بأس السلاح وأذاه حين الحرب وحين يتقدم القِرْن إلى قرنه للمصاولة والطعن والضرب والرمى بالنبال .

تنبيه — لما كانت بلاد العرب شديدة الحر وحاجتهم إلى الظل ألزم ، ذكَرَ هذا فى معرِض النعم العظيمة ، إلى أن ما يقى من الحريق من البرد أيضا فكان ذكر أحدهما مغنيا عن ذكر الآخر .

قال الشهاب الخفاجى فى الريحانة : فى الآية نكتة لطيفة لم ينبِّهوا عليها ، وهى أنه إنما اقتصر على الحر لأنه أهم هنا لما عرف من غلبة الحر على ديار العرب ، ثم إن مايقى الحر يحْصُل به برودة فى الهواء فى الجملة ، فوقاية الحر إنما هى لتحصيل البرد ، وهذا فيه من اللطف ماهو ألطف من النسيم ، فلله در التنزيل فكم فيه من أسرار لا تتناهى اه .

(كذلك يتم نعمته عليكم) أى كما خلق هذه الأشياء لكم ، وأنعم بها عليكم ، يتم نعمة الدنيا والدين عليكم ، ويجعلكم ملوكا وأمراء فيما تفتحون من البلاد والأصقاع ، ويجعل رائدكم فيما تعملون وجه الله وإصلاح الأمم والشعوب كما قال : « وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ » .

(لعلكم تسلمون) أى توقعا للنظر فيما أسبغ عليكم من النعم ، فتعرفون حق المنعم بها ، فتؤمنون به وحده ، وتذرون ما أنتم به مشركون ، فتسلمون من عذابه ، فإن العاقل إذا أُسْدِىَ إليه المعروف شكر من أنعم به عليه كما قال المتنبى :

وقيّدت نفسى فى ذَرَاكَ محبّة ومن وجد الإحسان قيدا تقيّدا

وبعد أن عدد ما أنعم به عليهم من النعم ذكر ما يُتَّبعُ معهم إذا هم أصروا على عنادهم واستكبارهم ولم تنفعهم الذكرى فقال :

(فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين) أى فان استمروا على إعراضهم ، ولم يقبلوا ما أُلقِى إليهم من البينات فلا يضيرك ذلك ، ولا تبخع نفسك عليهم أسى وحسرة ، فإنك قد أديت رسالتك كاملة غير منقوصة ، وما هى إلا البلاغ الموضِّح لمقاصد الدين وبيان أسراره وحكمه ، وقد فعلته بما لامزيد عليه .

وجملة القول — إنهم إن أعرضوا وتولوا فلست بقادر على خلق الإيمان فى قلوبهم ، فإنما عليك البلاغ فحسبُ .

ثم بين أن سبب هذا التولى والإعراض لم يكن الجهل بهذه النعم بل كان العتوّ والاستكبار والإنكار لها فقال :

(يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) أى إنهم يعرفون أن هذه النعم كلها من الله ، ثم هم ينكرونها بأفعالهم ، إذ لم يخصوا المنعم بها بالعبادة والشكر ، بل شكروا غيره معه ، إذ قالوا إن هذه النعم إنما حصلت بشفاعة هذه الأصنام .

(وأكثرهم الكافرون) أى إن أكثرهم جاحد معاند يعلم صدق الرسول ولا يؤمن به عتوا واستكبارا ، وقليل منهم كان يجهل صدقه ولم يظهر له كونه نبيا حقا من عند الله ، لأنه لم ينظر فى الأدلة النظر الصحيح الذى يؤدى إلى الغاية ، أو لم يعرف الحق لنقص فى العقل فهو لا يسلك سبيله ، أو لم يصل إلى حد التكليف ، فلا تقوم عليه حجة .

وهذا من صادق أحكام القرآن على الأمم والشعوب ، فهو لا يرسل القول إرسالا ، بل يزنه بميزان الحقيقة الواقعة التى لا تجانف الصواب ، وليس فيها جور ولا ظلم .

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاَءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا

عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) .

تفسير المفردات

الأمة : الجيل من الناس ، وشهيد كل أمة نبيها ، ثم لايؤذن للذين كفروا : أى إنهم يَستأذنون فلا يُؤْذَن لهم ، ويقال استعتبه وأعتبه : إذا رضى عنه ، قال الخليل : العتاب مخاطبة الإدلال ومذا كرة المَوْجِدة ؛ وعاتبه معاتبة وعتابا وأعتبه : سره بعد ماساءه ، ينظرون : أى يمهلون ويؤخرون ، والشركاء : الأصنام والأوثان والشياطين والملائكة ، وندعو : نعبد ، والسلم : الاستسلام والانقياد ، وضل : ضاع وبطل والمراد بهؤلاء أمته الحاضر منهم عصر التنزيل ومن بعدهم إلى يوم القيامة ، وتبيانا : أى بيانا لأمور الدين إما نصا فيها أو ببيان الرسول واستنباط العلماء المجتهدين فى كل عصر

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال هؤلاء المشركين وأنهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها ــ قفّى على ذلك بوعيدهم، فذكر حالهم يوم القيامة، وأنهم يكونون أذلاء لايؤذن لهم فى الكلام لتبرئة أنفسهم ولا يمهلون ، بل يؤخذون إلى العذاب بلا تأخير ، وإذا رأوا معبوداتهم من الأصنام والأوثان والملائكة والآدميين قالوا هؤلاء معبوداتنا ، فكذبتهم تلك المعبودات، واستسلموا لربهم، وانقادوا له، وبطل ما كانوا يفترونه، ثم ذكر ذلك اليوم وهوله وما مَنَح نبيه من الشرف العظيم وأنه أنزل عليه الكتاب،ليبين للناس ما أشكل عليهم من مصالح دينهم ودنياهم ، ويهديهم سواء السبيل ، وفيه البشرى للمؤمنين بجنات النعيم .

الإيضاح

(ويوم نبعث من كل أمة شهيدا) أى وخوّف أيها الرسول هؤلاء المشركين يوم نبعث من كل أمة شاهدا عليها بما أجابت داعى الله وهو رسولها الذى أرسل إليها ، إما بالإيمان وطاعة الله ، وإما بالكفر والعصيان .

(ثم لا يؤذن للذين كفروا) أى ثم لا يسمع كلام الكافرين بعد شهادة أنبيائهم ولا يلتفت إليه ، إذ فى تلك الشهادة ما يكفى للفصل فى أمرهم والقضاء عليهم ، والله عليم بما كانوا يفعلون ، ولكن فى تلك الشهادة تأنيب لهم وتوبيخ على ما اجترحوا من الفسوق والعصيان والكفر بربهم الذى أنعم عليهم .

ونحو الآية قوله : « هَذَا يَوْمُ لاَ يَنْطِقُونَ وَلاَ يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ » .

(ولاهم يستعتبون) أى ولا يُطلَب منهم أن يزيلوا عَتْب ربهم أى غضبه بالتوبة وصالح العمل ، فالآخرة دار جزاء لا دار عمل ، والرجوع إلى الدنيا مما لا يكون بحال .

(وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون) أى وإذا عاين هؤلاء الذين كذّبوا وجحدوا نبوّة الأنبياء وهم من كانوا على نهج قومك من المشركين ــ عذابَ الله ، فلا ينجيهم منه شىء ، إذ لا يؤذن لهم بالاعتذار فيعتذرون ، فيخفف عنهم بهذا العذر الذى يدّعون ، ولا يرجئون بالعقاب ، لأن وقت التوبة والإنابة قد فات ، وإنما ذاك وقت الجزاء على الأعمال : « فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

ونحو الآية قوله : « وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا » وقوله : « إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ، وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ، لاَتَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا » ، الثبور : الهلاك .

ثم أخبر عن إلقاء المشركين تبعة أعمالهم على معبوداتهم فقال :

(وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك) أى وإذا رأى هؤلاء المشركون بالله يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دونه من الأوثان والآلهة التى عبدوها - قالوا هؤلاء شركاؤنا فى الكفر بك ، والذين كنا ندعوهم آلهة من دونك ، وربما يكونون قدقالوا هذه المقالة طمعا فى توزيع العذاب بينهم ، أو إحالة الذنب عليهم تعللا بذلك واستروحاً ، مع كونهم يعلمون أن العذاب واقع بهم لامحالة ، ولكن الغريق يتعلق بكل ماتقع يده عليه .

ثم ذكر تبرأ آلهتهم منهم، وهم أحوج ما يكونون إلى نصرتهم لو كانوا ينصرون .

(فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون) أى قالت لهم الآلهة : كذبتم مانحن أمرناكم بعبادتنا ، ونحو الآية قوله : « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لاَيَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ، وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ » وقوله : « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ، كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا» .

(وألقوا إلى الله يومئذ السلم) أى واستسلم العابد والمعبود لله ، فلا أحد إلا وهو سامع مطيع ، ونحو الآية قوله : « أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا » أى ما أسمعهم وأبصرهم حينئذ ، وقوله : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا» وقوله:«وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَىِّ الْقَيُّومِ » أى خضعت واستسلمت.

(وضل عنهم ما كانوا يفترون) أى وذهب عنهم ما كانوا يعبدونه افتراء على الله ، فلا ناصرَ لهم ولا مُعينَ ولا شفيع ولا ولىّ مما كانوا يزعمونه فى الدنيا كما قال تعالى حكاية عنهم : « هؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ » .

و بعد أن ذكر عذاب المضادين بيّن عذاب الضالين المضلين فقال :

(الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذابا فوق العذاب بما كانوا

يفسدون) أى الذين جحدوا نبوّتك وكذبوك فيما جئتهم به من عند ربك ، وصدوا عن الإيمان بالله ورسوله مَن أراده ، زدناهم عذابا فوق عذابهم الذى يستحقونه بكفرهم ، بسبب استمرارهم على الإفساد بالصد عن سبيل الله .

وخلاصة ذلك — إنهم يعذبون عذابين : عذابا على الكفر ، وعذابا على الإضلال وصد الناس عن اتباع الحق .

ونحو الآية قوله : (وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ) أى وهم ينهون الناس عن اتباعه ، وهم يبتعدون منه أيضا ، روى الحاكم والبيهقى وغيرهما عن ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن أهل النار إذا جَزِعوا من حرها استغاثوا بضحضاح فى النار فإذا أتَوْه تلقَّاهم عقارب كأنهم البغال الدهْم ، وأفاعٍ كأنهن البَخاتَىّ (ضخام الإبل) تضربهم فذلك الزيادة » .

وفى الآية دليل على تفاوت الكفّار فى عذابهم ، كما يتفاوت المؤمنون فى منازلهم فى الجنة ودرجاتهم فيها .

ثم خاطب سبحانه عبده ورسوله محمدا صلى الله عليه وسلم فقال :

(ويوم نبعث فى كل أمة شهيدا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيدا على هؤلاء) أى واذكر أيها الرسول ذلك اليوم وهوله يوم يبعث الله نبى كل أمة شاهدا عليهم ، فيكون أقطع للمعذرة ، وأظهر فى إتمام الحجة عليهم ، وجئنا بك شهيدا على أمتك ، بما أجابوك ، وبما عملوا فيما أرسلتك به إليهم .

وهذه الآية شبيهة بالآية التى انتهى إليها عبد الله بن مسعود حين قرأ على رسول الله صلى الله عليه وسلم صدر سورة النساء ، فلما وصل إلى قوله « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هٰؤُلَاءِ شَهِيدًا » قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « حسْبُك » فقال ابن مسعود : فالتفتّ فإذا عيناه تَذْرِفان .

ثم ذكر ما تفضل به من الوحى على رسوله فقال :

(ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين) أى ونزلنا عليك أيها الرسول هذا القرآن تبيانا لكل ما بالناس إليه حاجة من معرفة

الحلال والحرام والثواب والعقاب ، وهدى من الضلالة ، رحمة لمن صدق به ، وعمل بما فيه من حدود الله وأمره ونهيه، فأحل حلاله وحرم حرامه ،وبشرى لمن أطاع الله وأناب إليه ، بجزيل الثواب فى الآخرة وعظيم الكرامة .

ووجه ارتباط هذا بما قبله ، بيان أن الذى فرض عليك تبليغ الكتاب الذى أنزله عليك ، سائلك يوم القيامة عن ذلك كما قال : « فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ » وقال : « فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وقال : « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ » أى إن الذى أوجب عليك تبليغ القرآن لرادك إليه ، وسائلك عن أداء ما فرض عليك .

وتبيان القرآن لأمور الدين إما مباشرة وإما ببيان الرسول ، وقد أمرنا سبحانه باتباع هذا البيان فى قوله « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » وقوله « لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ » ولقوله صلى الله عليه وسلم : « إنى أوتيت القرآن ومثله معه » وإما ببيان الصحابة والعلماء المجتهدين له ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ، عَضُّوا عليها بالنواجذ » وقد كان كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم فاجتهد الأئمة ووطَّئُوا طرق البحث فى أمور الدين لمن بعدهم ، واستنبطوا من الكتاب والسنة مذاهب وآراء فى العبادات ومعاملات الناس بعضهم مع بعض ، ودوّنوا تشريعا ينْهَل منه المسلمون فى كل جيل ، ويرجع إليه القضاة ليحكموا بين الناس بالعدل وكان أجلّ تشريع أخرج للناس كما اعترف بذلك أرباب الديانات الأخرى وكذلك من لم يتدين منهم بدين .

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ

عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ، إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ (٩١) وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) .

تفسير المفردات

العدل لغة: المساواة فى كل شىء بلا زيادة ولا نقصان فيه، والمراد به هنا المكافأة فى الخير والشر. والإحسان : مقابلة الخير بأكثر منه ، والشر بالعفو عنه ، وإيتاء ذى القربى : أى إعطاء الأقارب حقهم من الصلة والبر . والفحشاء : ماقبُح من القول والفعل، فيدخل فيه الزنا وشرب الخمر والحرص والطمع والسرقة ونحو ذلك من الأقوال والأفعال المذمومة ، والمنكر : ماتنكره العقول من دواعى القوة الغضبية كالضرب الشديد والقتل والتطاول على الناس ، والبغى : الاستعلاء على الناس والتجبر عليهم بالظلم والعدوان ، والوعظ : التنبيه إلى الخير بالنصح والإرشاد ، والعهد : كل مايلتزمه الإنسان باختياره ، ويدخل فيه الوعد ، ونقض اليمين : الحنث فيها وأصله فك أجزاء الجسم بعضها من بعض ، وتوكيدها: توثيقها والتشديد فيها ، كفيلا: أى شاهدا ورقيبا، والغزل: ماغُزِل من صوف ونحوه، والقوة: الإبرام والإحكام، والأنكاث،واحدها نِكْث وهو ماينكث فتله وينقض بعد غزله ، والدخَل : المكر والخديعة . وقال أبو عبيدة : كل أمر لم يكن صحيحا فهو دَخَل ، ويراد به أن يُظْهِر المرء الوفاء بالعهد ويبطن النقض، أربى : أى أكثر وأوفر عددا .

المعنى الجملى

بعد أن بالغ سبحانه فى الوعد للمتقين والوعيد للكافرين ، وعاد وكرر فى الترغيب والترهيب إلى أقصى الغاية ، أردف ذلك ذكر هـذه الأوامر التى جمعت فضائل الأخلاق والآداب وضروب التكاليف التى رسمها الدين وحث عليها لما فيها من إصلاح حال النفوس ، وصلاح حال الأمم والشعوب ، ثم ضرب الأمثال لمن يحيد عنها وينفِر من فعلها .

ثم أبان أن أمر الهداية والإضلال بيده وأنه قد قدّره بحسب استعداد النفوس للصلاح والغَواية ، وأنه سيجازى يوم القيامة كل نفس بما كسبت ، لاظلم اليوم ، إنه سريع الحساب .

أخرج البخارى وابن جرير وابن المنذر والطبرانى والحاكم والبيهقى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : « أعظم آية فى كتاب الله تعالى : اللهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ » وأجمع آية فى كتاب الله للخير والشر الآية التى فى النحل « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » وأكثر آية فى كتاب الله تفويضا « وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَيَحْتَسِبُ » وأشد آية فى كتاب الله رجاء « يَاعِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَتَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً »

وعن عِكرمة « أن النبى صلى الله عليه وسلم قرأ على الوليد بن المغيرة هذه الآية فقال له يابن أخى أعِدْ علىّ ، فأعادها عليه ، فقال له الوليد : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطُلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمُغْدِق ، وما هو بقول البشر .

وأخرج البيهقى فى شُعَب الإيمان عن الحسن رضى الله عنه « أنه قرأ هذه الآية « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » الآية ثم قال إن الله عزّ وجل جمع لكم الخير كله ، والشر كله فى آية واحدة ، فوالله ماترك العدل والإحسان من طاعة الله شيئا إلا جمعه وأمر به ، ولا ترك الفحشاء والمنكر والبغى من معصية الله شيئا إلا جمعه وزجر عنه .

قال الحافظ أبو يَعْلى فى كتاب معرفة الصحابة عن على بن عبد الملك بن عُمير عن أبيه قال: «بلغ أكثمَ بن صيفى مَخْرَجُ النبى صلى الله عليه وسلم فأراد أن يأتيه فأبى قومُه أن يَدَعوه وقالوا : أنت كبيرنا ، لم تكن لتخِفّ إليه، قال فليأته من يبلّغه عنى ويبلغنى عنه ، فانتُدِب رجلان فأتيا النبى صلى الله عليه وسلم فقالا : نحن رسل أكثم بن صيفى وهو يسألك من أنت وما أنت ؟ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أما من أنا؟ فأنا محمد بن عبد الله ، وأما ما أنا ؟ فأنا عبد الله ورسوله ، قال ثم تلا عليهم: «إن الله يأمر بالعدل والإحسان» الآية. قالوا ردِّد علينا القول فردده عليهم حتى حفظوه ، فأتيا أكثم فقالا أبى أن يرفع نسبه، فوجدناه زاكى النسب وسطا فى مضر، وقد رَمَى إلينا بكلمات قد سمعناها ، فلما سمعهن أكثم قال : إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهى عن ملائمها ، فكونوا فى هذا الأمر رءوسا ، ولا تكونوا فيه أذنابا، وكونوا فيه أوّلا ، ولا تكونوا فيه آخرا» .

وقال سعيد بن جُبَير عن قتادة فى قوله (إن الله يأمر بالعدل والإحسان) الآية ليس من خلُق حسن كان أهل الجاهلية يعملون به ويستحسونه إلا أمر الله به، وليس من خلق سيئ كانوا يتعايرونه بينهم إلا نهى الله عنه وقدم فيه ، وإنما نهى عن سفاسف الأخلاق ومذامِّها .

الإيضاح

(إن الله يأمر بالعدل والإحسان) أى إن الله يأمر فى هذا الكتاب الذى أنزله إليك أيها الرسول بالعدل والإنصاف ، ولا نَصَفَة أجمل من الاعتراف بمن أنعم علينا بنعمه ، والشكر له على إفضاله وحمده وهو أهل للحمد ، ومنع ذلك عمن ليس له بأهل ، فالأوثان والأصنام لاتستحق شيئا منه ، فمن الجهل عبادتها وحمدها

وهى لاتنعم فتشكر ، ولا تنفع فتعبد، ومن ثم وجب أن نشهد أن لا إله إلا الله وحده .

أخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى أنه قال: دعانى عمر بن عبد العزيز فقال: صف لى العدل ، فقلت بخ بخ سألت عن أمر جسيم ، كن لصغير الناس أبا ولكبيرهم ابنا، وللمثل منهم أخا، وللنساء كذلك ، وعاقب الناس على قدر ذنوبهم وعلى قدر أجسامهم، ولا تضربن لغضبك سوطا واحدا فتكون من العادين .

وأخرج البخارى فى تاريخه أن على بن أبى طالب مر بقوم يتحدثون، فقال: فيم أنتم؟ فقالوا نتذاكر المروءة فقال : أو ما كفاكم الله عز وجل ذاك فى كتابه إذ يقول : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » فالعدل الإنصاف ، والإحسان : التفضل ، فما بقى بعد هذا ؟

وأعلى مراتب الإحسان الإحسان إلى المسىء ، وقد أمر به النبى صلى الله عليه وسلم ، وروى عن الشعبى أنه قال : قال عيسى بن مريم عليه السلام إنما الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك . وقد صح من حديث ابن عمر فى الصحيحين «أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك» .

(وإيتاء ذى القربى) أى وإعطائهم ما تدعو إليه الحاجة ، وفى الآية إرشاد إلى صلة الأقارب والأرحام وترغيب فى التصدق عليهم ، وهذا وإن دخل فيما سلف من الإحسان — فقد خصص للاهتمام به والعناية بشأنه .

وبعد أن ذكر الثلاثة التى أمر بها أتبعها بالثلاثة التى نهى عنها فقال :

(وينهى عن الفحشاء) وهى الغلو فى الميل إلى القوة الشهوانية كالزنا وشرب الخمر والسرقة والطمع فى مال الناس .

(والمنكر) وهو ما تنكره العقول من المساوى الناشئة من الغضب كالضرب والقتل والتطاول على الناس .

(والبغى) وهو ظلم الناس والتعدى على حقوقهم .

وخلاصة ما سلف — إن الله يأمر بالعدل ، وهو أداء القدر الواجب من الخير ، وبالإحسان ، وهو الزيادة فى الطاعة والتعظيم لأمر الله والشفقة على خلقه ، ومن أشرف ذلك صلة الرحم .

وينهى عن التغالى فى تحصيل اللذات الشهوانية التى يأباها الشرع والعقل ، وعن الإفراط فى اتباع دواعى الغضب بإيصال الشر إلى الناس وإيذائهم وتوجيه البلاء إليهم، وعن التكبر على الناس والترفع عليهم وتصعير الخدّ لهم .

(يعظكم لعلكم تذكرون) أى أمركم بثلاث ونهاكم عن ثلاث ، كى تتعظوا فتعملوا بما فيه رضاه سبحانه وتعالى، وما فيه صلاحكم فى دنياكم وآخرتكم .

وبعد أن ذكر المأمورات والمنهيات بطريق الإجمال فى الآية الأولى — ذكر بعضها على سبيل التخصيص فقال :

(وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم) أى وأوفوا بميثاق الله إذا واثقتموه ، وعقده إذا عاقدتموه ، فأوجبتم به على أنفسكم حقا لمن عاقدتموه وواثقتموه عليه ، ويدخل فى ذلك كل عهد يلتزمه الإنسان باختياره ، والوعد من العهد، ومن ثم قال ميمون بن مِهران : من عاهدتَه وفٍّ بعهده ، مسلما كان أو كافرا ، فإنما العهد لله تعالى .

(ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) أى ولا تخالفوا ما عاقدتم فيه الأيمان وشدّدتم فيه على أنفسكم ، فتحنثوا فيه وتكذبوا وتنقضوه بعد إبرامه ، وقد جعلتم الله بالوفاء بما تعاقدتم عليه راعيا يرعى الموفى منكم بالعهد والناقض له بالجزاء عليه .

ثم وعد وأوعد فقال :

(إن الله يعلم ما تفعلون) فى العهود التى تعاهدون الله الوفاء بها ، والأيمان التى تؤكدونها على أنفسكم ، أتبرّون فيها أم تنقضونها ؟ وهو محصٍ ذلك كله عليكم وسائلكم عنه وعما عملتم فيه، فاحذروا أن تلقوه وقد خالفتم أمره ونهيه ، فتستوجبوا منه مالا قبل لكم به من أليم عقابه .

أخرج ابن جرير عن مَزْيَدَة بن جابر أن الآية نزلت فى بيعة النبى صلى الله عليه وسلم كان من أسلم يبايع على الإسلام ، فقال تعالى : (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها) فلا تحملنكم قلة محمد وأصحابه وكثرة المشركين أن تنقضوا البيعة التى بايعتم على الإسلام ، وإن كان فى المسلمين قلة وفى المشركين كثرة .

ثم أكد وجوب الوفاء وتحريم النقض مع ضرب المثل فقال :

(ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا) أى ولا تكونوا أيها القوم فى نقضكم أيمانكم بعد توكيدها ، وإعطائكم ربكم العهود والمواثيق كمن تنقض غزلها بعد إبرامه ، وتنفشه بعد أن جعلته طاقات ، حماقة منها وجهلا .

قال السُّدِّى : هذه امرأة خرقاء كانت بمكة ، كلما غزلت غزلا نقضته بعد إبرامه .

والخلاصة — إنه تعالى شبه حال الناقض للعهد بحال من تنقض غزلها بعد فتله وإبرامه ، تحذيرا للمخاطبين ، وتنبيها إلى أن هذا ليس من فعل العقلاء ، وصاحبه فى زمرة الحمق من النساء .

(تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة) أى تجعلون أيمانكم التى تحلفون بها على أنكم موفون بالعهد لمن عاقدتم ـ خديعة وغرورا ليطمئنوا إليكم ، وأنتم مضمرون لهم الغدر وترك الوفاء بالعهد ، والنُّقْلة إلى غيرهم من أجل أنهم أكثر منهم عَدَدًا وَعُدَدًا وأعز نفرا ، بل عليكم بالوفاء بالعهود والمحافظة عليها فى كل حال.

قال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز نفرا فينقضون حِلْف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز نفرا فنُهُوا عن ذلك ، وقيل هو تحذير للمؤمنين أن يغتروا بكثرة قريش وسعة أموالهم فينقضوا بيعة النبى صلى الله عليه وسلم .

(إنما يبلوكم الله به) أى إنما يعاملكم الله معاملة المختبِر، بأمره إياكم بالوفاء بعهده

إذا عاهدتم ، لينظر أتتمسكون بحبل الوفاء بعهده وبيعة رسوله ، أم تغترون بكثرة قريش وشوكتهم ، وقلة المؤمنين وضعفهم بحسب ظاهر الحال ؟

ثم أنذر وحذر من خالف الحق وركن إلى الباطل فقال :

(وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون) أى وليبينن لكم ربكم يوم القيامة إذا وردتم عليه ، لمجازاة كل فريق منكم على عمله فى الدنيا ، المحسن منكم بإحسانه ، والمسىء بإساءته — ما كنتم تختلفون فيه من إقرار المؤمن بوحدانية ربه ، ونبوة نبيه ، والوحى إلى أنبيائه ، والكافر بكذبه بذلك كله .

وبعد أن أبان أنه كلفهم الوفاء بالعهد ، وتحريم نقضه أتبعه ببيان أنه قادر على جمعهم على هذا الوفاء وعلى سائر أبواب الإيمان فقال :

(ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء) أى ولو شاء الله لجعل الناس على دين واحد بمقتضى الغريزة والفطرة ولم يجعل لهم اختيارا فيما يفعلون ، فكانوا فى حياتهم الاجتماعية أشبه بالنمل والنحل ، وفى حياتهم الروحية أشبه بالملائكة ، مفطورين على طاعة الله واعتقاد الحق ، وعدم الميل إلى الزيغ والجور ، لكنه تعالى خلقهم كاسبين لا ملهمين ، وعاملين بالاختيار لا مفطورين ، وجعلهم متفاوتين فى الاستعداد وكسب العلم ، فللإنسان اختيار أوتيه بحسب استعداده الأزلى وهو مجبور فيه ، والثواب والعقاب يترتبان على هذا الاختيار الذى يشاهد ، وتكون عاقبته الجنة أو النار .

(ولتسألن عما كنتم تعملون) أى ولتسألن يوم القيامة جميعا سؤال محاسبة ومجازاة ، لا سؤال استفهام واستفسار ، وقد تكرر ذكر هذا المعنى فى سور كثيرة .

وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤)

وَلاَ تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ، إِنَّمَا عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) .

تفسير المفردات

زلة القدم بعد ثبوتها : مثل يقال لمن وقع فى محنة بعد نعمة ، و بلاء بعد عافية ، والحياة الطيبة : هى القناعة وعدم الحرص على لذات الدنيا ، لما فى ذلك من الكدّ والعناء .

المعنى الجملى

بعد أن حذر سبحانه من نقض العهود والأيمان على الإطلاق — حذّر فى هذه الآية من نقض أيمان مخصوصة أقدموا عليها وهى نقض عهد رسول الله على الإيمان به ، واتباع شرائعه جريا وراء خيرات الدنيا وزخارفها ، وأبان لهم أن كل ذلك زائل ، وما عند الله باق لاينفَد ، ثم هو بعدُ يجزيهم الجزاء الأوفى .

الإيضاح

(ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم) أى ولا تجعلوا أيمانكم خديعة تغرون بها الناس ، والمراد بذلك نهى المخاطبين بذلك الخطاب عن نقض أيمان مخصوصة أقدموا عليها .

ذلك أنهم بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، وحلفوا على ذلك أوكد الأيمان ، ثم نقضوا ما فعلوا ، لقلة أهله وكثرة أهل الشرك ، فنُهُوا عن ذلك .

(فتزل قدم بعد ثبوتها وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله ولكم عذاب عظيم) أى إنكم بعملكم هذا تكونون قد وقعتم فى محظورات ثلاثة .

(١) إنكم تضِلّون وتبْعدُون عن محجة الحق والهدى بعد أن رسخت أقدامكم فيها .

(٢) إنكم تكونون قدوة لسواكم وتستنّون سنة لغيركم ، فيها صدّ عن سبيل الحق ، ويكون لكم بها سوء العذاب فى الدنيا ، بالقتل والأسر وسلب الأموال والجلاء عن الديار .

(٣) إنكم ستعاقبون فى الآخرة أشد العقاب جزاء ما اجترحتم من مجانفة الحق والإعراض عن أهله ، والدخول فى زمرة أهل الشقاء والضلال .

ثم أكد هذا التحذير بقوله :

(ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا) أى ولا تأخذوا فى مقابلة نقض العهد عوضا يسيرا من الدنيا، وقد كان هذا حال قوم ممن أسلموا بمكة، زين لهم الشيطان أن ينقضوا ما بايعوا رسول الله عليه ، جزعا مما رأَوْا من غلبة قريش ، واستضعافهم للمؤمنين ، وإيذائهم لهم ، ولما كانوا يَعِدونهم به من البذل والعطاء إن هم رجعوا إلى دينهم ، فنبههم الله بهذه الآية ونهاهم عن أن يستبدلوا الخير العميم والنعيم المقيم فى الآخرة بما وعدوهم به من عَرَض الدنيا وزينتها .

ثم بين سبحانه قلة ما أخذوا ، وعظيم ما تركوا بقوله :

(إن ماعند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون) أى إن ماخَبَأه الله لكم ، وادّخره من جزيل الأجر والثواب ، هو خير لكم من ذلك العَرَض القليل فى الدنيا، إن كنتم من ذوى العقول الراجحة ، والأفكار الثاقبة التى تزن الأمور بميزان الفائدة وتقدّر الفرق بين العِوَضَيْن .

ثم بين وجه خيريته ورجاحة شأنه بقوله :

(ماعندكم ينفد وما عند الله باق) أى إن ماتتمتعون به من نعيم الدنيا ، بل

الدنيا وما فيها ، تنفد وتنقضى ، و إن طال الأمد وجَلّ العدد ، وما فى خزائن الله باق لانفاد له ، فلما عنده فاعملوا ، وعلى الباقى الذى لايفْنَى فاحْرِصوا .

ثم رغب سبحانه المؤمنين فى الصبر على ما التزموه من شرائع الإسلام فقال :

(ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) أى ولنثيبن الذين صبروا على أذية المشركين وعلى مشاقّ الإسلام التى تتضمن الوفاء بالعهود والمواثيق ، الثواب العظيم الذى هم له أهل ، كفاء صبرهم وهو أحسن أعمالهم ، إذ كل التكاليف محتاجة إليه وهو أسُّ الأعمال الصالحة .

وفى الآية عِدَة جميلة باغتفار ماعسى أن يكون قد فَرَط منهم أثناء ذلك من جزع يعتريهم بحسب الطبيعة البشرية .

ثم رغَّبهم فى المثابرة على أداء الطاعات وعمل الواجبات الدينية فقال :

(من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) أى من عمل صالح الأعمال ، وأدى فرائض الله التى أوجبها عليه ، وهو مصدّق بثوابه الذى وعد به أهل طاعته ، وبعقاب أهل المعصية على عصيانهم ، فلنحيينه حياة طيبة ، تصحبها القناعة بما قسم الله له ، والرضا بمـا قدّره وقضاه ، إذ هو يعلم أن رزقه إنما حصل بتدبيره ، والله محسن كريم لايفعل إلا مافيه المصلحة ، و يعلم أن خيرات الدنيا سريعة الزوال ، فلا يقيم لها فى نفسه وزنا ، فلا يعظم فرحه بوِجْدانها ، ولا غمه بفُقْدانها .

ثم هو بعد ذلك يجزى فى الآخرة أحسن الجزاء ، ، و يثاب أجمل الثواب ، جزاء ماقدّم من عمل صالح ، وتحلى به من إيمان صادق .

أما من أعرض عن ذكر الله ، فلم يؤمن ولم يعمل صالحا ، فهو فى عناء ونـكد ، إذ يكون شديد الحرص والطمع فى الحصول على لذات الدنيا ، فإن أصابته مِحْنة أو بلاء استعظم أمره ، وعظمت أحزانه ، وكثر غمه وكدره ، وإذا فاته شىء من خيراتها عبَس وبَسر ، وامتلأ قلبه أسى وحسرة ، لأنه يظن أن السعادة كل السعادة

فى الحصول على زخرف هذه الحياة والتمتع بمتاعها . فإذا هو لم ينل منه مايريد ، فقد حرم كل مايحلم به ، ويقدره من وافر السعادة وعظيم الخير ، والإنسان بطبعه جزوع هلوع منوع « إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فيقول «اللهم قنِّعنى بما رزقتنى ، وبارك لى فيه ، واخلف علىّ كل غائبة لى بخير» ، وأخرج الترمذى والنسائى من حديث فضالة بن عبيد أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قد أفلح من هُدِى إلى الإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به » .

وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قد أفلح من أسلم ورزق كفافا وقنّعه الله بما آتاه » .

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) .

تفسير المفردات

قرأت القرآن : أى أردت قراءته كما تقول إذا أكلت فقل باسم الله ، وإذا سافرت فتأهب، والرجيم : المرجوم المبعد من رحمة الله ، والسلطان : التسلط والاستيلاء، والتولى: الطاعة يقال توليته أى أطعته ، وتوليت عنه أى أعرضت .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنه يجزى المؤمنين بأحسن أعمالهم ، أرشد إلى العمل الذى به تخلص أعمالهم من وساوس الشيطان .

الإيضاح

(فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) أى إذا شرعت تقرأ القرآن فاسأل الله سبحانه أن يعيذك من وساوس الشيطان الرجيم، لئلا يَلْبَس عليك قراءتك، ويمنعك من التدبر والتفكر كما قال « إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ » وإذا أُمِر النبى صلى الله عليه وسلم مع عصمته منه فما بالك بسائر أمته ثم بين أن الناس فريقان فريق لاتسلط له عليهم وهم الذين وصفهم الله بقوله :

(إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) أى إنه لاتسلط للشيطان على الذين يصدقون بلقاء الله ويفوضون أمورهم إليه ، وبه يعوذون وإليه يلتجئون ، فلا يقبلون مايوسوس به ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته .

وعن سفيان الثورى أنه قال: ليس له سلطان على أن يحملهم على ذنب لا يُغفَر لهم — يريد أنهم أمروا بالاستعاذة منه، ليحفظهم الله من وساوسه التى ربما جرّتهم إلى الوقوع فى صغائر الآثام إذا وقعت على سبيل الندرة أو الغفلة .

والفريق الثانى الذين عناهم بقوله :

(إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون) أى إنما تسلطه بالغواية والضلالة على الذين يجعلونه نصيرا لهم فيحبونه ويطيعونه ، ويستجيبون دعوته ، والذين هم بسبب إغوائه يشركون بربهم .

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ

أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ، لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (١٠٣) إِنَّ الذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ لاَ يَهْدِيهِمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأُولٰئِكَ هُمُ الكَاذِبُونَ (١٠٥) .

تفسير المفرادت

التبديل : رفع شىء ووضع غيره مكانه ، وتبديل الآية : نسخها بآية أخرى ، وروح القدس : جبريل عليه السلام ؛ سمى بذلك لأنه ينزل بالقدس أى بمايطهر النفوس: من القرآن والحكمة والفيض الإلهى ، بالحق : أى بالحكمة المقتضية له ، بشر : هو جبر الرومى غلام ابن الحضرمى كان قد قرأ التوراة والإنجيل وكان النبى صلى الله عليه وسلم يجلس إليه إذا آذاه أهل مكة ، والإلحاد : الميل يقال لَحَد وألحد: إذا مال عن القصد ، ومنه سمى العادل عن الحق ملحدا ، لسان : أى كلام ؛ ويقال رجل أعجم وامرأة عجماء إذا كانا لايفصحان عن مرادهما، والأعجمى والأعجم : الذى فى لسانه عجمة ، من العجم كان أو من العرب ، ومن ذلك زياد الأعجم كان عربيا فى لسانه لكنة .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه بالاستعاذة من وسوسة الشيطان الرجيم حين قراءة القرآن ، أردف ذلك ذكر باب من أبواب فتنته ووسوسته ، بإلقاء الشبهات والشكوك لدى منكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر منها شبهتين :

(١) إنه قد تنزل آية من آيات الكتاب تنسخ شريعة ماضية فيعيّرون محمدا بذلك .

(٢) إنهم قالوا إن ما جاء به إنما هو تعليم من البشر من بعض أهل الكتاب لامن الله ، فأبطل هذه الشبهة بأنه كلام عربى مبين ، وما نسبتم إليه تعليمه أعجمى ، فكيف به يعلمه الكلام العربى الفصيح الذى أعجز العرب قاطبة أن يأتوا بمثله ؟ .

الإيضاح

(وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون) أى وإذا نسخنا حكم آية فأبدلنا مكانه حكم آية أخرى ، والله أعلم بالذى هو أصلح لخلقه فيما يبدل من أحكامه ـ قال المشركون المكذبون لرسوله : إنما أنت متقوّل على الله تأمر بشىء ثم تنهى عنه، وأكثرهم لايعلمون مافى التبديل من حكم بالغة، وقليل منهم يعلمون ذلك وينكرون الفائدة عنادا واستكبارا .

وفى قوله (والله أعلم بما ينزل) توبيخ لهم وإيماء إلى أن التبديل لم يكن للهوى ، بل كان لحكمة اقتضته ودعت إليه من تغير الأحوال والأزمان ، ألا ترى أن الطبيب يأمر المريض بدواء بعينه ، ثم إذا عاده مرة أخرى نهاه عن ذلك الدواء وأمره بضده أو بما لا يقرب منه بحسب مايرى من حال المريض؟ .

وهكذا الشرائع إنما توضع مشاكلة للزمان والمكان والأحوال الملابسة لها ، وقد يطرأ ما يغيّرها ويستدعى وضع تشريع آخر يكون أصلح للأحوال المفاجئة ، والمشاهدة تدل على صدق هذا، فإنا نرى القوانين الوضعية تغيّرآنابعد آن إذا جدمايستدعى ذلك ، وقد تقدم بسط هذا فى سورة البقرة .

ثم بين لهؤلاء المعترضين على حكمة النسخ ، الزاعمين أن ذلك لم يكن من عندالله ، وأن رسوله صلى الله عليه وسلم قد افتراه فقال :

(قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين) أى قل لهم : قد جاء جبريل من عند ربى بما أتلوه عليكم ، واقتضته الحكمة البالغة ، من تثبيت المؤمنين وتقوية إيمانهم بما فيه من أدلة قاطعة و براهين ساطعة ، على

وحدانية خالق الكون وباهر قدرته وواسع علمه ، وحث على النظر فى ملكوت السموات والأرض ، وتشريع يرقى بالأمم فى أخلاقها وآدابها ومعارفها ، إلى مستوى لاتدانيها فيه أمة أخرى .

والخلاصة — إنه نافع كل النفع لهم فى دينهم ودنياهم، فإذا هم رأوا ذلك رسخت عقائدهم واطمأنت قلوبهم ، كما أن فيه هداية لهم من الزيغ والضلالات ، ففيه مايهذّب النفوس ويكبح جماح الطغيان ، ويرد الظالم عن ظلمه ، ويدفع عدوان الناس بعضهم على بعض ، وفيه بشرى للمسلمين بما سيلقونه من الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار جزاء أعمالهم وكدهم ونصبهم إرضاء لربهم .

وفى هذا إيماء إلى أن هؤلاء المشركين لهم من الصفات ضد هذا ، فهم متزلزلون ضالون لهم خزى ونكال فى الدنيا والآخرة .

ثم حكى عنهم شبهة ثانية فقال :

(ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر) أى وإنا لنعلم أن هؤلاء المشركين يقولون جهلا : إنما يعلم محمدا هذا الذى يتلوه بشر من بنى آدم وليس بالوحى من عند الله .

فرد الله عليهم وكذبهم فى قيلهم فقال :

(لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين) أى إن لسان الذى تميلون إليه بأنه يعلم محمدا ـ أعجمى فهو عبد رومى فيما تزعمون ، والقرآن لسان عربى مبين ، فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن فى فصاحته وبلاغته ومعانيه الشاملة من رجل أعجمى ؟ لايقول هذا من له أدنى مُسْكة من عقل .

وخلاصة هذا — إن ما يسمعه من ذلك البشر كلام أعجمى لا يفهمه هو ولا أنتم والقرآن كلام عربى تفهمونه بأدنى تأمل ، فكيف يكون هو ما تلقفه منه ؟ هبه تعلم منه المعنى باستماع كلامه ، فهو لم يلقف منه اللفظ ، لأن ذلك أعجمى وهذا عربى ، والقرآن كما هو معجز باعتبار المعنى هو معجز من حيث اللفظ ـ إلى أن العلوم الكثيرة

التي في القرآن لا يمكن تعلمها إلا بالدرس والتلقين من أخصائيين مع الاختلاف إليهم مددا متطاولة ، فليس من الميسور ولا مما يجد العقل اطمئنانا إليه أن يتعلم مثل هذا من غلام سُوقى سمع منه أخبارا بلغة أعجمية لعله لم يكن يعرف معناها .

وعلى نحوٍ آخر كأنه قيل لهم : أنتم أفصح الناس بيانا ، وأقوام حجة وبرهانا ، وأقدرهم على الكلام نظما ونثرا، وقد عجزتم وعجز جميع العرب أن يأتوا بمثله ،فكيف تنسبونه إلى أعجمىّ ألكن ؟ .

وفى التشبث بأمثال هذه المطاعن الركيكة ، والخرافات الساذجة ، أبلغ دليل على أنهم بلغوا غاية العجز ، ونهاية السُّخْف .

فدعهم يزعمون الصبح ليلا أيعمى الناظرون عن الضياء

ثم توعدهم على ماقالوا بالعقاب فى الدنيا والآخرة فقال :

(إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لايهديهم الله ولهم عذاب أليم) أى إن الذين لا يصدّقون بأن هذه الآيات من عند الله ، بل يقولون فيها ما يقولون ، فيقولون تارة إنها مفتريات ، ويقولون أخرى إنها من أساطير الأولين - لايهديهم الله إلى معرفة الحق الذى ينجّيهم من عذاب النار ، لما يعلم من سوء استعدادهم بما اجترحوا من السيئات ، ودنّسوا به أنفسهم من ارتكاب الموبقات ، ولهم فى الآخرة إذا وردوا إلى ربهم عذاب مؤلم موجع ، كفاء مانصبوا له أنفسهم من العِداء لرسوله : والتكذيب لآيات الكتاب .

ولما نسبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الافتراء رد الله عليهم بقوله :

(إنما يفترى الكذب الذين لايؤمنون بآيات الله) أى إنما يتخرّص الكذب ويتقوّل الباطل ، الذين لا يصدقون بحجج الله وآياته التى نصبها فى الكون ، وأقامها أدلة على وجوده ووحدانيته ، لأنهم لايرجون على الصدق ثوابا ، ولا يخشوْن على الكذب عقابا ، وهذه صفاتكم أيها المشركون لاصفات النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ومن ثم حكم عليهم بالكذب حكما صريحا فقال :

(وأولئك هم الكاذبون) أى وأولئك الذين كفروا من رجال قريش القائلين لك أيها الرسول: إنما أنت مفترهم الكاذبون لا أنت .

وهذا تصريح بنسبة الكذب إليهم بعد التعريض، ليكون ميسَم خزى وعارٍ لهم .

مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ، وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨) لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩) .

تفسير المفردات

أكره : أى على التلفظ بكلمة الكفر ، والاطمئنان: سكون النفس بعد انزعاجها والمراد الثبات على ما كان عليه بعد إزعاج الإكراه ، شرح بالكفر صدراً : أى اعتقده وطاب به نفسا ، استحبوا الحياة الدنيا : أى آثروها وقدّموها ، لا جرم : أى حقا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآيات السالفة أن قريشا كفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم وتقوّلوا عليه الأقاويل فوصفوه بأنه مفتر وأن الكتاب الذى جاء به هو من كلام البشر لا من عند الله ، ثم هددهم على ذلك أعظم تهديد — قفى على ذلك ببيان حال من يكفر بلسانه وقلبه ملىء بالإيمان .

أخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل « أن المشركين أخذوا عمّار ابن ياسر فلم يتركوه حتى سبّ النبى صلى الله عليه وسلم وذكر آلهتهم بخير ، فلما أتى رسول الله قال له ما وراءك ؟ قال شر ما تركت ، نلتُ منك وذكرت آلهتهم بخير ، قال كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئن بالإيمان، قال إن عادوا فعد فنزلت : إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان » ، وروى « أن قريشا أكرهوا عمارا وأبويه ياسراً وسميّة على الارتداد فأبوْا، فربطوا سمية بين بعيرين ووجئت بحربة فى موضع عفتها وقالوا إنما أسلمتِ من أجل الرجال فقتلوها وقتلوا ياسرًا وهما أول قتيلين فى الإسلام ، وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه ، فقيل يا رسول الله إن عمارا كفر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلا إن عمارا ملىء إيمانا من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال : مالك ؟ إن عادوا فعد لهم بما قلت » .

الإيضاح

(من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) أى إن من كفر بالله بعد الإيمان والتبصر فعليه غضب من الله إلا إذا أكره على ذلك وقلبه ملىء بالإيمان بالله والتصديق برسوله ، فلا تثريب عليه كما فعل عمار بن ياسر .

(ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) أى ولكن غضب الله وشديد عقابه لمن طابت أنفسهم بالكفر ، واعتقدوه طائعين مختارين ، لعظيم جُرْمهم ، وكبير إثمهم .

ثم بين سبب هذا الغضب فقال :

(ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة) أى ذلك الغضب من الله ،والعذاب العظيم من أجل أنهم آثروا الحياة الدنيا وزينتها على نعيم الآخرة .

(وأن الله لايهدى القوم الكافرين) أى وأن الله لايوفق من يجحد آياته

ويصرّ على إنكارها ، لأنه قد فقد الاستعداد لسبل الخير بما زينت له نفسه ،وسولت له ، من عظيم الجرم وكبير الإثم، فأصبح قلبه مليئا بما يشغله عن دواعى الإيمان، بما يمليه عليه الشيطان .

(أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون) أى أولئك الذين اتصفوا بما تقدم ذكره — هم الذين طبع الله على قلوبهم ، فلا يؤمنون ولا يهتدون ، وأصم أسماعهم فلا يسمعون داعى الله إلى الهدى ، وأعمى أبصارهم فلا يبصرون بها حجج الله إبصار معتبر متعظ ، وأولئك هم الساهون عما أعِدّ لأمثالهم من أهل الكفر ، وقد تقدم ذكر (الطبع) فى آى كثيرة .

(لا جرم أنهم فى الآخرة هم الخاسرون) أى حقا إنهم فى الآخرة هم الهالكون الذين غَبَنوا أنفسهم حظوظها ، وصرفوا أعمارهم فيما لا يفضى بهم إلا إلى العذاب المخلَّد ولله در من قال :

إذا كان رأس المال عمرَك فاحترس عليه من الإنفاق فى غير واجب

فما المرء فى هذه الحياة إلا كالتاجر ، يشترى بطاعة ربه سعادة الآخرة ، فإذا لم يفعل من ذلك شيئا خسرت تجارته، وعاد ذلك عليه بالوبال والنكال فى جهنم وبئس القرار.

وقد حكم الله على هؤلاء الكافرين بستة أشياء :

(١) إنهم استوجبوا غضب الله .

(٢) إنهم استحقوا عقابه العظيم .

(٣) إنهم استحبوا الحياة الدنيا .

(٤) إن الله حرمهم من الهداية للطريق القويم .

(٥) إنه طبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم .

(٦) إنه جعلهم سبحانه من الغافلين .

قال مجاهد : أول من أظهر الإسلام سبعة : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر وخبَّاب وصُهَيب وبلال وعمار وسمية .

أما الرسول فحماه أبو طالب ، وأما أبو بكر فحماه قومه ، وأُخِذ الآخرون وألبسوا دروع الحديد ، ثم أُجْلِسوا فى الشمس ، فبلغ منهم الجهْد بحرّ الحديد والشمس ، وأتاهم أبو جهل يشتُمهم و يوبّخهم و يشتم سمية ثم طعنها بحربة فى ملمس العفة ، وقال الآخرون ما نالوا به منهم ، إلا بلالا فإنهم جعلوا يعـــذبونه فيقول : أحدٌ أحدٌ حتى ملّوا ، فــكتفوه وجعلوا فى عنقه حبلا من ليف ، ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به ، حتى ملّوه فتركوه .

وقال عمار : كلنا تــكلم بالذى أرادوا غير بلال فإن نفسه هانت عليه فتركوه ، وقال خبّاب : لقد أوقدوا لى نارا ما أطفأها إلا وَدَكُ (دهن) ظهرى .

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١) .

تفسير المفرادت

أصل الفَتْن : إدخال الذهب فى النار لتظهر جودته من رداءته ، ثم استعمل فى المحنة والابتلاء يصيب الإنسان ، تجادل : أى تدفع وتسعى فى خلاصها ، والنفس الأولى الجثة والبدن ، والنفس الثانية عينها وذاتها ، وتوفى : تعطى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف حال من كفر بالله من بعد إيمانه ، وحكم بأنه استحق غضب الله وعذابه الأليم يوم القيامة ، ثم ذكر حال من أكره على إجراء كلمة الــكفر على لسانه وقلبه ملىء بالإيمان — أردف ذلك بذكر طائفة من المسلمين كانوا مستضعفين بمكة مهانين فى قومهم فوافقوا المشركين على الفتنة فى الدين والرجوع إلى دين آبائهم وأجدادهم ثم فرّوا وتركوا بلادهم وأهليهم ابتغاء رضوان الله وطلب

غفرانه ، وانتظموا فى سلك المسلمين وجاهدوا معهم الكافرين ، فحكم ربهم بقبول توبتهم ، ودخولهم فى زمرة الصالحين ، وتمتعهم بجنات النعيم يوم العرض والحساب .

أخرج ابن أبى حاتم عن قتادة أن عياشا رضى الله عنه (وكان أخا أبى جهل من الرضاعة) وأبا جندل بن سهل وسَلَمة بن هشام وعبد الله بن سلمة الثقفى ، فتنهم المشركون وعذبوهم فأعطوهم بعض ما أرادوا لِيَسْلَموا من شرهم ، ثم إنهم بعد ذلك هاجروا وجاهدوا فنزلت فيهم الآية .

الإيضاح

(ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد مافتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) أى إن ربك أيها الرسول للذين هاجروا من ديارهم وتركوا مساكنهم وعشائرهم من أهل الشرك، وانتقلوا عنهم إلى ديار الإسلام من بعد مافتنهم المشركون الذين كانوا بين ظهرانيهم قبل هجرتهم ، ثم جاهدوا المشركين بعد ذلك بأيديهم بالسيف ، و بألسنتهم بالبراءة منهم ومما يعبدون من دون الله ، وصبروا على جهادهم — إن ربك من بعد أفعالهم هذه لذو ستر على ما كان منهم من إعطاء المشركين ما أرادوا منهم من كلمة الكفر بألسنتهم ، وهم لغيرها مضمرون ، وللإيمان معتقدون ، رحيم بهم أن يعاقبهم عليها مع إنابتهم إليه ، وجميل صنعهم من بعد .

(يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها) أى إن ربك لغفور رحيم بهؤلاء يوم تأتى كل نفس تخاصم عن نفسها ، وتحاجّ عنها ، وتسعى فى خلاصها ، بما أسلفت فى الدنيا من عمل ، ولا يهمها شأن غيرها من ولد ووالد وقريب .

(وتوفى كل نفس ماعملت وهم لايظلمون) أى وتعطى كل نفس جزاء ماعملت فى الدنيا من طاعة أو معصية ، فيجزى المحسن بما قدم من إحسان ، والمسىء بما أسلف من إساءة ، ولا يعاقب محسن ولا يثاب مسىء .

والخلاصة — إن كل إنسان يجادل عن ذاته لا يهمه شأن غيره كما قال : « لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيه » .

وجاء فى بعض الآثار : « إن جهنم لتزفر زفرة ، لا يبقى ملك مقرب ،ولا نبى مرسل إلا جثا على ركبتيه يقول : رب نفسى نفسى حتى إن إبراهيم الخليل ليفعل ذلك » .

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣) .

المعنى الجملى

بعد أن هدد سبحانه الكافرين بالعذاب الشديد فى الآخرة — أردف ذلك الوعيد بآفات الدنيا من جوع وفقر وخوف شديد بعد أمن واطمئنان وعيش رغد .

الإيضاح

(وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . ولقد جاءهم رسول منهم فكذبوه فأخذهم العذاب وهم ظالمون) أى بين الله صفة لقرية كان أهلها آمنين من العدو والقتال والجوع والسبى ، يأتيها الرزق الكثير من سائر البلدان، فكفروا بنعم الله ، فعمهم الجوع والخوف، وذاقوا مرارتهما بعد سعة العيش والطمأنينة ، وقد جاءهم رسول من جنسهم يعرفونه بأصله ونسبه ، فكذبوه فيما أخبرهم به من

وجوب الشكر على النعمة ، فأخذهم العذاب واستأصل شأفتهم لالتباسهم بالظلم، وهو الكفر وتكذيب الرسول .

وفى هذا إيماء إلى تماديهم فى الكفر والعناد ، وإلى أن ترتيب العذاب على تكذيب الرسول جاء على سنة الله فى أنه لايعذب أمة إلا إذا أنذرها ، وبعث إليها رسولا يعظها ويرشدها كما يدل على ذلك قوله : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً » وهكذا حال أهل مكة ، فإنهم كانوا فى حرم آمن يُتَخَطَّف الناس من حولهم ، ولا يمرّ بهم طيف من الخوف ، ولا يزعج قلوبهم مزعج ، وكانت تجبى إليهم ثمرات كل شىء ، وقد جاءهم رسول من أنفسهم فأنذرهم وحذّرهم ، فكفروا بأنعم الله وكذبوا رسوله، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، وأذاقهم لباس الجوع والخوف بدعاء رسوله إذ قال : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » فاضطروا إلى أكل الجِيَف والكلاب الميتة والعظام المحرَّقة ، وكان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى شبه الدخان من الجوع ، وقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث كانوا يغيرون على مواشيهم وعيرهم وقوافلهم ، ثم أخذهم يوم بدر ما أخذهم من العذاب ، وقد جعل الله الجوع والخوف اللذين خالط أذاهما أجسامهم - لباسا لهم لأن أثرهما وضررهما قد أحاط بهم من كل جانب ، فأشبها اللباس الذى يغطّى الجسم ويحيط به ، وجعل إصابتهم بهما إذاقة دلالة على شدة تأثيرهما الشديد الذى حدث فيهم كما يكون ذلك حين ذوق شىء مرٍّ بَشِيع كريه ، إذ يجد الذائق تقززا واشمئزازا .

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ اللهَ

غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥) وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٩)

تفسير المفردات

يقولون : له وجه يصف الجمال ، وعين تصف السحر ، يريدون أنه جميل وأن عينه تفتن من رآها ، لأنه لما كان وجهه منشأ للجمال وعينه منبعا للفتنة والسحر كان كل منهما كأنه إنسان عالم بكنههما محيط بحقيقتهما يصفهما للناس أجمل وصف ويعرفهما أتم تعريف وعلى هذا الأسلوب جاء قوله تعالى : ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب ، إذ جعل الكذب كأنه حقيقة مجهولة ، وكلامهم الكذب يشرح تلك الحقيقة ويوضحها ، كأن ألسنتهم لكونها موصوفة بالكذب هى حقيقته ومنبعه الذى يعرف منه ، وعليه قول أبى العلاء المعرّى :

سَرَى برق المعرّةِ بَعْدَ وَهْنٍ فبات برامةٍ يصف الكلالا

أى إن سُرى ذلك البرق يصف الكلال والإعياء .

لتفتروا : أى لتكون العاقبة ذلك ، والجهالة هنا: الطيش وعدم التدبر فى العواقب.

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه حال من كفروا بأنعم الله وكذبوا رسوله وأنه قد حل بهم العذاب من جوع وخوف بسبب ظلمهم لأنفسهم وصدهم عن سبيل الله — قفّى على

ذلك بأمر المؤمنين بأكلهم من الحلال الطيب وشكرهم لنعمة الله عليهم وطاعتهم للرسول فيما به أمر وعنه نهى كيلا يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم ، ثم ببيان ما حرمه من المآكل، وأن التحليل والتحريم لا يكونان إلا بنص من الدين لا بالهوى والتشهى، لأن ذلك افتراء على الله ، ومن يفتر عليه لا يفلح . وأن ما حُرِّم على اليهود قد ذكره فيما نزل عليه من قبل فى سورة الأنعام ، وأن من يعمل السوء لعدم تدبره فى العواقب كغلبة الشهوة عليه ثم يتوب من بعد ذلك ويصلح أعماله ، فإن الله غفور لزلاته ، رحيم له ، فيثيبه على طاعته .

الإيضاح

(فكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون) أى فكلوا يامعشر المؤمنين مما رزقكم الله من بهائم الأنعام التى أحلها لكم ، وذروا الخبائث وهى الميتة والدم ، واشكروه على ما أنعم به عليكم ، بتحليله ما أحل لكم ، وبسائر نعمه المتظاهرة عليكم ، إن كنتم تعبدونه ، فتطيعونه فيما يأمركم به ، وتنتهون عما ينهاكم عنه ، والمراد بذلك الحث على اتباع أوامره والمداومة عليها .

وبعد أن أمرهم بالأكل من الطيبات بين لهم ما حرّم عليهم فقال :

(إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به) أى إنما حرم عليكم ربكم أكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما ذبح للأنصاب فسمى عليه بغير اسمه تعالى ، فإن ذلك من ذبائح من لا يحل أكل ذبيحته.

والخلاصة — إن ماسمى عليه غير الله عند الذبح سواء كان صنما أو وثنا أو روحا خبيثا من جن أو روحا طيبا من إنس كالنبى والولى حيا أو ميتا، فأكله حرام لما جاء فى الحديث « ملعون من ذبح لغير الله » سواء سمى الله عند ذبحه أو لم يسم ، لأن هذا الحيوان قد انتسب إلى غيره تعالى ، فمن ذبح للسيد البدوى أو لإبراهيم الدسوقى أو للسيدة زينب لايجوز أكل هذا الذبيح .

ثم ذكر الحال التى يسوغ فيها تناول شىء من هذه المحرمات فقال :

(فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم) أى فمن اضطر إلى تناول شىء من هذه المحرمات لمجاعة حلت به ، وضرورة دعته إلى أخذ شىء منها ، غير باغ على مضطر آخر ولا متعدٍّ قدر الضرورة وسد الرمق — فالله لايؤاخذه على ذلك وهو الذى يستر ما يصدر منهم من الهفوات ، وهو الرحيم بهم أن يعاقبهم على مثل ذلك ، أما ماحرموه غيرذلك من البحائر والسوائب والوصائل ونحوها مما تقدم فى سورة الأنعام فهو محض افتراء على الله، وقد تقدم مثل هذه الآية فى سور البقرة والمائدة والأنعام وفيها حصر المحرمات فى هذه الأربع فحسب .

ثم أكد حصر المحرمات فى هذه الأربع ونهى عن التحريم والتحليل بالأهواء فقال :

(ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام) أى ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام بالرأى والهوى ، فلا تقولوا مافى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا ، ولا تحللوا الميتة والدم ولحم الخنزير الخ .

وخلاصة ذلك — لا تحللوا ولا تحرموا لمجرد وصف ألسنتكم الكذب وتصويرها له دون استناد إلى دليل ، وكأنّ ألسنتكم لأنها منشأ الكذب وينبوعه شخص عالم بحقيقته ، ومحيط بكنهه ، يصفه للناس ويوضحه لهم أتم إيضاح .

(لتفتروا على الله الكذب) أى لتكون عاقبة أمركم إسناد التحريم والتحليل إلى الله كذبا من غير أن يكون ذلك منه ، فالله لم يحرم من ذلك ماتحرمون ولا أحل كثيرا مما تحللون .

و إجمال ذلك — لاتسموا ما لم يأتكم حله ولا حرمته عن الله ورسوله حلالا وحراما فتكونوا كاذبين عليه ، لأن مدار الحل والحرمة عليه ليس إلا حكمه تعالى .

عن أبى نضرة قال : قرأت هذه الآية فى سورة النحل فلم أزل أخاف الفتيا إلى

يومى هذا — وقد صدق فكل من أفتى بخلاف مافى كتاب الله وسنة رسوله لجهله بما فيهما فقد ضل وأضل من يفتيهم ، ولله در القائل :

كبهيمة عميـاء قاد زمامها أعمى على عِوَج الطريق الحائر

أخرج الطبرانى عن ابن مسعود قال:«عسى رجل يقول إن الله أمر بكذا أو نهى عن كذا فيقول الله عز وجل كذبت ، أو يقول إن الله حرم كذا أو أحل كذا فيقول الله له كذبت » .

ثم أوعد المفترين وهددهم أشد التهديد فقال :

(إن الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون) أى إن الذين يتخرّصون الكذب على الله فى أمورهم صغيرها وكبيرها لايفوزون بخير فى المطالب التى لأجلها كذبوا على ربهم ، إذ هم متى عُرِفوا بالكذب مَجَّهم الناس وانصرفوا عنهم وعاشوا أذلة بينهم ممقوتين ، ويكونون مضرِب الأمثال فى الهوان والصغار ـ إلى مايصيبهم من الخزى والوبال يوم القيامة .

ثم بين أن مايحصل لهم من المنافع بالافتراء على الله ليس شيئا مذكورا إذا قيس بالمضارّ التى تنجم منه فقال :

(متاع قليل ولهم عذاب أليم) أى إن المنافع التى قد تحصل لهم على ذلك فى الدنيا لايعتدّ بها فى نظر العقلاء إذا ووزن بينها و بين المضارّ التى فى الآخرة ، فما متاع الدنيا إلا ظل زائل ثم يفنى ويبقى لهم العذاب الأليم حين مصيرهم إلى ربهم بما اجترحوا من السيئات ، ودنّسوا به أنفسهم من أوضار الإثم والفجور والكذب على بارئهم الذى خلقهم وصوّرهم فأحسن صورهم .

ونحو الآية قوله : « نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ » .

وبعد أن بين مايحل وما يحرم لأهل الإسلام أتبعه ببيان ماخص به اليهود من المحرمات فقال :

(وعلى الذين هادوا حرمنا ما قصصنا عليك من قبل) أى وحرمنا من قبلك

أيها الرسول على اليهود ما أنبأناك به من قبل فى سورة الأنعام : « وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إلاَّ مَاحَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ » .

ثم بين السبب فى ذلك التحريم عليهم فقال :

(وما ظلمناهم ولـكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى وما ظلمناهم بتحريم ذلك عليهم ، ولـكن ظلموا أنفسهم بمعصيتهم لربهم وتجاوزهم حدوده التى حدها لهم وانتهاك حرماته ، فعوقبوا بهذا التحريم كما قال فى آية أخرى : « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ » الآية .

وفى هذا إيماء لى أن ذلك التحريم إنما كان للظلم والبغى عقوبة وتشديدا ، وبه يعلم الفرق فى التحريم بينهم وبين غيرهم ، فإنه لهم عقوبة ، ولنا للمضرّة فحسب .

ثم بيّن أن الافتراء على الله وانتهاك حرماته لا يمنع من التوبة التى يتقبّلها الله منهم، ويغفر لهم زلاتهم رحمة منه وفضلا فقال :

(ثم إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) أى إن ربك للذين افتروْا عليه وأشركوا به سواه وركبوا مالا يليق من المعاصى بسبب الجهالة التى تحملهم على انتهاك حرمات الدين كالقتل للغَيْرة أو للعصبية كما جاء فى الخبر « اللهم إنى أعوذ بك من أن أجهل أو يُجْهَل علىّ » .

وقال عمرو بن كلثوم :

ألا لايجهلَنْ أحـــد علينا فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا

إنه لغفور رحيم لهم إذ هم تابوا وندموا على مافرط منهم ، وأصلحوا أعمالهم ففعلوا مايحب الله ورسوله .

وفى قوله : بجهالة ، إيماء إلى أن من يأتى الذنوب قلّما يفـكر فى العاقبة ، لغلبة الشهوة عليه أو لجهالة الشباب والطيش .

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتاً لِلَّهِ حَنِيفاً وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤) ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨) .

تفسير المفردات

الأمة : الجماعة الكثيرة ، وسمى إبراهيم أمة لأنه قد جمع من الفضائل والكمالات ما لو تفرّق لكفى أمة ، ألا ترى أبا نواس إذ يقول لهرون الرشيد مادحا :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالَم فى واحد

والقانت : المطيع لله القائم بأمره ، والحنيف : المائل عن الدين الباطل إلى الدين الحق ، واجتباه : اختاره واصطفاه، والحسنة : هى محبة أهل الأديان جميعا له إجابة لدعوته لربه « وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » وجعل السبت لليهود : فرض تعظيمه والتخلى فيه للعبادة وترك الصيد ، والحكمة : المقالة المحكمة المصحوبة بالدليل

الموضّح للحق المزيل للشبهة ، والموعظة الحسنة : الدلائل الظنية المقنعة للعامة ، والجدل : الحِوار والمناظرة لإقناع المعاند، والعقاب فى أصل اللغة : المجازاة على أذى سابق ثم استعمل فى مطلق العقاب ، والضيق (بفتح الضاد وكسرها) الغم وانقباض الصدر .

المعنى الجملى

بعد أن زيّف سبحانه مذاهب المشركين فى إثبات الشركاء والأنداد لله ، وفى طعنهم فى نبوة الأنبياء والرسل بنحو قولهم : لو أرسل الله رسلا لأرسل ملائكة . وفى تحليلهم أشياء حرمها الله ، وتحريم أشياء أحلها الله ، وبالغ فى رد هذه المعتقدات . ختم السورة بذكر إبراهيم رئيس الموحدين الذى كان المشركون يفتخرون به ، ويقرّون بوجوب الاقتداء به ، ليصير ذكر طريقته حاملا لهم على الإقرار بالتوحيد والرجوع عن الشرك ، ثم بأمر نبيه محمد صلى الله عليه وسلم باتباعه ، ثم يجعل الأسس التى يبنى عليها دعوته هى الحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالحسنى ، ثم بأمره باللين فى العقاب إن أراده ، أو بترك العقاب ، وهو أفضل للصابرين ، ثم بأمره بجعل الصبر رائده فى جميع أعماله ، ونهيه عن الحزن على كفر قومه ، وأنهم لم يجيبوا دعوته ، وأنهم يمكرون به ، فالله ينصره عليهم ويكفيه أذاهم ، فقد جرت سنته بأن العاقبة للمتقين ، والخذلان للعاصين الخائنين .

الايضاح

(إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين . شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم . وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) مدح الله عبده ورسوله وخليله إبراهيم إمام الحنفاء ، ووالد الأنبياء بجملة صفات من صفات الكمال :

(١) إنه وحده كان أمة، قال ابن عباس رضى الله عنهما : إنه كان عنده عليه الصلاة

والسلام من الخير ما كان عند أمة ، فهو رئيس الموحّدين ، كسر الأصنام ، وجادل الكفار ، ونظر فى النجوم ، ودرس الطبيعة الكونية ، ليطمئن قلبه بالإسلام .

(٢) إنه كان قانتا أى مطيعا لله قائما بأمره .

(٣) إنه كان حنيفا أى مائلا عن الباطل، متّبعا للحق ، لايفارقه ولا يحيد عنه.

(٤) إنه ما كان من المشركين فى أمر من أمور دينهم ، بل كان من الموحّدين فى الصغر والكبر ، فهو الذى قال للملك فى عصره « رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ » وهو الذى أبطل عبادة الأصنام والكواكب بقوله : « لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ » وكسر الأصنام حتى ألقوْه لأجلها فى النار فكانت عليه بردا وسلاما .

وعلى الجملة فقد كان غارقا فى بحار التوحيد مستغرقا فى حب الإله المعبود، وفى ذلك ردّ على كفار قريش إذ قالوا نحن على ملة إبراهيم ، وعلى اليهود الذين أشركوا وقالوا عزير ابن الله ، مع زعمهم أن إبراهيم كان على مثل ماهم عليه .

ونحو الآية قوله : « مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

(٥) إنه كان شاكرا لأنعم الله عليه كما قال: « وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى » أى قام بجميع ما أمره الله تعالى به ، وفى هذا تعريض بكفار قريش الذين جحدوا بأنعم الله فأصابهم الجوع والخوف كما تقدم ذكرُه فى المثل السابق .

(٦) إنه اجتباه ربه واختاره للنبوة كما قال : « وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ » .

(٧) إنه هداه إلى صراط مستقيم ، وهو عبادة الله وحده لاشريك له ، مع إرشاد الخلق إلى ذلك والدعوة إليه .

(٨) إن الله حبّبه إلى جميع الخلق ، فجميع أهل الأديان ، مسلميهم ونصاراهم ويهودهم يعترفون به ، وكفار قريش لافخر لهم إلا به ، وقد أجاب الله دعاءه فى قوله « وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ » .

(٩) إنه فى الآخرة فى زمرة الصالحين ، وهو معهم فى الدرجات العلى من الجنة ، إجابة لدعوته قال : « رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ » .

وبعد أن وصف إبراهيم بهذه الصفات الشريفة التى بلغت الغاية فى علوّ المرتبة أخبر أنه أمر نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم باتباعه فقال :

(ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين) أى ثم أوحينا إليك أيها الرسول وقلنا لك : اتبع ملة إبراهيم الحنيفية المسلمة البريئة من عبادة الأوثان والأنداد التى يعبدها قومك ، كما تبرأ إبراهيم من مثلها من قبل ، فأنت متبع له وسائر على طريقه ، وقومك ليسوا كذلك ، لأنهم يحللون ويحرمون من عند أنفسهم .

ونحو الآية قوله فى سورة الأنعام : « قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » .

وخلاصة ذلك — إنه عليه الصلاة والسلام أمر باتباع ملة إبراهيم بنفى الشرك وإثبات التوحيد، وإن كان قد ثبت ذلك بالدليل العقلى، ليظاهر الدليل النقلى الدليل العقلى .

وقوله :(وما كان من المشركين) تكرير لزيادة التوكيد وتقرير لنزاهته عليه الصلاة والسلام عما هم عليه من عقيدة وعمل.

ثم نعى على اليهود ما اختلفوا فيه وهو يوم السبت فقال :

(إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ، وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) أى إنما جعل وبال يوم السبت وهو المسخ على الذين اختلفوا فيه ، فأحلوا الصيد فيه تارة وحرموه أخرى ، وكان من الحتم عليهم أن يتفقوا فيه على كلمة واحدة بعد أن أمروا بالكف عن الصيد فيه . كما أن وبال التحريم والتحليل من المشركين من عند أنفسهم واقع عليهم لامحالة .

وإن ربك ليفصل بين الفريقين فى الخصومة والاختلاف ، ويجازى كل فريق بما يستحق من ثواب وعقاب .

وإيراد هذه العبارة بين سابق الكلام ولاحقه — إنذار للمشركين وتهديد لهم بما فى مخالفة الأنبياء من عظيم الوبال والنكال، كما ذكر مثل القرية فيما سلف ، إلى أن فيه حثا على إجابة الدعوة التى تضمنها سابق الكلام وأمروا بها فى لاحقه، ثم فصل سبحانه ما أمر باتباع إبراهيم فيه فقال :

(ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) أى ادع أيها الرسول من أرسلك إليهم ربك بالدعاء إلى شريعته التى شرعها لخلقه بوحى الله الذى يوحيه إليك ، وبالعبر والمواعظ التى جعلها فى كتابه حجة عليهم ، وذكرهم بها فى تنزيله كالذى عدده فى هذه السورة . وخاصمهم بالخصومة التى هى أحسن من غيرها بأن تصفح عما نالوا به عرضك من أذى ، وترفَّقْ بهم بحسن الخطاب ، كما قال فى آية أخرى « وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ » الآية ، وقال آمرا موسى وهرون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون « فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى » .

ثم توعد سبحانه ووعد فقال :

(إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) أى إن ربك أيها الرسول هو أعلم بمن جار عن قصد السبيل من المختلفين فى السبت وغيره ، وأعلم بمن كان منهم سالكا قصد السبيل ومحجة الحق ، وهو مجازيهم جميعا حين ورودهم إليه بحسب ما يستحقون .

وخلاصة ذلك — اسلك فى الدعوة والمناظرة الطريق المثلى ، وهى الدعوة بالتى هى أحسن ، وليس عليك غيرها .

أما الهداية والضلال والمجازاة عليهما فإلى الله سبحانه لا إلى غيره ، إذ هو أعلم بحال من لا يرعوى عن الضلال لسوء اختياره ، وبحال من يصير أمره إلى الاهتداء ، لما ينطوى بين جنبيه من الخير ، فما شرعه لك فى الدعوة هو الذى تقتضيه الحكمة ، وهو كاف فى هداية المهتدين وإزالة عذر الضالين .

ولما أمر الله رسوله بالدعوة وبين طريقها وكانت تلك الدعوة تتضمن أمرهم بالرجوع عن دين آبائهم وأسلافهم والحكم عليهم بالكفر والضلالة ، وذلك مما يحمل أكثرهم على إيذاء الداعى إما بقتله أو بضربه أو بشتمه ، كما أن الداعى يدعوه طبعه إلى تأديب أولئك السفهاء تارة بالقتل وأخرى بالضرب ، لا جرم أمر سبحانه المحقين برعاية العدل والإنصاف فى العقاب وترك الزيادة فيه فقال :

(وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) أى وإن عاقبتم أيها المؤمنون من ظلمكم فلكم فى العقاب إحدى طريقين :

(١) أن تعاقبوه بمثل الذى نالكم به ظالمكم من العقوبة .

(٢) أن تصبروا وتتجاوزوا عما صدر منه من الذنب ، وتصفحوا عنه ، وتحتسبوا عند الله ما نالكم به من الظلم ، وتكلوا أمركم إليه ، والله يتولى عقوبته ، والصبر خير للصابرين من الانتقام ، لأن الله ينتقم من الظالم بأشد مما كان ينتقم منه لنفسه .

والخلاصة — إنكم إن رغبتم فى القصاص فاقنعوا بالمثل ولا تزيدوا عليه ، فإن الزيادة ظلم ، والظلم لا يحبه الله ولا يرضى به ، وإن تجاوزتم عن العقوبة وصفحتم فذلك خير وأبقى ، والله هو الذى يتولى عقاب الظالم ويأخذ بناصر المظلوم .

ثم أمر رسوله بالصبر صراحة بعد أن ندب إليه غيره تعريضا ، لأنه أولى الناس بعزائم الأمور ، لزيادة علمه بشئونه تعالى فقال :

(واصبر وما صبرك إلا بالله) أى واصبر على ما أصابك منهم من أذى فى الله ، ومن إعراض عن الدعوة ، وما صبرك إن صبرت إلا بمعونة الله وحسن توفيقه ، ومشيئته المبنية على الحكم البالغة التى تنتهى إلى عواقب حميدة .

وفى هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتهوين لمشاقّ الصبر عليه وتشريف له بما لا مزيد عليه .

(ولا تحزن عليهم) أى ولا تحزن على إعراض المشركين الذين يكذّبونك وينكرون ما جئتهم به .

(ولا تك فى ضيق مما يمكرون) أى ولا يضق صدرك بما يقولون من الجهل بنسبتك إلى السحر والكهانة والشعر احتيالا وخديعة لمن أراد الإيمان بك ، وصدًّا عن سبيل الله .

وقصارى ذلك — إنه نهى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يضيق صدره مما يلقى من أذى المشركين على تبليغهم وحى الله وتنزيله كما قال : « فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ » وقال : « فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » .

فالله كافيك أذاهم، وناصرك عليهم، ومؤيدك ومظهرك عليهم، فمهما حاولوا إيصال الأذى بك ، فإن الله مبعِده عنك ، ومحبط ماصنعوا وهم لايشعرون .

(إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) أى إن الله مع الذين اتقوا محارمه فاجتنبوها خوفا من عقابه ، والذين يحسنون رعاية فرائضه ، والقيام بحقوقه ، ولزوم طاعته فيما أمرهم به ، وفى ترك مانهاهم عنه .

ونحو الآية قوله لموسى وهرون : « لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى » وقول النبى صلى الله عليه وسلم للصدِّيق وهما فى الغار فيما حكى الله عنه : « لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا » .

وقصارى ذلك — إن الله تعالى ولىّ الذين تبتّلوا إليه ، وأبعدوا الشواغل عن أنفسهم ، فلم يحزنوا لفوت مطلوب ، ولم يفرحوا لنيل محبوب ، والذين هم محسنون أعمالهم برعاية فرائضه وأداء حقوقه على النحو اللائق بجلاله وكماله ، وقد فسر النبى صلى الله عليه وسلم الإحسان فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

والله نسأل أن يهدينا إلى سواء السبيل ، وأن يوفقنا للفقه فى دينه ، ويفتح لنا خزائن أسراره ، بحرمة كتابه ، وكنوز شريعته التى أنزلها على رسوله النبى الأمى ، والحمد لله رب العالمين ، وصلاته وسلامه على سيد المرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين :

مجمل ماحوته السورة الكريمة من الآداب والأحكام

(١) استعجال المشركين للساعة .

(٢) ذكر الأدلة على التوحيد بخلق العالم العلوى والسفلى وخلق الإنسان .

(٣) الامتنان على عباده بخلق الأنعام وما فيها من المنافع من أكل وحمل أثقال إلى البلاد البعيدة .

(٤) النعى على المشركين فى عبادة الأصنام والأوثان .

(٥) إنذار المشركين بأن يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من المثلات وبما آتاهم من العذاب من حيث لايشعرون .

(٦) احتجاج المشركين بعدم الحاجة إلى إرسال الرسل بأن ما هم فيه من كفر وضلال مقدر مكتوب عليهم ، فلا فائدة فى إرسالهم ، وقد ردّ الله عليهم بأن وظيفة الرسل البلاغ والإنذار لاخلق الهداية والإيمان .

(٧) إجمال دعوة الأنبياء بأنها عبادة الله واجتناب الطاغوت ، ومن الناس من استجاب لدعوتهم ومنهم من حقت عليه الضلالة .

(٨) إنكار المشركين للبعث والنشور وحلفهم على ذلك ، وتكذيب الله لهم فيما يقولون .

(٩) إنكارهم بعث محمد صلى الله عليه وسلم بأنه رجل لا ملك، فكذبهم الله بأن الأنبياء جميعا كانوا رجالا لاملائكة .

(١٠) إنذار المشركين بعذاب الخسف .

(١١) جعلهم الملائكة بنات مع حزنهم إذا بشر أحدهم بالأنثى .

(١٢) رحمة الله بعباده وعدم مؤاخذتهم بذنوبهم ، وأنه لو آخذهم ما ترك على ظهر الأرض دابة .

(١٣) ذكر نعمه على عباده بإنزال اللبن من بين الفرث والدم ، وأخذ الثمرات من النخيل والأعناب والعسل من النحل .

(١٤) تفاضل الناس فى الأعمار والأرزاق .

(١٥) ضرب الأمثال لدحض الشركاء والأنداد من دون الله .

(١٦) الامتنان على عباده بخلق السمع والبصر وتسخير الطير فى جو السماء وجعل البيوت سكنا ، وجعله لنا سرابيل تقى الحر وسرابيل تقى بأس العدو .

(١٧) جعل الأنبياء شهداء على أممهم وعدم الإذن للكافرين فى الكلام وعدم قبول معذرتهم .

(١٨) الأمر بالعدل والإحسان وصلة الأرحام، والنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، والأمر بالوفاء بالعهود والوعود وضرب الأمثال لذلك .

(١٩) الأمر بالاستعاذة من الشيطان وبيان أن سلطانه على المشركين .

(٢٠) تكذيبهم للرسول إذا جاءهم بحكم لم يكن فى شريعة من قبله من الأنبياء وادعاؤهم بأن هذا القرآن إنما هو تعليم من عبد رومى ورد الله عليهم ذلك .

(٢١) إنه لا ضير على من كفر بالله وقلبه مطمئن بالإيمان دون من شرح بالكفر صدرا .

(٢٢) دفاع كل نفس عن نفسها يوم القيامة وجزاء كل نفس بما عملت .

(٢٣) ذكر ما حرمه الله من المطاعم والنهى عن تقوّلهم على الله بغير علم .

(٢٤) ذكر ما حرمه على اليهود بسبب ظلمهم .

(٢٥) مدح إبراهيم عليه السلام ووصفه بصفات لم يوصف بها نبى غيره ، ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم باتباعه وسلوك طريقته فى العقاب والصبر على الأذى .

وقد انتهى تصنيف هذا الجزء بمدينة حلوان من أرباض القاهرة عصر يوم الأربعاء الثلاثين من جمادى الآخرة من سنة ثلاث وستين وثلاثمائة من هجرة سيد ولد عدنان .

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء

تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير المرحوم

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

الجزء الخامس عشر

دار إحياء التراث العربي
بيروت

الجزء الخامس عشر

سورة الاسراء – سورة بنى إسرائيل

هى مكية كما أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس ، وقال مقاتل إلا ثمانى آيات من قوله : وإن كادوا ليفتنونك إلى آخرهن .

وآيها عشر ومائة . أخرج أحمد والترمذى والنسائى وغيرهم «عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقرأ كل ليلة بنى إسرائيل والزُّمَر» وأخرج البخارى وابن مردويه «عن ابن مسعود أنه قال فى هذه السورة والكهف ومريم وطه والأنبياء هن من العِتاق الأوّل وهن من تِلادى»

ووجه مناسبتها لسورة النحل وذكرها بعدها أمور :

(١) إنه سبحانه ذكر فى سورة النحل اختلاف اليهود فى السبت ، وهنا ذكر شريعة أهل السبت التى شرعها لهم فى التوراة ، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس أنه قال : «إن التوراة كلها فى خمس عشرة آية من سورة بنى إسرائيل».

(٢) إنه لما أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر ونهاه عن الحزن وضيق الصدر من مكرهم فى السورة السالفة – ذكر هنا شرفه وعلو منزلته عند ربه .

(٣) إنه ذكر فى السورة السالفة نعما كثيرة حتى سميت لأجلها سورة النعم ، ذكر هنا أيضا نعما خاصة وعامة .

(٤) ذكر هناك أن النحل يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس - وهنا ذكر : وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين .

(٥) إنه فى تلك أمر بإيتاء ذى القربى ، وكذلك هنا مع زيادة إيتاء المسكين وابن السبيل .

بسم الله الرحمن الرحيم

سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) .

تفسير المفردات

سبحان الله : أى تنزيها له من كل مالايليق بجلاله وكماله ، والإسراء كالسرى : السير بالليل خاصة ، والمسجد الحرام : مسجد مكة ، والمسجد الأقصى : بيت المقدس وهو أقصى وأبعد بالنظر إلى من بالحجاز .

الإيضاح

(سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى) أى تنزيها للذى أسرى بعبده محمد صلى الله عليه وسلم ، فى جزء من الليل من المسجد الحرام إلى بيت المقدس ورجع فى ليلته ، وتبرئة له مما يقوله المشركون من أن له من خلقه شريكا وأن له صاحبة وولدا .

(الذى باركنا حوله) أى الذى جعلنا حوله البركة لسكانه فى معايشهم وأقواتهم وحروثهم وغروسهم .

(لنريه من آياتنا) أى كى نرى عبدنا محمدا من عبرنا وأدلتنا ، مافيه البرهان الساطع والدليل القاطع ، على وحدانيتنا وعظم قدرتنا .

(إنه هو السميع البصير) أى إن الذى أسرى بعبده هو السميع لما يقول هؤلاء المشركون من أهل مكة فى سُرى محمد صلى الله عليه وسلم من مكة إلى بيت المقدس ، البصير بما يفعلون ، لاتخفى عليه خافية من أمرهم ، ولا يعزب عنه شى فى الأرض ولا فى السماء ، فهو محيط به علما ، ومحصيه عددا ، وهو لهم بالمرصاد ، وسيجزيهم بما هم له أهل .

تحقيق ماقيل فى الإسراء والمعراج

اعلم أن هاهنا أمرين :

(١) إسراء النبى صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى بيت المقدس ، وهذا هو الذى ذكر فى هذه السورة .

(٢) العروج به والصعود إلى السماء الدنيا ثم إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام بعد وصوله إلى بيت المقدس ، ولم يذكر ذلك هنا ، وسيأتى بيانه فى سورة النجم ونفصل فيه القول تفصيلا إن شاء الله .

اراء العلماء فى الاسراء

وهاهنا أمور — مكان الإسراء — زمانه — هل كان الإسراء بالروح والجسد أو بالروح فحسب ؟ :

(١) يرى جمع من العلماء أن الإسراء كان من المسجد الحرام وقيل أسرى به من دار أم هانئ بنت أبى طالب .

(٢) أما زمانه فقد كان ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الأول قبل الهجرة بسنة ، وعن أنس والحسن البصرى أنه كان قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم .

(٣) أكثر العلماء على أن الإسراء كان بالروح والبدن يقظة لامناما ، ولهم على ذلك أدلة :

(ا) إن التسبيح والتعجب فى قوله : سبحان الذى أسرى بعبده ـ إنما يكون فى الأمور العظام ـ ولو كان ذلك مناما لم يكن فيه كبير شأن ولم يكن مستعظما .

(ب) إنه لو كان مناما ما كانت قريش تبادر إلى تكذيبه ، ولما ارتد جماعة ممن كانوا قد أسلموا ، ولما قالت أم هانئ لاتحدّث الناس فيكذبوك ، ولما فُضّل أبو بكر بالتصديق ، وجاء فى الحديث عن أبى هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقد رأيتُنى فى الحِجر وقريش تسألنى عن مسراى ، فسألتنى عن أشياء من بيت المقدس لم أُثبتها (لم أعرفها حق المعرفة) فكُرِبْت كربا ما كُرِبْتُ مثله قط ، فرفعه الله لى أنظر إليه ، فما سألونى عن شئ إلا أنبأتهم به » الحديث .

(ج) إن قوله (بعبده) يدل على مجموع الروح والجسد .

(د) إن ابن عباس قال فى قوله « وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ » هى رؤيا عين أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به ، ويؤيده أن العرب قد تستعمل الرؤيا فى المشاهدة الحسية ألا ترى إلى قول الراعى يصف صائدا .

وكَبَّرَ للرؤيا وهشّ فؤادُه   وبَشّر قلبا كان جمًّا بلابلُهْ

(هـ) إن الحركة بهذه السرعة ممكنة فى نفسها ، فقد جاء فى القرآن أن الرياح كانت تسير بسليمان عليه السلام إلى المواضع البعيدة فى الأوقات القليلة ، فقد قال تعالى فى صفة سير سليمان عليه السلام . « غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ » وجاء فيه أن الذى عنده علم من الكتاب أحضر عرش بلقيس من أقصى اليمن إلى أقصى الشام فى مقدار لمح البصر كما قال تعالى : « قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ » وإذا جاز هذا لدى طائفة من الناس جاز لدى جميعهم .

ويرى آخرون أن الإسراء كان بالروح فحسب ، ولهم على ذلك حجج :

(ا) إن معاوية بن أبى سفيان كان إذا سُئل عن سُرى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : كان رؤيا من الله صادقة ـ وقد ضُعِّفَ هذا بأن معاوية يومئذ كان من المشركين فلا يقبل خبره فى مثل هذا .

(ب) إن بعض آل أبى بكر قال : كانت عائشة تقول ما فُقِدَ جسد ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أُسْرِىَ برُوحه ، ونقدوا هذا بأن عائشة يومئذ كانت صغيرة ولم تكن زوجا لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

(جـ) إن الحسن قال فى قوله (وماجعلنا الرؤيا) الآية إنها رؤيامنام رآها (والرؤيا تختص بالنوم) .

قال أبو جعفر الطبرى : الصواب من القول فى ذلك عندنا أن يقال : إن الله أسرى بعبده محمد صلّى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كما أخبر الله عباده ، وكما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله حمله على البُرَاق حتى أتاه به وصلى هناك بمن صلى من الأنبياء والرسل فأراه ماأراه من الآيات ، ولامعنى لقول من قال أُسْرِى بروحه دون جسده ، لأن ذلك لوكان كذلك لم يكن فى ذلك مايوجب أن يكون دليلا على نبوته ، ولا حجة له على رسالته ، ولا كان الذين أنكروا حقيقة ذلك من أهل الشرك كانوا يدفعون به عن صدقه فيه ، إذ لم يكن مُنْكَراً عندهم ولاعند أحد من ذوى الفطرة الصحيحة من بنى آدم أن يرى الرائى منهم فى المنام ماعلى مسيرة سنة ، فكيف ماهو مسيرة شهر أو أقل ـ و بعد فإن الله إنما أخبر فى كتابه أنه أسرى بعبده ، ولم يخبرنا بأنه أسرى بروح عبده ، وليس جائزا لأحد أن يتعدى ما قال الله إلى غيره ـ إلى أن الأدلة الواضحة ، والأخبار المتتابعة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله أسرى به على دابة يقال لها البُراق ، ولو كان الإسراء بروحه لم تكن الروح محمولة على البراق ، إذ كانت الدواب لاتحمل إلا الأجساد اهـ .

والخلاصة — إن الذى عليه المعوّل عند جمهرة المسلمين أنه أسرى به عليه السلام يقظة لامناما من مكة إلى بيت المقدس راكبا البراق ، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب ، ودخله يصلى فى قبلته تحية المسجد ركعتين ، ثم ركب البراق وعاد إلى مكة بغَلَس .

إلمامة فى المعراج

يرى بعض العلماء أن عروج النبى صلى الله عليه وسلم إلى السموات السبع كان بجسده وروحه يقظة لامناما لدليلين :

(ا) آية الإسراء إذ صرح فيها بأنه أسرى بعبده ، والعبد مجموع الروح والجسد ، فوجب أن يكون الإسراء حاصلا بهما .

(ب) الحديث المروى فى الكتب الصحاح كالبخارى ومسلم وغيرهما ، وهو يدل على أن الذهاب من مكة إلى بيت المقدس ثم منه إلى السموات العلى ثم إلى مستوى سمع فيه صريف الأقلام .

وأنكره آخرون وأثبتوا أن المعراج كان بالروح فحسب لوجوه :

(١) إن الحركة البالغة فى السرعة إلى هذا الحد غير معقولة .

(٢) إنه لو صح ذلك لكان أعظم المعجزات وكان يجب أن يظهر حين اجتماع الناس حتى يُستدَلّ به على صدقه فى ادعاء النبوة ، فأما أن يحصل ذلك فى وقت لايراه فيه أحد ، ولايشاهده فيه مشاهد ، فإن ذلك عبث لايليق بحكمة الحكيم .

(٣) إن الصعود بالجسم إلى العالم العلوى فوق طبقات معينة مستحيل ، لأن الهواء معدوم ، فلا يمكن أن يعيش فيه الجسم الحى أو يتنفس فيه .

(٤) إن حديث المعراج اشتمل على أشياء فى غاية البعد :

(ا) شق بطنه وتطهيره بماء زمزم ، والذى يغسل بالماء هو النجاسات العينية ، ولا تأثير لذلك فى تطهير القلب من العقائد الزائفة ، والأخلاق المذمومة .

(ب) ركوب البراق ولاحاجة له بذلك لأن العالم العلوى فى غنى عن ذلك .

(ج) إنه تعالى أوجب خمسين صلاة ، ولم يزل محمد صلى الله عليه وسلم يتردد بين الله وموسى إلى أن عاد الخمسون إلى خمس بسبب شفقة موسى عليه السلام — وهذا غير جائز كما قال القاضى أبو بكر الباقلانى لأنه يقتضى نسخ الحكم قبل العمل به ، وهذا بَداء محال على الله .

(د) لم يقل أحد من المسلمين بأن الأنبياء أحياء بأجسادهم فى العالم العلوى ، وإنما الحياة هناك حياة روحية لاجسمانية ، والتخاطب والكلام معهم والصلاة بهم من الأمور الروحية لاالجسمية ، إذ لايعقل غير هذا — وبهذا يثبت المعراج الرُّوحى لاالجسمانى .

ويمكن أن يجيب الأولون عن الاستبعادات العقلية بأن هذه معجزة ، والله تعالى قادر على خرق سننه بسنة أخرى ، ككل معجزات الأنبياء ، من انقلاب العصا حية ثم عودتها فى مدة قصيرة عصا صغيرة كما كانت .

ويبقى أمر الحديث ، واشتماله على أمور غريبة ، لاحاجة إليها فى تصديق النبوة ، والمحاورة فى فرض الصلوات وانتقالها من خمسين إلى خمس مما يستدعى رد الحديث وعدم النظر إليه لاضطراب متنه كما قال القاضى أبو بكر الباقلانى وإن صححه رواة الحديث باعتبار سنده .

عظة وذكرى

إنا لنقف قليلا لدى هذين الحادثين الجليلين لنستخلص منهما أمورا هى الغاية فى العظة والاعتبار :

(١) إن هاتين الرحلتين الرحلة الأرضية (الإسراء) والرحلة السماوية (المعراج) حدثتا فى ليلة واحدة قبل الهجرة بسنة ، ليمحّص الله المؤمنين ، ويبين منهم صادق الإيمان ومن فى قلبه منهم مرض ، فيكون الأول خليقا بصحبة رسوله الأعظم إلى دار

الهجرة والانضواء تحت لوائه ، وجديرا بما يحتمله من أعباء عظام ، وتكاليف شاقة ، من حروب دينية ، وقيام بدعوة عظيمة تستتبع همة قعساء ، وإنشاء دولة تبتلع المعمور فى ذلك الحين شرقا وغربا ..

(٢) إن الله أطلع رسوله على مافى هذا الكون أرضيّه وسماويّه من العظمة والجلال ، ليكون ذلك درسا عمليا لتعليم رسوله بالمشاهدة والنظر ، فإن التعليم بالمشاهدة أجدى أنواع التعليم ، فهو وإن لم يذهب إلى مدرسة ، أو يجلس إلى معلم ، أو يسيح فى أرجاء المعمورة ، أو يصعد بالآلات العلمية إلى السماء — فقد كفل له ربه ذلك بما أراه من آياته الكبرى وما أطلعه عليه من مشاهدة تلك العوالم التى لاتصل أذهاننا إلى إدراك كنهها إلا بضرب من التخيل والتوهم ، فأنّى لنا أن نصل إلى ذلك وقد حبس عنا الكثير من العلم ولم نؤت إلا قليله « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً » .

(٣) إن مايجدّ كل يوم من ضروب المخترعات ، والتوسل بها إلى طى المسافات ، بوسائل الطيارات ، وقطع المحيطات فى قليل الساعات ، من قارة إلى قارة ، ومن قطر إلى قطر ، ليجعلنا نعتقد أن ماجاء فى وصف هاتين الرحلتين من الأمور الميسورة التى ليست بالعزيزة الحصول أو الأمور المستحيلة .

(٤) إن روحانية الأنبياء تتغلب على كثافة أجسامهم ، فما يخيَّل إلينا من العوائق العملية ، من صعوبة الوصول إلى الملأ الأعلى ، لتخلخل الهواء ، واستحالة الوصول إلى الطبقات العليا من السماء ، فهو إنما يكون بالنظر إلى الأجرام والأجسام المشاهدة فى عالم الحس ، وإن لروحانية الأنبياء والملائكة أحكاما لم يصل العقل البشرى إلى تحديدها وإبداء الرأى فيها ، وإنها لفوق مستوى إدراكه ، فأجْدِرْ بنا ألا نطيل البحث فيها ولا التعمق فى استقصاء آثارها .

(٥) إن ماجاء فى الحديث من أن الرسول صلى الله عليه وسلم صلّى إماما بالأنبياء فى عالم السموات ليرشد إلى أن محمدا صلى الله عليه وسلم جاء بشريعة ختمت الشرائع

السالفة كلها، وأممها ومن أوتوها ألقَوْا الزعامة إليه ، وصاروا مؤتمين به .

(٦) إن فى هذا مغزى جديرا بطويل التأمل والتفكير ، وهو أن جميع الأنبياء كانوا فى وفاق ووئام فى الملكوت الأعلى بالقرب من ربهم الذى أرسلهم — أفلا يجدر بمتبعيهم أن يقتفوا سنة رسلهم ، وأن يجعلوا أمرهم بينهم سِلْمًا لاحربا ، وأن يجعلوا الشريعة الأخيرة ، والقانون الذى جاءت ، به هو الشريعة التى يُقْضَى بها بين الناس ، كما هو المتبع فى القوانين الوضعية ، فإن الذى يجب العمل به هو القانون الأخير ، وهو يُلْغِى جميع ما سبقه .

وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولاَهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولاً (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ، فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧) عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ ، وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨) .

تفسير المفردات

الكتاب : هو التوراة ، وكيلا : أى كفيلا تَكِلُون إليه أموركم ، شكورا: أى كثير الشكر ، وقضينا : أى أعلمنا بالوحى ، لتعلن : أى لتستكبرُنَّ عن طاعة الله ، والوعد أى الموعود به وهو العقاب ، والبؤس والبأس والبأساء : الشدة والمكروه كما قال الراغب إلا أن البؤس كثر استعماله فى الفقر والحرب ، والبأس والبأساء فى النكاية بالعدو ، جاسوا خلال الديار : توسطوها وترددوا بينها ، والكرة : الدَّولة والغلبة ؛ وأصل الكر العطف والرجوع ، والنفير والنافر : من ينفِر مع الرجل من عشيرته وأهل بيته ، والتتبير : الهلاك وهى كلمة نبطية كما روى عن سعيد بن جبير وكل شىء كسرته وفتته فقد تبرته ، ما عَلَوْا : أى ما غلبوا واستولوا عليه من بلادكم ، والحصير : السجن كما قال ابن عباس .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآية الأولى أنه أكرم عبده ورسوله بالإسراء من مكة إلى بيت المقدس — أردف ذلك ذكر ما أكرم به موسى قبله من إعطائه التوراة وجعلها هدى لبنى إسرائيل ، ليخرجهم من ظلمات الكفر والجهل إلى نور العلم والهدى، ثم قفّى على ذلك ببيان أنهم ما عملوا بهديها ، بل أفسدوا فى الأرض فسلط الله عليهم البابليين أثخنوا فيهم وقصدوهم بالقتل والنهب والسلب .

ولما تابوا أزال عنهم هذه المحنة ، وأعاد لهم الدَّولة ، وأمدهم بالأموال والبنين ، وجعلهم أكثر عددا مما كانوا ، ثم عادوا إلى عصيانهم وقتلوا زكريا ويحيى عليهما السلام ، فسلط الله عليهم من أدال دولتهم مرة أخرى ، فأعمل فيهم السيف ، وسلب ونهب ، وجاس خلال ديارهم ، فدخل بيت المقدس كرة أخرى بالقهر والغلبة والإذلال ، وأهلك ما أهلك مما قد جمعوه وكنزوه ، ثم أوعدهم على عصيانهم بالعقاب فى الآخرة بنار جهنم ، وبئس السجن هى لمن عصى الله وخالف أوامر دينه .

الايضاح

(وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا) أى وأعطينا موسى التوراة وجعلنا فيها هداية لبنى إسرائيل ، وقلنا لهم : لا تتخذوا من دونى وليا ولا نصيرا تكلون إليه أموركم ، وهذه مقالة أوحى الله بها إلى كل نبى أرسله ، أمرهم جميعا أن يعبدوه وحده لاشريك له ، وألا يعوّلوا فى أمر إلا عليه .

وقد جاءت هذه الآية عقب ذكر آية الإسراء بالنبى صلى الله عليه وسلم من قِبَل أن موسى أوتى التوراة بمسيره إلى الطور ، كما أسرى بمحمد إلى بيت المقدس .

ثم نبّه إلى عظيم شرف بنى إسرائيل ، وإتمام نعمته عليهم ، ليكون فى ذلك تهييج لهم ، وبيان لعظيم المنة عليهم فقال :

(ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا) أى ياسلالة ذلك النبى الكريم الذى شمله الله بجميل رعايته ، وأنجاه من غرق الطوفان ، بما ألهمه من عمل السفينة التى حمل فيها من كل زوجين اثنين ، أنتم من حفدة أبنائه ، فتشبهوا بأبيكم ، واقتدوا به ، فإنه كان عبدا شكورا أى مبالغا فى الشكر ، بصرفه كل ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله ، فاللسان لذكر الله ، والعقل للفكر فيما خلق الله ، والبصر للتأمل فيما صنع الله ، وهكذا بقية الحواس وأعضاء الجسم .

أخرج ابن مردويه عن مُعاذ بن أنَس الجُهَنى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن نوحا كان إذا أمسى وأصبح قال (سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون . وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون) .

وأخرج ابن جرير والبيهقى والحاكم عن سلمان الفارسى قال : « كان نوح إذا لبس ثوبا أو أطعم طعاما حَمِد الله تعالى فسُمِّى عبدا شكورا » .

وفى هذا إيماء إلى أن إنجاء من كان معه كان ببركة شكره ، وفيه حث للذرية على الاقتداء به ، وزجر لهم عن الشرك الذى هو أفظع مراتب الكفر .

ثم بين سبحانه أنه أنعم على بنى إسرائيل بالتوراة ، وجعلها هدى لهم لكنهم لم يهتدوا بها فقال :

(وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوّا كبيرا) أى وأوحينا إلى بنى إسرائيل فيما أنزلناه فى التوراة على موسى فأعلمهم به : لتعصُنّ الله ولتخالفُنّ أمره مرتين : أولاهما تغيير التوراة وقتل شعيا عليه السلام وحبس إرْميا حين أنذرهم سخط الله. والثانية قتل زكريا ويحيى وقصدهم قتل عيسى عليهم السلام ولتستكبِرُنّ عن طاعة الله ، ولتبغُنّ على الناس، ولتظلمنهم ظلما شديدا ، تفرِطون فيه ، وتبلغون أقصى الغاية .

(فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا) أى فإذا حان وقت حلول العقاب الموعود أرسلنا عليكم لمؤاخذتكم بجنايتكم عبادا لنا أولى بطش شديد فى الحروب ، هم سنحاريب ملك بابل وجنوده ، أوغلوا فى البلاد ، وترددوا بين الدور والمساكن ، للقتل والسلب والنهب ، وقتلوا علماءكم وكبراءكم ، وأحرقوا التوراة وخرّبوا بيت المقدس ، وسبَوْا منكم عددا كثيرا ، وكان ذلك وعدا نافذا لا مردّ له .

(ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا) أى ثم رجعت لكم الدّولة والغلبة على الذين فعلوا بكم ما فعلوا ، حين تبتم ورجعتم عما كنتم عليه من الإفساد والعلوّ ، فغزوتم البابليين واستنقذتم الأسرى والأموال ، ورجع الملك إليكم ، وكثرت أموالكم بعد أن نُهِبتْ ، وأولادكم بعد أن سُبِيَتْ ، وصرتم أكثر عددا ، وأعظم قوة مما كنتم من قبل ، وذلك بفضل طاعته تعالى والإخبات إليه ومن ثم قال :

(إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها) أى إن أحسنتم فأطعتم الله ولزمتم أمره وتركتم نهيه — أحسنتم لأنفسكم ، لأنكم تنفعونها بذلك فى دنياها وآخرتها ؛ أما فى الدنيا فإن الله يدفع عنكم أذى من أرادكم بسوء ، ويرد كيده فى نحره ، ويُنَمّى

لـكم أموالـكم ، ويزيدكم قوة إلى قوتكم ، وأمافى الآخرة فإن الله يثيبكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ويرضى عنكم (ورضوان من الله أكبر) .

وإن عصيتم ربكم وفعلتم مانهاكم عنه فإلى أنفسكم تسيئون ، لأنكم تسخطونه ، فيسلط عليكم فى الدنيا أعداءكم ، ويمكّن منكم من يبغى بكم السوء ، ويلحق بكم فى الآخرة العذاب المهين .

(فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ماعلوا تتبيرا) أى فإذا جاء وقت حلول العقاب على المرة الآخرة من مرّتى إفسادكم فى الأرض ، بعثنا أعداءكم ، ليجعلوا آثار المساءة والـكآبة بادية فى وجوهكم (فإن الأعراض النفسية تظهر فى الوجوه فالفرح يُظْهِر فيها النضارة والإشراق ، والحزن والخوف يظهر فيها الغبرة والقترة) وليدخلوا المسجد قاهرين فاتحين مذلّين لـكم كما دخلوه أول مرة ، وليهلـكوا ماادخرتموه وخزنتموه تتبيرا شديدا ، فلا يبقون منه شيئا.

قال البيضاوى : سلط الله عليهم الفرس مرة أخرى فغزاهم ملك بابل من ملوك الطوائف ويسمى بيردوس أو خردوس اه .

والذى أثبته اليهود فى تواريخهم أن الذى أغار عليهم أولا وخرّب بيت المقدس هو بُخْتُنَصّر وكان ذلك فى زمن إرْميا عليه السلام ، وقد أنذرهم مجيئه صريحا بعد أن نهاهم عن الفساد وعبادة الأصنام ، فحبسوه فى بئر وجرحوه ـ وأن الذى أغار عليهم ثانيا هو أسبيانوس قيصر الروم ، وكان بين الإغارتين نحو من خمسمائة سنة .

وعلى الجملة فمعرفة من بعث إليهم بأعيانهم وتواريخ البعوث مما لايتعلق به غرض كبير ، لأن المراد أنه كلما كثرت معاصيهم سلط الله عليهم من ينتقم منهم مرة بعد أخرى .

وظاهر الآية يدل على اتحاد المبعوثين أولا وثانيا .

(عسى ربكم أن يرحمكم) بعد البعث الثانى إن تبتم وازدجرتم عن المعاصى ، وقد حقق الله لهم وعده ، فـكثر عددهم وأعزهم بعد الذلة وجعل منهم الملوك والأنبياء .

(وإن عدتم عدنا) أى وإن عدتم لمعصيتى وخلاف أمرى وقتل رسلى ـ عدنا عليكم بالقتل والسباء وإحلال الذل والصغار بكم ، وقد عادوا فعاد الله عليهم بعقابه ، فقد كذّبوا النبى صلى الله عليه وسلم وهمّوا بقتله فسلطه الله عليهم ، فقتل قُريظة وأجلى بنى النضير وضرب الجزية على الباقين ، فهم يعطونها عن يد وهم صاغرون ، ولا ملك لهم ولا سلطان .

(وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) قال الحسن : الحصير هو الذى يبسط ويفرش والعرب تسمى البساط الصغير حصيرا ، أى إنه تعالى جعل جهنم للكافرين به بساطا ومهادا كما قال: « لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ » وقال ابن عباس وغيره : جعلناها سجنا محيطا بهم حابسا لهم ، لا رجاء لهم فى الخلاص منه .

وخلاصة ذلك — إن لهم فى الدنيا ما تقدم وصفه من العذاب ، وفى الآخرة ما يكون محيطا بهم من عذاب جهنم فلا يتخلصون منه أبدا .

إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠) وَيَدْعُو الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (١١) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أكرم به من اصطفاه من النبيين والمرسلين ، فأكرم محمدا صلى الله عليه وسلم بالإسراء ، وأكرم موسى بالتوراة ، وجعلها هدى لبنى إسرائيل ، ثم بين أنهم لم يعملوا بها لحل بهم عذاب الدنيا والآخرة ـ قفّى على ذلك بالثناء على القرآن الكريم وبيان أنه يهدى للصراط المستقيم ، ويبشر الصالحين بالأجر والثواب

العظيم ، وينذر الكافرين بالعذاب الأليم ، ثم أردف ذلك بذكر طبيعة الإنسان وأنه خلق عجولا ، قد يدعو على نفسه بالشر أى بالموت والهلاك ، والدمار واللعنة كما يدعو لنفسه بالخير .

الايضاح

(إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا . وأن الذين لايؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذابا أليما) مدح الله سبحانه كتابه العزيز الذى أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم ووصفه بصفات ثلاث :

(١) إنه يرشد من اهتدى به للسبيل التى هى أقوم السبل ، وهى ذلك الدين القيم والملة الحنيفية السمحاء ، التى أهم دعائمها الإخبات لله والإنابة إليه واعتقاد أنه واحد لاشريك له ، وأنه صاحب الملك والملكوت ، وهو الحى الذى لايموت ، وهو الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

(٢) إنه يبشر المؤمنين بالله ورسوله الذين يعملون صالح الأعمال فيأتمرون بما أمر به، وينتهون عما نهاهم عنه ، بالأجر العظيم يوم القيامة كِفاء ماقدّموا لأنفسهم من عمل صالح .

(٣) إنه ينذر الذين لايصدّقون بالمعاد ، ولايقرون بالثواب والعقاب فى الدنيا ، فلا يتحاشَوْن ركوب المعاصى ـ بالعذاب الأليم الموجع جزاء مادنّسوا به أنفسهم من الكفر واجتراح الآثام ، ويدخل فى هؤلاء أهل الكتاب ، لأن بعضهم ينكر الثواب والعقاب الجسمانيين ، وبعضهم يقول : لن تمسنا النار إلا أياما معدودات ، وإطلاق البشارة على العقاب من قبيل التهكم كما فى قوله : « فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

وبعد أن بين حال الهادى وهو الكتاب الكريم بين حال المَهْدِىّ وهو الإنسان فقال :

(ويدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير) أى ويدعو الإنسان على نفسه وولده وماله بالشر حين الغضب فيقول : اللهم العنّى اللهم أهلكنى ، كدعائه ربه بالخير أى بأن يهب له العافية ويرزقه السلامة ، ولو استجيب له فى دعائه بذلك كما يستجاب له فى هذا لهلك ، ولكن الله بفضله ومنته لا يستجيب دعاءه كما قال « وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ » وفى الحديث « لا تدعوا على أنفسكم ولا على أموالكم أنْ توافقوا من الله ساعة إجابة يستجيب فيها » .

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم دفع إلى سودة بنت زمعة أسيرا فأقبل يئنّ بالليل ، فقالت له مالكَ تئن فشكا ألم القِدّ (سير من جلد غير مدبوغ تربط به يدا الأسير ورقبته) فأرْخَتْ له من كتافه ، فلما نامت أخرج يده وهرب ، فلما أصبح النبى صلى الله عليه وسلم دعا به فأُعْلِمُ بشأنه ، فقال عليه الصلاة والسلام « اللهم اقطع يدها » فرفعت سودة يدها تتوقع أن يقطع الله يدها ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « إنى سألت الله أن يجعل دعائى على من لا يستحق عذابا من أهلى رحمة ، لأنى بشر أغضب كما تغضبون، فلتردّ سودة يدها » .

وقد يكون المعنى فى الآية — إن الإنسان قد يبالغ فى الدعاء طلبا لشىء يعتقد أن فيه خيره ، مع أن ذلك قد يكون سبب بلائه وشره لجهله بحاله ، وإنما يُقْدِم على ذلك العمل لكونه عجولا مغترًّا بظواهر الأمور ، غير متفحص لحقائقها وأسرارها ، ومن ثم قال :

(وكان الإنسان عجولا) يسارع إلى طلب كل ما يخطر بباله متعاميا عن ضرره .

وفى الآية إيماء إلى أن القرآن يدعو للتى هى أقوم ، ويأبون إلا التى هى ألوم .

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً (١٢) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الهداية والإرشاد بالقرآن الكريم - قفّى على ذلك بالاستدلال بالآيات والدلائل التى فى الآفاق، وهى برهان نيّر لا ريب فيه ، وطريقٌ بَيِّنٌ لا يضلُّ من ينتحيه .

الإيضاح

(وجعلنا الليل والنهار آيتين) أى وجعلنا الليل والنهار دليلين للخلق على مصالح الدين والدنيا ، أما فى الدين فلأن كلا منهما مضادّ للآخر ومخالف له ، مع تعاقبهما على الدوام ، وهذا من أقوى الأدلة على أنه لابد لهما من فاعل مدبر يقدّرهما بمقادير مخصوصة ، وأما فى الدنيا فلأن مصالحه لاتتم إلا بهما ، فلولا الليل لما حصل السكون والراحة ، ولولا النهار لما حصل الكسب والتصرف فى وجوه المعاش .

(فمحونا آية الليل) أى فمحونا آية هى الليل أى جعلنا الليل ممحوّ الضوء مطموسه مظلمة لايستبين فيه شىء ، كما لايستبين ما فى اللوح الممحوّ، روى ذلك عن مجاهد .

(وجعلنا آية النهار مبصرة) أى وجعلنا الآية التى هى النهار مضيئة ومبصرة أى يبصر أهلها فيها .

(لتبتغوا فضلا من ربكم) أى فعلنا ذلك ، لتطلبوا لأنفسكم فيه رزقا من ربكم ، إذ لا يتسنى ذلك فى الليل ، وفى التعبير عن الرزق بالفضل ، وعن الكسب بالابتغاء ، مع ذكر صفة الربوبية الدالة على الوصول إلى ذلك شيئا فشيئا - دلالة على أنه ليس للمرء فى تحصيل الرزق سوى الطلب بالأسباب العادية ، وفى الخبر « يطلبك رزقك ، كما يطلبك أجلك » وقيل :

ولقد علمت وما الإشراف من خلقى		أن الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسعى إليه فيُعْيِينى تطلُّبُه		ولو قعدتُ أتانى لا يُعَنِّينى

(ولتعلموا عدد السنين والحساب) أى ولتعلموا بمحو آية الليل ، وجعل آية النهار مبصرة ، عدد السنين التى تتوقف عليها مصالحكم الدينية والدنيوية ، ولتعلموا الحساب أى حساب الأشهر والليالى والأيام وغير ذلك مما نيط به شىء من تلك المصالح ، إذ لو كان الزمان كله نسقا واحدا لما عرف شىء من هذا كما قال تعالى « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ ؟ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ؟ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، مَنْ إِلٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ؟ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ؟ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » وقال : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ، مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ » .

ولا شك أن فى ذكر منافعهما ، وبيان ما فيهما من الدلالة على وجود الخالق تفصيلا لتلك الفوائد ، لاجرم قال :

(وكل شىء فصلناه تفصيلا) أى وكل شىء لكم إليه حاجة فى مصالح دينكم ودنياكم قد فصلناه تفصيلا بينا ، ونحو الآية قوله « مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ » وقوله « وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ » .

وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ، وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥) وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا

فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ، وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١).

تفسير المفردات

طائره : أى عمله ، سمى به إما لأنه طار إليه من عُشّ الغيب ، وإما لأنه سبب الخير والشر كما قالوا : طائر الله لا طائرك ، أى قدَرُ الله الغالب الذى يأتى بالخير والشر لا طائرك الذى تتشاءم به وتتيمن ؛ إذ جرت عادتهم بأن يتفاءلوا بالطير ويسمونه زجرا، فإن مرّ بهم من اليسار إلى اليمين تيمنوا به وسمَّوْه سانحا ، وإن مرّ من اليمين إلى اليسار تشاءموا منه وسموه بارحا ، كتابا : هو صحيفة عمله ، منشورا : أى غير مطوى ، حسيبا : أى حاسبا أى عادًّا له يعد عليه أعماله ، والوزر : الإثم والذنب ، يقال منه وزر يزر فهو وازر وهى وازرة أى نفس وازرة ، والمترفون : هم المنعَّمون من الملوك والعظماء ، أمرنا مترفيها ، أى أمرناهم بالطاعة ، ففسقوا : أى خرجوا عن الطاعة وتمردوا ، فحق عليها القول : أى وجب لها العذاب ، والتدمير : الإهلاك مع طمس الأثر ، والقرن : القوم يجمعهم زمان واحد ، وقد حدِّد بأربعين سنة ، وبثمانين ، وبمائة ، والعاجلة : الدار

الدنيا ، يصلاها: أى يقاسى حرها ، مدحورا : أى مطرودا مبعدا من رحمة الله ، محظورا: أى ممنوعا عمن يريده .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه فيما سلف حال كتابه الذي يحوى النافع والضار من الأعمال، مما يكون به سعادة الإنسان وشقاؤه فى دينه ودنياه — قفى على ذلك بذكر حال كتاب المرء وأنه لايغادر صغيرة ولا كبيرة من أعماله إلا أحصاها ، وأن حسنها وقبحها تابع لأخذه بما فى الكتاب الأول أو تركه لذلك ، فمن أخذ به اهتدى ومنفعة ذلك عائدة إليه ، ومن أعرض عنه ضل وغوى ، ووبال ذلك راجع عليه ؛ ثم أكد عنايته بعباده، وأنه لايعاقب أحدا منهم إلا إذا أرسل الرسل يبلغون رسالات ربهم رحمة بهم ورأفة، وأعقب ذلك بأن عذابه إنما يكون بكسب المرء واختياره ، وأن هذا واقع بتقدير الله وعلمه ، وإذا وقعت المعصية حلت العقوبة بعذاب الاستئصال ، كما فعل بكثير من الأمم التى من بعد نوح كعاد وثمود ، والله عليم بأفعالهم وبما يستحقون ، ثم قسم العباد قسمين قسم يحب الحياة الدنيا ويعمل لها ، وعاقبته دار البوار وبئس القرار ، وقسم يعمل للآخرة ويسعى لها سعيها وهو مؤمن ، وأولئك سعيهم مشكور مقبول عند ربهم ، ولهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، وهؤلاء وهؤلاء يمدهم ربهم بعطائه ، إذ ليس عطاؤه بممنوع عن أحد ، ولكن قد فضّل بعضهم على بعض فى أرزاق الدنيا ، ومراتب التفاوت فى الآخرة أكثر من درجات التفاوت فى الدنيا وأبعد مدى.

الايضاح

(وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا) أى وألزمنا كل امرئ عمله الذى يصدر منه باختياره بحسب ماقدر له من خير أو شر ،

لاينفك عنه بحال ؛ والعرب تضرب المثل للشيء الذى يلزم بالشيء الذى يوضع فى العنق، فيقولون جعلت هذا فى عنقك أى قلدتك هذا العمل وألزمتك الاحتفاظ به ، وخصوا العنق لأنه يظهر عليه مايزين المرء كالقلائد والأطواق ، أو مايشينه كالأغلال والأوهاق (الحبال تجرّ بها الدواب) .

وخلاصة هذا — إن كل إنسان منكم معشر بنى آدم ألزمناه نحسه وسعده، وشقاءه وسعادته ، بما سبق فى علمنا أنه صائر إليه ، ونحن نخرج له حين الحساب كتابا يراه منشورا وفيه أعماله التى كسبها فى الدنيا ، وقد أحصى عليه ربه فيه كل ماأسلف فى تلك الحياة .

أخرج ابن جرير عن الحسن أنه قال: قال الله يابن آدم بسطنا لك صحيفة ، ووُكّل بك ملكان كريمان ، أحدهما عن يمينك ، والآخر عن يسارك ، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذى عن شمالك فيحفظ سيئاتك ، فاعمل ماشئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا متّ طويت صحيفتك فجعلت فى عنقك معك فى قبرك حتى تخرج يوم القيامة كتابا تلقاه منشورا ، اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ، قد عدل والله من جعلك حسيب نفسك .

(اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) أى ونخرج له يوم القيامة حين البعث والحساب كتابا يلقاه منشورا ، فيقال له اقرأ كتاب عملك الذى عملته فى الدنيا وكان الملكان يكتبانه ويحصيانه عليك ، وحسبك اليوم نفسك عليك حاسبا تحسب عليك أعمالك فتحصيها ، لانبتغى عليك شاهدا غيرها ، ولا نطلب محصيا سواها .

وبعد أن ذكر أن القرآن هاد للتى هى أقوم وأن الأعمال لازمة لأصحابها بين أن منفعة العمل ومضرته راجعة إلى عامله فقال :

(من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها) أى من استقام على طريق الحق واتبعه ، واتبع الدين الذى بُعث به محمد صلى الله عليه وسلم ، فنفسَه قد نفع، ومن حاد عن قصد السبيل وسار على غير هدى وكفر بالله ورسوله وبما جاء به من

عند ربه من الحق فلا يضرنّ إلا نفسه ، لأنه جعلها مستحقة لغضب الله وأليم عذابه .

ثم زاد الجملة الثانية توكيدا بقوله :

(ولا تزر وازرة وزر أخرى) أي ولا تأثم نفس آثمة إثم نفس أخرى ، بل على كل نفس إثمها دون إثم غيرها من الأنفس .

وفى هذا قطع لأطماعهم الفارغة ، إذ كانوا يزعمون أنهم إن لم يكونوا على الحق فالتبعة على أسلافهم الذين قلدوهم . روى عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى الوليد ابن المغيرة حين قال : اكفروا بمحمد وعلىّ أوزاركم .

ولا منافاة بين هذه الآية وبين قوله : « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » وقوله : وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ » فإن الدعاة إلى الضّلال عليهم إثم ضلالتهم فى أنفسهم ، وإثم آخر بسبب إضلالهم من أضلوا من غير أن ينقص أوزار أولئك ولا يرفع عنهم منها شيئا ، وهذا عدل من الله ورحمة منه بعباده .

ثم ذكر عنايته ورحمته بهم فقال :

(وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) أي وما كنا مهلكى قوم إلا بعد الإعذار إليهم بالرسل وإقامة الحجة عليهم بالآيات التى تقطع أعذارهم ، وبمعنى الآية قوله تعالى « كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ » وقوله : « أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ؟ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ » إلى نحو ذلك من الآيات الدالة على أن الله لا يدخل أحدا النار إلا بعد إرسال الرسول إليه .

وخلاصة ذلك — إن سنتنا المبنية على الحكم العالية ألا نعذب أحدا أى نوع من العذاب الدنيوى أو الأخروى على فعل شىء أو تركه إلا إذا أرسلنا رسولا يهدى إلى الحق ويردع عن الضلال ويقيم الحجج ويمهد الشرائع وتبلغه دعوته .

قال الإمام الغزالى : الناس بعد بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم أصناف ثلاثة :

(ا) من لم تبلغهم دعوته ولم يسمعوا به أصلا ، وأولئك مقطوع لهم بالجنة .

(ب) من بلغتهم دعوته وظهور المعجزات على يديه ، وما كان عليه صلى الله عليه وسلم من الأخلاق العظيمة والصفات الكريمة ، ولم يؤمنوا به كالكفرة الذين بين ظهرانَيْنا ، وأولئك مقطوع لهم بالنار .

(حـ) من بلغتهم دعوته صلى الله عليه وسلم وسمعوا به ولكن كما يسمع أحدنا بالدجالين وحاشا قدره الشريف عن ذلك ، وهؤلاء أرجو لهم الجنة إذا لم يسمعوا مايرغبهم فى الإيمان به اهـ .

يريد الغزالى بهذا أنهم سمعوا عنه أخبارا مكذوبة ، وعن دينه أخبارا لاتنطبق على حقيقته ، كما يفعل رجال الكنائس فى تشويه أخبار الرسول بأنه مزواج مطلاق ، وأنه كان متهالكا فى حب النساء ، وأن دينه دين وثنية ، لأنه كان يسجد للكعبة ، وأنه خالف جميع الأنبياء واتجه إليها ولم يتجه لبيت المقدس ، وأن القرآن كثير المتناقضات كثير التكرار للقصص وفيه الكذب ، إلى نحو أولئك مما يقولون وهم لايقولون إلا ترّهات وأباطيل .

ثم بين كيف يقع العذاب بعد بعثة الرسل فقال :

(وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) أى إذا دنا وقت تعلق إرادتنا بإهلاك أى قرية بعذاب الاستئصال لما ظهر منها من المعاصى ودنست به أنفسها من الآثام — لم نعاجلها بالعقوبة ، بل نأمر مترفيها بالطاعة فإذا فسقوا عن أمرنا وتمردوا حق عليهم العذاب جزاء وفاقا لاجتراحهم

السيئات وارتكابهم كبائر الإثم والفواحش ، فدمرنا تلك القرية تدميرا ولم نبق منها ديّارا ولا نافخ نار .

وخص المترفين بالذكر لما جرت به العادة أن من سواهم يكون تبعا لهم ، وأن العامة والدهماء يقلدونهم فيما يفعلون ، ولأنهم أسرع إلى الفجور وأقدر على الوصول إلى سبله .

وقد يكون المراد من الأمر — أن الله يفيض عليهم نعمه التى تبطرهم وتجعلهم يقعون فى المعاصى، فكأنه تعالى يأمرهم بها ، إذ مهد لهم الأسباب الموصلة إليها .

وحكى بعض أئمة اللغة أن المراد (بأمرنا) أكثرنا واستدل بما أخرجه أحمد والطبرانى من قوله صلى الله عليه وسلم « خير المال مهرة مأمورة وسكة مأبورة » أى مهرة كثر نسلها وطريق مصطفة من النخل مأبورة (كثر فيها اللقاح) لتثمر الثمر الجنى.

ثم ذكر أن كثيرا من الأمم قد حق عليها العذاب بذنوبها فقال :

(وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح) أى وقد أهلكنا أمما كثيرة قبلكم من بعد نوح حتى زمانكم حين جحدوا آيات الله وكذبوا رسله وكانوا على مثل ماأنتم عليه من الشرور والآثام ، ولستم بأكرم على الله منهم ، فاحذروا أن يحل بكم من العقاب مثل ماحل بهم وينزل بكم سخطه مثل مانزل بهم .

وفى هذا من الوعيد لمكذبى رسول الله صلى الله عليه وسلم من مشركى قريش وتهديدهم بشديد العقاب إن لم ينتهوا عما هم عليه من تكذيب رسوله ـ مالا يخفى .

(وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا) أى وحسبك أيها الرسول بالله خبيرا بذنوب خلقه ، فلا يخفى عليه شىء من أفعال مشركى قومك ولا أفعال غيرهم ، بل هو عليم بجميع أعمالهم لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولافى الأرض ، وسيجازيهم على ذلك بما يستحقون .

ثم قسم سبحانه عباده قسمين محب للعاجلة ومحب لأعمال الآخرة :

(١) (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها مانشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم

يصلاها مذموما مدحورا) أى من كان طلبه الدنيا العاجلة ، ولها يعمل و يسعى و إياها يبتغى ، لايوقن بمعاد ولا يرجو ثوابا ولا يخشى عقابا من ربه على مايعمل ، يعجل الله له فى الدنيا مايشاء من بسط الرزق وسعة العيش ثم يصليه حين مقدَمه عليه فى الآخرة جهنم مذموما على قلة شكره وسوء صنيعه فيما سلف، مبعدا من رحمته مطرودا من إنعامه .

وقد اشتمل هذا العقاب على أمور ثلاثة :

(ا) الدوام والخلود و إلى ذلك الإشارة بقوله : ثم جعلنا له جهنم يصلاها أى يدخلها حتى تغمره من جميع جوانبه .

(ب) الإهانة والاحتقار و إلى ذلك أشار بقوله مذموما .

(حـ) البعد والطرد من رحمة الله دائما فلا يتخلل ذلك راحة ولا يعقبه خلاص و إلى هذا أشار بقوله : مدحورا ، وفى قوله : لمن نريد ، إشارة إلى أن الفوز بالدنيا لايحصل لكل من يريدها ، فكثير من الكفار الضلال يعرضون عن الدين فى طلب الدنيا ثم هم يبقون محرومين من الدين والدنيا .

وفى هذا تهديد وزجر عظيم لهؤلاء الكفار ، فإنهم قد يتركون الدين لطلب الدنيا، وربما فاتتهم أيضا .

(٢) (ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا) أى ومن أراد الآخرة ولها عمل و إياها طلب ، فأطاع الله وطلب مايرضيه ، وهو مصدق بثوابه وعظيم جزائه على سعيه لها ــ شكر الله له جزيل سعيه وآتاه حسن المثوبة كفاء ماقدم من صالح العمل ، وتجاوز عن سيئاته ، وأدخله فراديس جناته .

وقد اشترط لهذا الجزاء أمورا ثلاثة :

(ا) أن يريد بعمله ثواب الآخرة ونعيمها ، فإن لم تحصل هذه النية لم ينتفع بذلك العمل كما قال : « وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلاَّ مَاسَعَى » وجاء فى الحديث :

« إنما الأعمال بالنيات » ـ إلى أن استنارة القلب بمعرفة الله ومحبته لا تحصل إلا إذا نوى العامل بعمله طاعة ربه والإخبات والخشوع له .

(ب) أن يعمل العمل الذى يتوصل به إلى الفوز بثواب الآخرة ، ولا يكون ذلك إلا إذا كان من القرب والطاعات ، لا من الأعمال الباطلة كعبادة الأوثان والكواكب والملائكة .

(حـ) أن يكون ذلك وهو مؤمن ، فإن أعمال البر لا توجب الثواب إلا إذا وجد الإيمان .

ثم بين سبحانه أن عطاءه ورزقه الدنيوى لا يحظر على كل من الفريقين فقال :

(كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا) أى إن كلا من الفريقين مريدى العاجلة ومريدى الآجلة الساعى لها سعيها وهو مؤمن يمده ربه بعطائه ويوسع عليه الرزق ويكثر الأولاد وغيرهما من زينة الدنيا ، فإن عطاءه ليس بالممنوع من أحد من خلقه مؤمنا كان أو كافرا ، فكلهم مخلوق فى دار العمل ، فوجب إزالة العذر ورفع العلة وإيصال متاع الدنيا إليهم على القدر الذى يقتضيه صلاحهم ، ثم تختلف أحوال الفريقين ، ففريق العاجلة إلى جهنم وبئس المهاد ، وفريق الآجلة إلى جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ونعم عقبى الدار .

ثم وضح ما مر من الإمداد وعدم محظورية العطاء على أحد فقال :

(انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض) أى انظر إلى عطائنا للفريقين فى الدنيا ، كيف فضلنا بعضهم على بعض ، فأوصلنا رزقنا إلى مؤمن وقبضناه عن آخر ، وأوصلناه إلى كافر ومنعناه من كافر آخر ، ولهذا حكم وأسباب بيّنها سبحانه بقوله : « وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ » وقوله « نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا » .

(وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا) أى ولتفاوتهم فى الدار الآخرة وتفاضلهم فيها أكبر من تفاضلهم فى الدار الدنيا ، فإن منهم من يكون فى الدركات السفلى فى جهنم مصفدا بالسلاسل والأغلال ، ومنهم من يكون فى الدرجات العليا فى نعيم وحبور ، وكل فريق يتفاوتون فيما بينهم ؛ ففى الصحيحين « إن أهل الدرجات العلى ليرون أهل عليين كما ترون الكوكب الغابر فى السماء » وفيهما : « إن الله تعالى أعدّ لعباده الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

وروى ابن عبد البر عن الحسن قال : حضر جماعة من الناس باب عمر رضى الله عنه وفيهم سُهيل بن عمرو القرشى (وكان أحد الأشراف فى الجاهلية) وأبو سفيان ابن حرب ومشايخ من قريش ، فأذن لصهيب و بلال وأهل بدر وكان يحبهم ، فقال أبو سفيان ما رأيت كاليوم قط إنه ليُؤْذَن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس لا يُلْتَفت إلينا ، فقال سهيل وكان أعقلهم : أيها القوم إنى والله قد أرى الذى فى وجوهكم ، فإن كنتم غضابا فاغضبوا على أنفسكم، إنهم دُعُوا ودُعِينا (يعنى إلى الإسلام) فأسرعوا وأبطأنا ، وهذا باب عمر ، فكيف التفاوت فى الآخرة ، ولئن حسدتموهم على باب عمر لما أعد الله لهم فى الجنة أكبر .

وعن بعضهم أنه قال : أيها المباهى بالرفع منك فى مجالس الدنيا ، أما ترغب فى المباهاة بالرفع فى مجالس الآخرة ، وهى أكبر وأفضل ؟

لاَ تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَٰهاً آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولا (٢٢) وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً (٢٣) وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيراً (٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ

كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا (٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ
وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ
الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (٢٧) وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ
تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا (٢٨) وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ
وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ
الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠) وَلَا تَقْتُلُوا
أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا
كَبِيرًا (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا
تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا
لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (٣٣) وَلَا تَقْرَبُوا
مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ، إِنَّ
الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ
الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥) وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ،
إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) وَلَا تَمْشِ
فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧)
كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَى
إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ
مَلُومًا مَدْحُورًا (٣٩) .

تفسير المفردات

فتقعد : أى فتصير ، مذموما : أى ممن يستحق الذم من الملائكة والمؤمنين ، مخذولا : أى من الله لأنك أشركت معه مالا يملك لنفسه نفعا ولاضرا ، وقضى : أى حكم وأمر ، وأفّ : اسم صوت ينبىء عن التضجر والتألم ويقولون لاتقل لفلان أف أى لاتتعرَّضْ له بنوع من الأذى والمكروه ، والنهر : الزجر بغلظة ، كريما : أى جميلا لاشراسة فيه ، قال الراغب : كل شىء يشرف فى جنسه يقال إنه كريم . وخفضُ الجناح يراد به التواضع والتذلل ، من الرحمة : أى من فرط رحمتك عليهما، والأوّاب : الذى ديدنه الرجوع إلى الله والالتجاء إليه حين الشدة ، والتبذير إنفاق : المال فى غير موضعه ، وإخوان الشياطين : أى قرناؤهم ، والابتغاء : الطلب ، والرحمة الرزق ، والميسور : السهل اللين ، والمغلولة : المقيدة بالغلّ وهو القيد يوضع فى اليدين والعنق ، وتبسطها : أى تتوسع فى الإنفاق ، والمحسور : المنقطع عن السير إعياء وكلالا ، ويقدر : أى يقتر ، والإملاق : الفقر قال :

وإنى على الإملاق ياقوم ماجدٌ أعدّ لأضيافى الشُّواء المضهَّبا

والخطء : كالإثم لفظا ومعنى ، والفاحشة : الفعلة الظاهرة القبح ، والسلطان : التسلط والاستيلاء ، فلا يسرف : أى فلا يتجاوز الحد المشروع فيه ، التى هى أحسن : أى الطريق التى هى أحسن ، والعهد : ما تعاهدون عليه غيركم من العباد لتوثيقه وتوكيده ، والقسطاس : (بكسر القاف وضمها) الميزان ، والمستقيم : العدل، والتأويل: ما يئول إليه الشىء وهو عاقبته ، ولا تقف من قفوت أثر فلان : أى اتبعته ، والمرح : الفخر والكبر ، لن تخرق الأرض : أى لن تجعل فيها طرقا بدوسك وشدة وطأتك ، والحكمة : معرفة الحق سبحانه ومعرفة الخير للعمل به ، والمدحور : المبعد من رحمة الله .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر جلت قدرته أن الناس فريقان فريق يريد بعمله الدنيا فقط ، وعاقبتهم العذاب والوبال ، وفريق يريد بعمله طاعة الله ، وهم أهل مرضاته ، والمستحقون لثوابه ، وقد اشترط لنيلهم ذلك أن يعملوا للآخرة وأن يكونوا مؤمنين — لاجرم فصل الله فى هذه الآية حقيقة الإيمان والأعمال التى إذا عملها المؤمن كان ساعيا للآخرة ، وصار من الذين سعد طائرهم ، وحسن حظهم ، ثم أعقب ذلك بذكر ماهو من شعائر الإيمان وشرائطه ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، وبعدئذ أتبع ذلك بالأمر ببر الوالدين من قبل أنهما السبب الظاهر فى وجوده ، وبالأمر بإيتاء ذوى القربى حقوقهم ، ثم بالأمر بإصلاح أحوال المساكين وأبناء السبيل ، لأن فى إصلاحهما إصلاح المجتمع ، والمسلمون كلهم إخوة ، وهم يد على من سواهم ، ثم قفى على ذلك بالنهى عن التبذير ، لما فيه من إصلاح حال المرء وعدم ارتباكه فى معيشته ، وصلاحه إصلاح للأمة جمعاء ، فما الأمم إلا مجموعة الأفراد ، ففى صلاحهم صلاحها ، ثم علمنا سبيل إنفاق المال على الوجه الذى يرضاه الدين ، ويرشد إلى حسنه العقل ، وبعدئذ نهانا عن قتل الأولاد خشية الفقر ، وبين أن الكفيل بأرزاقهم وأرزاقكم هو ربكم ، فلا وجه للخوف من ذلك ، ثم تلا هذا بالنهى عن الزنا ، لما فيه من اختلاط الأنساب ، وفقدان النسل أوقلته ، ووقوع الشغب والقتال بين الناس دفاعا عن العرض؛ ثم بالنهى عن القتل لهذا السبب عينه ، ثم بالنهى عن إتلاف مال اليتيم ، ثم بالأمر بالوفاء بالعهد وهو العقد الذى يعمل لتوكيد الأمر وتثبيته ، ثم بإيفاء الكيل والميزان ، لما فى حسن التعامل بين الناس من توافر المودة والمحبة بينهم ، وهذا ما يرمى إليه الدين ، لإصلاح شؤون الفرد والمجتمع ، ثم بالنهى عن تتبع ما لاعلم لك به من قول أو فعل ، فلا تتّبعْ ما كان يعمله الآباء اقتداء بهم من عبادة الأصنام تقليدا لهم ، ولا تشهد على شىء لم تره ، ولا تكذب ، فتقول فى شىء لم تسمعه إنك قد سمعته ،

ولا فى شىء لم تره ، إنك قد رأيته ، ثم بالنهى عن مِشْية الخيلاء والمرَح لما فيهما من الصَّلف الذى لا يرضاه الله ولا الناس ، ثم ختم ذلك ببيان أن تلك الأوامر والنواهى هى من وحى الله وتبليغه ، لا من عند نفسه ، أمر بها ونهى عنها ، لأنها أسس سعادة الدارين ، وعليها تبنى العلاقات بين الأفراد والأمم على نظم صحيحة لا تكون عرضة للاضطراب وفقدان الثقة فى معاملاتهم .

الإيضاح

(لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا) أى لا تجعل أيها الإنسان مع الله شريكا فى ألوهته وعبادته ، ولكن أخلِص له العبادة وأفرِد له الألوهة ، فإنه لا ربّ غيره ، ولا معبود سواه ، وإنك إن تجعل معه إلها غيره ، وتعبد معه سواه ، تصر ملوما على ماضيعت من شكر الذى أنعم عليك بنعمه ، وشكر من لم يُولِك نعمة ، مخذولا لا ينصرك ربك ، بل يكلك إلى من عبدته معه ، ممن لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا .

وبعد أن ذكر الركن الأعظم فى الإيمان أتبعه بذكر شعائره وهى الأمور الآتية فقال :

(١) (وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه) أى وأمر ربك ألا تعبدوا غيره ، إذ العبادة نهاية التعظيم ، ولا تليق إلا بمن له الإنعام والإفضال على عباده ، ولا منعم إلا هو .

(٢) (وبالوالدين إحسانا) أى وأن تحسنوا إلى الوالدين وتبرّوهما ، ليكون الله معكم « إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » .

وقد أمر سبحانه بالإحسان إليهما للأسباب الآتية :

(١) شفقتهما على الولد ، وبذل الجهد فى إيصال الخير إليه ، وإبعاد الضر عنه ، جهد المستطاع ، فوجب مقابلة ذلك بالإحسان إليهما والشكر لهما .

(ب) إن الولد قطعة من الوالدين كما جاء فى الخبر أنه عليه الصلاة والسلام قال : « فاطمة بَضْعَة منى » .

(حـ) إنهما أنعما عليه ، وهو فى غاية الضعف ، ونهاية العجز ، فوجب أن يقابل ذلك بالشكر حين كبرهما ، كما قال الشاعر العربى يعدّد نعمه على ولده وقد عقّه فى كِبَره :

غذوتك مولودا ومُنْتُك يافعا تُعَلّ بما أجنى عليك وتَنْهَل

إذا ليلة ضافتك بالسقم لم أبِتْ لسُقْمِك إلا ساهرا أتململ

كأنى أنا المطروق دونك بالذى طرِقت به دونى فعينىّ تَهمل

تخاف الردى نفسى عليك وإنها لتعلم أن الموت وقت مؤجل

فلما بلغتَ السن والغاية التى إليها مدى ما كنتُ فيك أؤمل

جعلتَ جزائى غلظة وفظاظة كأنك أنت المُنْعِمُ المتفضِّل

فليتك إذ لم ترع حق أبوّتى فعلتَ كما الجارُ المجاورُ يفعل

والخلاصة — إنه لا نعمة تصل إلى الإنسان أكثر من نعمة الخالق عليه ، ثم نعمة الوالدين ، ومن ثم بدأ بشكر نعمته أوّلا بقوله : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » ، ثم أردفها بشكر نعمة الوالدين بقوله : « وبالوالدين إحسانا » .

ثم فصل مايجب من الإحسان إليهما بقوله :

(إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا) أى إذا وصل الوالدان عندك أو أحدهما إلى حال الضعف والعجز وصارا عندك فى آخر العمر كما كنتَ عندهما فى أوله — وجب عليك أن تُشْفِق عليهما ، وتحنو لهما . تعاملهما معاملة الشاكر لمن أنعم عليه ، ويتجلى ذلك بأن تتبع معهما الأمور الخمسة الآتية :

(ا) ألا تتأفف من شىء تراه من أحدهما أو منهما مما يتأذى به الناس ، ولـكن اصبر على ذلك منهما ، واحتسب الأجر عليه ، كما صبرا عليك فى صغرك .

(ب) ألا تُنغِّص عليهما بكلام تزجرهما به ، وفى هذا منع من إظهار المخالفة لهما بالقول على سبيل الرد عليهما والتكذيب لهما ، وفيما قبله منع من إظهار الضجر القليل أو الـكثير .

(حـ) أن تقول لهما قولا حسنا ، وكلاما طيبا مقرونا بالاحترام والتعظيم ، مما يقتضيه حسن الأدب ، وترشد إليه المروءة ، كأن تقول يا أبتاه ويا أماه ، ولا تدعوهما بأسمائهما ، ولا ترفع صوتك أمامهما ، ولا تُحدِّق فيهما بنظرك .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن أبى الهدّاج قال : قلت لسعيد بن المُسَيِّب : كل ماذكر الله تعالى فى القرآن من بر الوالدين فقد عرفته إلا قوله « وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً » ماهذا القول الـكريم ، فقال ابن المسيِّب : قول العبد المذنب للسيد الفظّ .

(د) أن تتواضع لهما وتتذلل ، وتطيعهما فيما أمراك به مما لم يكن معصية لله ، رحمة منك بهما وشفقة عليهما ، إذ هما قد احتاجا إلى من كان أفقر الخلق إليهما ، وذلك منتهى مايكون من الضراعة والمسكنة ، ولله در الخفاجى إذ يقول :

يامن أتى يسأل عن فاقتى ماحال من يسأل من سائله
ماذلة السـلطان إلا إذا أصـبح محتاجا إلى عامله

وقوله : من الرحمة، أى أن يكون ذلك التذلل رحمة بهما ، لا من أجل امتثال الأمر وخوف العار فقط ، فتذكَّر نفسك بما تقدَّم لهما من الإحسان إليك ، وبما أُمِرْت به من الشفقة والحدَب عليهما .

وقد مثل حاله معهما بحال الطائر إذا أراد ضم فرخه إليه لتربيته ، فإنه يخفض له جناحه ، فـكأنه قال للولد : اكْفُلْ والديك ، بأن تضمهما إلى نفسك ، كما فعلا ذلك حال صغرك .

(هـ) أن تدعو الله أن يرحمهما برحمته الباقية ، كفاء رحمتهما لك فى صغرك وجميل شفقتهما عليك .

وعلى الجملة فقد بالغ سبحانه فى التوصية بهما من وجوه كثيرة ، وكفاهما أن شفع الإحسان إليهما بتوحيده ، ونظمهما فى سلك القضاء بهما معا .

وقد ورد فى بر الوالدين أحاديث كثيرة منها :

(١) إن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم يستأذنه فى الجهاد معه فقال أحىّ والداك ؟ قال نعم ، قال ففيهما فجاهدْ » .

(٢) ما رواه مسلم وغيره: «لايَجْزِى ولد والده إلا أن يجده مملوكا فيشتريه ويعتقه» .

(٣) ما روى عن ابن مسعود قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم : أىّ العمل أحب إلى الله ورسوله ؟ قال الصلاة على وقتها ، قلت ثم أىّ ؟ قال بر الوالدين . قلت ثم أىّ ؟ قال الجهاد فى سبيل الله » .

وبر الأم مقدم على بر الأب ، لما روى الشيخان « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال أمك ، قال ثم من ؟ قال أمك ، قال ثم من؟ قال أمك ، قال ثم من ؟ قال أبوك » .

ولا يختص برهما بحال الحياة ، بل يكون بعد الموت أيضا ، فقد روى ابن ماجه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل : هل بقى من برأبوىّ شىء أبرّهما به بعد موتهما؟ قال نعم ، خصال أربع : الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التى لارحم لك إلا من قبَلهما ، فهذا الذى بقى عليك من برهما بعد موتهما » .

والخلاصة — إنه سبحانه بالغ فى التوصية بالوالدين مبالغة تقشعرّ منها جلود أهل العقوق ، وتقف عندها شعورهم ، من حيث افتتحها بالأمر بتوحيده وعبادته ، ثم شفعهما بالإحسان إليهما ثم ضيّق الأمر فى مراعاتهما حتى لم يرخّص فى أدنى كلمة تنفلت من المتضجر ، مع موجبات الضجر ، ومع أحوال لا يكاد الإنسان يصبر معها ، وأن

يذلّ ويخضع لهما ، ثم ختمها بالدعاء لهما والترحم عليهما ، وهذه الخمسة الأشياء جعلها سبحانه من رحمته بهما ، مقرونةً بوحدانيته ، وعدم الشرك به .

ولما كان بر الوالدين عسيرا حذّر من التهاون فيه فقال :

(ربكم أعلم بما فى نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا) أى ربكم أيها الناس أعلم منكم بما فى نفوسكم ، من تعظيمكم أمر آبائكم وأمهاتكم والبر بهم ، ومن الاستخفاف بحقوقهم والعقوق بهم ، وهو مجازيكم على حسَن ذلك وسيئه ، فاحذروا أن تضمروا لهم سوءا ، وتعقدوا لهم فى نفوسكم عقوقا . فإن أنتم أصلحتم نياتكم فيهم ، وأطعتم ربكم فيما أمركم من البر بهم ، والقيام بحقوقهم عليكم ، بعد هفوة كانت منكم أو زلة فى واجب لهم عليكم ، فإنه تعالى يغفر لكم ما فرط منكم ، فهو غفار لمن يتوب من ذنبه ، ويرجع من معصيته إلى طاعته ، ويعمل بما يحبه ويرضاه .

وفى هذا وعد لمن أضمر البر بهم ، ووعيد لمن تهاون بحقوقهم ، وعمل على عقوقهم .

وبعد أن أمر بالبر بالوالدين أمر بالبر بأصناف ثلاثة أخرى فقال :

(وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل) أى وأعط أيها المكلّف القريب منك حقه ، من صلة الرحم والمودة ، والزيارة وحسن العشرة ، وإن كان محتاجا إلى النفقة فأنفق عليه ما يسد حاجته . والمسكين ذا الحاجة . وابن السبيل وهو المسافر لغرض دينى ، فيجب إعانته ومساعدته على سفره حتى يصل إلى مقصده .

ولما رغب سبحانه فى البذل بيّن الطريق التى تتبع فى ذلك فقال :

(ولا تبذر تبذيرا) أى ولا تفرّق أيها الإنسان ما أعطاك الله من مال فى معصيته تفريقا ، بإعطائه من لا يستحقه .

ونحو الآية قوله « وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا »

قال عثمان بن الأسود : كنت أطوف المساجد مع مجاهد حول الكعبة فرفع رأسه

إلى أبي قُبَيْس (جبل بمكة) وقال لو أن رجلا أنفق مثل هذا فى طاعة الله لم يكن من المسرفين ، ولو أنفق درهما واحدا فى معصية الله كان من المسرفين .

وأنفق بعضهم نفقة فى خير وأكثر فقيل له : لاخير فى السرف ، فقال : لا سرف فى الخير .

وعن عبد الله بن عمر قال : « مر رسول الله بسعد وهو يتوضأ ، فقال ما هذا السرّف ياسعد ؟ قال : أوفى الوضوء سرف ؟ قال نعم وإن كنت على نهر جار » .

وروى أحمد عن أنس بن مالك أنه قال : أتى رجل من تميم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إنى ذو مال كثير وذو أهل وولد وحاضرة ، فأخبرنى كيف أنفق ، وكيف أصنع ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :« تُخْرِج الزكاة من مالك إن كان ، فإنها طُهْرة تطهِّرك ، وتصل أقرباءك ، وتعرف حق السائل والجار والمسكين » فقال: يا رسول الله أقلل لى، قال «فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيرا » فقال حسبى يا رسول الله إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد برئتُ منها إلى الله ورسوله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم إذا أديتها إلى رسولى فقد برئتَ منها ولك أجرها ، وإثمها على من بدّلها » .

وعن على كرم الله وجهه قال : ما أنفقتَ على نفسك وأهل بيتك فى غير سرف ولا تبذير، وما تصدقت فلك ، وما أنفقت رياء وسمعة فذلك حظ الشيطان .

ثم نبه سبحانه إلى قبح التبذير بإضافته إلى الشياطين فقال :

(إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين) تقول العرب لكل من لازم سُنّة قوم واتبع أثرهم هو أخوهم ، أى إن المفرّقين أموالهم فى معاصى الله المنفقيها فى غير طاعته قرناء الشياطين فى الدنيا والآخرة كما قال « وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ » وقال : « احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ » أى قرناءهم من الشياطين .

(وكان الشيطان لربه كفورا) أى وكان الشيطان لنعمة ربه التى أنعم بها عليه

جحودا لا يشكره عليها ، بل يكفرها بترك طاعته ، وركوبه معصيته ، وهكذا إخوانه المبذرون أموالهم فى معاصى الله ، لا يشكرون الله على نعمه عليهم ، بل يخالفون أمره ، ولا يستنون سنته ، ويتركون الشكران عليها ويتلقونها بالكفران .

قال الكرخى : وكذلك من رزقه الله جاها أو مالا، فصرفه إلى غير مرضاة الله كان كفورا لنعمة الله ، لأنه موافق للشيطان فى الصفة والفعل اهـ .

وفى ذكر وصف الشيطان بالكفران دون ذكر سائر أوصافه ، بيان لأن المبذر لما صرف نعم الله عليه فى غير موضعها فقد كفر بها ولم يشكرها ، كما أن الشيطان كفر بهذه النعم .

وقد كان من عادة العرب أن يجمعوا أموالهم من السلب والنهب والغارة ثم ينفقونها فى التفاخر وحب الشهرة . وكان المشركون من قريش ينفقون أموالهم ليصدّوا الناس عن الإسلام وتوهين أهله وإعانة أعدائه ، فجاءت الآية تبين قبح أعمالهم .

(وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولا ميسورا) أى وإن أعرضت عن ذوى القربى والمسكين وابن السبيل وأنت تستحى أن تردّ عليهم ، انتظار فرج من الله ترجو أن يأتيك ، ورزق يفيض عليك ، فقل لهم قولا لينا جميلا ، وعِدْهم وعدا تطيب به قلوبهم ، قال الحسن : أُمِر أن يقول لهم : نعم وكرامة ، وليس عندنا اليوم شىء ، فإن يأتنا نعرف حقكم .

وفى هذا تأديب من الله لعباده إذا سألهم سائل ماليس عندهم كيف يقولون وبم يردّون ؟ . ولقد أحسن من قال :

إلا يكن ورق يوما أجود به للسائلين فإنى ليِّن العود
لا يعدِم السائلون الخير من خُلُقى إما نوال وإما حسن مردود

ثم بين سبحانه الطريق المثلى فى إنفاق المال فقال :

(ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا)

أى لاتكن بخيلا منوعا لاتعطى أحدا شيئا ، ولا تسرف فى الإنفاق فتعطى فوق طاقتك ، وتخرج أكثر من دخلك ، فإنك إن بخلت كنت ملوما مذموما عند الناس كما قال زهير :

ومن يك ذا مال فيبخل بماله على قومه يُسْتَغْنَ عنه ويذمم

ومذموما عند الله لحرمان الفقير والمسكين من فضل مالك ، وقد أوجب الله عليك سد حاجتهما ، باعطاء زكاة أموالك .

وإن أسرفت فى أموالك فسرعان ما تفقدها ، فتصبح معسرا بعد الغنى ، ذليلا بعد العزة ، محتاجا إلى معونة غيرك بعد أن كنت معينا له ، وحينئذ تقع فى الحسرة التى تقطع نياط قلبك ، ويبلغ منك الأسى كل مبلغ ، ولكن أنَّى يفيد ذلك ؟ وقد فات مافات ، فلا ينفع الندم ، ولا تجدى العظة والنصيحة .

وخلاصة ذلك — اقتصِدْ فى عيشك ، وتوسط فى الإنفاق ، ولا تكن بخيلا ولا مسرفا . روى أحمد وغيره عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماعال من اقتصد » وأخرج البيهقى عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الاقتصاد فى النفقة نصف المعيشة » وروى عن أنس مرفوعا : « التدبير نصف المعيشة ، والتودد نصف العقل ، والهمّ نصف الهَرَم ، وقلة العيال أحد اليسارين » . وقيل: حسن التدبير مع العفاف ، خير من الغنى مع الإسراف .

وإجمال المعنى — لاتجعل يدك فى انقباضها كالمغلولة الممنوعة عن الانبساط ، ولاتتوسّعْ فى الإنفاق فتصير نادما مغموما متحسرا عاجزا عن الإنفاق لاشىء عندك ، فتكون كالدابة التى قد عجزت عن السير فوقفت ضعفا وعجزا وإعياء .

ثم سلّى رسوله والمؤمنين بأن الذى يرهقهم من الإضاقة ليس لهوانهم على الله ولكن لمشيئة الخالق الرازق فقال :

(إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أى إن ربك أيها الرسول يبسط الرزق لمن يشاء ويوسع عليه ، ويقتر على من يشاء ويضيق عليه ، بحسب السنن

التى وضعها لعباده فى كسب المال ، وحسن تصرفهم فى جمعه ، بالوسائل والنظم التى وضعها فى الكون .

(إنه كان بعباده خبيرا بصيرا) أى إن ربك ذو خبرة بعباده ، فيعلم من الذى تصلحه السعة فى الرزق ، ومن الذى تُفْسِده ؟ ومن الذى يُصْلِحه الإقتار والضيق ؟ ومن الذى يُفْسِده ؟ وهو البصير بتدبيرهم وسياستهم ، فعليك أن تعمل بما أمرك به أو نهاك عنه ، من بسط يدك فيما تبسط فيه وفيمن تبسطها له ، ومن كفها عن تكفها عنه ، فهو أعلم بمصالح العباد منك ومن جميع الخلق ، وأبصرهم بتدبير شؤونهم .

وقصارى ذلك — إنكم إذا علمتم أن شأنه تعالى البسط والقبض ، وأنعمتم فى النظر فى ذلك ، وجدتم أن من سننه تعالى الاقتصاد ، فاقتصدوا واستنّوا بسنته .

وبعد أن بين أنه تعالى الكفيل بالأرزاق وهو الذى يبسط ويقْدِر ، نهاهم عن قتل الأولاد خشية الفقر فقال :

(ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم) أى ولا تئدوا بناتكم خوف الفقر ، فنحن نرزقهم لا أنتم ، فلا تخافوا الفقر لعلمكم بعجزهم عن تحصيل رزقهم .

وقد كان العرب فى جاهليتهم يقتلون البنات ، لعجزهن عن الكسب ، وقدرة البنين عليه ، بالغارات والسلب والنهب ، ولأن فقرهن ينفّر الأكفاء عن الرغبة فيهن ، فيحتاجون إلى تزويجهنّ لغير الأكفاء ، وفى ذلك عار أيُّما عار عليهم .

والخلاصة — إن الأرزاق بيد الله ، فكما يفتح خزائنه للبنين يفتحها للبنات ، فليس لكم سبب يدعو إلى قتلهن ، ومن ثم قال :

(إن قتلهم كان خطئا كبيرا) أى إن قتلهم كان إثما فظيعا لما فيه من انقطاع النسل وزوال هذا النوع من الوجود . وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال : « قلت يا رسول الله أىُّ الذنب أعظم؟ قال : أن تجعل لله ندّا وهو الذى خلقك ، قلت ثم أىّ ؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعَم معك ، قلت ثم أى ؟ قال: أن تزانى بحليلة جارك » .

والخلاصة — إن قتل الأولاد إن كان لخوف الفقر فهو من سوء الظن بالله ، وإن كان لأجل الغَيْرة على البنات فهو سعى فى تخريب العالم ، والأول انتهاك لحرمة أوامر الله ، والثانى ضد الشفقة على خلق الله ، وكلاهما مذموم غاية الذم .

ولما كان فى قتل الأولاد حظ من البخل ، وفى الزنا داع من دواعى الإسراف أتبعه به فقال :

(ولا تقربوا الزنا) نهى الله عباده عن القرب من الزنا بمباشرة أسبابه ودواعيه ، فضلا عن مباشرته هو ، للمبالغة فى النهى عنه وبيان شدة قبحه ، ثم علل ذلك بقوله :

(إنه كان فاحشة وساء سبيلا) أى إنه كان فعلة ظاهرة القبح مشتملة على مفاسد كثيرة أهمها :

(١) اختلاط الأنساب واشتباهها ، وإذا اشتبه المرء فى الولد الذى أتت به الزانية ، أمنه هو أم من غيره ، لا يقوم بتربيته ، ولا يستمر فى تعهده ، وذلك مما يوجب إضاعة النسل وخراب العالم .

(٢) فتح باب الهرْج والمرْج والاضطراب بين الناس دفاعا عن العرض ، فكم سمعنا بحوادث قتل كان مبعثها الإقدام على الزنا ، حتى إنه ليقال عند السماع بحادث قتل : (فتش عن المرأة) .

(٣) إن المرأة إذا عُرِفت بالزنا وشهرت به استقذرها كل ذى طبع سليم ، فلا تحدث ألفة بينها وبين زوجها ، ولا يتم السكن والازدواج الذى جعله الله مودة ورحمة بين الناس بقوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » .

(٤) إنه ليس المقصد من المرأة مجرد قضاء الشهوة ، بل أن تصير شريكة للرجل فى ترتيب المنزل وإعداد مهامه من مطعوم ومشروب وملبوس ، وأن تكون حافظة له ، قائمة بشؤون الأولاد والخدم ، وهذه المهامّ لا تتم على وجه الكمال إلا إذا كانت مختصة برجل واحد ، منقطعة له دون غيره من الناس .

وإجمال ذلك — إن الزنا فاحشة وأى فاحشة ، لما فيه من اختلاط الأنساب والتقاتل والتناحر دفاعا عن العرض ، وإنه سبيل سيء من قِبَل أنه يسوّى بين الإنسان والحيوان ، فى عدم اختصاص الذكران بالإناث .

وبعد أن نهى عن قتل الأولاد للسبب المتقدم نهى عن القتل مطلقا فقال :

(ولاتقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق) أى ولاتقتلوا النفس التى حرم الإسلام قتلها إلا قتلا متلبسا بالحق ، وهو أحد أمور ثلاثة : كفر بعد إيمان ، وزنا بعد إحصان ، وقتل مؤمن معصوم عمدا كما جاء فى الحديث الذى رواه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود: « لايحل دم امرئ يشهد أن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله إلا بإحدى ثلاث : النفس بالنفس ، والثيب الزانى ، والتارك لدينه المفارق للجماعة » .

والسبب فى هذا التحريم وجوه :

(١) إنه إفساد فوجب حرمته لقوله « ولاَتُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ » .

(٢) إنه ضرر ، والأصل فى المضارّة الحرمة لقوله : « يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ » وقوله صلى الله عليه وسلم « لاضرر ولاضرار » .

(٣) إنه إذا أبيح القتل زال هذا النوع من الوجود ففتك القوى بالضعيف ، وحدث الاضطراب فى المجتمع ، فلا يستقيم للناس حال ، ولا ينتظم لهم معاش

(ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا) أى ومن قتل مظلوما بغير حق يوجب قتله فقد جعلنا لمن يلى أمره من وارث أو سلطان عند عدم الوارث تسلطا واستيلاء على القاتل ، بمؤاخذته بأحد أمرين : إما القصاص منه ، وإما الدية لقوله تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى » الآية ولقوله عليه الصلاة والسلام يوم الفتح « من قتل قتيلا فأهله بين خِيَرتين ، إن أحبّوا قتلوا ، وإن أحبوا أخذوا الدية » .

(فلا يسرف فى القتل) أى فلا يتجاوز الحد المشروع فيه بأن يقتل اثنين مثلا بإزاء واحد ، كما كانوا يفعلون فى الجاهلية ، إذ كانوا يقتلون القاتل ويقتلون معه غيره إذ كان رجلا شريفا ، وأحيانا لايرضون بقتل القاتل بل يقتلون بدله رجلا شريفا

وفى الآية إيماء إلى أن الأولى للولى ألا يُقْدِم على استيفاء القتل ، وأن يكتفى بالدية أو يعفو .

(إنه كان منصورا) أى إن الله نصر الولى بأن أوجب له القصاص أو الدية ، وأمر الحكام أن يعينوه على استيفاء حقه ، فلا يبغى ماوراءه ولا يطمع فى الزيادة على ذلك.

وقد يكون المعنى : إن المقتول ظلما منصور فى الدنيا بإيجاب القَوَد له على قاتله . وفى الآخرة بتكفير خطاياه ، و إيجاب النار لقاتله ، وهذه الآية أول مانزل من القرآن فى شأن القتل ، لأنها مكية .

و بعد أن نهى عن إتلاف الأنفس نهى عن إتلاف الأموال ، لأن المال أخو الروح ، وأحق الناس بالنهى عن إتلاف ماله هو اليتيم لضعفه وكمال عجزه ولذلك قال:

(ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده) أى لاتتصرفوا فى مال اليتيم إلا بالطريق التى هى أحسن الطرق ، وهى طريق حفظه وتثميره بما يزيد به ، حتى تستحكم قوة عقله وشبابه ، و إذ ذاك يمكنه القيام على ماله بما فيه المصلحة .

ولما نزلت هذه الآية اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانوا لايخالطون اليتامى فى طعام ولا غيره ، فأنزل الله تعالى : « وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ » فكانت لهم فيها رخصة .

ونظير الآية قوله تعالى : « وَلاَ تَأْكُلُوها إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ » .

و بعد أن نهى عن الزنا والقتل وأكل مال اليتيم أتبعها بثلاثة أوامر فقال :

(١) (وأوفوا بالعهد) أى وأوفوا بما عاهدتم الله عليه من التزام ما كلفكم به ، وماعاهدتم الناس عليه من العقود التى تتعاملون بها فى البيوع و الإجارة ونحوها ، قال الزجاج : كل ماأمر الله به ونهى عنه فهو من العهد ، و يدخل فى ذلك مابين العبد ور به ، ومابين العباد بعضهم و بعض .

والوفاء به القيام بحفظه على الوجه الشرعى والقانون المرضى .

(إن العهد كان مسئولا) أى إن الله سائلٌ ناقضَ العهد عن نقضه إياه ، فيقال للنا كث له على سبيل التبكيت والتوبيخ لم نكثت عهدك ؟ وهلا وفَيْتَ به ، كما يقال لوائد الموءودة: بأى ذنب قُتِلَتْ ؟ وقوله تعالى لعيسى عليه السلام: «أأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ؟» والمخاطبة لعيسى والإنكار على غيره .

(٢) (وأوفوا الكيل إذا كلتم) أى وأتموا الكيل للناس ولا تُخْسِروهم إذا كلتم لهم حقوقهم قِبَلكم ، فإن كلتم لأنفسكم فلا جناح عليكم إن نقصتم عن حقكم ولم تفوا بالكيل .

(٣) (وزنوا بالقسطاس المستقيم) أى وزنوا بالميزان العدل دون شىء من الجَوْر أو الحيف ، لأن جميع الناس محتاجون إلى المعاوضات والبيع والشراء ، ومن ثم بالغ الشارع فى المنع من التطفيف والنقصان ، سعيا فى إبقاء الأموال لأربابها .

ثم بين عاقبة هذه الأوامر وحسن مآلها فقال :

(ذلك خير) أى إيفاؤكم بالعهد ، وإيفاؤكم من تكيلون له ، ووزنكم بالعدل لمن توفون له ، خير لكم فى الدنيا من نكثكم وبخسكم فى الكيل والوزن ، لأن ذلك مما يرغّب الناس فى معاملتكم ، وحب الثناء عليكم .

(وأحسن تأويلا) أى وأجمل عاقبة ، لما يترتب على ذلك من الثواب فى الآخرة ، والخلاص من العقاب الأليم .

وكثير من الفقراء الذين اشتهروا بالأمانة والبعد عن الخيانة ، أقبلت عليهم الدنيا ، وحصل لهم الثروة والغنى ، وكان ذلك سبب سعادتهم فيها .

وبعد أن ذكر سبحانه أوامر ثلاثة نهى عن مثلها فقال :

(١) (ولا تقف ماليس لك به علم) أى ولا تتَّبعْ أيها المرء مالاعلم لك به من قول أو فعل ، وذلك دستور شامل لكثير من شؤون الحياة ، ومن ثم قال المفسرون فيه أقوالا كثيرة :

(ا) قال ابن عباس : لاتشهد إلا بما رأت عيناك ، وسمعته أذناك ، ووعاه قلبك .

(ب) قال قتادة : لاتقل سمعتُ ولم تسمع ، ولارأيت ولم تر ، ولاعلمتُ ولم تعلم.

(حـ) وقيل المراد النهى عن القول بلا علم بل بالظن والتوهم كما قال : « اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » وفى الحديث « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » وفى سنن أبى داود « بئس مطية الرجل زعموا » إلا ماقام الدليل على جواز العمل به إن لم يوجد دليل من كتاب أو سنة كما رخص النبى صلى الله عليه وسلم فى ذلك لُمعاذ حين بعثهُ قاضيا فى اليمن إذ قال له « بم تقضى ، قال: بكتاب الله ، قال فإن لم تجد قال فبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال فإن لم تجد قال أجتهد رأيى » .

(د) وقيل المراد نهى المشركين عن اعتقاداتهم تقليدا لأسلافهم واتباعا للهوى كما قال : « إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ، ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ» .

ثم ذكر سبحانه تعليلا لذلك النهى فقال :

(إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا) أى إن الله سائل هذه الأعضاء عما فعل صاحبها كما قال « يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وفى الخبر عن شَكَل بن حُمَيْد قال : « أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت يانبى الله علِّمنى تعويذا أتعوذ به ، فأخذ بيدى ثم قال : قل أعوذ بك من شر سمعى ، وشر بصري ، وشر قلبى ، وشر منيِّ » (يريد الزنا) .

(٢) (ولاتمش فى الأرض مرحا) أى ولاتمش متبخترا متمايلا كمشى الجبارين ، فتحتك الأرض التى لاتقدر على خرقها بدوسك وشدة وطئك لها ، وفوقك الجبال التى لاتقدر على الوصول إليها ، فأنت محوط بنوعين من الجماد أنت أضعف منهما ، والضعيف المحصور لايليق به التكبر ، ولقد أحسن من قال :

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعا ... فكم تحتها قوم همُ منك أرفع

وإن كنت فى عز وحرز ومَنعة ... فكم مات من قوم همُ منك أمنع

وخلاصة ذلك — تواضع ولا تتكبر ، فإنك مخلوق ضعيف محصور بين حجارة وتراب ، فلا تفعل فعل القوى المقتدر . ولا يخفى ما فى الآية من التقريع والتهكم والزجر لمن اعتاد ذلك .

ثم علل هذا النهى بقوله :

(إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا) أى لن تخرق الأرض بدوسك وشدة وطأتك ، ولن تبلغ الجبال التى هى بعض أجزاء الأرض فى الطول حتى يمكنك أن تتكبر عليها ، فالتكبر إنما يكون بالقوة وعظم الجثة وكلاهما غير موجود لديك ، فما الحامل لك على ما أنت فيه وأنت أحقر من كل من الجادين ؟ وكيف يليق بك الكبر؟

(كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها) أى كل الذى ذكر من الخصال أثناء الأوامر والنواهى وهى الخمس والعشرون السالفة كان سيئه وهو ما نهى عنه منها ، من الجعل مع الله إلها آخر وعبادة غيره ، والتأفف والتبذير ، وغل اليد ، وقتل الأولاد خشية الإملاق ـ مكروها عند ربك أى مبغوضا عنده وإن كان مرادا له تعالى بالإرادة التكوينية كما قال صلى الله عليه وسلم « ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن » وهذه الإرادة لا تستدعى الرضا منه سبحانه .

وفى وصف هذه الأشياء بالكراهة مع أن أكثرها من الكبائر ـ إيماء إلى أن الكراهة عنده تعالى تكفى فى وجوب الكف عن ذلك .

ثم بين وجوب امتثال تلك الأوامر ، وترك تلك النواهى فقال :

(ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة) أى هذا الذى أمرناك به من الأخلاق الحميدة ، ونهيناك عنه من الرذائل ، مما أوحينا إليك من فقه الدين ومعرفة أسراره ، ومن الحكم فى تشريعه .

أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما إن التوراة كلها فى خمس عشرة آية من بنى إسرائيل ثم تلا (لا تجعل مع الله إلها آخر) الآية .

(ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا) كرر هذا مع ما سلف ، للتنبيه إلى أن التوحيد رأس الدين ورأس الحكمة ، وهو مبدأ الأمر ومنتهاه ، وقد رتب عليه أولا آثار الشرك فى الدنيا فقال : فتقعد مذموما مخذولا ، ورتب عليه هنا نتيجة فى العقبى فقال: فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا : أى ملوما من جهة نفسك ومن جهة غيرك، ومبعدا من رحمة الله تعالى .

وقد علمتَ فيما تقدم لك أن مثل هذا الخطاب إما موجه إلى الإنسان عامة ، و إما إلى الرسول خاصة والمراد أمته والكلام من وادى قولهم (إياك أعنى واسمعى يا جاره) .

أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا (٤٠) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ نُفُورًا (٤١) قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَٰوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) .

تفسير المفردات

الإصفاء بالشىء : جعله خالصا له ، وصرفنا : أى بينا ، ليذكروا : أى يتدبروا ويتعظوا ، والنفور : البعد من الشىء ، وابتغاء الشىء : طلبه ، والسبيل : الطريق ، والفقه : الفهم .

المعنى الجملى

بعد أن نبه سبحانه إلى جهل من أثبتوا له شريكا واتخذوا له ندّا ونظيرا - قفّى على ذلك بالتنديد والتقريع لمن أثبتوا له ولدا ، وأنه قد بلغ من قِحَتهم أن جعلوا البنين لأنفسهم مع علمهم بعجزهم ونقصهم ، وأعطَوْا لله البنات ، مع علمهم بأنه الموصوف بالكمال الذى لا نهاية له ، والجلال الذى لاغاية له - ثم أتبعه ببيان أنه قد ضرب فى القرآن الأمثال ليتدبروا ويتأملوا فيها ، ولكن ذلك ما زادهم إلا نفورا عن الحق وقلة طمأنينة إليه ، ثم أردفه ببيان أنه لو كانت هذه الأصنام كما تقولون من أنها تقربكم إلى الله زلفى ، لطلبت لأنفسها قربة إلى الله وسبيلا إليه ، ولكنها لم تفعل ذلك ، وكيف تقرّبكم إليه وكل ما فى السموات والأرض يسبح بحمده ، بدلالة أحواله على توحيده ، وتقديسه وكمال قدرته ، ولكنكم لجهلكم وغفلتكم لاتدركون دلالة تلك الدلائل .

الايضاح

(أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا ؟) أى أفخصّكم ربكم بالذكور من الأولاد ، واتخذ من الملائكة إناثا وأنتم لاترضَوْنَهُنّ لأنفسكم ، بل تئدونهن وتقتلونهن ، فتجعلون له ما لاترضون لأنفسكم .

وخلاصة ذلك — إنهم جعلوا الملائكة إناثا ، ثم ادّعَوْا أنهن بنات الله ، ثم عبدوهن ، فأخطئوا فى الأمور الثلاثة خطأ عظيما ، ومن ثم قال :

(إنكم لتقولون قولا عظيما) فتفترون على الله الكذب ، وتنسبون إليه ماتستحقون عليه الإثم والعذاب ، وتخرقون قضايا العقول ، فتجعلون أشرف خلق الله الذين منهم من يقدر على جعل عالى الأرض سافلها ، إناثا غاية فى الرخاوة .

ونحو الآية قوله : « وَقَالُوا اتخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا . ومَا يَنْبَغِى لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا . إِنْ كُلُّ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ

إلاَّ آتِى الرَّحْمٰنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا » .

ولما كان هذا الكلام غاية فى الوضوح والبيان ، ولا يخفى فهمه على إنسان ، ثم هم بعد ذلك أعرضوا عنه نبه إلى ذلك بقوله :

(ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفورا) أى ولقد بينا فى هذا القرآن الآيات والحجج، وضربنا لهم الأمثال، وحذرناهم وأنذرناهم، ليتذكروا ويتعظوا فيقفوا على بطلان مايقولون - فإن التكرار يقتضى الإذعان واطمئنان النفس - وهم مع ذلك لا يعتبرون ولا يتذكرون بما يرد عليهم من الآيات والنذر بل مايزيدهم التذكير إلا نفورا وبعدا عن الحق وهربا منه .

ثم رد على هؤلاء الذين يشركون بربهم ، ويتخذون الشفعاء والأنداد وندد عليهم وسفه أحلامهم فقال :

(قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذين جعلوا مع الله إلها آخر: لو كان الأمر كما تقولون وأن معه آلهة تُعْبَد لتقرّب إليه وتشفع لديه - لكان أولئك المعبودون يعبدونه، ويتقربون إليه، ويبتغون لديه الوسيلة ، فاعبدوه وحده كما يعبد من تدعونه من دونه ، ولا حاجة لكم إلى معبود يكون واسطة بينكم وبينه ، فإنه لا يحب ذلك ولا يرضاه ، بل يكرهه ويأباه ، وقد نهى عن ذلك على ألسنة رسله وأنبيائه ونزه نفسه عن ذلك فقال :

(سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا) أى تنزيها لله وعلوّا له عما تقولون أيها القوم من الفرية والكذب ، فهو الله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد .

وفى الآية إيماء إلى وجود البون الشاسع بين ذاته وصفاته سبحانه ، وبين ثبوت الصاحبة والولد والشركاء والأضداد ، للمنافاة التى لا غاية وراءها ، بين القديم والمُحْدَث والغنىّ والمحتاج .

ثم بين سبحانه عظمة ملكه ، وكبير سلطانه فقال :

(تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن) أى إن السموات السبع والأرض ومن فيهن من المخلوقات ، تنزهه وتعظمه عما يقول هؤلاء المشركون ، وتشهد له بالوحدانية فى ربوبيته وألوهيته كما قال أبو نواس :

وفى كل شىء له آية		تدل على أنه واحد

والمكلف العاقل يسبّح ربه إما بالقول كقوله : سبحان الله ، وإما بدلالة أحواله على توحيده وتقديسه ، وغير العاقل لايسبح إلا بالطريق الثانى ، فهى تدل بحدوثها دلالة واضحة على وجوب وجوده تعالى ووحدانيته ، وقدرته وتنزهه عن الحدوث ، فإن الأثر يدل على مؤثره .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(وإن من شىء إلا يسبح بحمده) أى وما شىء من المخلوقات إلا يسبح بحمد الله أى يدل بإمكانه وحدوثه دلالة واضحة على وجوب وجوده تعالى ، ووحدته وقدرته ، وتنزهه عن لوازم الحدوث .

والخلاصة — إن كل الأكوان شاهدة بتنزهه تعالى عن مشاركته للمخلوقات فى صفاتها المحدثة .

(ولكن لاتفقهون تسبيحهم) أى ولكن لاتفهمون أيها المشركون تلك الدلالة، لأنكم لما جعلتم مع الله آلهة ، فكأنكم لم تنظروا ولم تفكروا ، إذ النظر الصحيح ، والتفكير الحق ، يؤدى إلى غير ما أنتم فيه ، فأنتم إذاً لم تفقهوا التسبيح ، ولم تستوضحوا الدلالة على الخالق .

(إنه كان حليما غفورا) فمن حلمه أن أمهلكم ، ولم يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وسوء جهلكم بهذا التسبيح بإشراككم به سواه ، وعبادتكم معه غيره ، ومن مغفرته لكم أنه لايؤاخذ من تاب منكم .

أخرج أحمد وابن مردويه عن ابن عمر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن

نوحا عليه السلام لما حضرته الوفاة قال لابنيه : آمركما بسبحان الله وبحمده ، فإنها صلاة كل شيء ، وبها يُرْزَق كل شيء » .

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ، وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (٤٧) انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٤٨) .

تفسير المفردات

الحجاب والحَجْب : المنع من الوصول إلى الشيء والمراد الحاجب ، والمستور : أى الساتر كما جاء عكسه من نحو « ماء دافق » : أى مدفوق ، أن يفقهوه أى لئلا يفقهوه ويفهموه ، والأكنة : الأغطية واحدها كنان ، والوقر : الصمم والثقل فى الآذان المانع من السماع ، والنفور : الانزعاج ، مسحورا : أى مخبول العقل ، فهو كقولهم « إن هو إلا رجل به جنة » فضلوا أى جاروا عن قصد السبيل .

المعنى الجملى

كان الكلام قبل هذا فى مقام الألوهية وجدالهم بالتى هى أحسن ، بضرب الأمثال لهم ، وإقامة الحجة عليهم ، وإيضاح السبيل لهم - والكلام هنا فى مقام النبوة والنعى عليهم فى عدم فهمهم للقرآن والنفور منه والهزء به ، وضربهم الأمثال للنبى صلى الله عليه وسلم وقولهم فيه تارة إنه ساحر وأخرى إنه مجنون ، وحينا إنه شاعر .

روى ابن عباس أن أبا سفيان والنضر بن الحرث وأبا جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبى صلى الله عليه وسلم ويستمعون إلى حديثه ، فقال النضر يوما ما أدرى ما يقول

محمد ، غير أنى أرى شفتيه تتحركان بشىء ، وقال أبو سفيان : إنى لأرى بعض مايقول حقا ، وقال أبو جهل : هو مجنون ، وقال أبو لهب : هو كاهن ، وقال حويطب بن عبد العزّى:هو شاعر فنزلت هذه الآية

الإيضاح

(وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا) أى وإذا قرأت أيها الرسول القرآن على هؤلاء المشركين الذين لا يصدّقون بالبعث ، ولا يقرون بالثواب والعقاب ـ جعلنا بينك وبينهم حجابا يمنع قلوبهم عن أن تفهم ماتقرؤه عليهم فينتفعوا به ، عقوبة منا لهم على كفرهم وتدسيتهم لأنفسهم ، واجتراحهم الجرائر والمعاصى التى تُظْلم القلوب ، وتضع عليها الأغشية ، وتستر عنها فهم حقائق القرآن ومراميه ، وأسراره وأحكامه وحكمه ، ومواعظه وعبره .

روى أنه عليه الصلاة والسلام الصلاة كان إذا قرأ القرآن قام عن يمينه رجلان وعن يساره آخران من ولد قُصَىّ يصفقون ويصفرون ويُخلّطون عليه بالأشعار .

ثم بين السبب فى عدم فهمهم لمدارك القرآن فقال :

(وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا) أى إنه تعالى جعل فى قلوبهم مايشْغَلهم عن فهم القرآن وفى آذانهم مايمنع من سماع صوته .

وخلاصة ذلك ـــ إنا منعناهم فقهه ، والوقوف على كنهه ، فنبتْ قلوبهم عن فهمه، ومجّته أسماعهم ، فهم لامتناعهم عن قبول دلائله صاروا كأنه حصل بينهم وبين تلك الدلائل حجاب ساتر .

ونسب جعل الحجاب إلى نفسه ، لأنه خلاَّهم وأنفسهم ، فصارت تلك التخلية كأنها السبب فى وقوعهم فى تلك الحال ؛ ألا ترى أن السيد إذا لم يراقب أحوال مولاه حتى ساءت حاله ، يقول أنا الذى أوصلك إلى هذا ، إذ ألقيت حبلك على غاربك ، ولم أراقبك عن كثب .

ونحو الآية قوله : « وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ » .

(وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا) أى وإذا ذكرت ربك وحده فى القرآن وأنت تتلوه ، ولم تقل واللات والعُزَّى انفضوا من حولك وهربوا نافرين استكبارا واستعظاما لأن يُذْكَر اللهُ وحده .

(نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا) أى نحن أعلم بالوجه الذى يستمعون به وهو الهزء والسخرية والتكذيب حين استماعهم ، وأعلم بما يتناجون به ويتسارّون ، فبعضهم يقول مجنون ، وبعضهم يقول كاهن ، وبعضهم يقول : ما اتبعتم إلا رجلا قد سُحِر فاختلط عليه عقله وزال عن حد الاستواء ، وهل من خير لكم فى اتباع أمثاله المجانين؟

(انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا) أى تأمل وانظر أيها الرسول ، كيف مثلوا لك الأمثال وشبهوا لك الأشباه ، فقالوا هو مسحور ، وهو شاعر مجنون ، فحادوا فى كل ذلك عن سواء السبيل ، ولم يهتدوا لطريق الحق لضلالهم عنه وبعدهم منه .

وفى هذا من الوعيد وتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ما لا يخفى .

وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ، فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ؟ قُلِ الَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ ؟ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢) .

تفسير المفردات

الرفات : ما تكسر وبَلِى من كل شىء ، يكبر فى صدوركم : أى يستبعد قبوله للحياة ، فطركم : أى ذرأكم وأوجدكم ، فسينغضون إليك رءوسهم : أى سيحركونها

استهزاء ، يقال نغض رأسه ينغُض نغضا إذا تحرك ، وأنغض رأسه : حركه كالمتعجب من الشيء ، فتستجيبون : أى تجيبون الداعى .

المعنى الجملى

اعلم أن أمهات المسائل التى دار حولها البحث فى الكتاب الكريم الإلهيات ، والنبوات والبعث والجزاء والقضاء والقدر ، وقد تكلم فيما سلف فى الإلهيات ثم أتبعه بذكر شبهاتهم فى النبوات ، وفنَّدها بما لا مجال للرد عليه ، ولا لدحضه وتكذيبه ، ثم ذكر فى هذه الآيات شكوكهم فى المعاد والبعث والجزاء ، ورد عليها بما لو نظر إليه المنصف لأيقن بصدق ما يُدَّعى ، وألزم نفسه تصديق مايقال .

الإيضاح

(وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ؟) أى وقال الذين لا يؤمنون باليوم الآخر من المشركين : أئذا كنا عظاما فى قبورنا ، لم نتحطم ولم نتكسر بعد مماتنا ، ورفاتا متكسرة مدقوقة ، أئنا لمبعوثون بعد مصيرنا فيها ، وقد بلينا فتكسرت عظامنا ، وتقطعت أوصالنا ـ خلقا جديدا كما كنا قبل الممات .

ومثل الآية قوله تعالى حكاية عنهم : « يَقُولُونَ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ؟ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً . قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ » وقوله : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » .

وقد أمر الله رسوله أن يجيبهم ، ويعرفهم قدرته على بعثه إياهم بعد مماتهم ، وإنشائه لهم كما كانوا قبل بلاهم خلقا جديدا ، على أى حال كانوا ، عظاما أو رفاتا أو حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكْبُر فى صدورهم فقال :

(قل كونوا حجارة أوحديدا . أوخلقا مما يكبر فى صدوركم) أى قل كونوا حجارة

أو حديدا أو خلقا مما يُستَبعد عندكم قبوله للحياة كالسموات والأرض والجبال ، فإن الله لايعجزه إحياؤكم لتساوى الأجسام فى قبولها الأعراضَ المختلفة ، فكيف إذا كنتم عظاما بالية، وقد كانت قبلُ حيَّة، والشىء أقبل لما عهد فيه مما لم يعهد ؟ .

وخلاصة هذا - إنكم لو كنتم كذلك لما أعجزتم الله عن الإعادة والإحياء ، وهذا كما يقول القائل للرجل : أتطمع فىّ وأنا فلان ؟ فيقول : كن ابن من شئت ، كن ابن الخليفة ، فسأطلب منك حقى .

وجملة المعنى - إن فى هذا مبالغة أيّما مبالغة فى قدرة القادر العليم على الإعادة والإحياء ، كما يقال : لو كنت عين الحياة فالله يميتك ، ولو كنت عين الغنى فالله يُفْقِرك .

و بعد أن استبعدوا الإعادة استبعدوا صدورها وهى على هذه الحال حجارة أوحديدا من أىّ معيد . كما حكى عنهم سبحانه بقوله :

(فسيقولون من يعيدنا ؟ قل الذى فطركم أول مرة) أى فسيقولون لك من يعيدنا ونحن على هذه الحال ؟ قل لهم تحقيقا للحق و إزاحة للاستبعاد ، و إرشادا إلى طريق الاستدلال : الذى يفعل ذلك هو القادر العظيم ، الذى ذرأكم أول مرة على غير مثال يُحتَذى ، ولا منهاج معين يُنْتَحى ، وكنتم ترابا لم يشمّ رائحة الحياة ، أليس الذى يقدر على ذلك ، يقدر على أن يُفيض الحياة على العظام البالية ، و يعيدها إلى ما كانت عليه أولا ؟ بلى إنه سبحانه على كل شىء قدير .

ثم بين جلّت قدرته مايفعلون حين سماع هذه الإجابة فقال :

(فسينغضون إليك رءوسهم) قال أبو الهيثم يقال لمن أُخْبِر بشىء فحرك رأسه إنكارا له : قد أنغض ، أى إنك إذا قلت لهم ذلك يحركون رءوسهم استهزاء وتكذيبا ، ثم يسألون .

(و يقولون متى هو ؟) أى متى هذا البعث ، وفى أى وقت وحال يعيدنا خلقا جديدا كما كنا أول مرة ، ومقصدهم من هذا السؤال استبعاد حصوله .

وفى معنى الآية قوله « وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » وقوله : « يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا » .

(قل عسى أن يكون قريبا) أى فاحذروا ذلك ، فإنه قريب منكم سيأتيكم لا محالة ، وكل آت قريب ، وكل ماهو محقق الحصول قريب وإن طال زمانه ، ولم يُخْبِر به أحدا من خلقه ، لا ملكا مقربا ، ولا نبيا مرسلا ، لكن الخبر قد جاء بقرب حدوثه كما قال « بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بالسبابة والوسطى .

(يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده) أى ذلك يومَ يدعوكم ، فتستجيبون له من قبوركم ، بقدرته ودعائه إياكم ، ولله الحمد فى كل حال ، وهذا كما يقول القائل فعلت هذا بحمد الله أى ولله الحمد على كل ما فعلت .

وروى عن أنس مرفوعا « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشةٌ عند الموت ولا فى القبر ولا فى الحشر ، وكأنى بأهل لا إله إلا الله قد خرجوا من قبورهم ينفضون رءوسهم من التراب ، يقولون : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن » .

(وتظنون إن لبثتم إلا قليلا) أى وتظنون حين تقومون من قبوركم أنكم ما أقمتم فى دار الدنيا إلا زمنا قليلا .

ونحو الآية قوله: « كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا» وقوله: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ » وقوله : « كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ؟ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ . قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ » .

قال الحسن : المراد تقريب وقت البعث ، فكأنك بالدنيا ولم تكن ، و بالآخرة ولم تزل .

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا (٥٣) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ

يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (٥٥) .

تفسير المفردات

ينزغ : يفسد ويَهيجُ الشر ، والوكيل : هو المفوض إليه الأمر ، والزبور : اسم الكتاب الذى أنزل على داود عليه السلام .

المعنى الجملى

بعد أن أقام سبحانه الحجج على إبطال الشرك ، فقال : قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا ، وذكر الأدلة على صحة البعث والجزاء فقال : « قل الذى فطركم أول مرة » أمر رسوله أن يأمر عباده المؤمنين بأن يحاجوا مخالفيهم ، ويجادلوهم باللين ، ولا يغلظوا لهم فى القول ، ولا يشتموهم ولا يسبوهم ، فإن الكلمة الطيبة تجذب النفوس ، وتميل بها إلى الاقتناع ، كما يعلم ذلك الذين تولوْا النصح والإرشاد ، من الوعاظ والساسة والزعماء فى كل أمة .

ثم ذكر من الكلمة الطيبة أن يقول لهم : ربكم العليم بكم ، إن شاء عذبكم ، وإن شاء رحمكم ، ولا يصرّح بأنهم من أهل النار ، فإن ذلك مما يهيج الشر مع أن الخاتمة مجهولة لايعلمها إلا الله سبحانه ، ثم بين لرسوله أنه لايقسِر الناس على الإسلام، فما عليه إلا البلاغ والإنذار ، والله هو العليم بمن فى السموات والأرض ، فيختار لنبوته من يشاء ، ممن يراه أهلا لذلك، وأولئك الأنبياء ليسوا سواء فى مراتب الفضل والكمال، وأفضلهم محمد صلى الله عليه وسلم وأمته .

الإيضاح

(وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن) أى وقل لعبادى يقولوا فى مخاطباتهم ومحاوراتهم مع خصومهم من المشركين وغيرهم : الكلام الأحسن للإقناع ، مع البعد عن الشتم والسب والأذى .

ونظير الآية قوله « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » وقوله « وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » . روى أن الآية نزلت فى عمر ابن الخطاب ، ذلك أن رجلا شتمه فسبّه عمر وهمّ بقتله فكادت تُثير فتنة فأنزل الله الآية .

ثم علل ذلك بقوله :

(إن الشيطان ينزغ بينهم) أى إن الشيطان يفسد بين المؤمنين والمشركين ويهيج الشر بينهم ، فينتقل الحال من الكلام إلى الفعال ، ويقع الشر والمخاصمة ، ومن ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة ، فإن الشيطان ينزغ فى يده فربما أصابه بها . روى أحمد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ولا يشيرَنّ أحدكم إلى أخيه بالسلاح ، فإنه لايدرى لعل الشيطان ينزغ فى يده ، فيقع فى حفرة من النار » وروى أيضا عن رجل من بنى سليط قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى رَفْلة (جماعة) من الناس فسمعته يقول « والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذُله ، التقوى هاهنا ووضع يده على صدره » .

ثم بين سبب نزغ الشيطان للإنسان بقوله :

(إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا) أى إن بين الشيطان والإنسان عداوة قديمة مستحكمة كما قال تعالى حكاية عن الشيطان « ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ » وقال « كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ » .

ثم فسر سبحانه التى هى أحسن بما علّمهم النَّصَفَة بقوله :

(ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم) أى ربكم أيها القوم هو العليم بكم ، إن يشأ رحمتكم بتوفيقكم للايمان والعمل الصالح يرحمكم ، وإن يشأ يعذبكم بأن يخذُلكم عن الإيمان فتموتوا على شرككم .

وفى هذا إيماء إلى أنه لاينبغى للمؤمنين أن يحتقروا المشركين ولا أن يقطعوا بأنهم من أهل النار ويعيّروهم بذلك ، فإن العاقبة مجهولة ، ولا يعلم الغيب إلا الله - إلى أن ذلك مما يجُرّ إلى توليد الضغينة فى النفوس ، بلا فائدة ولا داع يدعو إليها .

ثم وجه خطابه إلى أعظم الخلق ليكون مَنْ دونه أسوة له فقال :

(وما أرسلناك عليهم وكيلا) أى وما أرسلناك أيها الرسول حفيظا ورقيبا ، تقسر الناس على مايرضى الله ، وإنما أرسلناك بشيرا ونذيرا ، فدَارِهم ولا تغْلُظ عليهم ، ومُرْ أصحابك بذلك ، فإن ذلك هو الذى يؤثّر فى القلوب ، ويستهوى الأفئدة ، ثم انتقل من علمه تعالى بهم إلى علمه بجميع خلقه فقال :

(وربك أعلم بمن فى السموات والأرض) وبأحوالهم الظاهرة والباطنة ، فيختار منهم لنبوته والفقه فى دينه من يراه أهلا لذلك ، ويفضل بعضهم على بعض ، لإحاطة علمه وواسع قدرته . ونحو الآية قوله « أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ » .

وفى هذا رد عليهم حين قالوا : يبعد كل البعد أن يكون يتيم ابن أبى طالب نبيا ، وأن يكون أولئك الجوّع العُراة كصُهَيْب وبلال وخَبَّاب وغيرهم صحابة دون الأكابر والصناديد من قريش .

وفى ذكر من فى السموات ردّ لمقالهم حين قالوا « لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ » وفى ذكر من فى الأرض رد لمقالهم حين قالوا «لَوْلاَ نُزِّلَ هٰذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » .

(ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض) بما لهم من الفضائل النفسية ، والمزايا القدسية ، وإنزال الكتب السماوية ، فخصصنا كلا منهم بفضيلة ومزية ، ففضلنا

إبراهيم باتخاذه خليلا ، وموسى بالتكليم ، ومحمدا بالقرآن الذى أعجز البشر والإسراء والمعراج .

ونحو الآية قوله : « تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ، مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ » ولا خلاف فى أن أولى العزم منهم وهم الخمسة الذين ذكروا فى سورة الشورى فى قوله « شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ » أفضل من بقيتهم ، ولا خلاف فى أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضلهم ، ثم إبراهيم فموسى فعيسى عليهم السلام .

(وآتينا داود زبورا) أى إن تفضيل داود لم يكن بالملك ، بل كان بما آتاه الله من الكتاب ، وأفرده بالذكر ، لأنه كتب فى الزبور أن محمدا خاتم الأنبياء ، وأن أمته خير الأمم كما قال تعالى : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » وهم محمد صلى الله عليه وسلم وأمته .

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً (٥٦) أُولٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ، إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلاَّ أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ، وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ، وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا (٥٩)

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ، وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ ، وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠) .

تفسير المفردات

الزعم : (بتثليث الزاى) القول المشكوك فى صدقه ، وقد يستعمل بمعنى الكذب حتى قال ابن عباس : كل موضع فى كتاب الله ورد فيه (زعم) فهو كذب ، لايملكون: أى لايستطيعون ، كشف الضر : إزالته أو تحويله عنكم إلى غيركم ، يدعون : أى ينادون ، الوسيلة: القرب بالطاعة والعبادة ، محذورا : أى يحذره ويحترس منه كل أحد، فى الكتاب : أى فى اللوح المحفوظ ، والآيات : هى ما اقترحته قريش من جعل الصفا ذهبا ، ومبصرة : أى ذات بصيرة لمن يتأملها و يتفكر فيها ، فظلموا بها: أى فكفروا بها وجحدوا ، أحاط بالناس : أى أحاطت بهم قدرته فلا يستطيعون إيصال الأذى إليك إلا بإذننا، والرؤيا. هى ما عاينه صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به من العجائب ، والشجرة: هى شجرة الزقوم ، والطغيان : تجاوز الحد فى الفجور والضلال .

المعنى الجملى

هذه الآيات عود على بدء فى تسفيه آراء المشركين الذين كانوا يعبدون الملائكة والجن والمسيح وعزيرا ، إذ رد عليهم بأن من تدعونهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة ، ويخافون عذابه ، ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، فادعونى وحدى ، لأنى أنا المالك لنفعكم وضركم دونهم ؛ ثم بين أن قرى الكافرين صائرة إما إلى الفناء والهلاك بعذاب الاستئصال ، وإما بعذاب دون ذلك من قتل كبرائها وتسليط المسلمين عليهم بالسبى

واغتنام الأموال وأخذ الجزية؛ ثم أردف ذلك ببيان أنه مامنعه من إرسال الآيات التى طلب مثلها الأولون كقولهم: «لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا» الخ إلا أنه لو جاء بها ولم يؤمنوا لأصابهم عذاب الاستئصال كما أصاب من قبلهم ، أو لم ينظروا إلى ما أصاب ثمود حين كذبوا بآيات ربهم وعقروا الناقة ، ثم قفى على ذلك بأن الله حافظه من قومه ، وأنه سينصره ويؤيده ، ثم أتبع ذلك بأن أمر الإسراء كان فتنة للناس وامتحانا لإيمانهم ، كما كان ذكر شجرة الزقوم فى قوله : «إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ» ثم تلا هذا بذكر تماديهم فى العناد ، وأنه كلما خوّفهم وأنذرهم ازدادوا تماديا وطغيانا ، فلو أنزل عليهم الآيات التى اقترحوها لم ينتفعوا بها ، ومن ثم أجّل عذابهم إلى يوم الوقت المعلوم .

الإيضاح

(قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا) أى قل أيها الرسول لمشركى قومك الذين يعبدون مَنْ دون الله من خلقه : ادعوا أيها القوم الذين زعمتم أنهم أرباب وآلهة من دونه حين ينزل الضر بكم من فقر ومرض ونحوهما ، وانظروا هل يقدرون على دفع ذلك عنكم أو تحويله عنكم إلى غيركم ؟ إنهم لايقدرون على دفع شىء من ذلك ولا يملكونه ، وإنما يملكه ويقدر عليه خالقكم وخالقهم . روى أنه لما ابتليت قريش بالقحط وشكَوْا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل الله هذه الآية .

(أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) أى هؤلاء الذين يدعوهم المشركون أربابا ، وينادونهم لكشف الضر عنهم - يطلبون مجتهدين إلى ربهم ومالك أمرهم القرب إليه بالطاعة والقربة . أخرج الترمذى وابن مردويه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سلوا الله لى الوسيلة ، قالوا وما الوسيلة ؟ قال القرب من الله ؟ ثم قرأ هذه الآية » .

(أيهم أقرب) أى إن أقرب أولئك المعبودين إلى الله يدعوه يبتغى إليه الوسيلة والقرب منه ، و إذا كان العجز عن كشف الضر عنكم ، و الافتقار إلى ر بكم ، شأن أعلاهم وأدناهم ، فكيف تعبدونهم ؟ .

(و يرجون رحمته و يخافون عذابه) أى و يرجون بفعلهم للطاعة رحمته ، و يخافون بمخالفة أمره عذابه .

ثم ذكر العلة فى خوفهم من العذاب فقال :

(إن عذاب ر بك كان محذورا) أى إن عذابه حقيق بأن يحذَره كل أحد من الملائكة والأنبياء فضلا عن سواهما .

ثم ذكر مآل الدنيا وأهلها فقال :

(و إن من قر ية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديدا) أى ومامن قر ية من القرى التى ظلم أهلها بالكفر والمعاصى إلا نحن مهلكو أهلها بالفناء ومبيدوهم بالاستئصال قبل يوم القيامة ، أو معذبوها ببلاء من قتل بالسيف أو غير ذلك من صنوف العذاب ، بسبب ذنوبهم وخطاياهم كما قال سبحانه عن الأمم الماضية : « ومَاظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » وقال : « فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْراً » وقال : « وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ » الآية .

(كان ذلك فى الكتاب مسطورا) أى كان ذلك مثبتا فى علم الله أو فى اللوح المحفوظ . عن عُبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أول ماخلق الله القلم ، فقال له اكتب ، فقال ما أكتب ؟ قال اكتب القدر وما هو كائن إلى يوم القيامة » أخرجه الترمذى :

وكان كفار قريش يقولون يا محمد : إنك تزعم أنه كان قبلك أنبياء منهم من سُخِّرت له الريح، ومنهم من كان يحيى الموتى، فإن سَرَّك أن نؤمن بك ونصدقك فادع ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبا ، فأجاب الله عن هذه الشبهة بقوله :

(وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) أى إنه تعالى لو أظهر تلك المعجزات القاهرة ثم لم يؤمنوا بها بل بقُوا مصرين على كفرهم لاستحقوا عذاب الاستئصال كما هى سنتنا فى الأمم السالفة ، لكن هذا العذاب على هذه الأمة لايكون، لأن الله يعلم أن فيهم من سيؤمنون أو يؤمن أولادهم ، فلم يجبهم إلى ماطلبوا ولم يظهر لهم تلك المعجزات .

والخلاصة — إنه مامنعنا من إرسال الآية التى سألوها إلا تكذيب الأولين بمثلها، فإن أرسلناها وكذب بها هؤلاء عوجلوا ولم يُمْهَلُوا كما هو سنة الله فى عباده .

روى أحمد عن ابن عباس قال : « سأل أهل مكة النبى صلى الله عليه وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبا ، وأن ينَحّى الجبال عنهم فيزرعوا ، فقيل له إن شئت أن نستأنى بهم ، وإن شئت أن يأتيهم الذى سألوا ، فإن كفروا هلكوا كما أُهْلِكت من قبلهم من الأمم ، قال بل نستأنى بهم وأنزل الله (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) الآية » .

وأخرج البيهقى فى الدلائل عن الربيع بن أنس قال : قال الناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم «لو جئتنا بآية كما جاء بها صالح والنبيون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن شئتم دعوت الله فأنزلها عليكم ، فإن عصيتم هلكتم فقالوا لانريدها » .

ثم بين أن الآيات التى التمسوها هى مثل آية ثمود وقد أُوتُوها واضحة بينة فكفروا بها فاستحقوا العذاب ، فكيف يتمنى مثلها هؤلاء على سبيل الاقتراح كما قال :

(وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها) أى وقد سألت ثمود من قبل قومك الآيات فآتيناها ماسألت ، وجعلنا لها الناقة حجة واضحة دالة على وحدانية من خلقها وصدق رسوله الذى أجيب دعاؤه فيها ، فكفروا بها ومنعوها شِربْها وقتلوها ، فأبادهم الله ، وانتقم منهم ، وأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

(وما نرسل بالآيات إلا تخويفا) أى إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات ، لعلهم يعتبرون ويذّكّرون فيرجعوا .

ذكر المؤرخون أن الكوفة رُجفت (زلزلت) فى عهد ابن مسعود فقال : أيها الناس، إن ربكم يَسْتعتبكم فأَعْتِبُوه ، وروى أن المدينة زلزلت فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه مرات فقال عمر : أحدثتم والله ، لئن عادت لأفعلنّ ولأفعلنّ ، وفى الحديث الصحيح « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، وإنهما لاينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكن الله يخوف بهما عباده ، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكره ودعائه واستغفاره - ثم قال : ياأمة محمد ، والله ماأحد أغير من الله أن يزنى عبده أو تزنى أمته ، ياأمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » .

ثم قال سبحانه محرّضا رسوله على إبلاغ رسالته ، ومخبرا له بأنه قد عصمه من الناس.

(وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس) أى واذكر إذ أوحينا إليك أن ربك هو القادر على عباده ، وهم فى قبضته ، وتحت قهره وغلبته ، فلا يقدرون على أمر إلا بقضائه وقدره ، وقد عصمك من أعدائك ، فلا يقدرون على إيصال الأذى إليك كما قال :« وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » .

وخلاصة ذلك — إن الله ناصرك ومؤيدك حتى تُبَلِّغ رسالته ، وتظهر دينه . قال الحسن : حال بينهم وبين أن يقتلوه ، ويؤيد هذا قوله تعالى : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » .

(وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلافتنة للناس) أى وماجعلنا الرؤيا التى أريتها ليلة الإسراء إلا امتحانا واختبارا للناس ، فأنكرها قوم وكذبوا بها ، وكفر كثير ممن كان قد آمن به ، وازداد المخلصون إيمانا .

روى البخارى فى التفسير عن ابن عباس إنها رؤيا عين أُريها رسول الله صلى الله الله عليه وسلم ليله الإسراء ، وهو قول سعيد بن جبير ومسروق وقتادة ، والعرب تقول رأيته بعينى رؤية ورؤيا .

(والشجرة الملعونة فى القرآن) أى وما جعلنا الشجرة الملعونة فى القرآن إلا فتنة للناس ، فإنهم حين سمعوا : « إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الأَثِيمِ » اختلفوا، فقوم ازدادوا

إيمانا ، وقوم ازدادوا كفرا كأبى جهل إذ قال : إن ابن أبى كبشة (يعنى النبى صلى الله الله عليه وسلم) توعدكم بنار تحرق الحجارة ، ثم يزعم أنها تنبت شجرة وتعلمون أن النار تحرق الشجر ، وقال عبد الله بن الزِّبَعْرَى : إن محمدا يخوّفنا بالزقوم ، وما الزقوم إلا التمر والزبْدُ ، فتزقموا منه ، وجعل يأكل من هذا بهذا .

وقد فات هؤلاء أن فى الدنيا أشياء كثيرة لاتحرقها النار ، فهناك نوع من الحرير يسمى بالحرير الصخرى لاتؤثر فيه النار، بل هو يزداد إذا لامسها نظافة ، ومن ثم يلبسه رجال المطافئ فى الدول المتمدينة .

وكم فى الأرض من عجائب ، وكم فى العوالم الأخرى من مثلها ، فالأرض مملوءة نارا ، وما خلص من النار إلا قشرتها التى نعيش عليها ، وما من شجر أو حجر إلا وفيه نار ، والماء نفسه مادة نارية فنحو $\frac{8}{9}$ منه اكسوجين وهو مادة تشتعل سريعا ، والتسع أدروجين ، فأرضنا نار ، وماؤنا نار ، وأشجارنا وأحجارنا مليئة بالنار ، وهذا العالم الذى نسكنه تتخلله النار .

والخلاصة — إن هؤلاء المشركين فُتِنوا بالرؤيا ، وفتنوا بالشجرة .

وقد وصفت هذه الشجرة بكونها ملعونة ولا ذنب لها ، للعن الكفار الذين يأكلونها ، توسعا فى الاستعمال وهو كثير فى كلام العرب .

(ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا) أى ونخوفهم بمخاوف الدنيا والآخرة ، فما يزيدهم التخويف إلا تماديا فى الطغيان والضلال ، فلو أننا أنزلنا عليهم الآيات التى اقترحوها، لم يزدادوا بها إلا تمردا وعنادا واستكبارا فى الأرض وفعل بهم ما فعل بأمثالهم من الأمم الغابرة من عذاب الاستئصال ، لكن قد سبقت كلمتنا بتأخير العذاب عنهم إلى حلول الطامة الكبرى .

والكلام مسوق لتسليته صلى الله عليه وسلم على ماعسى أن يعتريه من عدم الإجابة إلى إنزال الآيات المقترحة لمخالفتها للحكمة ، من الحزن لطعن الكفار ، إذ ربما يقولون لو كنت رسولا حقا لأتيت بمثل هذه المعجزات التى أتى بها من قبلك من الأنبياء .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ، قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥).

تفسير المفردات

أرأيتك : أى أخبرنى ، هذا الذى كرّمت على : أى أهذا الذى كرمته علىّ قاله احتقارا واستصغارا لشأنه ، لأحتنكنّ ، من قولهم حنك الدابة واحتنكها : إذا جعل فى حنكها الأسفل حبلا يقودها به ، كأنه يملكهم كما يملك الفارس فرسه بلجامه ، اذهب : أى امض لشأنك فقد خلّيتك وما سوّلت لك نفسك . وموفورا : أى مُكملا لا يدّخر منه شيء من قولهم فِرْ لصاحبك عرضه فِرَة : أى أكمله له قال :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه يَفِرْه ومن لا يتّقِ الشتم يُشْتَمِ

ويقال أفزّه الخوف واستفزه : أى أزعجه واستخفه ، بصوتك : أى بدعائك إلى معصية الله ، وأجلب عليهم : أى صح عليهم من الجَلَبة وهى الصياح ، ويقال أجلَبَ على العدو إجلابا إذا جمع عليه الخيول (والخيل هنا الفرسان) كما جاء فى قوله صلى الله عليه وسلم فى بعض غزواته لأصحابه « ياخيل الله اركبى » والرَّجْل : واحده راجل كركب وراكب ، والغرور : تزيين الباطل بما يظن أنه حق ، والوكيل : الحافظ والرقيب

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان فى محنة من قومه إذ كذبوه وتوعدوه حين حدثهم بالإسراء وشجرة الزقوم ، وأنهم نازعوه وعاندوه واقترحوا عليه الآيات حسدا على ما آتاه الله من النبوة ، وكبرا عن أن ينقادوا إلى الحق - بيّن أن هذا ليس ببدع من قومك ، فقد لاقى كثير من الأنبياء من أهل زمانهم مثل مالاقيت ؛ ألا ترى أن آدم عليه السلام كان فى محنة شديدة من إبليس ، وأن الكبر والحسد هما اللذان حملاه على الخروج من الإيمان والدخول فى الكفر ؛ والحسدُ بليّةٌ قديمة ، ومحنة عظيمة للخلق .

الايضاح

ذكر سبحانه قصص آدم فى سبع سور : البقرة . الأعراف . الحجر . الإسراء . الكهف ، طه . ص . وقد تقدم الكلام فيها فيما سلف من تلك السور ؛ وها نحن أولاء نفسرها فى هذه السورة .

(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا ؟) أى واذكر أيها الرسول لقومك عداوة إبليس لآدم وذريته ، وأنها عداوة قديمة منذ خُلِق آدم ، فإنه تعالى أمر الملائكة بالسجود فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى أن يسجد له افتخارا عليه واحتقارا له ، وقال أأسجد لمن خلقته من الطين ، وأنا مخلوق من النار كما جاء فى الآية الأخرى : « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » فكفر بنسبة ربه إلى الجَوْر بتخيله أنه أفضل من آدم من قِبَل أن الفروع ترجع إلى الأصول ، وأن النار التى هى أصله أكرم من الطين الذى هو أصل آدم ، وقد فاته أن الطين أنفع من النار ؛ ولئن سُلِم غير هذا فالأجسام كلها من جنس واحد ، والله هو الذى أوجدها من العدم ، ويُفَضِّل بعضها على بعض بما يحدث فيها من الأعراض .

وقال أيضا لربه جرأة وكفرا ، والرب يحلُم ويُنْظِر :

(أرأيتك هذا الذى كرمت علىّ ؟) أى أخبرنى أهذا الذى كرّمته علىّ ؟ وهل يوجد ما يدعو إلى تفضيله علىّ ، وهذا كلام قاله على وجه التعجب والإنكار .

(لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا) أى لئن أنظرتنى لأضلنّ ذريته إلا قليلا منهم ، وهذا القليل هم الذين عناهم الله بقوله : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » .

ولعل إبليس حكم هذا الحكم على ذرية آدم إما بالسماع من الملائكة حين قالوا « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ » أو بالقياس على ما رأى من آدم حين وسوس إليه ، فلم يجد له عزما .

ثم ذكر سبحانه أنه أجابه إلى النَّظِرة ، وأخره إلى يوم الوقت المعلوم .

(قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا) أى قال له سبحانه : امض لشأنك الذى اخترته ، ولما سوّلته لك نفسك ، وقد أخرتك ، وهذا كما تقول لمن يخالفك : افعل ماتريد .

فمن أطاعك من ذرية آدم وضلّ عن الحق ، فإن جزاءك على دعائك إياهم ، وجزاءهم على اتباعهم لك وخلافهم أمرى جزاء موفور ، لاينقص لكم منه شىء ، بما تستحقون من سيء الأعمال ، وما دنستم به أنفسكم من قبيح الأفعال .

ونحو الآية قوله : « فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ . إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ » .

(واستفزز من استطعت منهم بصوتك) أى قال تعالى مهددا له : استخفّ وأزْعِج بدعائك إلى معصية الله ووسوستك من استطعت من ذرية آدم .

(وأجلب عليهم بخيلك ورجلك) أى واجمع عليهم من رُكْبان جندك ومشاتهم من تجلب بالدعاء إلى طاعتك والصرف عن طاعتى ، ومثل هذا الأسلوب يراد به التشمير فى الأمر والجد فيه ، والتسلط على من يُغْويه ، وكأن فارسا مغوارا وقع

على قوم ، فصوت بهم صوتا مزعجا من أماكنهم ، وأجلَبَ عليهم بجند من خيالة ورجالة حتى استأصلهم .

قال مجاهد : ما كان من راكب يقاتل فى معصية الله فهو من خيل إبليس ، وما كان من راجل فى معصية الله فهو من رجّالة إبليس . وقال آخرون : ليس للشيطان خيل ولا رجالة ، وإنما يراد بهما الأتباع والأعوان من غير ملاحظة لكون بعضهم ماشيا وبعضهم راكبا .

(وشاركهم فى الأموال) بحثهم على كسبها من غير السبل المشروعة ، وإنفاقها فى غير الطرق التى أباحها الدين ، ويشمل ذلك الربا والغصب والسرقة وسائر المعاملات الفاسدة .

وقال الحسن : مُرْهم أن يكسبوها من خبيث ، وينفقوها فى حرام .

(والأولاد) بالحث على التوصل إليهم بالأسباب المحرمة وارتكاب ما لا يرضى الله .

وإجمال القول فيه — إن كل مولود ولدته أنثى عُصِى الله فيه ، بإدخاله فى غير الدين الذى ارتضاه ، أو بالزنا بأمه ، أو بوأده ، أو بقتله ، أو غير ذلك فقد شارك إبليس فيه مَنْ وُلد له أو منه .

(وعدهم) بما يستخفهم ويغرّهم من المواعيد الباطلة ، كوعدهم بأن لا جنة ولا نار ، أو بأن الآلهة تشفع لهم ، أو بالكرامة على الله بالأنساب الشريفة ، مع ما ثبت من قوله صلى الله عليه وسلم « يافاطمة بنت محمد سلينى من مالى ما شئت لا أغنى عنك من الله شيئا » أو بالتسويف فى التوبة ، أو بإيثار العاجل على الآجل أو نحو ذلك .

وخلاصة ذلك — إنه يغويهم بأن لاضرر من فعل هذه المعاصى ، فإنه لاجنة ولا نار ، ولا حياة بعد هذه الحياة ، وإنها سبيل اللذة والسرور ، ولا حياة للإنسان إلا بها فتفويتها غبن وخسران .

خذوا بنصيب من سرورٍ ولذة فكلٌّ وإن طال المدى يتصرَّمُ

وينفرّهم من الطاعة بأن لافائدة فيها ، إذ لارجعة بعد هذه الحياة ، فهى عبث محض ، فهذه بعض تلبيسات الشيطان وهذه خُدْعة .

(وما يعدهم الشيطان إلا غرورا) لأنه لايغنى عنهم من عقاب الله شيئا إذا نزل بهم ، فمواعيده خُدَعة يزينها لهم ويُلبسُها ثوب الحق ، كما قال إبليس إذ حصحص الحق يوم يقضى ربك بالحق : « إنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الحقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُمْ » .

(إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) أى إن عبادى الذين أطاعونى فاتبعوا أمرى وعصوك ، ليس لك عليهم تسلط ، فلا تقدر أن تغويهم وتحملهم على ذنب لايُغْفَر ، فإنى قد وفقتهم بالتوكل علىّ ، فكفيتهم أمرك .

(وكفى بربك وكيلا) فهم يتوكلون عليه ، ويستمدون منه العون فى الخلاص من إغوائك ووسوستك .

وفى الآية إيماء إلى أن الإنسان لايمكنه أن يحترز بنفسه من مواقع الضلال ، وإنما المعصوم من عصمه الله .

رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ ، فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (٦٧) أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ثُمَّ لَاتَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلا (٦٨) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَاتَجِدُوا

لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً (٦٩) وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠) .

تفسير المفردات

يزجى : أى يسوق حينا بعد حين ؛ والمراد أنه يجريه ، وفضله : هو رزقه ، والمراد بالضر : خوف الغرق بتقاذف الأمواج ، وضل : غاب عن ذكركم ، والخسف والخسوف : دخول الشيء فى الشيء ؛ يقال عين خاسفة إذا غابت حدقتها فى الرأس ، وعين من الماء خاسفة : أى غائرة الماء وخُسِفت الشمس : أى احتجبت ، وكأنها غارت فى السحاب ، والحاصب : الريح التى ترمى بالحصباء والحجارة ، والقاصف : الريح تقصف الشجر وتكسره ، والتبيع : النصير والمعين ، وحملته على فرس : أى أعطيته إياها ليركبها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى الآية السالفة أنه هو الحافظ الكالىء للعبد المؤمن من غواية إبليس ، وأنه لا يستطيع أن يمسه بسوء — قفى على ذلك بذكر بعض نعمه تعالى على الإنسان التى كان يجب عليه أن يقابلها بالشكران لا بالكفران ، وهو الذى يرى دلائل قدرته فى البر والبحر ، فهو الذى يزجى له الفلك فى البحر لتنقل له أرزاقه وأقواته من بعيد المسافات ، لكنه مع هذا هو كفور للنعمة إذا مسه الضر دعا ربه ، وإذا أمن أعرض عنه وعبد الأصنام والأوثان ، فهل يأمن أن يخسف به الأرض ، أو يرسل عليه حاصبا من الريح فى البر ، أو قاصفا من الريح فى البحر فيغرقه بكفره ، وهل نسى أنه فضّله على جميع الخلق ، وبسط له الرزق ، أفلا يفرده بالعبادة ويُخبِت له كفاء تلك النعم المتظاهرة عليه ؟

الايضاح

(ربكم الذى يزجى لكم الفلك فى البحر لتبتغوا من فضله إنه كان بكم رحيما) أى إن ربكم أيها القوم هو القادر الحكيم الذى يجرى لكم لنفعكم السفن فى البحر بالريح اللينة أو بالآلات البخارية أوالكهربائية، لتسهيل نقل أقواتكم وحاجكم من إقليم إلى آخر من أقصى المعمورة إلى أدناها ، والعكس بالعكس ، ونقل أشخاصكم من قطر إلى قطر ابتغاء للرزق أو للسياحة ورؤية مظاهر الكون على اختلاف الأصقاع مما يرشد إلى باهر القدرة ، ووافر النعمة عليكم ، إنه كان بكم رحيما ، إذ سهل مافيه الفوائد المرجوة لكم فى هذه الحياة .

ثم خاطب الكفار بقوله :

(وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه) أى وإذا نالتكم شدة جهد فى البحر ذهب عن خواطركم كل من تدعونه وترجون نفعه ، من صنم أو جن أو ملك أو بشر أو حجر ، فلا تذكرون إلا الله ، ولا يخطر على بالكم سواه لكشف ما حل بكم .

وخلاصة ذلك — إنكم إذا مسكم الضر دعوتم الله منيبين إليه مخلصين له الدين .

(فلما نجاكم إلى البر أعرضتم) أى ومن عجيب أمركم أنكم حين دعوتموه وأغاثكم وأجاب دعاءكم ونجاكم من هول ما كنتم فيه فى البحر أعرضتم عن الإخلاص ورجعتم إلى الإشراك به كفرا منكم بنعمته .

ثم علل هذا الإعراض بقوله :

(وكان الإنسان كفورا) أى وكانت سجية الإنسان وطبيعته أن ينسى النعم ويجحدها إلا من عصم الله .

وخلاصة ما سلف — إنكم حين الشدائد تجأرون طالبين رحمته ، وحين الرخاء تعرضون عنه .

ثم حذر من كفران نعمته فقال :

(أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصبا ثم لا تجدوا لكم وكيلا ؟) أى أفحسبتم أنكم بخروجكم إلى البر أمنتم من انتقام الله وعذابه ، فهو إن شاء خسف بكم جانب البر وغيّبه فى أعماق الأرض وأنتم عليها ، وإن شاء أمطر عليكم حجارة من السماء تقتلكم كما فعل بقوم لوط ، ثم لاتجدون من تكِلُون إليه أموركم ، فيحفظكم من ذلك ، أو يصرفه عنكم غيره ، جل وعلا .

وخلاصة ذلك — إن لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف أصابكم من فوقكم بريح يرسلها عليكم ، فيها الحصباء يرجمكم بها ، فيكون أشد عليكم من الغرق فى البحر .

(أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم ثم لاتجدوا لكم علينا به تبيعا) أى أم أمنتم أيها المعرضون عنا بعد ما اعترفتم بتوحيدنا فى البحر حتى خرجتم إلى البر — أن يعيدكم فيه مرة أخرى فيرسل عليكم ريحا تقْصِف السوارى ، وتُغْرِق المراكب بسبب كفركم و إعراضكم عن الله ، ثم لاتجدوا لكم نصيرا يعينكم ويأخذ بثأركم .

قال قتادة: فى تفسيرها أى لانخاف أحدا يتبعنا بشىء مما فعلنا . يريد : إنكم لاتجدون ثائرا يطلبنا بما فعلنا ، انتصارا منا ، أو دَرَكا للثأر من جهتنا .

وفى معنى الآية قوله : « فَسَوَّاهَا وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا » .

وفى الآية وعيد أيما وعيد فكأنه قيل : ننتقم منكم من غير أن يكون لكم نصير يدفع عنكم شديد بأسنا .

(ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) أى ولقد كرمنا بنى آدم بحسن الصورة واعتدال القامة والعقل ، فاهتدى إلى الصناعات ومعرفة اللغات ، وحسن التفكير فى وسائل المعاش ، والتسلط على ما فى الأرض ، وتسخير مافى العالم العلوى والسفلى ، وحملناهم على الدواب والقُطُر والطائرات والمطاود (واحدها منطاد) والسفن ، ورزقناهم من الأغذية النباتية والحيوانية ، وفضلناهم على كثير من الخلق بالغلبة والشرف والكرامة ، فعليهم

ألا يشركوا بربهم شيئا ، ويرفضوا ماهم عليه من عبادة غيره من الأصنام والأوثان .

والمراد بالكثير من عدا الملائكة عليهم السلام .

والخلاصة — إن فى الآية حثا للإنسان على الشكر ، وألا يشرك بربه أحدا ، لأنه سخّر له مافى البر والبحر ، وكلأه بحسن رعايته ، وهداه إلى صنعة الفلك لتجرى فى البحر ، ورزقه من الطيبات ، وفضله على كثير من المخلوقات .

يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ، فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١) وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢) وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧).

تفسير المفردات

إمامهم : هو كتابهم فهو كقوله « وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ » والفتيل : الخيط المستطيل فى شقّ النواة ، وبه يضرب المثل فى الشىء الحقير التافه ، ومثله النقير والقطمير ، أعمى : أى أعمى البصيرة عن حجة الله وبيناته ، والركون إلى الشىء : الميل إلى ركن منه ، ضعف الحياة : أى عذابا مضاعفا فى الحياة الدنيا ، وضعف الممات : أى

عذابا مضاعفا فى الممات فى القبر و بعد البعث ، ونصيرا : أى معينا يدفع عنك العذاب ، لايلبثون : أى لا يَبْقَوْن ، خلافك : أى بعدك ، سنة من قد أرسلنا : أى سنتنا بك سنة الرسل قبلك ، تحويلا : أى تغييرا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر جل ثناؤه أحوال بنى آدم فى الدنيا ، وذكر أنه أكرمهم على كثير من خلقه ، وفضلهم عليهم تفضيلا ــ فصّل فى هذه الآيات تفاوت أحوالهم فى الآخرة مع شرح أحوال السعداء ، ثم أردفه مايجرى مجري تحذير السعداء من الاغترار بوساوس أرباب الضلال ، والانخداع بكلامهم المشتمل على المكر والتلبيس ، ثم قفى على ذلك ببيان أن سنته قد جرت بأن الأمم التى تلجئ رسلها إلى الخروج من أرضها لا بد أن يصيبها الوبال والنكال .

الإيضاح

(يوم ندعو كل أناس بإمامهم) أي اذكر لهم ذلك اليوم ، يوم ندعو كل أناس بكتابهم الذى فيه أعمالهم التى قدّموها ، ولا ذكر للأنساب حينئذ لأنها مقطوعة ، فلا يقال يابن فلان ، و إنما يقال ياصاحب كذا كما قال تعالى « فَلاَ أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءلُونَ » .

والخلاصة : إن المعوّل عليه يومئذ الأعمال والأخلاق ، والآراء والعقائد النفسية التى تغرس فى النفوس لاالأنساب ، لأن الأولى باقية والثانية فانية .

(فمن أوتى كتابه بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم) أى فمن أعطى كتاب عمله بيمينه فأولئك يقرءون كتابهم مبتهجين فرحين بما فيه من العمل الصالح .

ونحو الآية قوله « فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءوا كِتَابِيَهْ » .

(ولا يظلمون فتيلا) أى ولا ينقصون شيئا من أجور أعمالهم ، وقد ثبت

فى علم الكيمياء أن وزن الذرات التى تدخل فى كل جسم بنسب معينة ، فلو أن ذرة واحدة فى عنصر من العناصر الداخلة فى تركيب أى جسم من النبات أو الحيوان أو الجماد نقصت عن النسبة المقدرة لتكوينه لم يتكون ذلك المخلوق .

وخالق الدنيا هو خالق الآخرة ، فالظلم مستحيل هناك كما استحال هنا فى نظم الطبيعة ، فما أجلّ قدرة الله وما أعظم حكمته فى خلقه ! .

(ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا) أى ومن كان فى دار الدنيا أعمى القلب لا يبصر سبل الرشد ، ولا يتأمل حجج الله وبيناته التى وضعها فى صحيفة الكون وأمر بالتأمل فيها — فهو فى الآخرة أعمى لا يرى طريق النجاة ، وأضل سبيلا منه فى الدنيا ، لأن الروح الباقى بعد الموت هو الروح الذى كان فى هذه الحياة الدنيا ، وقد خرج من الجسم وكأنه ولد منه كما تلد المرأة الصبى ، وكما يثمر النخل الثمر ، والأشجار الفواكه ، وما الثمر والفواكه إلا ما كان من طباع الشجرة ، فهكذا الروح الباقى هو هذا الروح نفسه قد خرج بجميع صفاته وأخلاقه وأعماله ، فهو ينظر إلى نفسه وينفِر أو ينشرح بحسب ما يرى ، وما الثمر إلا بحسب الشجر ، فإذا كان هنا ساهيا لاهيا فهناك يكون أكثر سهوا ولهوا وأبعد مدى فى الضلال ، لأن آلات العلم والعمل قد عُطِّلت ، وبقى فيه مناقبه ومثالبه ، ولا قدرة على الزيادة فى الأولى ولا النقص فى الثانية .

وبعد أن ذكر سبحانه درجات الخلق فى الآخرة وشرح أحوال السعداء ، أردفه بتحذيرهم من وساوس أرباب الضلال والخديعة بمكرهم فقال :

(وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره) أى وإن المشركين قاربوا بخداعهم أن يوقعوك فى الفتنة بصرفك عما أوحيناه إليك من الأحكام، لتتقوّل علينا غير الذى أوحيناه إليك مما اقتُرِح عليك .

أخرج ابن إسحٰق وابن مردويه وغيرهما عن ابن عباس « أن أمية بن خلف وأبا جهل ورجالا من قريش أتَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا تعال فتمسَّح بآلهتنا ، وندخل

معك فى دينك ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتد عليه فراق قومه ، ويحب إسلامهم ، فرقّ لهم ، فأنزل الله هذه الآية إلى قوله نصيرا .

وعن سعيد بن جبير قال : «كان النبى صلى الله عليه وسلم يستلم الحجر الأسود فى طوافه ، فمنعته قريش وقالوا : لا ندعك تستلم حتى تلمّ بآلهتنا . فحدَّث نفسه وقال : ما علىّ أن ألِمّ بها بعد أن يَدَعونى أستلم الحجر والله يعلم إنى لها كاره ، فأبى الله ذلك ، وأنزل عليه هذه الاية » .

(وإذا لاتخذوك خليلا) أى ولو اتبعت ما يريدون لاتخذوك خليلا ووليّا لهم ، وخرجت من ولايتى .

(ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا) أى ولولا تثبيتنا إياك ، وعصمتك عما دعَوْك إليه لقاربت أن تميل إلى ما يرومون .

وخلاصة ذلك — إنك كنت على أُهْبَة الركون إليهم ، لا لضعف منك ، بل لشدة مبالغتهم فى التحيل والخداع ، ولكن عنايتنا بك منعتك أن تقرب من الركون ، فضلا عن أن تركن إليهم .

وفى هذا تصريح بأنه صلى الله عليه وسلم لم يهُمَّ بإجابتهم ولم يقرب من ذلك .

ثم توعده على ذلك أشد الوعيد فقال :

(إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات) أى ولو فعلت ذلك لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات : أى ضاعفنا لك العذاب فى الدنيا والآخرة ، فهو صلى الله عليه وسلم لو ركن إليهم يكون عذابه ضعف عذاب غيره ، لأن الذنب من العظيم يكون عقابه أعظم ، ومن ثم يعاقب العلماء على زلاتهم أشد من عقاب العامة لأنهم يتبعونهم .

ونظير ذلك من وجهٍ ما جاء فى نسائه صلى الله عليه وسلم من قوله « يا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ » .

وخلاصة ذلك — إنك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك ، وعقدت على

الركون همك ، لاستحققت تضعيف العذاب عليك فى الدنيا والآخرة ، ولصار عذابك مثلى عذاب المشرك فى الدنيا ومثلى عذابه فى الآخرة .

وقد ذكروا في حكمة هذا ـ أن الخطير إذا ارتكب جرما وخطا خطيئة يكون سببا فى ارتكاب غيره مثله والاحتجاج به ، فكأنه سن ذلك ، وقد جاء فى الأثر ـ « من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

(ثم لاتجد لك علينا نصيرا) أى ثم لاتجد من يدفع العذاب أو يرفعه عنك .

روى عن قتادة أنه قال : « لما نزل قوله : و إن كادوا ليفتنونك الخ قال صلى الله عليه وسلم : اللهم لاتكلنى إلى نفسى طرفة عين » فينبغى للمؤمن أن يتدبّرها حين تلاوتها ، و يستشعر الخشية ، و يستمسك بأهداب دينه ، ويقول كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « اللهم لاتكلنى إلى نفسى طرفة عين » .

(و إن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها) أى ولقد كاد أهل مكة يزعجونك و يستخفونك بعداوتهم ومكرهم من الأرض التى أنت فيها ليخرجوك منها، بما فعلوه من حصرك والتضييق عليك وقد وقع ذلك بعد نزول الآية وصار ذلك سببا لخروجه صلى الله عليه وسلم .

(و إذا لايلبثون خلافك إلا قليلا) أى ولو استفزوك فخرجت لايبقون بعدك إلا زمانا قليلا .

وفى هذا وعيد لهم بإهلاكهم بعد خروجه بقليل ، وقد تحقق ذلك بإفناء صناديد قريش فى وقعة بدر لثمانية عشر شهرا من ذلك التاريخ .

(سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا) أى هكذا عادتنا فى الذين كفروا برسلنا وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرم أن يأتيهم العذاب ، ولولا أنه صلى الله عليه وسلم رسول الرحمة لجاءهم من النقم مالا قبل لهم به ، ومن ثم قال تعالى : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » الآية .

(ولا تجد لسنتنا تحويلا) أى إن ما أجرى الله به العادة لايتسنى لأحد سواه أن يغيّره ولا أن يحوّله .

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (٧٩) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١) وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَاهُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً (٨٤)

تفسير المفردات

دلوك الشمس : زوالها عن دائرة نصف النهار ، والغسق : شدة الظلمة ، وقرآن الفجر : أى صلاة الصبح ،كان مشهودا : أى تشهده شواهد القدرة ، و بدائع الحكمة ، و بهجة العالم العلوى والسفلى ؛ فمن ظلام حالك ، أزاله ضوء ساطع ، ونور باهر ، ومن نوم وخمود ، إلى يقظة وحركة ، وسعى إلى الأرزاق ، فسبحان الواحد الخلاق ، وهل هناك منظر أجمل فى نظر الرأى من ظهور ذلك النور ينفلت من خلال الظلام الدامس يدفعه بقوة ، ليضىء العالم بجماله ، ويقظة النوّام وحركتهم على ظهر البسيطة ، وقد كانوا فى سكون ، فهى حياة متجددة بعد موت وغيبوبة للحواس ، والتهجد :

الاستيقاظ من النوم للصلاة ، نافلة : أى فريضة زائدة على الصلوات الخمس المفروضة عليك ، والمقام المحمود : مقام الشفاعة العظمى حين فصل القضاء، حيث لا أحد إلا وهو تحت لوائه صلى الله عليه وسلم ، والسلطان : الحجة البينة ، والنصير : الناصر والمعين ، زهق : أى زال واضمحل ، نأى بجانبه : أى لوى عِطْفَه عن الطاعة وولاها ظهره ، وشاكلته : أى مذهبه وطريقته التى تشاكل حاله فى الهدى والضلال ، ويئوسا : أى شديد اليأس والقنوط من رحمة الله ، وأهدى سبيلا : أى أسدّ طريقا ، وأقوم منهجا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر كيد الكفار واستفزازهم لرسوله صلى الله عليه وسلم ليخرجوه من أرضه ، وسلاّه بما سلاّه به ـ أمره بالإقبال على ربه بعبادته لينصره عليهم ، ولا يبالى بسعيهم ولا يلتفت إليهم ، فإنه سبحانه يدفع مكرهم وشرهم ويجعل يده فوق أيديهم ، ودينه عاليا على أديانهم ، ثم وعده بما يغبطه عليه الخلق أجمعون من المقام المحمود ، ثم بين أن ما أنزل عليه من كتاب ربه ، فيه الشفاء للقلوب من الأدواء النفسية ، والأمراض الاعتقادية ، كما أنه يزيد الكافرين خسارة وضلالا ، لأنه كلما نزلت عليه آية ازدادوا بها كفرا وعتوّا .

الإيضاح

(أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل) أى أدّ الصلاة المفروضة عليك بعد دلوك الشمس وزوالها إلى ظلمة الليل ، ويشمل ذلك الصلوات الأربعة الظهر والعصر والمغرب والعشاء .

(وقرآن الفجر) أى صلاة الصبح ، وقد بينت السنة المتواترة من أقواله وأفعاله صلى الله عليه وسلم تفاصيل هذه الأوقات على ما عليه أهل الإسلام اليوم مما تلَقَّوه عنه خلفا عن سلف قرنا بعد قرن .

وقد تقدم فى سورة البقرة أن المراد بإقامة الصلاة أداؤها على الوجه الذى سنه الدين ، والنّهج الذى شرطه ، من توجيه القلب إلى مناجاة الرب ، والخشية منه فى السر والعلن ، مع اشتمالها على الشرائط والأركان التى أوضحها الأئمة المجتهدون ؛ والصلاة لُبّ العبادة ، لما فيها من مناجات الخالق ، والإعراض عن كل ماسواه ، ودعائه وحده، وهذا هومُخّ كل عبادة، وفى الحديث «اعبدالله كأنك تراه،فإنلم تكن تراه فإنه يراك» .

(إن قرآن الفجر كان مشهودا) أى ففى الفجر تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار وتشهده جميعا ، ثم يصعد أولئك ويقيم هؤلاء ، روى أبو هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الصبح ، وفى صلاة العصر فيعرُج الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ربهم وهو أعلم بكم ، كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلّون وتركناهم وهم يصلون » وروى الترمذى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله :« (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا) قال تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار » وقد يكون المراد كما قال الرازى ـ إن الإنسان يشهد فيه آثار القدرة و بدائع الحكمة ، فى السموات والأرض، فهناك الظلام الحالك الذى يزيله النور الساطع ، وهناك يقظة النوم بعد الخمود و الغيبوبة عن الحس إلى نحو ذلك من مظاهر القدرة فى الملك والملكوت ، فكل العالم يقول بلسان حاله أو مقاله « سبُّوح قدُّوس ، رب الملائكة والروح » .

(ومن الليل فتهجد به) أى واسهر بعض الليل وتهجد به ، وهو أول أمر له صلى الله عليه وسلم بقيام الليل زيادة على الصلوات المفروضة . روى مسلم عن أبى هريرة « أن النبى صلى الله عليه وسلم سئل : أىُّ الصلاة أفضل بعد المكتوبة ؟ قال صلاة الصبح » وقد ثبت فى صحيح الأحاديث عن عائشة وابن عباس وغيرهما من الصحابة رضوان الله عليهم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يتهجد بعد نومه .

(نافلة لك) أى إنها مخصوصة بك وحدك دون الأمة ، فهى فريضة عليك ومندوبة فى حق أمتك .

(عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) أى افعل هذا الذى أمرتك ، لنقيمك يوم القيامة مقاما يحمدك فيه كل الخلائق وخالقهم تبارك وتعالى .

قال ابن جرير : قال أكثر أهل العلم : ذلك هو المقام الذى يقومه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة للشفاعة للناس ، ليريحهم ربهم من عظيم ماهم فيه من شدة فى ذلك اليوم .

أخرج النسائى والحاكم وجماعة عن حذيفة رضى الله عنه قال : « يجمع الله الناس فى صعيد واحد ، يسمعهم الداعى وينفذهم البصر ، حفاة عراة كما خلقوا ، قياما لاتكلم نفس إلا بإذنه ، فينادى يامحمد ، فيقول (لبيك وسعديك ، والخير فى يديك ، والشر ليس إليك ، والمهدى من هديت وعبدك بين يديك ، وبك وإليك ، لاملجأ ولامنجى منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت ، سبحانك رب البيت) فهذا هو المقام المحمود الذى ذكره الله » اه .

وروى البخارى عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من قال حين يسمع النداء : اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمدا الوسيلة والفضيلة ، وابعثه المقام المحمود الذى وعدته ، حلت له شفاعتى » .

وروى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدى لواء الحمد ولا فخر ، ومامن نبى يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائى » الحديث .

وسر هذا — أن الهداة فى الأرض ، وهم الأنبياء ومن سلك نهجهم من الأئمة والعلماء ، لاتشرق قلوبهم إلا بتوجههم إلى الله فى أوقات الصلوات ، فإذا قاموا للخلق داعين أشرقت مرايا نفوسهم الصافية على من يدعونهم من العباد ، فتضىء نفوسهم ، فيستجيبون لدعوتهم ، ويكون لهم المقام المحمود بينهم ، والثناء العظيم الذى هم له أهل ، إلى أنهم يحسون فى أنفسهم سرورا ولذة ، وبهجة ورضا ، فيحمدون مقامهم كما حمدهم الناس من حولهم ، والله والملائكة من فوقهم .

لاجرم أن هذا المقام المحمود بالرشد والإرشاد يتبعه مقام الشفاعة ، إذ لاشفاعة فى الآخرة إلا على مقدار ماأوتى المشفوع له فى الدنيا من علم وخُلُق ، ولله فى الشفاعة مايشاء من غفران و إعلاء درجات .

(وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق) أى وقل داعيا : رب أدخلنى فى كل مقام تريد إدخالى فيه فى الدنيا وفى الآخرة مدخلا صادقا أى يستحق الداخل فيه أن يقال له أنت صادق فى قولك وفعلك ، وأخرجنى من كل ماتخرجنى منه مخرج صدق أى يستحق الخارج منه أن يقال له أنت صادق .

وخلاصة ذلك — أدخلنى إدخالا مرضيا كإدخالى للمدينة مهاجرا ، و إدخالى مكة فاتحا ، و إدخالى فى القبر حين الموت ، وأخرجنى إخراجا محفوظا بالكرامة والرضا ، كإخراجى من مكة مهاجرا ، و إخراجى من القبر للبعث .

ثم سأل الله القوة بالحجة والتسلط على الأعداء فقال :

(واجعل لى من لدنك سلطانا نصيرا) أى واجعل لى تسلطا بالحجة والملك ، فأقنعَ المستمعين للدعوة بالحجة ، ويكونَ للإسلام الغلبة بالاستيلاء على أهل الكفر .

وقد أجاب الله دعاءه ، وأعلمه أنه يعصمه من الناس كما قال : « وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » وقال : « فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ » وقال : « لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ » .

ثم أمره أن يُخبر بالإجابة بقوله :

(وقل جاء الحق وزهق الباطل) أى وقل للمشركين مهددا لهم : إنه قد جاءهم الحق الذى لامرية فيه ، ولا قِبَل لهم به . وهو مابعثه الله به من القرآن والإيمان والعلم النافع ، واضمحل باطلهم وهلك ، إذ لاثبات له مع الحق كما قال : « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ » .

(إن الباطل كان زهوقا) أى مضمحلا لاثبات له فى كل آن .

أخرج البخارى ومسلم عن عبد الله بن مسعود قال : «دخل النبى صلى الله عليه وسلم

مكة يوم الفتح وكان حول البيت ثلاثمائة وستون صنما ، فجعل يطعنها بعود فى يده ويقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا ، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد .

وفى رواية للطبرانى والبيهقى عن ابن عباس « أنه صلى الله عليه وسلم جاء ومعه قضيب ، فجعل يَهْوِى به إلى كل صنم منها فيخرّ لوجهه فيقول : جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا — حتى مر عليها كلّها » .

(وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين) أى وننزل عليك أيها الرسول من القرآن مابه يُسْتَشْفَى من الجهل والضلالة ، وتزول أمراض الشدة والنفاق ، والزيغ والإلحاد ، وهو أيضا رحمة للمؤمنين الذين يعملون بما فيه من الفرائض ، ويُحِلّون حلاله ، ويحرّمون حرامه ، فيدخلون الجنة ، وينجون من العذاب ، وفى الخبر « من لم يستشف بالقرآن . فلا شفاه الله » .

(ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) لأنهم كلما سمعوا آية منه ازدادوا بعدا عن الإيمان وازدادوا كفرا بالله ، لأنه قد طُبِع على قلوبهم فهم لايفقهون كما قال : « قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ، وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ » وقال : « وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا ؟ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ » .

قال قتادة فى قوله : (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة) إذا سمعه المؤمن انتفع به وحفظه ووعاه (ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) أى لاينتفعون به ، ولا يحفظونه ، ولايعونه ، فإن الله جعل هذا القرآن شفاء ورحمة للمؤمنين اهـ .

(وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه) أى وإذا أنعمنا على الإنسان بمال وعافية ، وفتح ونصر ونيل ما يريد - أعرض عن طاعتنا وعبادتنا ، ونأى بجانبه ، وهذا كقوله « فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ » وقوله : « فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ » .

(وإذا مسه الشر كان يئوسا) أى وإذا أصابته الجوائح ، وانتابته النوائب ، كان يئوسا قنوطا من حصول الخير بعد ذلك .

ونحو الآية قوله « وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ » وقوله : « فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ . وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ » .

ولما ذكر حالى العمْى والمهتدين ختم القول ببيان أن كلا يسير على مذهبه فقال :

(قل كلٌّ يعمل على شاكلته) أى قل إن كلا من الشاكر والكافر يعمل على طريقته وحاله فى الهدى والضلال ، وما طُبع عليه من الخير والشر .

(فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا) أى فربكم أعلم من كل أحد ، بمن منكم أوضح طريقا واتباعا للحق ، فيؤتيه أجره موفورا ، ومن هو أضل سبيلا فيعاقبه بما يستحق ، لأنه يعلم ما طبع عليه الناس فى أصل الخلقة وما استعدوا له ، وغيره يعلم أمورهم بالتجربة ، وبمعنى الآية قوله « وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ، وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ » ولا يخفى ما فى الآية من تهديد شديد ووعيد للمشركين .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (٨٥) .

تفسير المفردات

فى المراد من الروح فى هذه الآية ثلاثة آراء :

(١) القرآن وهو المناسب لما تقدمه من قوله : « وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَاهُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ » ولما بعده من قوله « وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ » ولأنه سمى به فى مواضع متعددة من القرآن كقوله « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا » وقوله « يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ » ولأن به تحصل حياة الأرواح والعقول، إذ به تحصل معرفة الله وملائكته وكتبه واليوم الآخر ، ولا حياة للأرواح إلا بمثل هذه المعارف .

(٢) جبريل عليه السلام وهو قول الحسن وقتادة ، وقد سمى جبريل فى مواضع عدة من القرآن كقوله « نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ » وقوله « فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا » ويؤيد هذا أنه قال فى هذه الآية « قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى » وقال جبريل « وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلاَّ بِأَمْرِ رَبِّكَ » فهم قد سألوا الرسول كيف جبريل فى نفسه وكيف يقوم بتبليغ الوحى .

(٣) الروح الذى يحيا به بدن الإنسان ــ وهذا قول الجمهور ــ ويكون ذكر الآية بين ما قبلها وما بعدها اعتراضا للدلالة على خسارة الظالمين وضلالهم ، وأنهم مشتغلون عن تدبر الكتاب والانتفاع به إلى التعنت بسؤالهم عما اقتضت الحكمة سد الطريق على معرفته ، ويؤيد هذا ما روى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفر من اليهود ، فقال بعضهم : سلوه عن الروح ، وقال بعضهم لا تسألوه يُسْمِعُكم ما تكرهون ، فقاموا إليه وقالوا يا أبا القاسم حدّثنا عن الروح ، فقام ساعة ينظر، فعرفت أنه يوحى إليه ، ثم قال : ويسألونك عن الروح الآية» .

الإيضاح

(ويسألونك عن الروح) الذى يحيا به البدن ، **أقديم هو أم حادث ؟**

(قل الروح من أمر ربى) الأمر واحد الأمور: أى الروح شأن من شؤونه تعالى ، حدث بتكوينه وإبداعه من غير مادة ، وقد استأثر بعلمه ، لايعلمه إلا هو ، لأنكم لاتعلمون إلا ماتراه حواسكم وتتصرف فيه عقولكم ، ولا تعلمون من المادة إلا بعض أوصافها كالألوان والحركات للبصر ، والأصوات للسمع ، والطعوم للذوق ، والمشمومات للشم ، والحرارة والبرودة للمس ، فلا يتسنى لكم إدراك ما هو غير مادى كالروح .

وللعلماء فى حقيقة الروح أقوال كثيرة أولاها بالاعتبار قولان :

(١) إن الروح جسم نُورَانى حىّ متحرك من العالم العلوى، مخالف بطبعه لهذا الجسم المحسوس ، سارٍ فيه سريان الماء فى الورد ، والدُّهْن فى الزيتون ، والنار فى الفَحْم ، لايقبل التبدل والتفرق والتمزق ، يفيد الجسم المحسوس الحياة وتوابعها ما دام صالحا لقبول الفيض وعدم حدوث ما يمنع السريان ، وإلا حدث الموت ، واختاره الرازى وابن القيم فى كتاب الرُّوح .

(٢) إنه ليس بجسم ولا جسمانى ، متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف ، وإلى هذا ذهب حجة الإسلام الغزالى وأبو القاسم الراغب الأصفهانى .

ثم أكد عدم علم أحد بها بقوله :

(وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) أى وما أوتيتم من العلم إلا علما قليلا تستفيدونه من طرق الحس . فعلومنا ومعارفنا النظرية طريق حصولها الحواس ، ومن ثم قالوا : من فقد حسا فقد علما .

روى أنه لما نزلت الآية قالت اليهود : أوتينا علما كثيرا ، أوتينا التوراة ، ومن أوتى التوراة فقد أوتى خيرا كثيرا ، فنزل قوله « قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا » .

وخلاصة ذلك — إنه ما أطلعكم من علمه إلا على القليل ، والذى تسألون عنه من أمر الروح مما استأثر بعلمه تبارك وتعالى ولم يطلعكم عليه .

وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧) قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩)

تفسير المفردات

وكيلا : أى ملتزما استرداده بعد الذهاب به ، كما يلتزم الوكيل ذلك فيما يتوكل عليه ، وظهيرا : أى معينا فى تحقيق مايتوخَّوْنه من الإتيان بمثله ، وصرفنا : كررنا ورددنا ، والكفور : الجحود .

المعنى الجملى

بعد أن امتن سبحانه على نبيه بما أنزل عليه من الكتاب ، وذكر أنه شفاء للناس ، وأنه ثبّته عليه حين كادوا يفتنونه عنه ، ثم أردفه بمسألة الروح اعتراضا ، لأن اليهود والمشركين اشتغلوا بها عن تدبر الكتاب والانتفاع به ، وسألوا تعنتا عن شىء لم يأذن الله بالعلم به لعباده — امتن عليه ببقاء ذلك الكتاب وحذّره من فتنة الضالين ، و إرجاف المرجفين ، وهو المعصوم من الفتنة ، فإنه لو شاء لأذهب ما بقلبه منه ولكن رحمة بالناس تركه فى الصدور .

وفى هذا تحذير عظيم للهداة والعلماء وهم غير معصومين من الفتنة ، بأن يباعد بينهم و بين هَدْى الدين بمظاهرتهم للرؤساء والعامة ، وتركهم العمل به اتباعا لأهوائهم ، واستبقاء لودهم ، وحفظا لزعامتهم على الناس .

ثم ذكر أن القرآن وحى يوحى فلا يستطيع الجن والإنس أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض معينا ، وقد اشتمل على الحكم والأحكام والآداب التى يحتاج إليها البشر فى معاشهم ومعادهم ، وكثير من الناس جحدوا فضله عتوا وكبرا .

الايضاح

لما ذكر سبحانه أنه ما آتاهم من العلم إلا قليلا ، بين أنه لو شاء أن يأخذ منهم هذا القليل لفعل فقال :

(ولئن شئنا لنذهبن بالذى أوحينا إليك) أى والله لئن شئنا لنمحونّ القرآن من الصدور والمصاحف ولا نترك له أثرا ، وتصيرنّ كما كنت لاتدرى ماالكتاب ولا الإيمان . أخرج سعيد بن منصور والحاكم وصححه والطبرانى والبيهقى فى جماعة آخرين ، عن ابن مسعود قال : « إن هذا القرآن سيرفع ، قيل كيف يرفع وقد أثبته الله فى قلوبنا وأثبتناه فى المصاحف ؟ قال يُسْرَى عليه فى ليلة واحدة فلا تُتْرَكُ منه آية فى قلب ولا مصحف إلا رُفِعَتْ ، فتصبحون وليس فيكم منه شىء ثم قرأ هذه الآية » .

وعنه أنه قال : ذهاب القرآن رفعه من صدور قارئيه .

(ثم لاتجد لك به علينا وكيلا) أى ثم لاتجد ناصرا ينصرك ، فيحول بيننا و بين مانريد بك ، ولا قيّما لك يمنعنا من فعل ذلك بك .

(إلا رحمة من ربك) أى ولكن رحمة من ربك تركه ولم يذهب به ، وفى هذا امتنان من الله ببقاء القرآن . قال الرازى إنه تعالى امتن على جميع العلماء بنوعين من المنة ، أحدهما : تسهيل ذلك العلم عليهم . ثانيهما: إبقاء حفظه

(إن فضله كان عليك كبيرا) إذ أرسلك للناس بشيرا ونذيرا ، وأنزل عليك الكتاب ، وأبقاه فى حفظك ومصاحفك ، وفى حفظ أتباعك ومصاحفهم ، وصيّرك سيد ولد آدم ، وختم بك النبيين ، وأعطاك المقام المحمود .

ثم نبه إلى شرف القرآن العظيم وكبير خطره فقال :

(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لايأتون بمثله ولوكان بعضهم لبعض ظهيرا) أى قل لهم متحديا : والله لئن اجتمعت الإنس والجن كلهم واتفقوا على أن يأتوا بمثل ماأنزل على رسوله بلاغة وحسن معنى وتصرفا وأحكاما ونحو ذلك ، لايأتون بمثله وفيهم العرب الفصحاء وأرباب البيان ، ولو تعاونوا وتظاهروا ،

فإن هذا غير ميسور لهم ، فكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الخالق الذى لا نظير له ولا مثيل ؟

ثم ذكر بعض محاسن هذا القرآن فقال :

(ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) أى ولقد رددنا القول فيه بوجوه مختلفة ، وكررنا الآيات والعبر ، والترغيب والترهيب ، والأوامر والنواهى ، وأقاصيص الأولين ، والجنة والنار ، ليدّبروا آياته ، ويتعظوا بها .

(فأبى أكثر الناس إلا كفورا) أى فأبى أكثر الناس إلا الجحود والإنكار ، والثبات على الكفر ، والإعراض عن الحق .

ولما تم الإقناع بالحجة وقُطِعَتْ ألسنتهم وأُفحِموا ولم يجدوا وسيلة للرد ، أرادوا المراوغة باقتراح الآيات وذكروا من ذلك ستة أنواع ذكرها سبحانه بقوله :

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ؟ (٩٤) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٥) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (٩٥) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦) وَمَنْ يَهْدِ

اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (١٠٠)

تفسير المفردات

الينبوع : العين التى لا ينضب ماؤها ، جنة : أي بستان تستر أشجاره ماتحتها من الأرض ، كسفا : واحدها كسفة كقِطَع وقطعة لفظا ومعنى ، وقبيلا : أى مقابلا كالعشير بمعنى المعاشر والمراد رؤيتهم عيانا ، والزخرف : هنا الذهب ، وأصله الزينة ، وأجملها ما كان بالذهب ، ترقى : أى تصعد ، مطمئنين : أى ساكنين مقيمين فيها ، وخبت : أى سكن لهبها ، والسعير : اللهب ، وكفورا أى جحودا للحق ، خشية الإنفاق : أى خوف الفقر ، والقتور : الشديد البخل .

المعنى الجملى

بعد أن أقام سبحانه الدليل على إعجاز القرآن ولزمتهم الحجة وغُلبوا على أمرهم — أخذوا يراوغون ويقترحون الآيات ، ويتعثرون فى أذيال الحيرة ، فطلبوا آية من آيات ست ، فإن جاءهم بآية منها ، آمنوا به ، وصدقوا برسالته .

روى عن ابن عباس « أن أشراف مكة أرسلوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهم جلوس عند الكعبة ، فأتاهم فقالوا يامحمد إن أرض مكة ضيقة ، فسيِّر جبالها لننتفع بأرضها ، وفجرّ لنا فيها نهرا وعيونا نزرع فيها ، فقال لاأقدر عليه ، فقال قائل : أو يكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، فقال لاأقدر عليه ، فقيل أو يكون لك بيت من زخرف (ذهب) فيغنيك عنا ، فقال لا أقدر عليه ، فقيل له أما تستطيع أن تأتى قومك بما يسألونك ؟ فقال لا أستطيع ، قالوا إن كنت لاتستطيع الخير فاستطع الشر ، فأسقط السماء كما زعمت علينا كسفا بالعذاب ، فقال عبد الله بن أمية المخزومى وأمه عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم : لاوالذى يُحلف به ، لاأومن بك حتى تشدّ سلما فتصعد فيه ونحن ننظر إليك ، فتأتى بأربعة من الملائكة يشهدون لك بالرسالة ، ثم بعد ذلك لاأدرى أنؤمن بك أم لا؟ .

فأمره الله بأن يرد عليهم بأن اقتراح الآيات ليس من وظيفة الرسل ، وإنما وظيفتهم البلاغ للناس .

ثم حكى عنهم شبهة أخرى وهى استبعادهم أن يرسل الله بشرا رسولا ، فأجابهم بأن أهل الأرض لو كانوا ملائكة لوجب أن تكون رسلهم من الملائكة ، لأن الجنس أميل إلى جنسه .

ثم سلى رسوله صلى الله عليه وسلم على مايلاقى من قومه ، بأن الهداية والإيمان بيد الله ولاقدرة له على شىء من ذلك ، ومن يضلل الله فلا هادى له ، وسيلقون جزاءهم نار جهنم بما كسبت أيديهم ودسّوا به أنفسهم من الكفر والفجور والمعاصى ، وإنكار البعث والحساب ، وهم يعلمون أن الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يعيدهم مرة أخرى ؛ ثم بين أنه لو أجابهم إلى ماطلبوا من إجراء الأنهار والعيون وتكثير الأموال واتساع المعيشة لما كان هناك من فائدة ، ولما أوصلوا النفع إلى أحد ، فالإنسان بطبعه شحيح كزّ بخيل .

الايضاح

علمت مما سلف أنهم طلبوا منه آية من ست، وها هى ذى :

(١) (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) أى قال رؤساء مكة كعتبة وشيبة ابنى ربيعة وأبى سفيان والنضر بن الحرث قول المبهوت المحجوج المتحير : لن نصدّقك حتى تستنبط لنا عينا من أرضنا تدفُق بالماء أوتفور ، وذلك سهل يسير على الله لو شاء فعله وأجابهم إلى مايطلبون ، ولكن الله علم أنهم لايهتدون كما قال : « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » وقال : « وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا » الآية .

(٢) (أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا) أى أو يكون لك بستان فيه نخيل وعنب تتفجر الأنهار خلاله تفجيرا لسقيه .

(٣) (أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا) تقول العرب : جاءنا بثريد كِسَفٍ أى قطع من الخبز : أى أو تسقط علينا جرْم السماء إسقاطا مماثلا لما زعمت فى قولك : « أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ » .

وخلاصة ذلك — أو تسقط السماء علينا متقطعة قطعا قطعا ، ونحو الآية قوله : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ » وكذلك سأل قوم شعيب منه فقالوا : « فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » .

(٤) (أو تأتى بالله والملائكة قبيلا) أى أو تأتى بالله والملائكة نقابلهم معاينة ومواجهة قاله مجاهد وعطاء ، ونحو الآية قولهم : « لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا » .

(٥) (أو يكون لك بيت من زخرف) أى أو يكون لك بيت من ذهب ، روى ذلك عن ابن عباس وقتادة وغيرهما .

(٦) (أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه) أى أو تصعد فى سلم إلى السماء ونحن ننظر إليك ، ولن نصدقك من أجل رقيك وحده ، بل لابد أن تُنْزِل علينا كتابا نقرؤه بلغتنا على نَهْج كلامنا ، وفيه تصديقك .

(قل سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا) أى قل لهم متعجبا من مقترحاتهم، ومنزّها ربك من أن يقترح عليه أحد أو يشاركه فى القدرة : ماأنا إلا كسائر الرسل ، وليس للرسل أن يأتوا إلا بما يُظهره الله على أيديهم بحسب ماتقتضيه المصلحة ، من غير تفويض إليهم فيه ، ولا تحكم منهم عليه .

وخلاصة ذلك — سبحانه أن يتقدم أحد بين يديه فى أمر من أمور سلطانه وملكوته بل هو الفعال لما يشاء ، إن شاء أجابكم إلى ماسألتم ، وإن شاء لم يجبكم ، وما أنا إلا رسول إليكم أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم ، وقد فعلت ذلك ، وأمركم فيما سألتم إلى الله عز وجل .

ثم أعقب ذلك بشبهة أخرى وهى استبعادهم أن يكون من البشر رسول فقال :

(وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا ؟) أى وما منع مشركى قريش وهم من حكيت أباطيلهم — من الإيمان بك حين مجىء الوحى المقرون بالمعجزات التى تستدعى الإيمان بنبوتك وبما نزل عليك من الكتاب إلا قولهم : أبعث الله بشرا رسولا ، إنكارا منهم أن يكون الرسول من جنس البشر ، واعتقادا منهم بأن الله لو بعث رسولا إلى الخلق لوجب أن يكون من الملائكة .

ونحو الآية قوله : « أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ » وقوله : « ذَٰلِكَ بِأَنَّهُ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا ؟ » الآية . وقال فرعون وملؤه : « أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ؟ » وكذلك قالت الأمم لرسلهم : « إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا » .

فأجابهم الله عن هذه الشبهة ذاكرا وجه الحق منبّها إلى المصلحة بقوله :

(قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) أى لو وجد فى الأرض ملائكة يمشون كما يمشى البشر ، ويقيمون فيها كما يقيمون ، ويسهل الاجتماع بهم ، وتتلقى الشرائع منهم ـ لنزلنا عليهم من السماء رسلا من الملائكة للهداية والإرشاد وتعليم الناس مايجب عليهم تعلّمه ، ولكن طبيعة الملك لاتصلح للاجتماع بالبشر ، فلا يسهل عليهم التخاطب والتفاهم معهم ، لبعد مابين الملك وبينهم ، ومن ثم لم نبعث ملائكة إليهم ، بل بعثنا خواصّ البشر ، لأن الله قد وهبهم نفوسا زكية ، وأيدهم بأرواح قدسية ، وجعل لهم ناحية ملكية ، بها يستطيعون أن يتلقّوا من الملائكة ، وناحية بشرية ، بها يبلغون رسالات ربهم إلى عباده .

وقد نبّه سبحانه إلى عظيم هذه الحكمة ، وجليل تلك النعمة بقوله : « لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ » وقوله : « لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ » وقوله : « كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَالَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ » .

وإجمال القول فى ذلك ـ إنه لو جعل الرسل ملائكة لما استطاع الناس التخاطب معهم ، ولما تمكّنوا من الفهم منهم ، فلزم أن يُجْعلوا بشرا حتى يستطيعوا أداء الرسالة كما قال تعالى جدّه : « وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ » .

وقد ثبت أن جبريل عليه السلام جاء فى صورة دِحْية الكلبى مرارا عدة ، فقد صح أن أعرابيا جاء وعليه وعثاء السفر فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان ، فأجابه عليه السلام بما أجابه ثم انصرف ، ولم يعرفه أحد من الصحابة رضوان الله عليهم فقال عليه السلام : هذا جبريل جاء يعلّمكم دينكم .

ثم أجابهم سبحانه بجواب آخر بقوله :

(قل كفى بالله شهيدا بينى و بينكم) أى قل لهم : إن الله لما أظهر المعجزة وَفْق دعواى كان ذلك شهادة منه على صدق ، ومن شهد له الله فهو صادق ، فادّعاؤكم أن الرسول يجب أن يكون ملَكا تحكمٌ منكم وتعنت .

وخلاصة ذلك — إن الله شاهد علىّ وعليكم ، عالم بما جئتكم به ، فلو كنت كاذبا عليه لانتقم منى أشد الانتقام كما قال سبحانه: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ. لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ » .

ثم ذكر سبحانه ماهو كالتهديد والوعيد بقوله :

(إنه كان بعباده خبيرا بصيرا) أى إنه محيط بأحوال عباده الظاهر منها والباطن، وأعلم بمن يستحق الإحسان والرعاية ، ومن هو أهل للشقاء والضلال .

وفى هذا إيماء إلى أنه مادعاهم إلى إنكار نبوته صلى الله عليه وسلم إلا الحسد وحب الرياسة والتكبر عن قبول الحق ، كما أن فيه تسلية له صلى الله عليه وسلم على مايلقاه من الإصرار والعناد والإمعان فى إيذائه .

ثم أخبر سبحانه بأنه لا معقّب لحكمه ، ولا سلطان لأحد من خلقه فى شىء فقال :

(ومن يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه) أى ومن يهد الله للإيمان به وتصديقك وتصديق ماجئت به من عند ربك ، فهو المهتدى إلى الحق ، المصيب سبيل الرشد ، ومن يضلله لسوء اختياره وتدسيته نفسه ، وركوبه رأسه فى الغَواية والعصيان كهؤلاء المعاندين ، فلن تجد لهم أنصارا ينصرونهم من دونه يهدونهم إلى الحق ، و يمنعون عنهم العذاب الذى يقتضيه ضلالهم .

(ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا و بكما وصمًّا) أى ونجمعهم فى موقف الحساب بعد تفرقهم فى القبور — عميا و بكما وصما كما كانوا فى الدنيا ، لا يستبصرون

ولا ينطقون بالحق ويتصامون عن استماعه ، فهم فى الآخرة لا يبصرون ماتقر به أعينهم ، ولا يسمعون ما يلذّ لمسامعهم ، ولا ينطقون بما يُقْبَل منهم كما قال : « وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً » .

روى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه أنه قال : « قيل يارسول الله ، كيف يمشى الناس على وجوههم ؟ قال : الذى أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم » .

وروى الترمذى : « إن الناس يكونون ثلاثة أصناف فى الحشر : مشاة ، وركبانا ، وعلى وجوههم » .

وإنا نرى فى الدنيا من الحيوان ما هو طائر ، ومنه ماهو ماش ، ومنه ماهو زاحف كالحيات وهوامّ الأرض .

والقسم الأخير من الأقسام الثلاثة فى الحديث أقرب إلى هيئة الزواحف بحيث يبقى الوجه فى الأرض وتحيط به زوائد كالأرجل الصغيرة الحيوانية ، وهو يهيم على وجهه .

والخلاصة — إنهم يبعثون فى أقبح صورة ، وأشنع منظر ، قد جمع الله لهم بين عمى البصر وعدم النطق وعدم السمع مع كونهم مسحوبين على وجوههم كما يفعل فى الدنيا بمن يبالغ فى إهانته وتعذيبه ، ويؤيده قوله تعالى : « يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ » .

(مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا) أى ثم بعد أن يتم حسابهم يكون منقلبهم ومصيرهم جهنم ، كلما سكن لهيبها بأن أكلت جلودهم ولحومهم ولم يبق ماتتعلق به وتحرقه ، زدناها لهبا وتوقدا بأن نعيدهم إلى ما كانوا عليه فتستعر وتتوقد .

أخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : إن الكفار وقود النار ، فإذا أحرقتهم ولم يبق شىء صارت جمرا تتوهّج ، فذلك خبوُّها ، فإذا بُدّلوا خلقا جديدا عاودتهم اه .

وكأن هذا عقوبة لهم على إنكارهم الإعادة بعد الإفناء بتكرارها مرة بعد أخرى ، ليروها عيانا ، حيث أنكروها برهانا .

ثم بين علة تعذيبهم ، لعله يرجع منهم من قُضى بسعادته فقال :

(ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) أى ذلك العذاب الذى جاز ينالهم به من البعث على العمى والبَـكَم والصَّمَم هو جزاؤهم الذى يستحقونه على تكذيبهم بالبينات والحجج التى جاءتهم ، وعلى استبعادهم وقوع البعث ، وقولهم : أَبَعْدَ ماصرنا إلى ماصرنا إليه من البِلى والهلاك والتفرق فى أرجاء الأرض نعاد مرة أخرة ـ استنكارا منهم وتعجبا من أن يحصل ذلك .

ثم استدل على البعث فقال :

(أو لم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض قادر على أن يخلق مثلهم) أى ألم يعلموا ويتدبروا أن الذى خلق السموات والأرض ابتداعا على غير مثال سابق وأقامهما بقدرته ـ قادر على أن يخلق أمثالهم من الخلق بعد فنائهم ، وكيف لا يقدر على إعادتهم ، والإعادة أهون من الابتداء ؟ .

وبعد أن أثبت أن البعث أمر ممكن الوجود فى نفسه ، أردف ذلك أن لحصوله وقتا معلوما عنده فقال :

(وجعل لهم أجلا لا ريب فيه) أى وجعل لإعادتهم وقيامهم من قبورهم أجلا مضروبا ومدة مقدرة لابد من انقضائها ، لايعلمها إلا هو كما قال : « وَمَا نُؤَخِّرُهُ إلاَّ لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ » .

وخلاصة ذلك ـ إنهم قد علموا بالبرهان العقلى أن الله قادر على إعادتهم ، وقد جعل لميقات إعادتهم أجلا وهو يوم القيامة الذى لاشك فيه ، فلا وجه لإنكاره .

(فأبى الظالمون إلا كفورا) أى وبعد إقامة الحجة عليهم أبَوْا إلا تماديا فى ضلالهم وكفرهم مع وضوح الحجة وظهور المَحَجَّة .

ثم بين السبب فى عدم إجابتهم إلى ماطلبوا من الجنات والعيون بأنهم لو ملكوا خزائن الدنيا لبقوا على شحّهم فقال :

(قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذاً لأمسكتم خشية الإنفاق) المراد من الإنفاق هنا الفقر كما أخرجه ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ، وروى نحوه عن قتادة وإليه ذهب الراغب فقال : يقال أنفق فلان إذا افتقر ، وقال أبو عبيدة : أنفق وأملق وأعدم وأصرم بمعنى ، أى قل لهم أيها الرسول : لو أنكم تملكون التصرّف فى خزائن الله لأمسكتم خشية الفقر : أى خشية أن تزول وتذهب مع أنها لاتفرغ ولا تنفَد أبدا.

وقصارى ذلك — إنكم لو ملكتم من الخير والنعم خزائن لانهاية لها لبقيتم على والشح والبخل ، وفى هذا إيماء إلى أن الله لايجيبكم إلى ماطلبتم من نبيه صلى الله عليه وسلم من بساتين وعيون تنبع ، لابخلا منه ، ولكن اقتضت الحكمة أن يكون نظام الدنيا هكذا ، ولا رُقىّ للإنسان إلا على هذا المنوال ، فهو يوسّع الرزق على قوم ويضيّقه على آخرين على مقتضى الحكمة والمصلحة ، ومن ثم لم ينزل مااقترحتموه .

(وكان الإنسان قتورا) أى وكان الإنسان بخيلا منوعا بطبعه كما قال « أمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ المُلْكِ فَإِذًا لاَ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا » أى لو أن لهم نصيبا فى ملك الله لما أعطوا أحدا شيئا ولا مقدار نقير .

وقد روى البخارى ومسلم « يد الله ملأى لا يَغيضها نفقةٌ سحاء (أخذ) الليل والنهار ، أرأيتم ماأنفق منذ خلق السموات والأرض ؟ فإنه لم يغض مافى يمينه » .

وإجمال المعنى — إن الله لم يجب محمدا إلى ماطلبتم ، لاهوانا لنبيه ، ولا لأنه ليس بنبى ، ولا بخلا منه (حاشاه) بل لحكمة منه ، فربما كانت وفرة النعم إذا نزلت على غير وجهها مصايب على الناس ، فأما أنتم فنعمكم يجرى على طريق البخل ، فلو سلم لكم السموات والأرض وادّارستموها لم تفهموا إلا الإمساك ، ومن ثم لايسلمكم مفاتيح خزائنه ، لئلا تمسكوا المال لأنفسكم ولاتنفعوا خلقه .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَامُوسَى مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ . وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤) .

تفسير المفردات

مسحورا : أى مخبول العقل ، بصائر : أى حججا وبينات واحدها بصيرة أى مبصرة بينة ، مثبورا : أى هالكا كما روى عن الحسن ومجاهد ، قال الزجاج : يقال ثبر الرجل فهو مثبور إذا هلك ، ويقال فلان يدعو بالويل والثبور حين تصيبه المصيبة ، كما قال تعالى: « دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا . لاَ تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا » أن يستفزهم : أى أن يخرجهم بالقتل أو أن يزيلهم عنها ، واللفيف : الجمع العظيم من أخلاط شتى ، من شريف ودنىء ، ومطيع وعاص ، وقوى وضعيف ، وكل شىء خلطته بغيره فقد لففته .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف ما اقترحوه من الآيات وأبان لهم أن الرسل ليس من شأنهم أن يقترحوا على الله شيئا ــ ذكر هنا أنه قد أنزل على موسى مثل ما اقترحتم وأعظم منه ، ولم تجد فرعون وقومه شيئا ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فلا فائدة لكم فيما اقترحتموه من الآيات ، وكفاكم الآيات العلمية التى أنزلها على عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، فإن لم تؤمنوا بعد ظهور تلك الحجج أهلككم كما أهلك

فرعون بالغرق ، وفى ذلك تسلية لرسوله بذكر ماجرى لموسى مع فرعون ، وماجوزى به فرعون وقومه .

الايضاح

(ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات) أى ولقد أعطينا موسى تسع آيات واضحات الدلالة على صحة نبوته وصدقه حين أُرْسِل إلى فرعون وقومه ، فلم يؤمنوا بها كما قال تعالى (فاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ) وقال (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوًّا) .

وقد ذكر سبحانه فى كتابه العزيز ست عشرة معجزة لموسى عليه السلام .

(١) إنه أزال العقدة من لسانه ، أى أذهب العجمة عن لسانه وصار فصيحا .

(٢) انقلاب العصا حية .

(٣) تلقف الحية حبالهم وعصيهم على كثرتها .

(٤) اليد البيضاء .

(٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩) الطوفان ، والجراد ، والقُمَّل ، والضفادع ، والدم .

(١٠) شق البحر .

(١١) انفلاق الحجر فى قوله (أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ) .

(١٢) إظلال الجبل فى قوله (وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ) .

(١٣) إنزال المن والسلوى عليه وعلى قومه .

(١٤ ، ١٥) الجدب ونقص الثمرات فى قوله (وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ) .

(١٦) الطمس على أموالهم من الحنطة والدقيق والأطعمة .

وقد اختلفوا فى المراد من هذه التسع . أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور

وابن جرير وابن المنذر من طرق عدة عن ابن عباس إنها العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنون ونقص الثمرات .

وقيل المراد بالآيات الأحكام ، فقد أخرج أحمد والبيهقي والطبراني والنسائي وابن ماجه « أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه : انطلق بنا إلى هذا النبي فنسأله ، فأتياه صلى الله عليه وسلم فسألاه عن قول الله تعالى « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات » فقال عليه الصلاة والسلام: لاتشركوا بالله شيئا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولاتسرقوا ، ولاتسحَروا ، ولا تأكلوا الربا ، ولاتمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله ، ولا تقذِفوا محْصَنة ، وأنتم يايهود عليكم خاصة ألا تعْدُوا في السبت ، فقبّلا يده ورجله وقالا نشهد إنك نبي ، قال فما يمنعكما أن تُسْلما ؟ قالا إن داود دعا ألا يزال من ذريته نبي ، وإنا نخاف إن اتبعناك أن تقتلنا يهود » .

قال الشهاب الخفاجي: وهذا هو التفسير الذي عليه المعوّل في الآية .

ثم خاطب نبيه فقال :

(فاسأل بني إسرائيل) أي فاسأل بني إسرائيل الذين كانوا في عصرك وآمنوا بك كعبد الله بن سلام وأصحابه سؤال استشهاد ، لتزيد طمأنينتك ويقينك ، ولتعلم أن ذلك محقق ثابت عندهم في كتابهم .

(إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك ياموسى مسحورا) أي فاسألهم يخبروك ، لأنه جاءهم أي جاء آباءهم بهذه الآيات وأبلغها فرعون ، فقال له فرعون : إني لأظنك ياموسى مخلّط العقل ، ومن ثم ادّعيت ما ادعيت ، مما لايقول مثله كامل العقل ، حصيف الرأي .

(قال لقد علمت ماأنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) أي قال موسى لفرعون : لقد علمت يافرعون ماأنزل الله هذه الآيات التسع التي أريتكها إلا حجة لي على حقيقة ما أدعوك إليه ، وشاهدة لي على صدقي وصحة قولي إني رسول الله ، بعثني بها رب السموات والأرض ، لأنه هو الذي يقدر عليها وعلى أمثالها ، وهي بصائر لمن

استبصر بها ، وهدى لمن اهتدى بها ، يعرف من رآها أن من جاء بها فهو محق ، وأنها من عند الله لا من عند غيره ، إذ كانت معجزة لا يقدر عليها إلا رب السموات والأرض .

(وإنى لأظنك يافرعون مثبورا) أى وإنى لأظنك يا فرعون مصروفا عن الخير مطبوعا على الشر .

(فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا) أى فأراد فرعون أن يخرج موسى وبنى إسرائيل من أرض مصر بقتلهم واستئصالهم بحيث لا يُبْقِى منهم أحدا ، فعكسنا عليه مكره وأغرقناه فى البحر ومن معه من جنده جميعا ، فأخرجناه من أرضه أفظع إخراج .

(وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنوا الأرض) أى ونجينا موسى وبنى إسرائيل وقلنا لهم من بعد هلاك فرعون : اسكنوا أرض الشام وهى الأرض المقدسة التى وُعِدْتم بها .

(فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفا) أى فإذا جاءت الساعة الآخرة حشرناكم من قبوركم إلى موقف القيامة مختلطين أنتم وهم ، ثم نحكم بينكم وبينهم ، ونميز سعداءكم من أشقيائكم .

وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ، وَما أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلاً (١٠٦) قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا ، إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا ، إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً (١٠٩) قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ ، أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلاَ

تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا ، وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١) .

تفسير المفردات

الحق : هو الثابت الذى لا يزول ، والقرآن مشتمل على كثير من ذلك كدلائل التوحيد وتعظيم الملائكة ونبوة الأنبياء و إثبات البعث والقيامة ، وفرقناه : أى أنزلناه مفرقا منجما ، والمكث (بالضم والفتح) : التؤدة والتأنى ، والخرور : السقوط بسرعة، والأذقان واحدها ذقن : وهو مجتمع اللحيين ، ادعوا الله أو ادعوا الرحمن : أى سموه بهذين الاسمين ، خَفَتَ الرجل بقراءته : إذا لم يبينها برفع الصوت ، وتخافت : القوم تسارُّوا فيما بينهم .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن القرآن معجز دالّ على صدق الرسول بقوله « قل لئن اجتمعت الإنس والجن » الآية ، ثم حكى عن الكفار أنهم لم يكتفوا بهذا المعجز ، بل طلبوا معجزات أخرى ، وأجابهم ربهم بأنه لاحاجة إلى شىء سواه ، و بأن موسى أتى فرعون وقومه بتسع آيات فجحدوا بها فأهلكوا ، فلو أتاكم محمد صلى الله عليه وسلم بتلك المعجزات التى اقترحتموها ثم كفرتم بها أنزل عليكم عذاب الاستئصال ولم يكن ذلك من الحكمة التى أرادها ، لعلمه أن منكم من يؤمن ومنكم من لا يؤمن ، ولكن سيظهر من نسله من يكون مؤمنا ـ عاد هنا إلى تعظيم حال القرآن وجلالة قدره ، و بيان أنه هو الثابت الذى لايزول ، وأنه أنزله على نبيه مفرّقا ليسهل حفظه وتعرف دقائق أسراره ، وأنكم سيان آمنتم به أو لم تؤمنوا ، فإن من قبلكم من أهل الكتاب إذا تلى

عليهم خروا له سجّدا وبُكيًّا ؛ ثم أردف ذلك ببيان أنكم إن ناديتم الله أو ناديتم الرحمن فالأمران سواء ثم قفّى على ذلك بطلب التوسط فى القراءة فى الصلاة بين الجهر والخفوت، ثم أمر نبيه أن يقول حين الدعاء : الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل وكبره تكبيرا .

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : « صلى صلوات الله عليه بمكة ذات يوم ، فدعا الله تعالى فقال فى دعائه : يا ألله يارحمن ، فقال المشركون : انظروا إلى هذا الصابئ ، ينهانا أن ندعو إلهين وهو يدعو إلهين فنزل (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن) الآية .

وعن الضحاك أنه قال : قال أهل الكتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنك لتقلّ ذكر الرحمن وقد أكثر الله فى التوراة هذا الاسم فنزلت .

الإيضاح

(وبالحق أنزلناه) أى وأنزلنا عليك القرآن متضمنا للحق ، ففيه أمر بالعدل والإنصاف ومكارم الأخلاق ، ونهى عن الظلم والأفعال الذميمة ، وذكر براهين الوحدانية وحاجة الناس إلى الرسل ، لتبشيرهم وإنذارهم وحثهم على صالح الأعمال ، انتظارا ليوم الحساب والجزاء .

(وبالحق نزل) أى ونزل إليك محفوظا محروسا لم يُشَبْ بغيره ، فلم يُزد فيه ولم يُنْقَص ، وقد يكون المراد ونزل إليك مع الحق وهو شديد القوى الأمين المطاع فى الملأ الأعلى جبريل عليه السلام .

وبعد أن مدح الكتاب مدح من أُنزِل عليه فقال :

(وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا) أى وما أرسلناك أيها الرسول إلى من أرسلناك إليهم من عبادنا إلا مبشرا بالجنة من أطاعنا فانتهى إلى أمرنا ، ومنذرا لمن عصانا فخالف ذلك .

(وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا) أى وآتيناك قرآنا فرقناه أى نزلناه مفرّقا منجّما ، وقد بدئ بإنزاله ليلة القدر فى رمضان ، ثم أنزل نجوما فى ثلاث وعشرين سنة بحسب الوقائع .

وسر نزوله هكذا بعضه إثر بعض أن تقرأه على الناس بتؤدة وتأنّ ليسهل عليهم حفظه ويكون ذلك أعون على تفهم معناه .

أخرج البيهقى فى الشُّعَب عن عمر رضى الله عنه أنه قال : تعلَّمُوا القرآن خمس آيات خمس آيات ، فإن جبريل عليه السلام كان ينزل به خمسا خمسا ، وكذلك أخرج ابن عساكر عن أبى سعيد الخدرى ، والمراد أن الغالب كذلك ، فقد صح أنه نزل بأكثر من ذلك وبأقل منه .

وفائدة قوله : ونزلناه تنزيلا بعد قوله فرقناه ـ بيان أن ذلك التنزيل لمقتض وهو التنزيل بحسب الحوادث .

ثم هددهم سبحانه على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله :

(قل آمنوا به أو لا تؤمنوا) أى قل لهؤلاء الضالين القائلين لك : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ـ آمنوا بهذا القرآن الذى لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لم يأتوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ـ أو لا تؤمنوا به ، فإن إيمانكم به لن يزيد فى خزائن رحمة الله ، ولا ترككم للإيمان به ينقص ذلك .

ثم علل عدم المبالاة بهم ، واحتقار شأنهم ، بقوله :

(إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا . ويقولون سبحانَ ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا) أى وإن تكفروا به فإن العلماء الذين قرءوا الكتب السالفة من قبل نزول القرآن ، وعرفوا أن الله سيبعث نبيا ـ يخرون لله سُجَّدا ، شكرا له على إنجاز وعده بإرسالك ، حين يتلى عليهم هذا القرآن ، ويقولون فى سجودهم ، تنزه ربنا عن خلف الوعد إنه كان وعده آتيا لا محالة .

والخلاصة ـ إنكم إن لم تؤمنوا به فقد آمن به أحسن إيمان من هو خير منكم ، وفيه تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم وازدراء لشأنهم .

(ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا) أى ويخرّون للأذقان باكين من خشية الله إذا يتلى عليهم ، ويزيدهم مافيه من العبر والمواعظ خشوعا وخضوعا لأمره وطاعته .

وقد جاء فى مدح البكاء من خشية الله أخبار كثيرة ؛ فقد روى الترمذى عن ابن عباس قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « عينان لاتمسّهما النار ، عينٌ بكت من خشية الله تعالى ، وعين باتت تحْرُس فى سبيل الله تعالى » .

وأخرج مسلم والنسائى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لايلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن فى الضرْع ، ولا اجتمع على عبد غبارٌ فى سبيل الله ودخان جهنم » .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن عبد الأعلى التيمى أنه قال : إن من أوتى من العلم مالم يُبْكه لخليق أنْ قد أُوتى من العلم مالا ينفعه ، لأن الله تعالى نعت أهل العلم فقال (ويخرون للأذقان يبكون) .

ثم رد على المشركين المنكرين إطلاق اسم الرحمن عليه عز وجل فقال :

(قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى) أى قل أيها الرسول لمشركى قومك الذين أنكروا اسم الرحمن سَمُّوا الله أيها القوم أو سموا الرحمن ، فبأى أسمائه جل جلاله تسمونه فهو حسن ، لأن كل أسمائه حسنى ، إذ فيها التعظيم والتقديس لأعظم موجود ، وهو خالق السموات والأرض وهذان الاسمان منها .

روى مكحول « أن رجلا من المشركين سمع النبى صلى الله عليه وسلم وهو يقول فى سجوده : يارحمن يارحيم ، فقال إنه يزعم أنه يدعو واحدا وهو يدعو اثنين فأنزل الله الآية » .

ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالتوسط فى القراءة ، فلا يجهر بصوته ولا يخافت به فقال :

(ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا) أى ولا تجهر بقراءتك

فيسمع المشركون فيسبّوا القرآن ، ولا تخافت بها عن أصحابك ، فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ، بل ابتغ طريقا بين الجهر والمخافتة .

أخرج أحمد والبخارى ومسلم والترمذى وغيرهم عن ابن عباس قال : « نزلت هذه الآية ورسول الله صلى الله عليه وسلم مُخْتفٍ بمكة (يصلى خفية) فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون سبُّوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به » .

وروى أن أبا بكر رضى الله عنه كان يخفِت فى قراءته ويقول أناجى ربى وقد علم حاجتى ، وعمر كان يجهر بها ويقول : أطرد الشيطان ، وأوقظ الوَسْنان ، فلما نزلت الآية أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يرفع صوته قليلا ، وعمر أن يخفِض قليلا .

ولما أمر سبحانه رسوله ألا يناديه إلا بأسمائه الحسنى علمه كيفية التحميد بقوله :

(وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولىّ من الذل) أى وقل لله ذى الجلال والكمال : لك الحمدوالشكر على ماأنعمت على عبادك من واسع النعم .

وقد وصف سبحانه نفسه بثلاث صفات :

(١) إنه لم يتخذ ولدا ، فإن من يتخذ الولد يمسك جميع النعم لولده ، ولأن الولد يقوم مقام الوالد بعد انقضاء أجله وفنائه ــ تنزه ربنا عن ذلك ــ ومن كان كذلك لم يستطع الإنعام فى كل الحالات ، فلا يستحق الحمد على الإطلاق .

وفى هذا رد على اليهود الذين قالوا عزير ابن الله ، والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله ، تعالى الله عما يقولونه علوا كبيرا .

(٢) إنه ليس له شريك فى الملك ، إذ لوكان له ذلك لم يعرف أيهما المستحق للحمد والشكر ، ولكان عاجزا ذا حاجة إلى معونة غيره ، ولم يكن منفردا بالملك والسلطان .

(٣) إنه لم يكن له ولىّ من الذل أى لم يوال أحدا من أجل مذلة به يدفعها بموالاته.

والخلاصة - إنه ليس له ولد يحبس نعمه عليه ، وليس له شريك يقف أعماله فى الملك ، ولا ناصر يدفع العدو المذِلّ له ، وإذا تنزه ربنا عن ذلك فقد أمن الناس نضوب موارده ، وأصبحت أبوابه مُفَتَّحة لكل قاصد ، فلتغترف أيها العبد من مناهله ، ولتعلم أنه لايحابيك لأجل أهلك ولا نسلك ولا دينك ، ولو كنت ابن نبى من الأنبياء أو عظيم من العظماء .

(وكبره تكبيرا) أى وعظِّم ربك أيها الرسول بما أمرناك أن تعظمه به من قول أو فعل ، وأطعه فيما أمرك به ونهاك عنه .

وتكبيره تعالى وتنزيهه يكون :

(١) بتكبيره فى ذاته باعتقاد أنه واجب الوجود لذاته ، وأنه غنى عن كل موجود.

(٢) بتكبيره فى صفاته باعتقاد أنه مستحق لكل صفات الكمال منزه عن صفات النقص .

(٣) بتكبيره فى أفعاله ، فتعتقد أنه لايجرى شىء فى ملكه إلا وَفق حكمته وإرادته.

(٤) بتكبيره فى أحكامه ، بأن تعتقد أنه مَلِك مطاع ، له الأمر والنهى ، والرفع والخفض ، وأنه لااعتراض لأحد عليه فى شىء من أحكامه ، يُعِزُّ من يشاء ، ويذل من يشاء .

(٥) تكبيره فى أسمائه ، فلا يُذْكَر إلا بأسمائه الحسنى ، ولا يوصف إلا بصفاته المقدسة .

روى أحمد فى مسنده عن مُعاذ الجهنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « آية العز (الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا) الآية » . وعن ابن عباس أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أول من يُدْعَى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحْمَدون الله فى السراء والضراء » .

وأخرج عبد الرزاق عن عبد الكريم بن أبى أمية قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم الغلام من بنى هاشم إذا أفصح ، الحمد لله إلى آخر الآية سبع مرات » .

مجمل ما حوته السورة من الأغراض

(١) الإسراء من مكة إلى بيت المقدس .
(٢) تاريخ بنى إسرائيل في حالى الارتقاء والانحطاط .
(٣) حكم وعظات للأمة الإسلامية يجب أن تراعيها حتى لاتذهب دولها كما ذهبت دولة بنى إسرائيل .
(٤) بيان أن كل مافى السموات والأرض مسبح لله .
(٥) الكلام فى البعث مع إقامة الأدلة على إمكانه .
(٦) الرد على المشركين الذين اتخذوا مع الله آلهة من الأوثان والأصنام .
(٧) الحكمة فى عدم إنزال الآيات التى اقترحوها على محمد صلى الله عليه وسلم
(٨) قصص سجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس من ذلك .
(٩) تعداد بعض نعم الله على عباده .
(١٠) طلب المشركين من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يوافقهم فى بعض معتقداتهم و إلحافهم فى ذلك .
(١١) أمر النبى صلى الله عليه وسلم بإقامة الصلاة والتهجد فى الليل .
(١٢) بيان إعجاز القرآن وأن البشر يستحيل عليهم أن يأتوا بمثله .
(١٣) قصص موسى مع فرعون .
(١٤) الحكمة فى إنزال القرآن منجما .
(١٥) تنزيه الله عن الولد والشريك والناصر والمعين .

سورة الكهف

هى مكية كلها فى المشهور واختاره جمع من العلماء ، وآيها مائة وإحدى عشرة .
ومناسبتها ما قبلها من وجوه :

(١) إن سورة الإسراء افتتحت بالتسبيح ، وهذه بالتحميد ، وهما مقترنان فى سائر الكلام فى نحو « فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ » ونحو سبحان الله وبحمده .

(٢) تشابه ختام السالفة وافتتاح هذه ، فإن كلا منهما حمد .

(٣) إنه ذكر فى السابقة قوله : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً » والخطاب فيها لليهود ، وذكر هنا قصة موسى نبىّ بنى إسرائيل مع الخضر عليهما السلام وهى تدل على كثرة معلومات الله التى لا تحصى ، فكانت كالدليل على ما تقدم .

(٤) إنه جاء فى السورة السابقة : « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً » ثم فصل ذلك هنا بقوله : « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقّاً » إلى قوله : « وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً » .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (١) قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً (٢) مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً (٣) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِباً (٥) فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى

الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨).

تفسير المفردات

العوج : (بالكسر والفتح) : الانحراف والميل عن الاستقامة ، فلا خلل فى لفظه ولا فى معناه ، قيما : أى معتدلا لا إفراط فيما اشتمل عليه من التكاليف حتى يشق على العباد ، ولا تفريط فيه بإهمال ماتمس الحاجة إليه ، والبأس : العذاب الشديد فى الآخرة، من لدنه : أى من عنده ، كبرت : (بضم الباء) كلمة : أى ما أعظمها مقالة قيلت ، وهذا أسلوب فى الكلام يدل على التعجب والاستغراب مما حدث من قول أو فعل ، باخع : أى قاتل (منتحر) قاله ابن عباس وأنشد قول لبيد :

لعلك يوما إن فقدتَ مَزارها على بُعْده يوماً لِنَفْسِك باخعُ

على آثارهم : أى من بعدهم أى من بعد توليهم عن الإيمان وتباعدهم عنه ، والحديث : هو القرآن ، والأسف : المبالغة فى الحزن والغضب ، وصعيدا : أى ترابا ، وجرزا : أى لا نبات فيه .

الإيضاح

(الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . قيما) حمد الله نفسه على إنزاله كتابه العزيز إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ، لأنه أعظم نعمة أنزلها على أهل الأرض ، إذ أخرجهم به من الظلمات إلى النور ، وجعله كتابا مستقيما لا اعوجاج فيه ولا زيغ ، بل يهدى إلى الحق و إلى صراط مستقيم .

وخلاصة ذلك — إنه تعالى أنزل الكتاب على عبده محمد صلى الله عليه وسلم

مستقيما لا اختلاف فيه ولا تفاوت ، بل بعضه يصدّق بعضا ، و بعضه يشهد لبعض ، ولا اعوجاج فيه ، ولا ميل عن الحق .

(لينذر بأسا شديدا من لدنه) أى ليخوّف الذين كفروا به عذابا شديدا صادرا من عنده أى نكالا فى الدنيا ونار جهنم فى الآخرة .

(و يبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا . ما كثين فيه أبدا) أى و يبشر المصدقين الله ورسوله الذين يمتثلون أوامره ونواهيه ــ بأن لهم ثوابا جزيلا منه على إيمانهم به وعملهم الصالح فى الدنيا ، وذلك الثواب الجزيل هو الجنة التى وعدها الله المتقين خالدين فيها أبدا لا ينتقلون منها ولا ينقلون .

(و ينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا) أى وليحذّر من بين هؤلاء الكفار من قالوا هذه المقالة الشنعاء ــ إن الله اتخذ ولدا ، وهؤلاء ثلاث طوائف .

(١) المشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله .

(٢) اليهود القائلون عزير ابن الله .

(٣) النصارى القائلون المسيح ابن الله .

وإنما خص هؤلاء مع دخولهم فى الإنذار السابق لفظاعة حالهم ، وشناعة كفرهم وضلالهم .

(مالهم به من علم) أى ليس لهم باتخاذ الولد برهان ، بل هو قول لم يصدر عن علم يؤيده ، ولا عقل يظاهره .

(ولا لآبائهم) أى وكذلك ليس لآبائهم الذين قالوا مثل هذه المقالة وهم القدوة لهم ــ به علم .

(كبرت كلمة تخرج من أفواههم) أى عظُمَت مقالتهم هذه فى الكفر ، وليتهم كتفوا بخطورها بالبال ، وتردّدها فى الصدور ، بل تلفظوا بها على مرأى من الناس ومَسْمَع ، وكثير مما يوسوس به الشيطان وتحدّث به النفس لا يُتلفّظ به ، بل يكتفى

بما يعتقده القلب، فكيف ساغ لهم أن يجرءوا على التلفظ بهذا المنكر الذى لا مستند له من عقل ولا نقل؟.

ثم أكد هذا الإنكار وبين أنه كما لا علم لهم ولآبائهم به - لا علم لأحد به، لأنه لا وجود له، وماهو إلا محض اختلاق بقوله:

(إن يقولون إلا كذبا) أى مايقولون إلا قولا لا حقيقة له بحال.

(فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) لعل هنا للاستفهام الإنكارى المتضمن معنى النهى - أى لا تبخع نفسك من بعد توليهم عن الإيمان وإعراضهم عنه أسفا وحسرة عليهم.

أى إنك قد اشتد وجدك عليهم، وبلغت حالا من الأسى والحسرة صرت فيها أشبه بحال من يحدث نفسه أن يبخعها أسى وحسرة عليهم، وما كان من حقك أن تفعل ذلك، إن عليك إلا البلاغ، وليس عليك الهداية « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاء » .

وقد جاء مثل هذا النهى فى آيات كثيرة كقوله « لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ » وقوله « فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ » وقوله « وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ » .

وخلاصة ذلك — أبلغهم رسالة ربك، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، ولا تذهب نفسك عليهم أسى وحسرة، فإنما أنت منذر، ولست عليهم بمسيطر، إنْ عليك إلا البلاغ

ثم ذكر سبحانه سبب إرشاده إلى الإعراض عنهم بغير ما يقدر عليه من التبليغ بالبشارة والنذارة، وهو أنه تعالى جعل ما على الأرض زينة لها، ليختبر المحسن والمسيء، ويجازى كلا بما يستحق فقال:

(إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا) أى إنا جعلنا ما على الأرض من حيوان ونبات ومعادن زينة لها ولأهلها، لنختبر حالهم فى فهم

مقاصد تلك الزينة والاستدلال بها على وجود خالقها، والإخبات إليه ، والطاعة له ، فيما أمر به ، والبعد عما نهى عنه ، فتقوم عليهم الحجة ، فمن اعتبر بتلك الزينة ، وفهم حكمتها ، حاز المثوبة ، ومن اجترأ على مخالفة أمره ، ولم يفهم أسرارها ومقاصدها ، استحق العقوبة .

وخلاصة ذلك — إنا جعلنا ما على الأرض زينة ، لنعاملهم معاملة من يُخْتَبرون فنجازى المحسنين بالثواب ، والمسيئين بالعقاب ، ويمتاز أفراد الطبقتين بعضهم عن بعض بحسب امتياز درجات أعمالهم .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الدنيا نضرةٌ حُلْوة ، والله مستخْلِفكم فيها ، فينظر كيف تعملون » ، وقال « إن أخوف ما أخاف عليكم مايُخْرِج الله لـكم من زهرة الدنيا ، قيل وما زهرة الدنيا ؟ قال بركات الأرض » ، وروى البخارى أن عمر كان يقول : اللهم إنا لانستطيع إلا أن نفرح بما زيّنته لنا ، اللهم إنى أسألك أن ننفقه فى حقه .

(وإنا لجاعلون ماعليها صعيدا جرزا) أى وإن الأرض وما عليها بائد فان ، وإن المرجع إلى الله ، فلا تأسَ ولاتحزن لما تسمع وترى ، ونحو الآية قوله « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ » وقوله « فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفًا لاَ تَرَى فِيهاَ عِوَجًا ولاَ أَمْتًا » .

وإجمال المعنى — إن ماعلى الأرض سيصير ترابا ساذجا بعد ما كان يتعجّب من بهجته النظّارة ، وتُسَرّ برؤيته العيون ، فلا تحزن لما عاينت من تكذيب هؤلاء لما أنزل عليك من الـكتاب ، فإنا جعلنا ما على الأرض من مختلف الأشياء زينة لها ، لنختبر أعمال أهلها ، فنجازيهم بحسب ماهم له أهل ، وإنا لمفنون ذلك بعد حين .

وفى هذا تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم ، وكأنه قيل : لاتحزن فإنا ننتقم لك منهم .

ملخص قصة أهل الكهف كما أثر عن العرب

روى أن النصارى عظُمت فيهم الخطايا ، وطغت ملوكهم حتى عبدوا الأصنام ، وأكرهوا الناس على عبادتها ، وأصدر (الملك دقيانوس) الأوامر المشدّدة فى ذلك ، ومعاقبة من يخالفه ، وأراد أن يُلْزِم فتية من أشراف قومه عبادتها ، وتوعدهم بالقتل ، فأبَوْا إلا الثبات على دينهم ، فنزع ثيابهم وحليهم ، ولكنه رحم شبابهم فأمهلهم لعلهم يثوبون إلى رشدهم ، وهكذا ذهب الملك إلى مدن أخرى ليحثّ أهلها على عبادتها ، وإلا قُتِلوا .

أما الفتية فإنهم انطلقوا إلى كهف قريب من مدينتهم (أفسوس أوطرسوس) فى جبل يُدْعَى (نيخايوس) وأخذوا يعبدون الله فيه حتى إذا هجم عليهم دقيانوس وقتلهم ماتوا طائعين ، وقد كانوا سبعة ، فلما مروا فى الطريق إلى الكهف تبعهم راع ومعه كلبه ، فجلسوا هناك يعبدون الله ، وكان من بينهم امرؤ يدعى (تمليخا) يبتاع لهم طعامهم وشرابهم ، ويبلغهم أخبار دقيانوس الذى لا يزال مجدّا فى طلبهم ، حتى إذا عاد من مطافه ، ووصل إلى مدينتهم ، بحث عن هؤلاء العُبّاد والنساك ليذبحهم أو يسجدوا للأصنام ، فسمع بذلك تمليخا بينما كان يشترى لهم الطعام خِفْية فأخبرهم فبكَوْا ، ثم ضرب الله على آذانهم فناموا ، وتذكّرهم دقيانوس ، فهدّد آباءهم إن لم يُحْضِروهم ، فدلّوه عليهم ، وقالوا إنهم فى الكهف ، فتوجه إليهم وسدّه عليهم ليموتوا هناك وينتهى الأمر على ذلك .

وقد كان فى حاشية الملك رجلان يكتمان إيمانهما وهما بيدروس ، وروناس ، فكتبا قصة هؤلاء الفتية سرا فى لوحين من حجر وجعلاهما فى تابوت من نحاس ، وجعلا التابوت فى البنيان ليكون ذلك عظة وذكرى لمن سيجىء من بعد .

ثم مضت قرون يتلو بعضها بعضا ، ولم يبق لدقيانوس ذكر ولا أثر .

وبعدئذ ملك البلاد ملك صالح يسمى بيدروس دام ملكه ٦٨ سنة ، وانقسم

الناس فى شأن البعث والقيامة فرقتين : فرقة مؤمنة به ؛ وأخرى كافرة ، فحزن الملك لذلك حزنا شديدا ، وضرَع إلى الله أن يرى الناس آية يرشدهم بها إلى أن الساعة آتية لا ريب فيها ، وقد خطر إذ ذاك ببال راع يسمى (أولياس) أن يهدم باب الكهف ويبنى به حظيرة لغنمه ، فلما هدمه استيقظوا جميعا فجلسوا مستبشرين ، وقاموا يصلون ، ثم قال بعضهم لبعض : كم لبثتم نياما ؟ قال بعضهم : لبثنا يوما أو بعض يوم ، وقال آخرون ربكم أعلم بما لبثتم ، فابعثوا أحدكم بورقكم (الورِق الفضة) هذه إلى المدينة ، فلينظر أيها أزكى طعاما وليحضر لنا جانبا منه ، فذهب تمليخا كما اعتاد من قبل ، ليشترى لهم الطعام وهو متلطّف فى السؤال مختف حذرا من دقيانوس .

وبينما هو ماش سمع اسم المسيح ينادى به فى كل مكان ، فحدّث نفسه وقال : عجباً لم لم يذبح دقيانوس هؤلاء المؤمنين ؟ وبقى حائرا دهشا وقال : ربما أكون فى حُلْم أوَ لعل هذه ليست مدينتنا ، فسأل رجلا ما اسم هذه المدينة ، قال (أفسوس) وفى آخر مطافه تقدم إلى رجل فأعطاه ورِقا ليشترى به طعامه ، فدَهِشَ الرجل من نوع هذا النقد الذى لم يره من قبل ، وأخذ يقلّبه ويعطيه إلى جيرته ، وهم يعجَبُون منه ويقولون له : أهذا من كنز عثَرْت عليه ، فإن هذه الدراهم من عهد دقيانوس ، وقد مضت عليه حِقْبة طويلة ثم أخذوه وقادوه إلى حاكِمَى المدينة ، فظن فى بادئ الأمر أنهم ساقوه إلى دقيانوس ، ولكن لما عرف أنه لم يؤت به إليه زال عنه الكرب ، وجفت مدامعه ، ثم سأله حاكما المدينة وهما أريوس وطنطيوس : أين الكنز الذى وجدتَ يافتى ؟ وبعد حوار بينه وبينهما ذكر لهما خبر الفتية ودقيانوس وأن حديثهما كان أمس ؛ وإن كان لديكما ريب من أمرى فها هو ذا الكهف فاذهبا معى لتريا صدق ما أقول ، فسارا معه حتى وصلا إلى باب الكهف ، وتقدمهما تمليخا فأخبرهما بالحديث كله ، فداخلهما العجب حين علما أنهم ناموا تسعا وثلاثمائة سنة ، وأنهم أوقظوا ليكونوا آية للناس .

ثم دخل أريوس فرأى تابوتا من نحاس مختوما بخاتم ، و بداخله لوحان مكتوب عليهما قصة هؤلاء الفتية ، وكيف هربوا من دقيانوس حرصا على عقيدتهم ودينهم ، فسدّ عليهم بالحجارة .

ولما رأى أريوس ومن معه هذا القصص خرّوا لله سجدا وأرسلوا بريدا إلى ملكهم أن عجّل واحضُرْ لترى آية الله فى أمر فتيةٍ بُعِثُوا بعد أن ناموا ثلثمائة سنة .

ثم سار الملك ومعه ركب من حاشيته وأهل مدينته حتى أتَوْا مدينة أفسوس وكان يوما مشهودا ، وحين رأى الفتية خر ساجدا لله ثم اعتنقهم وبكى وهم لا يزالون يسبّحون ، ثم قال الفتية له : أيها الملك نستودعك الله ونعيذك من شر الإنس والجن ثم رجعوا إلى مضاجعهم وقُبِضت أرواحهم . فأمر الملك أن يُجْعَل كل منهم فى تابوت من ذهب ، وحين جَنَّ الليل ونام رآهم فى منامه يقولون له : اتركنا كما كنا فى الكهف ننام على التراب حتى يوم البعث ، فأمر الملك أن يوضعوا فى تابوت من ساج وألا يدخل عليهم أحد بعد ذلك ، وأن يبنى على باب الكهف مسجد يصلى فيه الناس ، وجعل لهم ذلك اليوم عيدا عظيما . ذلك هو القصص الذى جعله النصارى دليلا على البعث . أما القرآن الكريم فإنه يقول إن آياتى على البعث و إعادة الأرواح بعد الموت ليست مقصورة على هذا القصص وحده ، فآياتى عليه لاتُعدّ ولا تُحْصَى ، فاقرءوا صحائف هذا الوجود ولا تقصُروا أمركم على صحائف أهل الكهف والرقيم ، واجعلوا أنظاركم تتجه إلى ماحواه الكون لا إلى ما كتب فى القصص والحكايات ، وإن كانت فيها الدلائل والآيات .

إجمال القرآن لقصص أهل الكهف

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً (٩) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ

لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) .

تفسير المفردات

أم : حرف يدل على الانتقال من كلام إلى آخر ، وهو بمعنى بل وهمزة الاستفهام أى بل أحسبت ، والخطاب فى الظاهر للنبى عليه الصلاة والسلام ، والمراد غيره كما سبق نظيره ، والكهف : النقب المتسع فى الجبل ، فإن لم يكن متسعا فهو غار ، والرقيم : لوح حجرى رقمت فيه أسماؤهم كالألواح الحجرية المصرية التى يذكر فيها تاريخ الحوادث وتراجم العظماء ، أوى إلى المكان : اتخذه مأوى ومكانا له ، والفتية واحدهم فتى وهو الشاب الحدَث ، وقد كانوا من أبناء أشراف الروم وعظمائهم ، لهم أطواق وأسورة من الذهب ، وهيىء : أى يسر ، والرشد (بفتحتين وضم فسكون) الهداية إلى الطريق الموصل للمطلوب ، فضربنا على آذانهم أى ضربنا عليها حجابا يمنع السماع ، كما يقال بنى على امرأته ، يريدون بنى عليها قبة ، والمراد أنمناهم نومة لاتنبههم الأصوات الموقظة . عددا : أى ذوات عدد والمراد التكثير ، لأن القليل لايحتاج إلى العدّ غالبا ، بعثناهم : أى أيقظناهم وأثرناهم من نومهم ، والحزبين : هما الحزب القائل لبثنا يوما أو بعض يوم ، والحزب القائل ربكم أعلم بما لبثتم ، وأحصى : أى أضبط لأوقات لبثهم ، والأمد : مدة لها حد وغاية .

الإيضاح

(أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) أى لاتحسب أن قصة أصحاب الكهف والرقيم المذكورة فى الكتب السالفة حين استمروا أحياء أمدا طويلا — عجيبة بالإضافة إلى ما جعلناه على ظهر الأرض من الزينة ؛ فليست هى بالعجب وحدها من بين آياتنا ؛ بل زينة الأرض وعجائبها أبدع وأعجب من قصة

أصحاب الكهف ؛ فإذا وقف علماء الأديان الأخرى لدى أمثالها دهشين حائرين ، فأنا أدعوك وأمتك إلى ما هو أعظم منها ؛ وهو النظر فى الكون وعجائبه ، من خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، وتسخير الشمس والقمر والكواكب . إلى نحو أولئك من الآيات الدالة على قدرة الله ، وأنه يفعل ما يشاء لامعقِّبَ لحكمه .

أما القِصص وغرائبها فلا تكفى للوصول إلى أبواب الخير والسعادة التى يطمح إليها الإنسان ، ويجعلها مُثله العليا ، ليفوز بخيرى الدنيا والآخرة ، فابحث عما نقش فى صحائف الأكوان ، لا فى صحائف الكهوف والغِيران .

قال الزجاج: أعْلَمَ الله سبحانه أن قصة أصحاب الكهف ليست بعجيبة من آيات الله ، لأن خلق السموات والأرض وما بينهما أعجب من قصتهم .

(إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيِّئْ لنا من أمرنا رشدا) أى اذكر أيها الرسول حين أوى أولئك الفتية إلى الكهف هربا بدينهم من أن يفتنهم عباد الأصنام والأوثان ، وقالوا إذ ذاك : ربنا يسر لنا بما نبتغى من رضاك وطاعتك رشدا من أمرنا ، وسدادا إلى العمل الذى تحب ، وارزقنا المغفرة والأمن من الأعداء .

(فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا) أى فضربنا على آذانهم حجابا يمنعهم السماع ، وأنمناهم نوما لا ينبههم فيه مختلف الأصوات فى الكهف سنين كثيرة معدودة .

(ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا) أى ثم أيقظناهم من رقدتهم لنعلم أى الطائفتين المتنازعتين فى مدة لبثهم ، أضبط فى الإحصاء والعد لمدة هذا اللبث فى الكهف .

وخلاصة ذلك — إنا بعثناهم لنعاملهم معاملة من يختبر حالهم ، لنرى أيهم أحصى لما لبثوا أمدا ، فيظهر لهم عجزهم ، ويفوّضوا ذلك إلى العليم الخبير، ويتعرّفوا ماصنع الله

بهم من حفظ أبدانهم ، فيزدادوا يقينا بكمال قدرته تعالى وعلمه ، ويستبصروا به فى أمر البعث ، ويكون ذلك لطفا لمؤمنى زمانهم ، وآية بينة لكفارهم .

تفصيل ذلك القصص وبسطه

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ، إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَٰهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ، فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ؟ (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا (١٦) وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِنْهُ ، ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ، لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨)

تفسير المفردات

النبأ : الخبر العظيم ، وبالحق : أى بالصدق ، والربط : الشد ، وربطت الدابة : شددتها بالرباط ، والمربط : الحبل ، وربط الله على قلبه ، أى قوّى عزيمته ، قاموا :

أى وقفوا بين يدى ملكهم الجبار دقيانوس ، إلها : أى معبود آخرا لا استقلالا ولا اشتراكا ، اتخذوا من دونه آلهة : أى نحتوا أصناما وعبدوها ، والسلطان : الحجة ، والبيّن : الظاهر ، والاعتزال والتعزل : تجنب الشيء بالبدن أو بالقلب كما قال :

يابيتَ عاتكةَ التى أتعزّل حَذَرَ العِدا وبه الفؤاد مُوَكَّلُ

فأووا إلى الكهف : أى التجئوا إليه ، وينشر لكم : أى يبسط لكم ، والمرفق : ما يُرْتَفَق وينتفع به ، وتزاور : تتنحى ، وذات اليمين : أى جهة يمين الكهف ، وتقرضهم : أى تعدل عنهم ، قال الكسائى : يقال : قرضتُ المكان : إذا عدلت عنه ولم تقرَبه ، فجوة : أى متسع ، والأيقاظ ، واحدهم يقظ (بضم القاف وكسرها) والرقود : واحدهم راقد ، أى نائم ، وباسط ذراعيه : أى مادّهما ، والوصيد : فِناء الكهف ، والرعب : الخوف يملأ الصدر .

الإيضاح

(نحن نقص عليك نبأهم بالحق) أى نحن نُنبئك نبأ هؤلاء الفتية الذين آووا إلى الكهف ، نبأً حقا لامحل للريبة فيه .

وفى هذا إيماء إلى أن نبأهم كان معروفا لدى العرب على وجه ليس بالصدق ، ويدل على ذلك قول أمية بن أبى الصّلْت :

وليس بها إلا الرقيمُ مجاورا وصيدَهمو والقومُ فى الكهف هُجَّدُ

ثم فصّل ذلك بقوله :

(إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى) أى إنهم شباب آمنوا بربهم ، وزدناهم هدى بالتثبيت على الإيمان ، والتوفيق للعمل الصالح ، والانقطاع إلى الله ، والزهد فى الدنيا .

وقد جرت العادة أن الفتيان أقبل للحق ، وأهدى للسبل من الشيوخ الذين

قد عتوا وانغمسوا فى الأديان الباطلة ، ومن ثم كان أكثر الذين استجابوا لله ورسوله صلى الله عليه وسلم شبّانا ، و بقى الشيوخ على دينهم ، ولم يُسْلِمْ منهم إلا القليل .

ونحو الآية قوله : « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ » وقوله : فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ » وقوله : « لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ » .

فى أى زمن كان قصص أهل الـكهف؟

رجح ابن كثير أن قَصص أهل الـكهف كان قبل مجىء النصرانية ، لا بعدها كما رواه كثير من المفسرين متّبعين ما أثر عن العرب ، والدليل على ذلك أن أحبار اليهود كانوا يحفظون أخبارهم ، و يُعْنَوْن بها ، فقد روى عن ابن عباس أن قريشا بعثوا إلى أحبار اليهود بالمدينة يطلبون منهم أشياء يمتحنون بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبعثوا إليهم أن يسألوه عن خبر هؤلاء الفتية ، وعن خبر ذى القرنين ، وعن الرُّوح ، وفى هذا أعظم الأدلة على أن ذلك كان محفوظا عند أهل الـكتاب ، وأنه مقدّم على النصرانية .

(ور بطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ر بنا رب السموات والأرض) أى وألهمناهم قوة العزيمة ، وشددنا قلوبهم بنور الإيمان ، حتى عزفت نفوسهم عما كانوا عليه من خفض العيش والرغبة عنه ، وقالوا حين قاموا بين يدى الجبار دقيانوس إذ عاتبهم على تركهم عبادة الأصنام — ر بنا رب السموات والأرض ورب كل مخلوق .

ثم أردفوا تلك المقالة البراءة من إله غيره فقالوا :

(لن ندعو من دونه إلها) أى لن ندعو من دون رب السموات والأرض إلها لا على طريق الاستقلال ولا على سبيل الاشتراك ، إذ لا رب غيره ولا معبود سواه .

وقد أشاروا بالجملة الأولى إلى توحيد الألوهية والخلق ، و بالجملة الثانية إلى توحيد الربو بية والعبادة ، وعبدة الأصنام يقرون بتوحيد الأولى ، ولا يقرون بتوحيد

الثانية ، بدليل قوله . « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ » وقوله سبحانه حكاية عنهم : « إِنَّمَا نَعْبُدُهُمْ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى » وكانوا يقولون فى تلبيتهم فى الحج : لبيك لاشريك لك : إلا شريكا هو لك ، تملكه وماملك .

ثم عللوا عدم دعوتهم لغيره بقولهم :

(لقد قلنا إذاً شططا) أى إنا إذا دعونا غير الله ، لقد أبعدنا عن الحق ، وتجاوزنا الصواب .

وفى هذا إيماء إلى أنهم دُعوا لعبادة الأصنام وليموا على تركها .

ثم حكى سبحانه عن أهل الكهف مقالة بعضهم لبعض فقال :

(هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن) أى إن قومنا هؤلاء وإن كانوا أكبر منا سنّا وأكثر تجربة قد أشركوا مع الله غيره ، فهلا أتَوْا بحجة بينة على صدق ما يقولون ، كما أتينا على صدق ما ندّعى بالأدلة الظاهرة ، وإنهم لأظلم الظالمين فيما فعلوا ، وفيما افتروا ، ومن ثم قال :

(فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا ؟). أى لا أظلم ممن افترى على الله الكذب ونسب إليه الشريك ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

(وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيىء لكم من أمركم مرفقا) أى وإذ فارقتموهم وخالفتموهم فى عبادتهم غير الله ففارقوهم بأبدانكم والجئوا إلى الكهف ، وأخلصوا لله العبادة فى مكان تتمكنون منها بلا رقيب ولا حسيب ، وإنكم إن فعلتم ذلك فالله تعالى يبسط لكم الخير من رحمته فى الدارين ، ويسهل لكم من أمر الفِرار بدينكم ، والتوجه إليه فى عبادتكم ، ما ترتفقون وتنتفعون به .

وقد قالوا ذلك ثقة بفضل الله تعالى ورجاء منه ، لتوكلهم عليه وكمال إيمانهم به ، أخرج الطبرانى وابن المنذر عن ابن عباس قال : ما بعث الله نبيا إلا وهو شاب ،

وقرأ : « قالُوا سَمِعْنا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إِبْراهِيمُ » « وَإِذْ قالَ مُوسَى لِفَتاهُ » « إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ » .

ثم بيّن سبحانه حالهم بعد أن أووا إلى الكهف فقال :

(وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ، وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم فى فجوة منه) أى إنك أيها المخاطب لو رأيت الكهف لرأيت الشمس حين طلوعها تميل عنه جهة اليمين ، ورأيتها حين الغروب تتركهم وتعدل عنهم جهة الشمال ، والحال أنهم فى وسطه ومتسعه ، فيصيبهم نسيم الهواء وبرده .

وخلاصة ذلك — إنهم طوال نهارهم لاتصيبهم الشمس فى طلوعها ولا فى غروبها ، إذ كان باب الكهف فى مقابلة بنات نعش ، فهو إلى الجهة الشمالية ، والشمس لاتسامت ذلك أبدا ، لأنها لاتصل إلى أبعد من خط السرطان ، وكل بلاد بعده إلى جهة الشمال تكون الشمس من ورائها لا أمامها فيكون الظل مائلا جهة الشمال طول السنة ، كما يعلم ذلك من علم الفلك .

وإيضاح ذلك أنه لو كان باب الكهف فى ناحية الشرق لما دخل إليه شىء منها حين الغروب ، ولو كان من ناحية الجنوب لما دخل منها شىء حين الطلوع ولا الغروب، وما تزاور الفىء لايمينا ولاشمالا ، ولو كان جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع ، بل بعد الزوال ولاتزال فيه إلى الغروب .

مكان الكهف

وللمفسرين فى تعيين مكان الكهف أقوال : فقيل هو قريب من إيلياء (بيت المقدس) ببلاد الشام ، وقال ابن إسحاق : عند نينوى ببلاد الموصل ، وقيل ببلاد الروم ، ولم يقم إلى الآن الدليل على شى من ذلك ، ولو كان لنا فى معرفة ذلك فائدة دينية لأرشدنا الله إليه كما قال صلى الله عليه وسلم : « ماتركت شيئا يقرّبكم إلى الجنة ، ويباعدكم عن النار ، إلا وقد أعلمتكم به » .

(ذلك من آيات الله) أى إن هدايتهم إلى التوحيد ومخالفتهم قومهم وآباءهم وعدم الاكتراث بهم وبملكهم مع حداثتهم ، وإيواءهم إلى كهف تلك صفته بحيث تزاور الشمس عنهم طالعة ، وتقرضهم غاربة ، وإخبارك بقصصهم — كل ذلك من آيات الله الكثيرة فى الكون ، الدالة على كمال قدرته ، وعلى أن التوحيد هو الدين الحق ، وعلى أن الله يُكْرِم أهله .

ثم بين أن هدايتهم إلى التوحيد كانت بعناية الله ولطفه فقال :

(من يهد الله فهو المهتد) أى من يوفّقه الله للاهتداء بآياته وحججه إلى الحق كأصحاب الكهف ، فهو المهتدى الذى أصاب سبيل الحق ، وفاز بالحظ الأوفر فى الدارين .

وفى هذا إيماء إلى أن أصحاب الكهف أصابوا الصواب ، وَوُفِّقُوا لتحقيق ما أملوا من نشر الرحمة عليهم وتهيئة المرفق .

(ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) أى ومن يضلله الله لسوء استعداده ، وصرف اختياره ، إلى غير سبل الهدى والرشاد ، فلن تجد له أبدا خليلا ولا حليفا يرشده لإصابة سبل الهداية ، ويخلّصه من الضلال ، لأن التوفيق والخذلان بيد الله ، يوفّق من يشاء من عباده ، ويخْذُل من يشاء .

وفى هذا تسلية لرسوله وإرشاد له إلى أنه لاينبغى له أن يحزن على إدبار قومه عنه ، وتكذيبهم إياه ، فإن الله لو شاء لهداهم وآمنوا .

(وتحسبهم أيقاظا وهم رقود) أى ولو رأيتهم لظننتهم فى حال يقظة لانفتاح أعينهم وهم نيام ، كأنهم ينظرون إلى من أمامهم ، ولما للنوم من الحال الخاصة به التى يستبينها الناظر بادىء ذى بدء كاسترخاء المفاصل والأعضاء ولا سيما العينان والوجه .

(ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال) ونقلّب هؤلاء الفتية فى رقدتهم مرة للجنب الأيمن ، ومرة للجنب الأيسر ، كى ينال روح النسيم جميع أبدانهم ، ولا يتأثر مايلى الأرض منها بطول المكث .

(وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد) أى وكلبهم مُلْقٍ يديه على الأرض مبسوطتين غير مقبوضتين بفناء الكهف كما روى عن ابن عباس ، وقيل المراد بالوصيد الباب وأنشدوا :

بأرضٍ فضاء لايُسَدُّ وصيدها عليّ ومعروفى بها غير منكر

(لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا) أى لو شاهدتهم فى رقدتهم التى رقدوها فى الكهف ، لأدبرت عنهم هاربا فارا منهم .

(ولملئت منهم رعبا) أى ولملئت نفسك حين اطلاعك عليهم خوفا وفزعا ، لأن الله قد ألبسهم هيبة ووقارا كى لا يصل إليهم واصل ، ولا تلمسهم يد لامس ، حتى يبلغ الكتاب أجله ، وتوقظهم من رقدتهم قدرته وسلطانه فى الحين الذى أراد أن يجعلهم فيه عبرة لمن شاء من خلقه ، وآية لمن أراد الاحتجاج عليهم من عباده ، وليعلموا أن وعد الله حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها .

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ ، قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ؟ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ، فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (٢٠) وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ، قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا (٢١) سَيَقُولُونَ

ثَلاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ ، وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالغَيْبِ ، وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ، قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ قَلِيلٌ ، فَلاَ تُمَارِ فِيهِمْ إِلاَّ مِرَاءً ظَاهِرًا وَلاَ تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) .

تفسير المفردات

بعثناهم : أى أيقظناهم ، لبثتم : أى أقمتم ، والورِق : الفضة ، مضروبةً كانت أو غير مضروبة ، وأزكى : أجود وأطيب ، وليتلطف : أى يتكلف اللطف فى المعاملة ، كى لاتقع خصومة تجرّ إلى معرفته ، ولا يشعرنّ : أى لايفعلنّ ما يؤدى إلى شعور أحد من أهل المدينة بكم ، إن يظهروا عليكم : أى إن يطّلعوا عليكم ويعلموا بمكانكم ؛ وأصل العثور السقوط للوجه ، يقال عثرَ عُثورا وعِثارا : إذا سقط لوجهه ، ويقال فى المثل « من سلك الجَدَد أمِن العِثار » ، ثم استعمل فى الاطلاع على أمر من غير طلب له ، والساعة: يوم القيامة حين يبعث الله الخلائق جميعا للحساب والجزاء ، والتنازع : التخاصم ، والذين غلبوا على أمرهم : هم رؤساء البلد ، لأنهم هم الذين لهم الرأى فى مثل هذا ، والمسجد : معبد المؤمنين من تلك الأمة وكانوا نصارى على المشهور ، والرجم : القول بالظن ويقال لكل ما يُخرَص : رُجِم فيه وحديث مرجوم ومرجَّم كما قال :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتمُ وما هو عنها بالحديث المرَجَّمِ

والغيب : ما غاب عن الإنسان ؛ فالمراد أن يرمِى الإنسان ما غاب عنه ولا يعرفه بالحقيقة ، كما يقال فلان يرمى بالكلام رميا : أى يتكلم من غير تدبر، والمراد هنا القول بالظن والتخمين ، والمراء : المحاجة فيما فيه مِرْية وتردد ، والمراء الظاهر : مالا تعمّق فيه بألا يكذّبهم فى تعيين العدد ، بل يقول هذا التعيين لادليل عليه ، فيجب عدم الجزم به ولا تستفت : أى لا تطلب الفُتْيا منهم .

الإيضاح

(وكذلك بعثناهم) أى كما أرقدنا هؤلاء الفتية فى الكهف ، وحفظنا أجسامهم من البِلى على طول الزمان ، وثيابهم من العفَن على مرّ الأيام بقدرتنا ـ بعثناهم من رقدتهم ، وأيقظناهم من نومهم ، لنعرّفهم عظيم سلطاننا ، وعجيب فعلنا فى خلقنا ، وليزدادوا بصيرة فى أمرهم الذى هم عليه ، من براءتهم من عبادة الآلهة ، وإخلاصهم العبادة لله الواحد القهار ، إذا تبينوا طول الزمان عليهم وهم بهيئتهم حين رقدوا .

(ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم ؟) أى ولتكون عاقبة أمرهم أن يسأل بعضهم بعضا ، فيقول قائل منهم لأصحابه : كم لبثتم ؟ ذاك أنهم استنكروا من أنفسهم طول رقدتهم .

(قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم) أى فأجابه الآخرون، فقالوا لبثنا يوما أو بعض يوم ظنا منهم أن ذلك كذلك كان .

وإيضاح هذا أنهم لم يتحققوا مقدار لبثهم ، فهم لا يدرون مقدار ذلك اللّبث ، أيوم هو أو بعض يوم ، لأن لُوثة النوم وظواهره لم تذهب من بصرهم وبصيرتهم ، فلم ينظروا إلى الأمارات التى تدل على ذلك المقدار الذى يُظنّ ، أنه قد كان .

وأكثر المفسرين على أن دخولهم فى الكهف كان أول النهار واستيقاظهم كان آخر النهار .

(قالوا ربكم أعلم بما لبثتم) أى وقال آخرون : ربكم أعلم بما لبثتم أى أنتم لا تعلمون مدة لبثكم ، بل الله هو الذى يعلمها ، وهذا من الأدب البارع فى الرد على الأولين بأحسن أسلوب وأجمل تعبير .

وحين علموا أن الأمر ملتبس عليهم عدلوا إلى الأهم فى أمرهم وهو احتياجهم إلى الطعام والشراب فقالوا :

(فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة) أى فابعثوا بدراهمكم هذه إلى المدينة وهى طرسوس كما جزم بذلك فخر الدين الرازى .

وفى قولهم (هذه) إشارة إلى أن القائل كان قد أحضرها ليناولها بعض أصحابه ، و إلى أن التأهب لأسباب المعاش بحمل الدراهم ونحوها لمن خرج من منزله ، لاينافى التوكل على الله كما جاء فى الحديث « اعقلها وتوكل » .

(فلينظر أيها أزكى طعاما فليأتكم برزق منه) أى فليبصر أىُّ الأطعمة أجود وألذّ فليأتكم بمقدار منه .

(وليتلطف ولا يشعرنّ بكم أحدا) أى وليترفق فى دخول المدينة ، وفى شرائه ، وفى إيابه منها ، ولا يخبرَنّ بمكانكم أحدا من أهلها .

ثم ذكروا تعليل الأمر والنهى السالفين بقولهم :

(إنهم إن يظهروا عليكم يرجموكم أو يعيدوكم فى ملتهم) أى إن الكفار إن علموا بمكانكم ولم تفعلوا ما يريدون منكم ، بل ثبتم على إيمانكم ، إما أن يقتلوكم رميا بالحجارة ، وكان ذلك هو المتبع فى الأزمنة الغابرة فيمن يعلن خلاف ما عليه الجماهير فى الأمور الدينية والسياسية التى لها شأن فى الدولة ، و إما أن يعيدوكم إلى ملة آبائكم التى هم مستمسكون بها .

(ولن تفلحوا إذاً أبدا) أى و إن دخلتم فى ملتهم ولو بالإكراه والقسر لن تفوزوا بخير لا فى دنياكم ولا فى آخرتكم ، إذ ربما استدرجكم الشيطان إلى أن تستحسنوا ما ستعتنقونه من ذلك الدين الجديد ، وتستمرئوه فتستمروا عليه فيكون قد كتب عليكم الشقاء عند ربكم ، والخذلان الذى لاخذلان بعده .

(وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها) أى وكما بعثناهم بعد طول رقدتهم كهيئتهم حين رقدوا ، ليتساءلوا بينهم فيزدادوا بصيرة بعظيم سلطانه تعالى ، ومعرفة حسن دفاع الله عن أوليائه ـ أعثرنا عليهم الفريق الآخر الذين كانوا فى شك من قدرة الله على إحياء الموتى ، وفى مرية من إنشاء أجسام خلقه كهيئتهم يوم قبضهم بعد البلى ، ليعلموا أن وعد الله حق ، ويوقنوا أن الساعة آتية لاريب فيها ، إذ لاحجة لمن أنكرها إلا الاستبعاد ، ولكن وقوع ذلك الأمر العظيم

وعلمهم به ، مما يخفف من غلوائهم ، ويكبَح جماح إنكارهم ويردهم إلى رشدهم .

ذاك أن حال هؤلاء الفتية فى تلك الحِقْبة الطويلة ، وقد حبست عن التصرف نفوسهم ، وعُطّلت مشاعرهم وحواسهم ، وحُفِظت من التحلل والتفتت أبدانهم ، وبقيت على ما كانت عليه من الطراوة والشباب ، ثم رجعت بعدئذ تلك المشاعر والحواس إلى حالها ، وأطلقت النفوس من عقالها ، وأرسلت إلى تدبير أبدانها ، فرأت الأمور كما كانت ، والأعوان هم الأعوان ، ولم تنكر شيئا عهدته فى مدينتها ، ولم تتذكر حبسها المدى الطويل عن التصرف فى شؤونها ــ وحال الذين يقومون من قبورهم بعد ما تعطلت مشاعرهم وحبست نفوسهم ــ من وادٍ واحد فى الغرابة ، ولا ينكر ذلك إلا جاهل أو معاند ، ووقوع الأول يزيل الارتياب فى إمكان وقوع الثانى ، ولا يبقى بعد ذلك شك فى أن وعد الله حق ، وأن الله سيبعث من فى القبور ، فيردّ عليهم أرواحهم ، ويجازيهم جزاء وفاقا بحسب أعمالهم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وهو الحكم العدل ، اللطيف الخبير .

(إذ يتنازعون بينهم أمرهم) أى وكذلك أطلعنا عليهم بيدروس وقومه حين ينازع بعضهم بعضا فى أمر البعث ، فمن مقرٍّ به ، وجاحد له ، وقائل تبعث الأرواح دون الأجساد ــ ففرح الملك وفرحوا بآية الله على البعث ، وزال ما بينهم من الخلاف فى أمر القيامة ، وَحمِدوا الله إذ رأوا ما رأوا مما يثبتها ، ويزيل كل ريب فيها .

ثم حكى آراء القوم فى شأنهم بعد اطلاعهم عليهم فقال :

(فقالوا ابنوا عليهم بنيانا ربهم أعلم بهم قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا) أى إنهم انقسموا فى شأنهم فريقين ، فريق يقول : نسد عليهم باب الكهف ونذرهم حيث هم ، وفريق يقول : نبنى عليهم مسجدا يصلى فيه الناس ، وقد غلب هذا الفريق الفريق الأول فى الرأى .

وقوله (ربهم أعلم بهم) جملة معترضة من كلامه تعالى ردا للخائضين فى أمرهم

ممن أُعْثِروا عليهم ، أو ممن كان فى عهده صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب ، فى بيان أنسابهم وأسمائهم وأحوالهم ومدة لبثهم .

وقد ذكر العلماء أن اتخاذ القبور مساجد منهيّ عنه أشد النهى حتى ذكر ابن حجر فى كتابه الزواجر أنه من الكبائر ، لما روى فى صحيح الأخبار من النهى عن ذلك ، روى أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لعن الله تعالى زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج » وزاد مسلم « ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد ، فإنى أنهاكم عن ذلك » .

وروى الشيخان والنسائى عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لعن الله تعالى اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

وروى أحمد والشيخان والنسائى قوله صلى الله عليه وسلم : « إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بَنَوْا على قبره مسجدا وصوّروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق يوم القيامة » .

وروى أحمد والطبرانى : « إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء . ومن يتخذ القبور مساجد »

إلى نحو ذلك من الآثار الصحيحة ، فليعتبر المسلمون اليوم بهذه الأخبار التى لا مِرْية فى صحتها ، وليُقْلِعوا عما هم عليه من اتخاذ المساجد فى أضرحة الأولياء والصالحين والتبرك بها ، والتمسح بأعتابها ، وليعلموا أن هذه وثنية مقنَّعة ، وعوْد إلى عبادة الأوثان والأصنام على صور مختلفة ، والعبرة بالجوهر واللب ، لا بالعَرَض الظاهر ، فذلك إشراك بالله فى ربوبيته وعبادته ، وقد حارب به الدين أشد المحاربة ، ونعى على المشركين ما كانوا يفعلون .

اللهم ألهم المسلمين رشدهم ، وثبتهم فى أمر دينهم ، ولا تجعلهم يحذون حذو من قبلهم حذو القُذّة بالقذة ، وأرجعهم إلى مثل ما كان يفعله المسلمون فى الصدر الأول

وما بعده ، فرجاله هم الأسوة ، وقد صح أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما وجد قبر دانيال فى عهده بالعراق أمر أن يُسَوّى بالأرض ، وأن تدفن تلك الرُّقْعة التى وجدوها عنده وفيها شىء من الملاحم وغيرها من الأخبار .

ولما ذكر سبحانه القصة ونزاع المتخاصمين فيما بينهم ـ شرع يقص علينا مادار فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم من الخلاف فى عدد أصحاب الـكهف فقال :

(سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم) أى سيقول بعض الخائضين من أهل الـكتاب ذلك ، فقد روى أن نصارى نجران تناظروا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عدد أهل الـكهف ، فقالت الملـكانية (أصحاب الملك) : هم ثلاثة رابعهم كلبهم ، وقالت اليعقوبية : هم خمسة سادسهم كلبهم ، وقالت النسطورية : هم سبعة وثامنهم كلبهم ، وروى هذا عن ابن عباس ، وهو الحق بدليل أنه تعالى حكم على القولين السابقين بأنهما رجم بالغيب ، فأرشد ذلك إلى أن الحال فى الأخير بخلافه ، وأنهم إنما قالوه عن ثبات علم ، وطمأنينة نفس .

(قل ربى أعلم بعدتهم) فى هذا إرشاد لنا إلى أن الأحسن فى مثل هذا المقام رد العلم إلى الله تعالى ، إذ لا احتياج إلى الخوض فى مثل ذلك بلا علم ، فإن اطلعنا على أمر قلنا به ، وإلا توقَّفْنا ولم نجزم بشىء .

(مايعلمهم إلا قليل) أى مايعلم عددهم إلا قليل من الناس . روى قتادة عن ابن عباس أنه قال : أنا من القليل الذى استثنى الله عز وجل ، كانوا سبعة سوى الـكلب ، ولم يرد فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم شىء فى ذلك .

وفى هذا دلالة على أن المهمّ ليس هو معرفة العدد ، بل المهم الاعتبار بذلك القصص ، وبما يكون نافعا لعقولنا وتطهير أخلاقنا ورقينا فى حياتينا الدنيوية والأخروية .

و بعد أن ذكر سبحانه هذا القصص ، نهى رسوله صلى الله عليه وسلم عن شيئين : المراء فى أمرهم ، والاستفتاء فى شأنهم فقال :

(فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا) أى فلا تجادل فى شأن الفتية إلا جدلا سهلا ليّنا ، وقص عليهم ما جاء فى الكتاب الكريم دون تكذيب لهم فى تعيين العدد ، ولا تجهيل لهم فى الحديث ، إذ لا يترتب على ذلك كبير فائدة ، لأن المقصد من القصة هو العظة والاعتبار ، ومعرفة أن البعث حاصل لا محالة ، وهذا لا يتوقف على عدد معين ، إلى أن ذلك مما يخلّ بمكارم الأخلاق التى بعث لإتمامها .

ونحو الآية قوله : « وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » .

(ولا تستفت فيهم منهم أحدا) أى ولا تستفت النصارى فى شأنهم ، فإنهم لا علم لهم بذلك إلا ما يقولونه من تلقاء أنفسهم رجما بالغيب من غير استناد إلى دليل قاطع ، ولا نص صريح ، وقد جاءك ربك بالحق الذى لا مرية فيه ، فهو الحاكم المقدّم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال السالفة .

وفى الآية دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب فى شىء من العلم .

وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا (٢٤) .

المعنى الجملى

جاءت هاتان الآيتان إرشادا وتأديبا من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، يعلمه بأنه إذا أراد أن يخبر عن شىء سيفعله فى مستأنف الأيام ، أن يقرن قوله بمشيئة علام الغيوب الذى يعلم ما كان وما سيكون .

وجاءتا معترضتين أثناء القصة لما تضمنتاه من تعليم عباده تفويض الأمور كلها إليه ، وبيان أنه لا يحدث فى ملكه إلا ما يشاء .

روى « أنهما نزلتا حين سألت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح وعن أصحاب الكهف وعن ذى القرنين ، فقال عليه الصلاة والسلام : غدا أخبركم ، ولم يستثن (لم يقل إن شاء الله) فأبطأ عليه الوحى خمسة عشر يوما ، فشق ذلك عليه وكذبته قريش .

الايضاح

(ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله) أى ولا تقولن أيها الرسول لشىء إنى سأفعل ذلك غدا إلا أن تقول : إن شاء الله ، ذاك أنه ربما مات المرء قبل مجىء الغد ، أو ربما عاقه عائق عن فعله ، فإذا لم يقل إن شاء الله صار كاذبا فى ذلك الوعد ونفر الناس منه .

(واذكر ربك إذا نسيت) أى واذكر مشيئة ربك إذا فرط منك نسيان ثم تذكرت ذلك ، وهذا أمر بالتدارك حين التذكر ، سواء أطال الفصل أم قصر .

(وقل عسى أن يهدين ربى لأقرب من هذا رشدا) أى وقل عسى أن يوفقنى ربى لشىء أقرب إرشادا للناس ، وأظهر حجة من نبأ أهل الكهف .

وقد حقق الله له ذلك ، فآتاه من الآيات ماهو أعظم من ذلك ، كقصص الأنبياء مع أممهم على توالى العصور ومر الأيام .

وخلاصة ذلك — اطمع من ربك أن يهديك لأقرب مما أرشدك إليه خيرا ومنفعة فى ضمن ما ألقى إليك من الأوامر والنواهى ، وقد استجاب الله دعاءه ، فهداه فيما أنزل عليه إلى ماهو خير منفعة ، وأجدى فائدة للمسلمين فى دنياهم وآخرتهم ، وآتاهم من الخير العميم ما جعلهم به خير أمة أخرجت للناس .

ثم بين سبحانه ما أجمل فى قوله : « فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا » فقال :

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا ، لَهُ غَيْبُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ، مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦) .

الايضاح

(ولبثوا فى كهفهم ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا) أى ولبثوا فى الكهف حين ضربنا على آذانهم ثلثمائة سنة على حساب أهل الكتاب الذين علّموا قومك السؤال عن شأنهم ، وتسعا زائدة على حساب قومك الذين سألوك عن ذلك .

ولا شك أن فى هذا البيان معجزة لرسوله النبى الأمى الذى لم يقرأ ولم يكتب ، ولم يدرس الحساب ولا الهندسة ولا الفلك ، فمن أين له أن كل مائة سنة شمسية تزيد ثلاث سنين قمرية ، وكل ثلاث وثلاثين سنة شمسية تزيد سنة قمرية ، وكل سنة شمسية تزيد نحو أحد عشر يوما على السنة القمرية ؟.

لاشك أنه قد أعلمه اللطيف الخبير بما أوحاه إليه ، وهداه لأقرب من هذا رشدا ، وهو الذى جعله يَلفِت الأنظار إلى علم ما على الأرض زينة لها كضوء الشمس والقمر على وجهها، وما نُتِج عن ذلك الضوء من بهجة الأرض وزينتها ؛ فلولا اختلاف الفصول لم يكن للأرض زينة ، ولا اختلاف للفصول إلا بتقلب أحوال الشمس وطلوعها من حيث لا تمسى ، فما من حيوان ولا نبات إلا أسّ حياته ضوء الشمس الذى أرسله الله إلى الأرض ، كما أرسل محمدا صلى الله عليه وسلم ليهدينا إلى نور العلم ويقول لنا : إن النظر فيما على الأرض من زينة أقرب رشدا من قصص الأولين ، وحكايات الغابرين .

فكم فى العوالم المحيطة بكم من خوارق ، فإياكم أن تذروها ابتغاء ما يقع على أيدى أنبيائكم وأوليائكم . فإنى قد أرسلتُ الأنبياء ليرشدوكم إلى ملكى وما فى خلقى

من عجائب ، وما الأنبياء والأولياء إلا بعض خلق « لَخَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » .

ثم أكد أن المدة المضروبة على آذانهم هى هذه المدة فقال :

(قل الله أعلم بما لبثوا) أى قل الله أعلم منكم بهم ، وقد أخبر بمدة لبثهم ، فهو الحق الذى لا يحوم حوله شك .

وفائدة تأخير بيانها الدلالة على أنهم تنازعوا فيها أيضا كما تنازعوا فى العدد ، وعلى أن هذا البيان من الغيب الذى أخبر الله به نبيه ليكون معجزة له ، وجاء قوله « قل الله أعلم بما لبثوا » تذييلا لسابقه ، ليكون محاكيا قوله فى حكاية عددهم « قل ربى أعلم بعدتهم » .

ثم أشار إلى اختصاصه بعلم ما لبثوا دون غيره فقال :

(له غيب السموات والأرض) أى ولله علم ما غاب فيهما ، وخفى من أحوال أهلهما ، لا يعزب عنه علم شىء منه ، فسلموا له علم ما لبثت الفتية فى الكهف ، وإذا علم الخفى فيهما فهو بعلم غيره أدرى .

ومن ذلك العلم الغائب على كثير من العقول حسابُ السنة الشمسية والقمرية ، فقد غيّبه الله عن بعض الناس ، ولم يُطلِع عليه إلا العارفين بحساب الأفلاك ، ومن ثم يَتَعَجَّبُون من أمر نبيهم ، ويعلمون أن هذا مبدأ زينة الأرض وزخرفها .

(أبصر به وأسمع) هذا أسلوب فى اللغة يدل على التعجب والمبالغة فى الأمر الذى تتحدث بشأنه ، أى ما أبصر الله تعالى بكل موجود ، وأسمعه بكل مسموع ، فهو لا يخفى عليه شىء من ذلك ، وهذا أمر عظيم من شأنه أن يُتعجّب منه .

وقد ورد مثل هذا فى الحديث : « ما أحلمك عمن عصاك ، وأقربك ممن دعاك ، وأعطفك على من سألك » .

(مالهم من دونه من ولى) أى ما لخلقه دون ربهم الذى خلقهم – ولىّ يلى تدبير أمورهم وتصريفهم فيما هم فيه مصرّفون .

(ولا يشرك فى حكمه أحدا) أى إنه تعالى هو الذى له الخلق والأمر ، لامعقب لحكمه ، وليس له وزير ولا نصير ولا شريك ، تعالى الله وتقدست أسماؤه .

وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٧) وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا (٢٨) وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ، إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ، وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ ، بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١) .

تفسير المفردات

لامبدل : أى لامغير ، لكلماته أى لأحكامها ، فلا يستطيع أحد نسخ أحكام ما جاء فى كتابه ، ملتحدا : أى ملجأ تعدل إليه إذا ألمّت بك ملمّة ، واصبر نفسك : أى احبسها وثبّتها ، بالغداة والعشى : أى فى طرفى النهار ، وخصهما بالذكر ، لأنهما محل الغفلة ، وفيهما يشتغل الناس بأمور دنياهم ، وجهه : أى رضاه وطاعته لأن من رضى

عن شخص يقبل عليه ، ومن غضب عليه يعرض عنه ، ولا تعد عيناك عنهم : أى لاتَصْرِف عيناك النظر عنهم إلى أبناء الدنيا ؛ والمراد لاتحتقرهم وتصرف النظر عنهم إلى غيرهم لرثاثة منظرهم ، تريد زينة الحياة الدنيا : أى تطلب مجالسة من لم يكن مثلهم من الأغنياء وأصحاب الثراء ، أغفلنا قلبه : أى جعلناه غافلا ، فرطا : أى تفريطا وتضييعا لما يجب عليه أن يتّبعه من أمر الدين ، وأعتدنا : أى أعددنا وهيأنا ، والسرادق : لفظ فارسى معرّب يراد به الفسطاط (الخيمة) شبه به مايحيط بهم من لهب النار المنتشر منها فى سائر الجهات ، المهل : دردىّ الزيت أو ماأذيب من المعادن كالرّصاص والنُّحاس ، يشوى الوجوه : أى ينضجها إذا قُدِّم ليُشْرب ، لشدة حره ، ومرتفقا : أى متكأ ؛ يقال بات فلان مرتفقا أى متكئا على مِرْفق يده ، وجنات عدن : أى جنات إقامة واستقرار ؛ يقال عَدَن بالمكان إذا أقام فيه واستقر ، ومنه المعْدِن لاستقرار الجواهر فيه ، والأساور : واحدها سوار ، والسندس : رقيق الديباج واحده سندسة وهو فارسى معرّب ، والإستبرق : ما غلظ منه وهو رومى معرب ، والأرائك واحدها أريكة — سرير عليه حَجَلة (ناموسية) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه قصص أهل الكهف ودل اشتمال القرآن عليه على أنه وحى من علام الغيوب — أمره جل شأنه بالمواظبة على درسه وتلاوته ، وألا يكترث بقول القائلين له : ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، ثم ذكر ما يلحق الكافرين من النكال والوبال يوم القيامة ، وماينال المتقين من النعيم المقيم كفاء ما عملوا من صالح الأعمال .

الإيضاح

(واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك لامبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا) أى واتل الكتاب الذى أوحى إليك ، والزم العمل به ، واتَّبِعْ مافيه من أمر ونهى ، وإن أحدا لايستطيع أن يُغيِّر مافيه من وعيد لأهل معاصيه ، ومن وعد لأهل

طاعته ، فإن أنت لم تتبعه ولم تأتمّ به ، فنالك وعيد الله الذى أوعد به المخالفين حدوده فلن تجد موئلا من دونه ، ولا ملجأ تلجأ إليه ، إذ قدرة الله محيطة بك وبجميع خلقه ، لايقدر أحد على الهرب من أمر أراده به .

(واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه) أى احبس نفسك وثبّتها مع فقراء الصحابة كعمار بن ياسر وصُهَيب و بلال وابن مسعود وأضرابهم ممن يدعون ربهم بالغداة والعشى بالتسبيح وصالح الأعمال ابتغاء مرضاة الله ، لايريدون عرضا من أعراض الدنيا ولا شيئا من لذاتها ونعيمها .

روى « أن عُيَيْنة بن حِصْن الفزارى أتى النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يُسْلِم وعنده جماعة من فقراء أصحابه ، فيهم سلمان الفارسى وعليه شَمْلة قد عَرِق فيها ، و بيده خوص يشقّه ثم ينسجه ، فقال له : أمايؤذيك ريح هؤلاء ونحن سادات مضر وأشرافها ، فإن أسلمنا أسلم الناس ، ومايمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء ، فنحّهم حتى نتّبعك ، أو اجعل لهم مجلسا ، ولنا مجلسا ، فنزلت الآية » .

وعن أبى سعيد وأبى هريرة قالا : « جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجل يقرأ سورة الحجر أو سورة الكهف فسكت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا المجلس الذى أمرت أن أصبر نفسى معهم » .

ونحو الآية قوله : « وَلاَ تَطْرُدِ الذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ » .

ومقال هؤلاء شبيه بمقالة قوم نوح : « أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ » :

ثم أمره سبحانه بمراقبة أحوالهم فقال :

(ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا) أى لاتصرف بصرك ونفسك عنهم ، رغبةً فى مجالسة الأغنياء لعلهم يؤمنون .

وخلاصة ذلك — النهى عن احتقارهم ، وصرف النظر عنهم إلى غيرهم ، لسوء

حالهم وقبح رِزّتهم ، روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت الآية : الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أُمِرْتُ أن أصبر نفسى معه .

ثم أكد هذا النهى بقوله :

(ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) أى ولا تطع فى تنحية الفقراء عن مجلسك من جعلنا قلبه غافلا عن ذكر الله ، لسوء استعداده ، واتباع شهواته ، وإسرافه فى ذلك غاية الإسراف ، وتدسيته نفسه ، حتى ران الكفر والفسوق والعصيان على قلبه ، وتمادى فى اجتراح الآثام والأوزار .

وفى ذلك تنبيه إلى أن الباعث لهم على استدعاء الطرد غفلة قلوبهم عن جناب الله ، والعمل على ما يقرِّب منه ، وشغلهم بالأمور الحسية حتى خفى عليهم أن الشرف بحلية النفس لا بزينة الجسد وزخرف الحياة من اللباس والطعام والشرف .

وبعد أن أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن لا يلتفت إلى قول أولئك الأغنياء الذين قالوا إن طردت أولئك الفقراء آمنا بك — أمره أن يقول لهم ولغيرهم على طريق التهديد والوعيد : هذا هو الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، وقد أشار إلى ذلك بقوله :

(وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) أى قل أيها الرسول لأولئك الذين أغفلنا قلوبهم عن الذكر ، واتبعوا أهواءهم : هذا الذى أوحى إلىّ هو الحق من عند ربكم ، وهو الذى يجب عليكم اتباعه والعمل به ، فمن شاء أن يؤمن به ويدخل فى غمار المؤمنين ، ولا يتعلل بما لا يصلح أن يكون معذرة له فليفعل ، ومن شاء أن يكفر به وينبذه وراء ظهره فأمره إلى الله ، ولست بطارد لأجل أهوائكم من كان للحق متّبعا ، وبالله وبما أنزل علىّ مؤمنا .

وخلاصة ذلك — إننى فى غنى عن متابعتكم ، وإننى لا أبالى بكم ولا بإيمانكم ، وأمر ذلك إليكم ، وبيد الله التوفيق والخذلان ، والهوى والضلال ، وهو لا ينتفع بإيمانه

المؤمنين ، ولا يضره كفر الكافرين كما قال : « إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا » .

ولما هدد السامعين بأن يختاروا لأنفسهم مايجدونه غدا عند الله ـ أتبعه بذكر الوعيد على الكفر والمعاصى ، والوعد على الأعمال الصالحة ، وبدأ بالأول فقال :

(إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها) أى إنا قد أعددنا لمن ظلم نفسه وأنف من قبول الحق ، ولم يؤمن بما جاء به الرسول ـ نارا يحيط بهم لهيبها المستعر من كل جانب كما يحيط السرادق بمن حل فيه ، فلا مَخْلَص منه ، ولا ملجأ إلى غيره

(وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه) أى وإن يستغث هؤلاء الظالمون يوم القيامة وهم فى النار ، فيطلبوا الماء لشدة ماهم فيه من العطش لحر جهنم كما قال فى سورة الأعراف حكاية عنهم : «أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ» يؤتَ لهم بماء غليظ كدردىّ الزيت ، وإذا قرب إليهم للشرب سقطت جلود وجوههم ونَضِجت من شدة حره .

روى أحمد والترمذى والبيهقى والحاكم عن أبى سعيد الخدرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « المهل : كَعِكْر الزيت ، فإذا قُرِّب إليه سقطت فَرْوة وجهه » ، وعن ابن عباس قال : أسود كعكر الزيت .

(بئس الشراب وساءت مرتفقا) أى ما أقبح هذا الشراب الذى هو كالمهل ، فهو لايطفىء غُلَّة ، ولا يسكّن حرارة الفؤاد ، بل يزيد فيها إلى أقصى غاية ، وما أسوأ هذه النار منزلا ومرتفقا ، وجاء فى الآية الأخرى : « إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » .

ثم ثَنَّى بذكر السعداء فقال :

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا) أى إن الذين آمنوا بالحق الذى يوحى إليك ، وعملوا ما أمرهم به ربهم ، فالله لايضيع أجورهم على ما أحسنوا من الأعمال ، ولا يظلمهم على ذلك نقيرا ولا قطميرا .

ثم بين ما أعد لهم من النعيم بقوله :

(١) (أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار) أى إنه لهم جنات يقيمون فيها تجرى من تحت غرفها الأنهار .

(٢) (يحلون فيها من أساور من ذهب) أى يلبسون فيها أساور من ذهب تكون حلية لهم ، وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » . أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما ، وظاهر الآية أنها جميعها من ذهب ، وجاء فى آية أخرى من فضة ، وفى أخرى من ذهب ولؤلؤ فيعلم من هذا أنهم يحلون بالأساور الثلاثة ، فيكون فى يد الواحد منهم سوار من ذهب وآخر من فضة وآخر من لؤلؤ .

(٣) (ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق) أى ويلبسون رقيق الحرير وغليظه مما نسج من سلوك الذهب ، وهذا لباس المترفين فى الدنيا ، ومنتهى ما يكون لأهل النعيم .

واختير اللون الأخضر ، لأنه أرفق بالأبصار ، ومن ثم جعله الله لون النبات والأشجار ، وجعل لون السماء الزرقة ، لأنه نافع لأبصار الحيوان أيضا ، وقد قالوا : ثلاثة مُذْهِبَة للحزَن : الماء والخضرة والوجه الحسن .

(٤) (متكئين فيها على الأرائك) أى يتكئون فيها على سرر مزدانة بالستور ، وفى هذا دليل على منتهى الراحة والنعيم ، كما يكون ذلك فى الدنيا .

(نعم الثواب وحسنت مرتفقا) أى نعمت الجنة لهم جزاء وفاقا على جميل أعمالهم ، وحسنت منزلا ومقيلا .

ونحو الآية قوله : « أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا . خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » .

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا

وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا ، وَفَجَّرْنَا خِلاَلَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ، وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ : أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَٰكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّى وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبِّى أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللهِ ، إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَى رَبِّى أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ، وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّى أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ لِلهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (٤٤).

تفسير المفردات

الجنة : البستان ، سميت بذلك لاجتنان أرضها واستتارها بظل الشجر ، وكل مادة (ج ن ن) تفيد الخفاء والاستتار كالجنين والجن والمجنون لاستتار عقله وجن الليل : أى أظلم إلى نحو ذلك ، أعناب : أى كروم منوعة ، وحففناها بنخل : أى جعلنا النخل محيطا بهما مُطيفا بخفافيهما : أى جانبيهما ، يقال حفّه القوم : أى

طافوا به ، ومنه قوله « حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ » وحففته بهم إذا جعلتهم حافين حوله ، أكلها : أى ثمرها ، ولم تظلم : أى لم تنقص ، والنهر لغة فى النهر : وهو مجرى الماء العذب ، ثمر : أى أنواعٌ من المال يقال ثمر فلان ماله وأثمره : إذا نماه . قال الحرث ابن كلدة :

ولقد رأيت معاشرا قد أثمروا مالا وولْدا

والصاحب : المصاحب لك ، يحاوره : أى يجادله ويراجعه الكلام بالوعظ والدعاء إلى الإيمان بالله والبعث ، والمراد من النفر الخدم والحشم والأعوان ، أن تبيد : أى تفنى وتهلك ، قائمة : أى كائنة متحققة ، ومنقلبا : أى مرجعا وعاقبة ، سواك : أى عدلك وكملك إنسانا ، لكنا هو الله ، أصل التركيب لكن أنا هو الله ربى (دخله نقل وحذف) لولا : حرف يفيد الحث على الشىء والتوبيخ على تركه ، ماشاء الله: أى ماشاء الله كائن ، حسبانا من السماء : أى مطرا عظيما يقلع زرعها وأشجارها ، والصعيد : وجه الأرض ، وزلقا : أى تصير بحيث تزلق عليها الرجل ؛ والمراد أنها تصير ترابا أملس لاتثبت فيه قدم ، والغور : الغائر فى الأرض الغائص فيها ، طلبا : أى عملا وحركة لرده ، وأحيط بثمره : أى أهلكت أمواله ، يقال أحاط به العدو : إذا استولى عليه وغلبه ، ثم استعمل فى كل إهلاك ، ويقلب كفيه ، هذا أسلوب فى اللغة يفيد الندامة والحسرة ، فإن من تعظم حسرته يصفق بإحدى يديه على الأخرى متأسفا متلهفا ، خاوية : أى ساقطة ، يقال خوت الدار وخوت وخويت خيا وخويا : تهدمت وخلت من أهلها ، والعروش : واحدها عرش وهى الأعمدة التى توضع عليها الكروم ، منتصرا: أى ممتنعا بقوة عن انتقام الله ، عقبا: أى عاقبة .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله نبيه بصبر نفسه مع فقراء المؤمنين ، وعدم طاعة أولئك الأغنياء من المشركين الذين طلبوا منه صلى الله عليه وسلم طرد هؤلاء الصعاليك ، وأن

يعين لهم مجلسا وللسادة مجلسا آخر حتى لا يؤذوهم بمناظرهم البشعة ، وروائحهم المستقذرة ، وحتى لا يقال إن السادة ومواليهم يجتمعون فى صعيد واحد ، ويتحدثون وإياهم حديث الند للند ، وفى ذلك امتهان لكبريائهم وخفض من عزتهم — فقفى على ذلك بمثل يستبين منه أن المال لا ينبغى أن يكون موضع فخار ، لأنه ظل زائل ، وأنه كثيرا مايصير الفقير غنيا والغنى فقيرا ، وإنما الذى يجب أن يكون أساس التفاخر ، وعمدة التفاضل ، هو طاعة الله وعبادته ؛ والعمل على ما يرضيه فى دار الكرامة حيث لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

الايضاح

(واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا) أي واضرب أيها الرسول لهؤلاء المشركين بالله الذين سألوك أن تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى — مثلا هو مثل رجلين جعلنا لأحدهما بستانين من كروم العنب ، وأحطناهما بنخل ، وجعلنا وسط هذين البستانين زرعا .

وخلاصة ذلك — إن أرضه جمعت القوت والفواكه ، وهى متواصلة متشابكة ، فلها منظر ورواء حسن ووضع أنيق يخلب اللب بجماله وبهجته إذا امتلأ منه البصر .

روى أن أخوين من بنى إسرائيل ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار فتشاطراها فاشترى الكافر بنصيبه ضياعا وعقارا ، وأنفق المؤمن ماورثه فى وجوه الخير وطاعة الله وآل أمرهما إلى ماقصه الله علينا فى كتابه .

وسواء أصحت الرواية أم لم تصح ، فإن ضرب المثل لا يتوقف على صحتها .

وقد ضرب الله المثل ليبين حال الفريقين المؤمنين والكافرين ، من قبل أن الكفار مع تقلبهم فى النعيم قد عصوا ربهم ، وأن المؤمنين مع مكابدتهم للشدائد والبأساء قد أطاعوه .

(كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا) أى كلتا الجنتين أخرجت ثمرها

ولم تنقص منه شيئا فى سائر الأعوام على خلاف ما يعهد فى الكروم والأشجار من أنها تكثر غلتها أعواما وتقل أعواما أخرى .

(وفجرنا خلالهما نهرا) أى وشققنا وسط الجنتين نهرا كبيرا تتفرع منه عدة جداول ، ليدوم سقيهما ، ويزيد بهاؤهما وتكثر غلتهما .

(وكان له ثمر) أى وكان لصاحب الجنتين أموال أخرى غيرهما من ذهب وفضة ثمرها بما ادخره من غلات الجنتين ومن تجارات أخرى .

وخلاصة ذلك — إنه سبحانه أنعم عليه بخيرات الدنيا صامتها وناطقها ، ثاغيها وراغيها ، وكان له مزارع يستخدم فيها أعوانه وخدمه ولا يستعصى عليه شىء من مسرات الدنيا ومباهجها ، ولذاتها ونعيمها .

وبعد أن تم له الأمر وقعد على سنام العز والكبرياء ، داخله الزهو والخيلاء .

(فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا) أى فقال لصاحبه المؤمن حين حاوره وراجعه الحديث ، مذكرا له بالإيمان بالله والبعث والقيامة : أنا أكثر منك مالا كما ترى من جناتى وزروعى المختلفة ، وأعز عشيرة ورهطا تقوم بالذب عنى ودفع خصومتى ، وتنفر معى عند الحاجة إلى ذلك .

ثم زاد فخرا على صاحبه المسلم وأراه عيانا ما يتمتع به من المناظر البهيجة فى تلك الجنان التى لا تفنى ، وذلك ما أخبر عنه سبحانه بقوله :

(ودخل جنته وهو ظالم لنفسه ، قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا ، وما أظن الساعة قائمة) أى ودخل هذا الذى جعلنا له جنتين من أعناب وأشجار ونخيل ، ومعه صاحبه ، هاتين الجنتين وطاف به فيهما مفاخرا وقال حين عاين ما فيهما من أشجار وثمار وزروع وأنهار مطردة : ما أظن أن تفنى هذه الجنة أبدا ولا تخرب — كما قال (وهو شاك فى المعاد إلى الله والبعث والنشور) ما أظن أن يوم القيامة آت كما تقولون ، وقد كان فى كل ذلك ظالما لنفسه ، إذ وضع الشىء فى غير موضعه ، فقد كان أليق به أن يكون شاكرا لتلك

النعم ، متواضعا لربه ، لا أن يكون كافرا به ، منكرا لما جاء به الوحى ، وأقرته جميع الشرائع .

وخلاصة ذلك — إنه لحقه الخسار من وجهين .

(١) ظنه أن تلك الجنة لا تهلك ولا تبيد مدى الحياة .

(٢) ظنه أن يوم القيامة لن يكون .

ثم تمنى أمنية أخرى كان فى شك منها فقال :

(ولئن رددت إلى ربى لأجدنّ خيرا منها منقلبا) أى ولئن كان معاد ورجعة إلى الله ليكوننّ لى هناك أحسن من هذا الحظ عند ربى ، والذى جرّأه على هذا الطمع وعلى تلك اليمين الفاجرة ـ اعتقاده أن الله إنما حباه بما حباه به فى الدنيا لما له من كرامة لديه ، ولما فيه من مزايا استحق بها أن ينال ما نال .

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عن الكافر « وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّى إِنَّ لِى عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى » .

وخلاصة ذلك — إنه لم يعطنى الجنة فى الدنيا إلا ليعطينى فى الآخرة ما هو أفضل منها قال ذلك طمعا وتمنيا على الله ، وادعاء للكرامة عنده .

ثم ذكر سبحانه جواب المؤمن له فقال :

(قال له صاحبه وهو يحاوره : أكفرت بالذى خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا؟) أى قال له صاحبه المؤمن واعظا وزاجرا عما هو فيه من الكفر: أكفرت بالذى خلقك من التراب ؟ إذ غذاء والديك من النبات والحيوان ، وغذاء النبات من التراب والماء ، وغذاء الحيوان من النبات ، ثم يصير هذا الغذاء دما يتحول بعضه إلى نطفة يكون منها خلقك بشرا سويا على أتم حال وأحكمه بحسب ما تقتضيه الحكمة ـ فهذا الذى خلقك على هذه الحال قادر على أن يخلقك مرة أخرى .

والخلاصة — كيف تجحدون ربكم ، ودلالةُ خلقكم على وجوده ظاهرة جلية

يعلمها كل أحد من نفسه ، فما من أحد إلا يعلم أنه كان معدوما ثم وجد ، وليس وجوده من نفسه . ولا مستندا إلى شىء من المخلوقات ، لأنها مثله ، وقد أشار إلى ذلك بقوله :

(لـكنا هو الله ربى) أى لـكن أنا لاأقول بمقالتك ، بل أعترف بالوحدانية والربوبية وأقول هو الله ربى .

(ولا أشرك بربى أحدا) فهو المعبود وحده لاشريك له .

وفى هذا تعريض بأن صاحبه لما عجز الله عن البعث فقد جعله مساويا لخلقه فى هذا العجز ، وإذا أثبت المساواة فقد أثبت الشريك .

ثم زاد فى عظة صاحبه فقال له :

(ولولا إذ دخلت جنتك قلت : ماشاء الله لاقوة إلا بالله) أى وهلا إذ أعجبتك جنتك حين دخلتها ونظرت إليها ـ حمدت الله على ماأنعم به عليك ، وأعطاك من المال والولد مالم يعط غيرك ، وقلت : الأمر ما شاء الله ، والـكائن ماقدره الله ، ليكون ذلك منك اعترافا بالعجز ، وبأن كل خير بمشيئة الله وفضله ، وهلا قلت : لاقوة إلا بالله ، إقرارا بأن ما قَوِيتَ به على عمارتها وتدبير أمرها فإنما هو بمعونة الله وتأييده.

وبعد أن نصح الـكافر بالإيمان ، وأبان له عظيم قدرة الله وكبير سلطانه ـ أجابه عن افتخاره بالمال والنفس ورد على قوله : أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا فقال :

(إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا ، فعسى ربى أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا . أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا) أى إن ترنى أيها الرجل أفقر منك فإنى أرجو الله أن يقلب الآية ، ويجعل مابى بك ، ويرزقنى الغنى ، ويرزقنى لإيمانى جنة خيرا من جنتك ، ويسلبك بكفرك نعمته ، ويخرب جنتك ، بأن يرسل عليها مطرا من السماء يقلع زروعها وأشجارها ، أو يجعل ماءها يغور فى الأرض ، فلن تطيق أن تدركه بعد غوره بطلبك إياه .

وخلاصة ذلك — إن المؤمن رجا هلاك جنة صاحبه الكافر إما بآفة سماوية أو بآفة أرضية وهى غور مائها ، وكلتاهما تتلف الشجر والزرع والكرم .

ثم أخبر سبحانه بأنه قد حقق ماقدره هذا المؤمن فقال :

(وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ماأنفق فيها وهى خاوية على عروشها ويقول ياليتنى لم أشرك بربى أحدا) أى وأحاطت الجوائح بثمار جنته التى كان يقول فيها : ما أظن أن تبيد هذه أبدا ـ فأصبح يقلب كفيه ندما وأسفا على ضياع نفقته التى أنفقها فى عمارتها حين رآها ساقطة على عروشها ، ويتمنى أن لم يكن قد أشرك بربه أحدا .

والخلاصة ـ إنه لما أنفق عمره فى تحصيل الدنيا وأعرض عن الدين ، ثم ضاعت منه الدنيا حُرِم الدين والدنيا معا ، ومن ثم عظمت حسرته وقال : ليتنى لم أشرك بربى أحدا .

(ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا) أى ولم تكن له عشيرة ممن افتخر بهم واستعز ينصرونه ويقدرون على دفع الجوائح عنه أو رد المهلك له ، من دون الله ، فإن الله هو الذى يقدر وحده على نصره ، وما كان منتصرا بقوته عن انتقام الله منه بإهلاك جنته .

وخلاصته — إنه لايقدر على نصره إلا الله ، ولاينصره غيره من عشيرة وولد ، وخدم وحشم وأعوان ، كما لايقدر أن ينتصر لنفسه .

ثم أكد الجملة السالفة وقرر المراد منها بقوله :

(هنالك الولاية لله الحق) أى فى مثل هذه الشدائد والمحن ـ النصرة لله وحده لايقدر عليها غيره .

(هو خير ثوابا وخير عقبا) أى هو خير جزاء وخير عاقبة لأوليائه ، فينتقم لهم منهم ، ويفوض أمرهم إليهم .

وبعد أن ضرب المثل لدنيا هؤلاء الكافرين التى أبطرتهم ، وكانت سبب

شقائهم وهم يظنون أنهم يحسنون صنعا ـ ضرب مثلا لدار الدنيا عامة فى سرعة فنائها وعدم دوام نعيمها فقال :

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (٤٦) .

تفسير المفردات

المثل : الصفة ، وهشيما : أى يابسا متفتتا ، تذروه : أى تنثره وتفرقه ، ومقتدرا : أى كامل القدرة ، والباقيات الصالحات : هى الأعمال الصالحة كلها ، وثوابا : أى جزاء .

المعنى الجملى

أخرج سعيد بن منصور وأحمد وابن جرير وابن مردويه والحاكم وصححه عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « استكثروا من الباقيات الصالحات ، قيل وما هى يا رسول الله ؟ قال : التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

وأخرج الطبرانى وابن مردويه عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «سبحان الله، والحمد لله ، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، هن الباقيات الصالحات ، وهن يحططن الخطايا كما تحط الشجرة ورقها ، وهن من كنوز الجنة » .

وأخرج النسائى والطبرانى والبيهقى عن أبى هريرة مرفوعا « خذوا جُنّتكم ، قيل يارسول الله من أىّ عدو قد حضر ، قال بل جُنّتكم من النار قول سبحان الله، والحمد لله،

ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، فإنهن يأتين يوم القيامة مقَدِّمات معقّبات ومُجَنّبات ، وهن الباقيات الصالحات » .

الإيضاح

(واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح) شُبّهت الدنيا فى نضرتها ثم صيرورتها إلى الزوال بحال نبات اخضرّ والتف وأزهر ، ثم صار هشيما متفتتا تنثره الرياح ذات اليمين وذات الشمال ومن ثم لايغترّنّ أهلها بها ، ولا يفخرنّ ذو الأموال الكثيرة بأمواله، ولا يستكبرنّ بها على غيره ، فإنما هى ظل زائل ، وفى الحديث « الدنيا كسوق قام ثم انفضّ » .

(وكان الله على كل شىء مقتدرا) أى وكان الله ذو الكمال والجلال قادرا على كل شىء إنشاء و إفناء و إعادة ، فهو يوجد الأشياء ثم ينميها ثم يفنيها ، وما حال الدنيا إلا هذه الحال، فهى تظهر أولا ناضرة زاهرة ثم تتزايد قليلا قليلا، ثم تأخذ فى الانحطاط إلى أن تصير إلى الهلاك والفناء ، فلا ينبغى للعاقل أن يبتهج بما يحوزه منها أو يفخر به أو يصعّر خده استكبارا .

ثم بين سبحانه ما كانوا يفتخرون به من محسِّنات الدنيا إثر بيان حالها بما مرّ من المثل فقال :

(المال والبنون زينة الحياة الدنيا) أى إن الأموال والبنين التى يفخر بها عيينة والأقرع وأضرابهم هى من زينة هذه الحياة، وليسا من زاد الآخرة، وقد علمت أن الدنيا سريعة الفناء ، فلا ينبغى التفاخر بها .

وقدم المال على البنين مع كونهم أعز منه لدى جميع الناس — من قِبَل أن الزينة به أتم ، ولأنه يمد الآباء والأبناء فى كل حين ، ولأنه مناط بقاء النفس والأولاد ، وبذا يبقى النوع الإنسانى ، ولأن الحاجة إليه أمس من الحاجة إليهم ، ولأنه زينة بدونهم ، دون العكس ، فإن من له بنون ولا مال له فهو فى بؤس وشقاء .

روى عن على كرم الله وجهه : المال والبنون حرث الدنيا ، والعمل الصالح حرث الآخرة ، وقد جمعهما الله لأقوام .

ثم بين ماينبغى التفاخر به فقال .

(والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا) أى وأعمال الخير التى تبقى ثمرتها للإنسان وهى أفعال الطاعات كالصلات والصدقات والجهاد فى سبيل الله ومساعدة البائسين وذوى الحاجات ـ خير عند ربك من المال والبنين جزاء ، وخير أملا ، إذ ينال بها صاحبها فى الآخرة ما كان يؤمله فى الدنيا .

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (٤٨) وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) .

تفسير المفردات

بارزة أى ظاهرة ، إذ لم يبق على وجهها شىء من العمائر ولا من الجبال والأشجار ، وحشرناهم : أى سقناهم إلى الموقف من كل أوب ، فلم نغادر : أى لم نترك يقال غادره وأغدره إذا تركه ، ومنه الغدر وهو ترك الوفاء ، وعُرضوا : أى أُحْضِروا لفصل القضاء ، صفا : أى مصطفين ، موعدا : أى وقتا نُنْجِز فيه ما وعدنا من البعث وما يتبعه ، ووضع الكتاب : أى جعل كتاب كل عامل فى يد صاحبه حين الحساب ، مشفقين : أى خائفين ، والويل : الهلاك ، وياويلتنا : أى ياهلاك أقبل فهذا أوانك ، أحصاها : أى

عدّها، حاضرا ، أى مسطورا فى كتاب كل منهم ، ولا يظلم ربك : أى لايتجاوز ما حدّه من الثواب والعقاب .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن الدنيا ظل زائل ، وأنه لاينبغى أن يغتر أحد بزخرفها ونعيمها ، بل يجب أن يكون موضع التفاخر العمل الصالح الذى فيه رضا الله وانتظار مثوبته فى جنات تجرى من تحتها الأنهار - أردف ذلك ذكر أحوال يوم القيامة وما يكون فيها من أخطار وأهوال ، وأنه لاينجى منها إلا اتباع ما أمر به الدين وترك ما نهى عنه مما جاء على لسان الأنبياء والمرسلين ، لا الأموال التى يفتخر بها المشركون على المؤمنين .

الايضاح

ذكر سبحانه من أحوال يوم القيامة أمورا :

(١) (ويوم نسير الجبال) أى واذكر أيها الرسول يوم نقلع الجبال من أماكنها ونُسَيِّرها فى الجو كالسحاب ونجعلها هباء منثورا كما قال « وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا . لاتَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا » أى تذهب الجبال ، وتتساوى المهاد ، وتبقى الأرض سطحاً مستويا لاعوج فيه ولا وادى ولاجبل ، وقال : « وَتَرَى الجِبالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ » وقال : « وَبُسَّتِ الجِبَالُ بَسًّا . فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا » .

(٢) (وترى الأرض بارزة) أى وترى أيها الرائى جميع جوانب الأرض بادية ظاهرة ، إذ لم يبق على وجهها شىء من العمائر ولا شىء من الجبال ولاشىء من الأشجار فليس عليها ما يسترها ، فيكون جميع الخلق ضاحين لربهم لاتخفى عليه خافية من أمرهم وهذا هو المراد من قوله : لاترى فيها عوجا ولا أمتا .

(٣) (وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا) أى وجمعنا الأولين والآخرين للحساب بعد أن أقمناهم من قبورهم ، فلم نترك منهم أحدا لاصغيرا ولا كبيرا كما قال : « قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ . لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ » وقال : « ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ » وعن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يحشر الناس حُفاة عراة غُرْلا (الغرلة القلفة) فقلت : الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض ؟ فقال الأمر أشد من أن يهمّهم ذلك » زاد النسائى فى رواية « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » .

ولما ذكر سبحانه حشر الخلق بين كيفية عرضهم على ربهم فقال :

(٤) (وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة) أى يعرض الخلق كلهم على الله صفا واحدا كما قال : « وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا » ويقال لهم على طريق التوبيخ والتقريع : لقد جئتمونا أيها الناس أحياء كهيئتكم حين خلقناكم أول مرة فرادى حفاة عراة لاشىء معكم من المال والولد .

ونحو الآية قوله : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ » .

وفى هذا زجر لأولئك المشركين المنكرين للبعث الذين يفخرون فى الدنيا على الفقراء من المؤمنين بالأموال والأنصار .

أخرج ابن المنذر عن معاذ بن جبل أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله تعالى ينادى يوم القيامة : يا عبادى أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين ، أحضروا حجتكم . ويسّروا جوابكم ، فإنكم مسئولون محاسبون ، يا ملائكتى أقيموا عبادى صفوفا على أطراف أنامل أقدامهم للحساب » .

وفى الحديث الصحيح « يجمع الله تعالى الأولين والآخرين فى صعيد واحد صفوفا يسمعهم الداعى وينفذهم البصر » والحديث له بقية .

(بل زعمتم أن لن نجعل لـكم موعدا) أى ما كان ظنكم أن هذا واقع بكم ولاهو كائن ، وكنتم مع الافتخار على المؤمنين بالأموال تنكرونه ، فالآن قد استبان لـكم أنه حق ، وأنه لامال ولا ولد بين أيديكم .

(٥) (ووضع الـكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه) أى ووضع كتاب الأعمال الذى فيه الجليل والحقير فى يد صاحب اليمين والشمال ، فترى المجرمين جميعا نادمين على مافيه من قبائح أعمالهم ، وسىء أفعالهم وأقوالهم ، وظهور ذلك لأهل الموقف ، خائفين من عقاب الحق ، والفضيحة عند الخلق .

(ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الـكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ؟) أى ويقولون حين وقوفهم على مافى تضاعيفه : يا حسرتنا على ما فرطنا فى جنب الله ، ما لهذا الـكتاب لايترك هنة صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وعدّها ، فهو محيط بجميع ما كسبته يد الإنسان .

ونحو الآية قوله : « وَإِنَّ عَلَيْـكُمْ لَحَافِظِينَ . كِرَامًا كَاتِبِينَ . يَعْلَمُونَ مَاتَفْعَلُونَ » وقوله : « إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِـخُ مَا كُـنْتُمْ تَعْمَلُونَ » وما مثل النفس إلا مثل الزجاجة التى يضعها المصور فى صندوق آلة التصوير ، فـكل صورة تقع عليها تلتقطها وتحفظها من ضار ونافع ، فإذا كشف الغطاء أبصرنا كل ما عملنا ورأينا صوره كما هى من حسن وسىء ، وفضيلة ورذيلة ، فتفعل فى عقولنا فعلها دون كلام ولا كتابة ، وكل امرئ يراها يقرؤها والناس فيها سواء .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(ووجدوا ما عملوا حاضرا) مثبتا فى كتابهم ، خيرا كان أو شرا كما قال : « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَاعَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا » الآية . وقال : « يُنَبَّأُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ » .

(ولا يظلم ربك أحدا) من خلقه ، بل يعفو ويصفح ، ويغفر ويرحم ، ويعذب

من يشاء بحكمته وعدله ، فإنه سبحانه وعد بإثابة المطيع ، وتعذيب العاصى ، بمقدار جُرْمه من غير زيادة ، وإنه قد يغفر له ما سوى الكفر ، ومن ثم لا يعذب أحدا بما لم يعمله ولا ينقص ثواب ما عمله مما أمر به وارتضاه ، ولا يزيد فى عقابه الملائم لعمله الذى نهى عنه ولم يرتضه .

ونحو الآية قوله « إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيماً » وقوله « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ، وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ » .

وخلاصة ذلك — إن الجزاء نتيجة العمل ، والعمل مرسوم فى قوالب حافظة له ، فليس يمكن رفعه ولا دفعه ، ولا يكون الجزاء عليه ظلما ، كما لا تعد التخمة بعد الأكل الكثير ظلما ، ولا المرض بعد الشرب من الماء الآسن المملوء بالجراثيم والأدران ظلما ، وإنما تلك مسببات لأسباب كل عاقل يعلم أنها نتيجة حتمية لها .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ، أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ؟ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً (٥٠) مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلاَ خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِىَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ، فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً (٥٢) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً (٥٣) .

تفسير المفردات

فسق : خرج ؛ يقال فسق الرطب إذا خرج عن قشره ، أفتتخذونه ، الهمزة فى مثل هذا تفيد الإنكار والتعجب ممن يفعل مثل ذلك ، والذرية : الأولاد و بذلك قال جمع من العلماء ، منهم الضحاك والأعمش والشعبى ، وقيل المراد بهم الأتباع من الشياطين ، والعدو يطلق على الواحد والكثير كما قال : « فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ » وقال : « هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ » والعضد : أصله مابين المرفق إلى الكتف ، و يستعمل بمعنى المعين كاليد ونحوها وهو المراد هنا ، فدعوهم . أى فاستغاثوا بهم ، فلم يستجيبوا لهم : أى فلم يغيثوهم ، والموبق : مكان الوبوق : أى الهلاك وهو النار ؛ يقال وبق و بوقا كوثب وثوبا : إذا هلك ، مواقعوها : أى داخلوها وواقعون فيها ، ومصرفا : أى مكانا ينصرفون إليه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه رده على أولئك المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بأموالهم وأعوانهم وقالوا كيف نجلس مع هؤلاء ونحن من أنساب شريفة وهم من أنساب وضيعة ، ونحن أغنياء وهم فقراء ؟ – قفّى على ذلك بذكر عصيان إبليس لأمره تعالى بالسجود لآدم ، لأن الذى حداه إلى ذلك هو كبره وافتخاره عليه بأصله ونسبه إذ قال « خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » ، فأنا أشرف منه أصلا ونسبا فكيف أسجد له ؟ تنبيها إلى أن هذه الطريقة السالفة هى بعينها طريقة إبليس ، ثم حذر سبحانه منها فى قوله : (أفتتخذونه وذريته أولياء من دُونى وهم لكم عدو) .

وقد تكرر ذكر هذه القصة فى مواضع من الكتاب الكريم ، وهى فى كل موضع سيقت لفائدة غير ماجاءت له فى المواضع الأخرى ، على اختلاف أساليبها وعباراتها ، ولا غرو فهى من نسج العليم الخبير .

الايضاح

(وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس) تقدم أن قلنا فى سورة البقرة : إن الملائكة عالَمٌ من العوالم الغيبية لانعرف حقيقتهم ، والقرآن الكريم يرشد إلى أنهم أصناف ، لكل صِنْف عمل ، وقد جاء على لسان الشرع إسناد إلهام الحق والخير إليهم ، كما يستفاد من خطابهم لمريم عليها السلام ، وإسناد الوسوسة إلى الشياطين كما ورد فى الحديث « إن للشيطان لَمَّة بابن آدم وللملَك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، وليحمد الله على ذلك ، ومن وجد الأخرى فليتعوّذ بالله من الشيطان ثم قرأ : « الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ » .

الملائكة والشياطين أرواح لها اتصال بأرواح الناس على وجه لانعرف حقيقته ، بل نؤمن به كما ورد ، ولانزيد عليه شيئا . وكلنا نشعر بأنا إذا هممنا بأمر فيه وجه للحق أو الخير ، ووجه للباطل أو الشر ـ بأن فى نفوسنا تنازعا وكأن هاجسا يقول افعَلْ ، وآخر يقول : لاتفعلْ ، حتى ينتصر أحد الطرفين على الآخر ، فهذا الذى أودِع فى النفوس ونسميه قوة وفكرا ـ لايبعد أن نسميه ملَكا إن كان يميل إلى الخير ، وشيطانا إن كان يميل إلى الشر .

والسجود : الخضوع والانقياد ، وكان تحية للملوك عند بعض القدماء كما جاء من سجود يعقوب وأولاده ليوسف ، والسجود قسمان : سجود العقلاء تعبدا على الوجه المخصوص ، وسجود سائر المخلوقات لمقتضى إرادته تعالى كما قال « وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ » .

والمعنى ـــ واذكر أيها الرسول لقومك وقت قولنا للملائكة : اسجدوا لآدم سجود تحية وإكرام اعترافا بفضله ، واعتذارا عما قالوه فى شأنه من نحو قولهم : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا » فسجدوا كلهم أجمعون امتثالا إلا إبليس أبى واستكبر .

ثم بين السبب فى عصيانه ومخالفته للأمر فقال :

(كان من الجن) أى إن الذى منعه من السجود أنه كان جنيا واحدا بين أظهر الألوف من الملائكة ، مغمورا بينهم ، متصفا بصفاتهم ، بدليل أنه قال : « أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ » ولأنه تعالى أثبت له فى هذه الآية ذرية ونسلا والملائكة لايتناسلون ، ولأن الملائكة لايستكبرون وهو قد استكبر.

ويرى قوم أنه كان من الملائكة بدليل أن خطاب السجود كان معهم ، ولأن وصف الملائكة بأنهم لايعصون الله ما أمرهم ، دليل على أنه يتصور منهم العصيان ، ولولا ذلك مامدحوا به ، لكن طاعتهم طبع ، وعصيانهم تكلف ، وطاعة البشر تكلف ، ومتابعة الهوى منهم طبع ، ولأنه تعالى ذكر من هاروت وماروت ماذكر ، وهما ملكان.

على أنه لادليل على أن هناك فروقا جوهرية بين الملائكة والجن ، بها يمتاز أحدهما من الآخر ، بل هى فروق فى الصفات فحسب ، والجميع من عالم الغيب لانعلم حقيقتهم ولا نضيف إليها شيئا إلا إذا ورد به نص عن المعصوم .

(ففسق عن أمر ربه) أى فصار فاسقا كافرا بسبب أمر الله للملائكة المعدود هو فى عدادهم ، إذ لولا الأمر ماتحقق إباء .

وفى الآية إيماء إلى أن فسقه قد نُتِجَ عن كونه من الجن ، إذ أن من شأنهم التمرد والعصيان لكدورة مادتهم ، وخباثة ذاتهم (وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا) وإن كان منهم من أطاع وآمن .

ثم حذر سبحانه من اتباعه بعد أن استبان من حاله مااستبان فقال :

(أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو ؟) أى وبعد العلم بما صدر منه من القبائح لاينبغى لكم أن تتخذوه وأولاده وأعوانه أولياء لكم من دونى تطيعونهم بدل طاعتى وهم لكم أعداء .

وجملة المعنى — كيف تصنعون هذا الصنيع وتستبدلون بمن خلقكم وأنعم عليكم

بجميع ما أنتم فيه من النعم ، من لم يكن لـكم منه منفعة قط بل هو عدو لـكم يترقب حصول مايضركم فى كل حين .

(بئس للظالمين بدلا) أى بئس البدل للـكافرين بالله اتخاذ إبليس وذريته أولياء من دونه ، وهو المنعم عليهم وعلى أبيهم آدم من قبلهم ، المتفضل عليهم بما لايحصى من الفواضل .

ثم بين السبب فى عدم استحقاق إبليس وذريته هذه الولاية فى أنفسهم بعد بيان خباثة أصلهم فقال :

(ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولاخلق أنفسهم) أى ما أحضرت إبليس وذريته خلق السموات والأرض ، ولاأشهدت بعضهم خلق بعض ، فـكيف تطيعونهم وتعبدون الأصنام من دونى وهم عبيد أمثالـكم لايملـكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؟.

وقصارى ذلك — ماأطلعتهم على أسرار التكوين ، وماخصصتهم بخصائص لاتكون لسواهم ، حتى يقتدى الناس بهم ، فأنا المستقل بخلق الأشياء كلها ومدبرها ليس لى فى ذلك شريك ولا وزير .

(وما كنت متخذ المضلين عضدا) أى وما كنت متخذ من لايهدون إلى الحق أعوانا وأنصارا ، لأنهم يضلون فتبعهم يحور عن قصد السبيل ، ولا يصل إلى هدى ، فـكيف اتبعوهم وعبدوا الأصنام على مقتضى وسوستهم ؟ .

ثم أخبر سبحانه عما يخاطب به المشركين يوم القيامة على رءوس الأشهاد تقريعا لهم وتوبيخا فقال :

(ويوم يقول نادوا شركائى الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم) أى واذكر أيها الرسول يوم الجمع حين يقول الله تعالى للـكافرين على سبيل التأنيب والزجر : نادوا للشفاعة لـكم من زعمتم فى الدنيا أنهم شركائى ، لينقذوكم مما أنتم فيه ، والمراد بهم كل ماعبد من دون الله ، فدعَوْهم ليستغيثوا بهم ، ويشفعوا لهم ، فلم يغيثوهم .

ونحو الآية قوله : « وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ، لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ » وقوله « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ » وقوله « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا . كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » .

(وجعلنا بينهم موبقا) أى وجعلنا بين المشركين وما كانوا يدعون من دون الله شركاء فى الدنيا — موضعا للهلاك وهو النار حسما لأطماعهم أن يصل إليهم من دعوه للشفاعة .

(ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفا) أى وعاين المشركون النار يومئذ فعلموا أنهم داخلوها ولم يجدوا بدّا من الوقوع فيها ، لأن الله قد حتّم عليهم ذلك ، فلا معدِل لهم عنها ، ولا مكان لهم ينصرفون إليه ويزايلونها ، إذ قد أحاطت بهم من كل جانب .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا (٥٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ، إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ، وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ

لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ، بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (٥٩) .

تفسير المفردات

صرّفنا : أى رددنا وكررنا ، والمثل : الصفة الغريبة ، والجدل : المنازعة بالقول ؛ ويراد به هنا المماراة والخصومة بالباطل ، وسنة الأولين : الإهلاك بعذاب الاستئصال ، والقبل (بضمتين) الأنواع والألوان واحدها قبيل ، ليدحضوا به الحق : أى ليبطلوه ويزيلوه من قولهم دحَضتْ رِجْله أى زلقت ودحضت حجته بطلت ، وماأنذروا : أى ماخوفوه من أنواع العقاب ، ونسى ماقدمت يداه ، أى لم يتدبر عواقبه ، أكنة : أى أغطية واحدها كنان ، أن يفقهوه : أى أن يفهموه . وقرا : أى ثقلا فى السمع ، الموعد : يوم القيامة ، موئلا : أى ملجأ ؛ يقال وأل فلان إلى كذا وألا ووءولا : إذا لجأ إليه ، القرى : أى قرى عاد وثمود وقوم لوط وأشباههم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه شبهات المبطلين ورد عليها بأدلة لاتدحض ، وبرهانات لاتُردّ ـ قفى على ذلك ببيان أن فى القرآن من الأمثال مافيه مَقْنَع لمن تذكر وتدبر وألقى السمع وهو شهيد ، لـكنها القلوب قد تحجرت ، والأفئدة قد قست ، فلا تنفع فيها الذكرى ، ولا تستجيب لوعظ الواعظ ، ونصيحة المذكر ، ولو آخذهم ربهم بما كسبوا لأرسل عليهم العذاب معجّلا ، ولم يُبْق منهم على ظهر الأرض أحدا ، ولـكنه الغفور ذو الرحمة ، فجعل لهلاكهم موعدا ، لعلهم يثوبون إلى رشدهم ، ويرْعَوُون عن غيهم .

أخرج الشيخان وابن المنذر وابن أبى حاتم عن على كرم الله وجهه « أن النبى

صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمةَ ليلا فقال (ألا تصلّيان) فقلت : يارسول الله إنما أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ، ولم يَرجع إلىّ شيئا ، ثم سمعته وهو مولّ يضرب فخذه ويقول « وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً » .

الإيضاح

(ولقد صرفنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) أى ولقد وضّحنا للناس كل ماهم فى حاجة إليه من أمور دينهم ودنياهم ، ليتذكروا فينيبوا ويعتبروا ويزدجروا عماهم عليه مقيمون من الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لكنهم لم يقبلوا ذلك ، ولم يرعووا عن غيهم وعنادهم ، واستكبارهم وعتوهم .

ثم بين سبب هذا العتو وتلك المباراة فقال :

(وكان الإنسان أكثر شىء جدلا) أى وكان الإنسان بمقتضى جِبِلَّته أكثر شىء مراءً وخصومة ، لاينيب إلى حق ، ولا يزدجر لموعظة ، والمراد بذلك خصومة الأمم لأنبيائهم وردهم عليهم ماجاءوا به ، كما حكى الله عنهم من قولهم « إِنْ هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ » وقولهم « يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ » وشديد تعنتهم كما حكى عنهم بنحو قولهم « وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ . لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ » .

وخلاصة ذلك — إن جدل الإنسان أكثر من جدل كل مجادل ، لما أوتيه من سعة الحيلة ، وقوة المعارضة ، واختلاف النزعات والأهواء ، وقوة العزيمة إلى غير حد ؛ فلو اتجه إلى سبل الخير ، وتاقت نفسه إلى سلوك طريقه ، ارتقى إلى حظيرة الملائكة ، ولو نزعت نفسه إلى اتباع وساوس الشيطان ، انحط إلى الدرك الأسفل ولحق بأنواع الحيوان ، يفعل مايشاء ، غير مقيد بوازع من الدين ، ولا زمام من العقل وصادق العزيمة.

ولما بين سبحانه وتعالى إعراضهم ذكر علة ذلك فقال :

(ومامنع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تأتيهم سنة الأولين أو يأتيهم العذاب قبلا) أى ومامنع هؤلاء المشركين من أن يؤمنوا بالله ، حين جاءتهم البينات الواضحة ، والدلالات الظاهرة ، وعلموا صحة ماتدعوهم إليه ، وأن يستغفروا ربهم بالتوبة عما فرط منهم من الذنوب ـ إلا تعنتهم وعنادهم الذى جعلهم يطلبون أحد أمرين :

(١) إما عذاب الاستئصال بنحو قولهم « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

(٢) وإماأن تأتيهم بأنواع من العذاب والبلاء يتلو بعضها بعضا حين وجودهم فى الدنيا كقولهم « يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » وقولهم « ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ » .

ولما كان مجىء ذلك بيد الله ، وأمره مفوض إليه ، لاإلى الرسول نبه إلى ذلك بقوله :

(ومانرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين) أى وما نرسل رسلنا إلا ليبشروا أهل الإيمان والتصديق بالله ورسله بجزيل ثوابه فى الآخرة ، وينذروا أهل الكفر به وتكذيب رسله بعظيم عقابه وأليم عذابه ، ولم نرسلهم ليقترح عليهم الظالمون من أممهم الآيات بعد ظهور المعجزات ، ويطلبوا منهم مالاقبل لهم به .

ثم ذكر أن من شأن المشركين كثرة الجدل للرسول صلى الله عليه وسلم فقال :

(ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق) أى ويجادل أولئك المشركون بالباطل كقولهم للنبى صلى الله عليه وسلم : أخبرنا عن فتية ذهبوا أول الدهر ، ماشأنهم؟ وعن الرجل الذى بلغ مشارق الأرض ومغاربها ، وعن الروح ، وماأشبه ذلك مما يقصد منه التعنت وإزالة الحق الذى جاء به الرسل عليهم ، لا كشف حقيقة تفيد فى دين أو دنيا .

وخلاصة ذلك — إن الرسل ماأرسلوا للجدل والشغب بالباطل ، بل بعثوا للبشارة والإنذار ، وأنتم تجادلون بالباطل لتدْحِضوا الحق الذى جاءكم به رسولى .

(واتخذوا آياتى وماأنذروا هزوا) أى واتخذوا الحجج التى احتج بها عليهم ، وكتابه الذى أنْزِلَ إليهم ، والنذر التى أنذرهم بها العقاب والعذاب ـ استهزاء وسخرية كقولهم : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً » وقولهم : « لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا » .

ولما حكى عنهم خبيث أحوالهم وصفهم بما يوجب الخزى والنكال فقال :

(ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ماقدمت يداه ؟) أى لاأحد أظلم ممن وعظ بآيات الله ، ودُلّ بها على سبيل الرشاد ، وهُدِى بها إلى طريق النجاة ، فأعرض عنها ولم يتدبرها ولم يتعظ بها ، ونسى ماعمله من الكفر والمعاصى أى لم يتفكر فى عواقبه ، ومن ثم لم يتب منها ولم ينب إلى ربه .

ثم علل ذلك الإعراض والنسيان بقوله :

(إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا) أى إن ذلك الإعراض منهم بسبب أن جعلنا على قلوبهم أغطية كراهة أن يفقهوا ماذُكِّروا به ، وجعلنا فى آذانهم ثقلا لئلا يسمعوه ، والمراد أنه لايدع شيئا من الخير يصل إليها ، فهى لاتعى شيئا من الآيات إذا تليت عليها .

ذاك أنهم فقدوا الاستعداد لقبول الرشاد ، بما دنسوا به أنفسهم من قبيح الأفعال والأقوال ، وبما اجترحوا من الكفر والفسوق والعصيان ، فأصبح بينهم وبين سماع الحق حجاب غليظ ، فلا ينفذ إلى السمع شىء ممايسمع سماع تدبر واتعاظ ، ولا إلى القلب شىء مما يقال فيعيه وينتفع به كما قال : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » وقال : « خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ »

وقد تكرر هذا المعنى فى غير موضع من الكتاب الكريم : «وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ» .

ثم ذكر سبحانه أثر هذا الختم على القلوب فقال :

(وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا) أى ومهما كررت أيها الرسول من الدعوة إلى الحق ، حرصا منك على نجاتهم وخشية نزول البلاء بهم ، فلن يستجيبوا لك ، ولن يهتدوا بهديك ، لأن الله قد كتب عليهم الضلال ، بسوء أعمالهم وقبح طواياهم ، فأنّى يفيد النصح ، وتجدِى العظة ، ويرِقّ القلب ؟ .

وخلاصة المعنى — كأنه صلى الله عليه وسلم حرصا منه على هداهم قال : مالى لأدعوهم رجاء أن تنكشف تلك الأكنة ، وتمزّق بيد الدعوة ، فقيل له — وأنى لك ذلك ؟ فإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا أبدا .

وقد جاءت هذه الآية فى قوم علم الله أنهم سيموتون على الكفر من مشركى مكة .

ثم بين أنه سبحانه لايعجّل العقوبة لعباده على ما يجترحون من الفسوق والآثام رجاء أن ينيبوا إليه فقال :

(وربك الغفور ذو الرحمة لو يؤاخذهم بما كسبوا لعجل لهم العذاب) أى وربك أيها الرسول غفور لذنوب عباده ، ذو رحمة واسعة بهم ، إذا هم أنابوا إليه ورجعوا إلى رحاب عفوه وجوده وكرمه ، فيرحمهم واسع الرحمات ، ويتجاوز لهم عن عظيم الخطيئات ، ولو شاء أن يؤاخذهم بما اجترحوا من المعاصى كإعراضهم عن آياته ، ومناصبتهم العداء لرسله ، ومجادلتهم بالباطل — لعجل لهم العذاب فى الدنيا وأنزل بهم عذاب الاستئصال جزاء وفاقا لقبيح أعمالهم .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ » وقوله : « وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ » إلى نحو ذلك من الآيات الكثيرة فى هذا الباب .

ثم أبان أن هذا إمهال لا إهمال فقال :

(بل لهم موعد لن يجدوا من دونه موئلا) أى بل لهم موعد ليس لهم منه محيص ولا ملجأ يلجئون إليه من عذابه .

ثم ذكر ماهو كالدليل على ما سلف فقال :

(وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا) أى وتلك القرى من عاد وثمود وأصحاب الأيكة أهلكناهم لما ظلموا فكفروا بآياتنا ، وجعلنا لهلاكهم ميقاتا وأجلا حين بلغوه جاءهم عذابنا فأهلكناهم به ، وهكذا جعلنا لهؤلاء المشركين من قومك الذين لا يؤمنون بك موعدا لهلاكهم إذا جاء أهلكناهم كما هى سنتنا فى الذين خلوا من قبلهم من أضرابهم من سالفى الأمم .

قصة موسى والخضر

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤) فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ؟ (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨)

قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ، قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا ، لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٢) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (٧٣) فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ، قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ؟ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا .

مقدمات تشرح هذا القصص

(١) مَن موسى ؟

أكثر العلماء على أن موسى الذى ذكر فى هذه الآية هو موسى بن عمران نبىّ بنى إسرائيل صاحب المعجزات الظاهرة والشريعة الباهرة ، ولهم على ذلك أدلة :

(ا) إنه ما ذكر الله موسى فى كتابه إلا أراد صاحب التوراة ، فإطلاق هذا الاسم يوجب الانصراف إليه ، ولو كان شخصا آخر مُسمًّى بهذا الاسم لوجب تعريفه بصفة توجب الامتياز وتزيل الشبهة .

(ب) ما أخرجه البخارى ومسلم فى جماعة آخرين عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس رضى الله عنهما : إن نَوفا البِكالى بن فُضالة ابن امرأة كعب من أصحاب أمير المؤمنين على كرم الله وجهه ، يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى صاحب بنى إسرائيل ، فقال كذب عدو الله .

وذهب أهل الكتاب وتبعهم بعض المحدّثين والمؤرخين أن موسى هنا هو موسى ابن ميشى بن يوسف بن يعقوب وكان نبيا قبل موسى بن عمران ولهم على ذلك أدلة :

(١) إن موسى بعد أن أنزلت عليه التوراة وكلمه الله بلا واسطة ، وحجّ خصمه بالمعجزات العظيمة التي لم يتفق مثلها لأكثر الأنبياء - يبعد أن يبعثه الله بعد ذلك ليستفيد علما من غيره - وردّ هذا بأنه لايبعد بأن العالم الكامل فى أكثر العلوم يجهل بعدُ أشياء ، فيحتاج فى تعلمها إلى من دونه ، وهذا مشاهد معلوم .

(ب) إن موسى عليه السلام بعد خروجه من مصر وذهابه إلى التيه تُوُفّى ولم يخرج قومه منه إلا بعد وفاته ، ولو كانت هذه القصة معه لاقتضت خروجه من التيه ، لأنها لم تكن وهو فى مصر بالاتفاق .

(ح) إنها لو كانت معه لاقتضت غيبته أياما ، ولو كان كذلك لعلمها الكثير من بنى إسرائيل الذين كانوا معه ونقلت لتوافر الدواعى على نقلها ، ولم يكن شىء من ذلك ، فإذًا لم تكن معه - وردَّ هذا بأنه قد يكون موسى عليه السلام خرج وغاب أياما ، لكن لم يعلموا أنه ذهب لهذا الغرض ، بل ذهب ليناجى ربه ، ولم يقفهم على حقيقة غيبته بعد أن رجع ، لعلمه بقصور فهمهم ، فخاف من حط قدره عندهم ، فأوصى فتاه بكتمان ذلك .

وعلى الجملة فإنكارهم لايؤبه به ، وهو جائز عقلا وقد أخبر به سبحانه رسوله .

(٢) مَن فتاه ؟

فتى موسى - هو يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف عليه السلام ، وقد كان يخدمه ويتعلم منه ، والعرب تسمى الخادم فتى ، لأن الخدم أكثر ما يكونون فى سن الفتوّة كما يطلقون على العبد فتى ، وفى الحديث الصحيح « ليقل أحدكم فتاى وفتاتى ، ولا يقل عبدى وأمتى » وهذا من محاسن الآداب الشرعية .

(٣) مَن الخضر ؟

الخضر (بفتح الخاء وكسرها وكسر الضاد وسكونها) لقب لصاحب موسى ، واسمه بَلْيا (بفتح الباء وسكون اللام) ابن ملكان ، والأكثرون على أنه كان نبيا ، ولهم على ذلك أدلة :

(ا) قوله : « آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا » والرحمة : النبوة بدليل قوله : « أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ » .

(ب) قوله « وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً » وهذا يقتضى أنه علَّمه بلا واسطة معلم ولا إرشاد مرشد ، وكل من كان كذلك كان نبيا .

(حـ) إنه قال له موسى : « هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ » والنبى لا يتعلم من غير النبى .

(د) إنه قال : « وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى » أى بل قد فعلته بوحى من الله ، وهذا دليل النبوة .

(٤) أين كان مجمع البحرين ؟

مجمع البحرين ـــ هو المكان الذى يجتمع فيه البحران ويصيران بحرا واحدا ، وفيه رأيان :

(ا) إنه ملتقى بحرى فارس والروم (ملتقى المحيط الهندى والبحر الأحمر عند باب المندب) .

(ب) إنه ملتقى بحر الروم والمحيط الأطلنطى عند طنجة قاله محمد بن كعب القرظى (البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسى عند مضيق جبل طارق أمام طنجة) .

وسيأتى رأى آخر للبقاعى .

وليس فى الكتاب الكريم ما يدل على تعيين هذين البحرين ، فإن جاء فى الخبر الصحيح شىء فذاك ، وإلا فيجمل السكوت عنه .

تفسير المفردات

لا أبرح : أى لا أزال سائرا ، والحقب (بضمتين وبضم فسكون) الدهر ، وقيل ثمانون سنة، وعن الحسن سبعون ، مجمع بينهما ، أى مكان اجتماعهما ، سربا :

أى مسلكا كالسرب : وهو النفق فصار الماء عليه كالقنطرة ، والغداء : الطعام الذى يؤكل أول النهار والمراد به هنا الحوت ، نصبا : أى تعبا وإعياء ، أوينا : أي التجأنا نبغى : نطلب ، ارتد : رجع ، على آثارهما : أى على طريقهما الذى جاءا منه ، قصصا : أى اتباعا من قولهم أثره إذا اتبعه ، رحمة : هى النبوة هنا ، الرشد (بضم فسكون و بفتحتين) إصابة الخير ، والإحاطة بالشىء : معرفته معرفة تامة ، والخبر : المعرفة ، وذكرا : أى بيانا ، إمرا : (بكسر الهمزة) أى منكرا : من أَمِر الأمرُ بمعنى كثر ، والعرب تصف الدواهى بالكثرة ، لاترهقنى : أى لاتحملنى ، والعسر : ضد اليسر وهو المشقة ، زكية : أى طاهرة من الذنوب ، بغير نفس : أى بغير حق قصاص لك عليها ، والنكر : المنكر الذى تنكره العقول وتنفِر منه النفوس :

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه قصص المشركين الذين افتخروا على فقراء المؤمنين بكثرة الأموال والأنصار ، وامتنعوا عن حضور مجلس النبى صلى الله عليه وسلم ، لئلا يشتركوا مع أولئك الصعاليك فى مجلس واحد ، ولئلا يؤذوهم بمناظرهم البشعة ، وروائحهم المستقذرة — قفّى على ذلك بذكر قصص موسى عليه السلام مع الخضر ، ليبيّن بها أن موسى مع كونه نبيا صادقا أرسله الله إلى بنى إسرائيل بشيرا ونذيرا وهو كليم الله — أُمِرَ أن يذهب إلى الخضر ليتعلم منه مالم يعلمه ، وفى ذلك دليل على أن التواضع خير من التكبر .

روى البخارى ما خلاصته — إن موسى عليه السلام قام فى بنى إسرائيل خطيبا فسئل : أىُّ الناس أعلم ؟ فقال أنا ، فعَتَب عليه ربه ، إذ لم يردّ العلم إليه تعالى فأوحىَ إليه : إن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك ، وأمره أن يأخذ حوتا فى مِكْتل ، فحيثما فَقَد الحوت فهو ثَمَّة ، ففعل ذلك ، وسافر مع فتاه يوشع بن نون حتى إذا أتيا صخرة فناما فاضطرب الحوت وسقط فى البحر — فاتخذ سبيله فى البحر

سربا ــ وصار الماء كالطاق عليه وهو يجرى ، فلما استيقظ موسى نسى صاحبه أن يخبره بالحوت ، وانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، فلما كان الغد طلب موسى الغداء ووجد النَّصَب ، ولم يكن ذلك إلا بعد أن جاوزا المكان الذى أمره الله به ، فقال فتاه : إنى نسيت الحوت ، وذكر ما كان من أمره عند الصخرة ، فارتدا على آثارهما قصصا ، حتى انتهيا إلى الصخرة فوجدا رجلا مسجًّى بثوب أبيض ، وكان من أمرهما ماسترى من مسألة السفينة والغلام والجدار .

الايضاح

(وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضى حقبا) أى واذكر أيها الرسول حين قال موسى بن عمران لفتاه يوشع : لاأزال أمشى حتى أبلغ مكان اجتماع البحرين أوأسير دهرا .

وسبب قوله هذا : أن الله أوحى إليه أن عبدا من عبادى بمجمع البحرين عنده من العلم مالم تحط به ، فأَحَبَّ أن يرحل إليه .

وخلاصة ذلك — إن الله أعلم موسى حال هذا العالم وما أعلمه موضعه بعينه ، فقال لا أزل أمشى حتى يجتمع البحران فيصيرا بحرا واحدا أو أمضى دهرا طويلا حتى أجده .

ومجمل الأمر أنه وطن نفسه على تحمل التعب الشديد والعناء العظيم فى السفر مهما طال به الزمان .

(فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما فاتخذ سبيله فى البحر سربا) أى فانطلقا يمشيان ، فلما بلغا مجمع بينهما وهو المكان الذى وعده الله بلقائه عنده ــ نسيا حوتهما فاتخذ الحوت طريقه فى البحر مسلكا وصار الماء كالقنطرة عليه ، فكان ذلك للحوت سربا ، ولموسى وفتاه عجبا .

ولا شك أن حياة الحوت بعد موته كانت لموسى معجزة ، وأما كون ماء البحر

صار كالقنطرة عليه أو كأى وضع آخر ، فليس بالواجب علينا أن نعتقده إلا إذا ثبت بالنص القاطع .

روى أن موسى عليه السلام أمر بحمل حوت مملوح معه وقيل له : متى فقدت الحوت فهو ثمة ، فأخذ حوتا وجعله فى مِكتل (قفة) ثم انطلق ومعه فتاه حتى إذا أتيا الصخرة وكانت عند مجمع البحرين ناما واضطرب الحوت فى المكتل وخرج منه وسقط فى البحر .

روى البخارى ومسلم أن الله تعالى قال لموسى : خذ نونا (حوتا) ميتا فهو حيث ينفُخ فيه الروح ، فأخذ ذلك فجعله فى مكتل ، وقال لفتاه : لا أكلفك إلا أن تخبرنى بحيث يفارقك الحوت ، قال : ما كلفت كثيرا ، فبينما هما فى ظل صخرة إذ تسرّب الحوت حتى دخل البحر وموسى نائم فقال فتاه : لا أوقظه ، حتى إذا استيقظ نسى أن يخبره .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس : جعل الحوت لا يَمَسّ شيئا من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة .

وحدث محمد بن إسحاق عن الزهرى عن ابن عباس عن أبىّ بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذكر حديث ذلك : « ما انجاب ماء منذ كان الناس غير مسير الحوت الذى فيه ، فانجاب كالكَوّة حتى رجع إليه موسى فرأى مسلكه ، فقال ذلك ما كنا نبغ » .

(فلما جاوز قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا) أى فلما جاوزا ذلك المكان المقصود من مجمع البحرين ، وسارا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان الغد وارتفع النهار أحس موسى بالجوع ، حينئذ قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا تعبا ونصبا من ذ ك السفر .

وقد كان من الحكمة فى حصول الجوع والتعب له حين جاوز المكان أن يطلب الغداء فيذكر الحوت فيرجع إلى حيث يجتمع بمن يريد .

(قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإنى نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله فى البحر عجبا) أى قال له فتاه : أرأيت ماحدث لى حين التجأنا إلى الصخرة التى بمجمع البحرين ؟ إنى نسيت أن أخبرك بما حدث من الحوت ، إنه حىّ واضطرب ووقع فى البحر واتخذ سبيله فيه سبيلا عجبا . وذاك أن مسلكه كان كالطاق والسَّرَب — وماأنسانى ذكره إلا الشيطان .

(قال ذلك ما كنا نبغ) أى قال موسى : ذلك الذى ذكرت من أمر الحوت ما كنا نطلبه من حيث إنه أمارة للفوز بما هو المقصود بالذات .

(فارتدا على آثارهما قصصا) أى فرجعا فى الطريق الذى جاءا فيه يتبعان أثرهما اتباعا حتى أتيا الصخرة .

قال البقاعى — إن هذا يدل على أن الأرض كانت رملا لاعلامة فيها ، فالظاهر والله أعلم أنها مجمع النيل والملح عند دِمْياط أو رشيد من بلاد مصر ، ويؤيده نقر العصفور فى البحر الذى ركب فيه سفينته للتعدية كما ورد فى الحديث ، فإن الطير لايشرب من الماء الملح اهـ .

وخلاصة ماتقدم — إنه تعالى بيّن لموسى عليه السلام أن موضع هذا العالم مجمع البحرين ، وأن علامة وجوده فى المكان المعين انقلاب الحوت الميت الذى فى المكتل حيا ، فلما بلغا مجمع بينهما اضطرب الحوت فيه ووثب فى الماء وقد أمسك الله إجراء الماء على البحر وجعله كالطاق أو الكوّة حتى سرى الحوت فيه ، فلما جاوز موسى وفتاه المكان المعين وهو الصخرة بسبب النسيان ، وسارا كثيرا وتعبا وجاعا قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ، قال الفتى : أرأيت ماوقع لى من الحوت حين لجأنا إلى الصخرة فاتخذ سبيله فى البحر اتخاذا عجبا إذ انقلب من المكتل وصار حيا وألقى نفسه فى البحر على غفلة منى ، وإنى نسيت أن أبلغك خبره ، وما أنسانى ذكره إلا الشيطان ، قال موسى ذلك الذى كنا نطلبه ، لأنه أمارة الظفر

المطلوب وهو لقاء الخضر ، فرجعا فى طريقهما الأولى ، إذ علما أنهما تجاوزا الموضع الذى يقيم فيه ذلك العالم .

(فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما قال له موسى : هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا ؟) أى فوجد موسى وفتاه عند الصخرة حين رجعا إليها عبدا من عبادنا وهو الخضر مسجى بثوب أبيض ، فسلم عليه موسى فقال الخضر : وأنّى بأرضك السلام ؟ فقال أنا موسى . قال موسى بنى إسرائيل ؟ قال نعم . قال هل أصحبك لتعلمنى مما علمك الله شيئا أسترشد به فى أمرى من علم نافع وعمل صالح ؟ .

(قال إنك لن تستطيع معى صبرا) ياموسى ، فإنى على علم من الله علمنيه لاتعلمه أنت ، وأنت على علم من الله ، علّمكه لاأعلمه .

ثم أكد ذلك مشيرا إلى علة عدم الاستطاعة فقال :

(وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا ؟) أى وكيف تصبروأنت نبى على ماأتولى من أمور ظواهرُها منكرة ، و بواطنها مجهولة ، والرجل الصالح لايتمالك أن يصبر إذا رأى ذلك ، بل يبادر بالإنكار .

(قال ستجدنى إن شاء الله صابرا) معك غير منكِر عليك .

(ولا أعصى لك أمرا) تأمرنى به غير مخالف لظاهر أمر الله .

(قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكرا) أى قال له الخضر : إن سرت معى فلا تفاتحنى فى شىء أنكرته علىّ حتى أبتدئ بذكره فأبين لك وجه صوابه ، فإنى لاأقدم على شىء إلا وهو صواب جائز فى نفس الأمر وإن كان ظاهره غير ذلك ، فقبل موسى شرطه رعاية لأدب المتعلم مع العالم .

(فانطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها) أى فانطلقا يمشيان على الساحل يطلبان سفينة فوجداها ، فعرف أهلها الخضر من بينهم فحملوهم بغير أجر ، حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها حين توسطوا لُجّة البحر ، إذ أخذ الخضر فأسا فخرق لوحا من ألواح السفينة .

(قال أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا ؟) أى قال موسى للخضر : لقد جئت عظيما منكرا ، ثم أخذ موسى ثوبه لحشا به الخرق .

(قال ألم أقل إنك لن تستطيع معى صبرا) أى قال الخضر : ألم أقل لك ياموسى إنك لن تستطيع صبرا معى فيما ترى مما أفعل .

(قال لا تؤاخذنى بما نسيت ولا ترهقنى من أمرى عسرا) أى قال موسى للخضر لاتؤاخذنى بما غفلت عن التسليم لك وترك الإنكار عليك ، ولا تكلفنى مشقة ، ولا تضيق علىّ أمرى ، ولا تُعَسِّر علىّ متابعتك ، بل يسرها بالإغضاء وترك المناقشة .

(فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله) أى فانطلقا بعد نزولهما من السفينة وسلامتهما من الغرق والعطب ، يمشيان على الساحل فأبصر الخضر غلامايلعب مع لِداته وأترابه فقتله ، ولم يبين القرآن كيف قتله : أحزّ رأسه أم ضرب رأسه بالجدار ، أم بطريق آخر ؟ وعلينا ألا نهتم بذلك ، إذ لو علم الله فيه خيرا لنا لذكره .

(قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس ؟) أى قال موسى عليه السلام للخضر : أتقتل نفسا طاهرة من الذنوب بغير قتل نفس محرمة ؟ وخص هذا من بين مبيحات القتل كالكفر بعد الإيمان ، والزنا بعد الإحصان ، لأنه أقرب إلى الوقوع نظرا إلى حال الغلام .

(لقد جئت شيئا نكرا) أى لقد جئت شيئا تنكره العقول وتنفِر منه النفوس .

وأتى هنا بقوله (نكرا) وهناك بقوله (إمرا) لأن قتل الغلام أقبح من خرق السفينة ، لأن هذا لم يكن إهلاكا لنفس ، إذ ربما لايحصل الغرق ، وفى هذا إتلاف النفس قطعا ، فكان أنكر .

وإلى هنا تم تفسير الجزء الخامس عشر فى الليلة السادسة عشرة من شعبان المعظم سنة ثلاث وستين وثلثمائة بعد الألف من الهجرة بمدينة حلوان من أرباض القاهرة .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فهـــرس
أهم المباحث العامة التي في هذا الجزء

الصفحة المبحث

الصفحة المبحث

الصفحة المبحث

